

الجزء الثانى

الحرب النفسية

معركة الكلمة والمعتقد


mohamed khatab

الحرب النفسية

معركة الكلمة والمعتقد

صلاح نصر

الطبعـة الأولى : ١٣ سبتمبر سنة ١٩٦٦
الطبعة الثانية : ١٣ أبريل ســنة ١٩٦٧

دار القاهرة للطباعة والنشر ـ القاهرة

الإهداء

إلى أصحاب العقائد الراسخة النابعة من
الضمير الإنساني وإرادته الحرة


mohamed khatab

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

هـذا هو الجزء الثـانى من كتـاب (الحرب النفسية ـ معركة الكلمة والمعتقـد) أدفع به الى القـارىء ليرى بعـد ما قدمناه فى الجـزء الأول عن « معـركة الكلمـة » صراعات الانسان فى مجال الأفكار والأيديولوجيات المختلفة ، ولهـذا سميناه « معـركة المعتقـد » هادفين الى ان يفهم هـذا الجيل ما يدور حوله من احـداث عالمنـا الذى يعيش عـلى فوهـة البركان ، والى ان يتعرف الضغوط السيكولوجية التى تمارسها قوى الشر للسيطرة على المجتمعات الحرة النامية •

وعنـدما نتحـدث فى هـذا الكتـاب مثلا عن : عمليـة « غسيل المخ » والتحولات المذهبية والعلاج النفسى ، وتكشف عن حقيقـة برامج الاصـلاح الايديولوجى لدى بعض الدول الكبيرة ، ونقف عنـد السـحر وغيره من الوان المعتقـدات الزائفة •• انما نحـاول أن ندفع بشبابنا الى أن يقوض كثيرا من دعائم الرواسب البـالية التى فرضهـا الدخلاء قديما على حضارتنا وقيمنا وثقافتنا لتؤدى الى اخطر مما نراه اليوم من تفكك فى جسم الأمة العربية •

وقد لا يكون الخطر بالغا اليوم ، ولكن من المؤكد ان الدول ذوات المصالح الاستغلالية ترمى الى تحقيق نزواتها اللا انسانية عن طريق « المعتقد » فتدمره ، وتقيم على أنقاضه ما تراه متمشيا مع سياستها الاستعمارية الغاشمة .

لقد أصبحنا اليوم نعانى ما سميناه فى الجزء الأول بالقلق النفسى ، ونريد آن ندرأ عن أنفسنا خطر هذا القلق . وطبيعى لن يكون ذلك الا بمعرفة متاصلة بالصراعات المذهبية وخاصة تلك التى برزت بعد الحرب العالمية الثانية بين معسكرى الشرق والغرب ، وبمعرفة عميقة بالوسائل التى تستغل فى هذا الصراع .

ان الكتاب يناقش هذا الموضوع ، واذا كنا قد تطرقنا فيه الى اشياء قد يراها البعض مقحمة فذلك لأن طبيعة البحث تقتضيه ، فتجارب بافلوف مثلا التى اشرنا اليها فى الباب الأول ، لا تخدم فى مجال علوم الحيوان بقدر ما تخدم فى الحرب النفسية ، كما استغلت نتائجها فى معركة المعتقد على نطاق واسع . وبالمثل : التنويم المغناطيسى ، واستخدام العقاقير ، والتحليل النفسى ، وتعاطى المخدرات والجنس ، فكلها كانت من اسلحة معركة المعتقد ، وكان علينا أن نتعرفها بالتفصيل من أجل الوصول الى طبيعة المعركة التى تشتد علينا كافراد وجماعات .

على أننا يجب ان نفرق بوضوح بين التغييرات التى تحدث تدريجيا فى وجهات النظر والسلوك نتيجة التقدم فى العمر والخبرة ، ونتيجة اعمال العقل والفكر ــ وبين التحول الشامل المفاجىء فى وجهات النظر الذى كثيرا ما يحدث بسبب تاثير

الآخرين ، والذى يؤدى الى التسليم بالمعتقـدات الراسـخة القوية ، وتبنى معتقـدات جديدة غالبا ما تكون مخالفة تماما للمعتقدات الأولى .

واذا كنت قد ابديت فى هذا الكتاب الوانا من الآراء الحرة التى قد يجد فيها أى قارىء مساس بمنطقه الدينى او الأخلاقى ــ بالرغم مما بذلتـه من جهود لتجنب ذلك ــ فانى ابين فى وضوح اننى لم اهـدف بهذه الدراسة الى الاساءة الواضحة أو الخفية لأى معتقدات أو افكار معينة .

ونؤكد ما قلناه فى مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب باننا نؤمن بحرية العقيدة ونحترم اى مذهب او عقيدة ــ ولو كنا نخالفها ــ ما دامت نابعة من الضمير الانسانى وارادته الحرة .

واخيرا نقول ما قلناه فى الجزء الاول : اننا لا نزعم اننـا قدمنا كل شىء عن الحرب النفسية ، ولكننا قدمنا ، ما يمكن ان يكون بداية لأبحاث اخرى تجدى فى معركة البقاء من أجل حياة افضل .

والله ولى التوفيــق ؟

صلاح نصر

القاهرة فى ٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٦٦




الجزء الثانى
معركة المعتقد



الباب الأول

معركة العقل بين الماضي والحاضر

- الفصل الأول
معركة العقل في الأزمنة الغابرة
- الفصل الثاني
اصطلاح جديد .. غسيل المخ
- الفصل الثالث
تجارب على سلوك الإنسان والحيوان





حركة العقل في الأزمنة الغابرة

حاول العلماء والفلاسفة والمفكرون منذ أمد بعيد أن يصلوا الى أعماق النفس البشرية في دراساتهم وأبحاثهم عن الانسان ، ولكن الصعوبة الأساسية التى واجهتهم ـ وظلت قائمة حتى عهد قريب ـ هى أنه لم يكلف احد نفسه مئونة تقرير كنه الطبيعة البشرية على أساس علمى .

لقد قيل فيما مضى ـ صراحة او ضمنا ـ : أن الطبيعة البشرية ثابتة غير متغيرة ، وأنها تدفع الانسان الى أن يسلك طريقا خاصا ، وكان من نتيجة هذا الفرض الذى ثبت عدم صحته فى الوقت الحاضر أن نشات قديما عدم القدرة على تفهم كثير من مشكلات العلوم الاجتماعية .

والواقع أن النظريات عن السلوك الانسانى ـ كما سبق شرحه فى الباب الأول من الجزء الأول ـ كثيرة جدا يتناول كل منها جانبا معينا من حياة الانسان . لكن واحدة منها لا تفى بمفردها بالغرض المنشود . فالانسان مخلوق مركب معقد ، يتأثر سلوكه بكثير من العوامل الظاهرة والخفية ، وهو حيوان يستجيب لدوافع معينة بعضها ينبثق من نفسه وذاته ، وبعضها ينبعث من البيئة التى يعيش فيها .

ومن الأمور المقررة أن السلوك الاجتماعي يحـدث فى اطار من التأثيرات المتداخلة المترابطة الصـادرة من داخل الفرد ، أو من العوامل الخارجية عنه ، وهذا يتطلب عملا ضخما فى الممارسة الفعلية لفرز التأثيرات الاجتماعية وغيرها من التأثيرات الاخرى الصادرة من الاجواء المحيطة لانها ترتبط ببعضها البعض ، وكذلك التأثيرات الصادرة من الفرد نفسه لانها تتأثر ببعضها البعض •

ان كل كائن بشرى يفكر وينفعل ويسلك سلوكا معينا ، ولا يفترق احدنا عن الآخر فى ذلك ، ولكن الطريقة التى تؤدى بها هذه الأفعال هى التى تصنع شخصيتنا وتحدد طبيعتها •

والنـاس يختلفون فى طبيعتهم وتكوينهم : فمنهم اللين الوديع ، ومنهم الصـامت الذى قد يجلس فى أى مجتمع دون أن يشعر بوجوده أحـد ، ومنهم الصلب العنيد الذى قد يسلك احيانا سلوكا جافيا أو شريرا ، كمـا أن منهم الهوائى القلق الذى تستبد به الشكوك فى أى تصرف ينحوه ، وهناك الانسان الحاد الطبع الذى يستثار لأى سبب عادى ، أو البارد الطبع الذى لا يثور لأى سبب من الأسباب •

ولهذه الأنواع المتباينة من البشر جميعها مطالب لعقولها اللاواعية ، وقد لا يحسونها غالبا ، ولكن سواء شعروا بها أم لم يشعروا تكون كامنة فى الأعماق دائما ، ويتم التعبير عنها عن طريق الأفكار والمشاعر التى تظهر فى سلوكهم خلال حياتهم اليومية ، أو فى أحلامهم فى اثناء النوم •

وغالبا ما يثور الصراع والاصطدام فى كل فرد بين هذه الاسـتجابات ، وهنا يعرف الانسان رغباته التى يحققها ، وتلك المكبوتة التى يخفيها حتى عن أقرب الناس اليه •

ولكل انسان مطالب أساسية كثيرة حتى يستطيع البقاء ، فمثلا يجب عليه أن يكيف نفسه طبقا لأحوال بيولوجية معينة ، ولكن ليست البيولوجية هى كل

شيء لدفع عجلة الحيـاة ؛ فالانسـان يحتـاج الى : الحب ، والدفء ، والمأوى ، والجنس ، كما أن الانســان اجتماعي بطبيعته لا يطيق العزلة ، اذ يحس أمانا بوجوده مرتبطا بالمجتمع الذى يعيش فيه ٠

اننا لم نستهل هذا الفصل على هذا النحو الا لنوضح نقطة حيوية هامة لها اثر كبير على دراستنا ، وهي أن الانســان تحــدث له فى حياته ردود فعل نتيجة محاولاته لتحقيق مطالبه الضرورية ، وتتوقف طبيعة هذه الردود على مدى نجاحه فى موازنته بين هذه المطالب الضرورية وبين ردود الفعل من الخوف واليأس والكراهية وغيرها ، وهي الركيزة الاساسية التى يستغلها أولئك الذين يحاولون السيطرة على معتقدات الناس بمحاولتهم استمرار خلقها واثارتها ، وذلك بفرض مؤثرات معينة على مخ الانسان بدرجات تتفاوت مع طبيعته حتى يصل الى درجة الانهيار ، بحيث يتوقف المخ ويصبح مستعدا لتقبل أى ايحاءات تفرض عليه كما سيأتى فيما بعد بالتفصيل ٠

والآن يحسن لنا أن نسأل : هل تعرض الانســان فى حياته الطويلة على الأرض لصراعات عقلية فرضت عليه افكارا ومعتقدات معينة ؟ وهل كانت ارادته كاملة حينما تقبل هذه المعتقدات ؟ وما الأساليب التى استخدمت لفرض هذه المعتقدات ؟

الحقيقة أن الانســان منذ فجر التاريخ ـ على ما تكشف عنه الدراســات المحققة ـ واجه دائما صراعا عقليا كبيرا سواء فى معتقداته الدينية ، أو فى حياته الاجتماعية والسياسية ٠ ولعل فى تحويل الانسان من دين لآخر ، أو فى تغيرات السياسة والقيم الاجتماعية عنده أبرز الأمثلة لما كان يستخدمه الزعماء ، ورجال الدين والاصلاح فى توجيه العقل البشرى ٠

* * *

ففى مصر القديمة كان المصريون يعتقدون فى فكرة الخلود اى العـودة الى الحياة بعد الموت ، وقد ساعد على تثبيت هذه العقيدة ـ التى ظلت مسيطرة على الديانة المصرية آلاف السنين ـ بقاء اجسام الموتى سليمة بصورة تسترعى النظر فى أرض مصر الجافة ٠

لقد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صـورة اخرى مصغرة منه تسمى القرينة ـ الكا ـ كما تسكنه ايضا روح تقيم فيه ٠ وهذه الثلاثة مجتمعة ـ الجسم والقرينة والروح ـ تبقى بعد الموت كما أن فى استطاعتها أن تنجو منه وقتا يطول او يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليما من البلى ، كما اعتقدوا أن الاله اوزير يستطيع أن يبرئهم من جميع الذنوب ، وان يسمح لهم أن يعيشوا مخلدين فى الحدائق السماوية حيث النعيم الأبدى والأمن الدائم ٠

وكان اوزير ـ على حسب اعتقادهم ـ يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الانتقال الى الحقول الفردوسية فى كفة ميزان تقابله فى الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله ، وكان الذين لا ينجحون فى هذا الاختبار يحكم عليهم بان يبقوا ابد الدهر فى قبورهم يحسون الجوع والظما وليس لهم طعام الا من التماسيح البشعة ، ولا يخرجون من هذه القبور ليروا الشمس ٠

واستغل الكهنـة هـذا المعتقد وادعوا أن ثمة طرقا ماهرة لاجتيـاز هذه الاختبارات ، وأن فى قدرتهم تعريف الناس بها نظير اجر يحصلون عليه ٠ فمن هذه الطرق ان يهيا القبر بما يحتاج اليه الميت لغذائه من الطعام والشراب ، أو يملا قبره بالطلاسم التى تحبها الآلهة من : أسماك ، ونسور ، وافاعى ، وجعارين والتى كانت فى رايهم رمزا لبعث الروح ٠ فاذا ما بارك الكاهن هذه الأشياء حسب الطقوس الصحيحة ، فانها تخيف كل معتد ، وتقضى على كل شر ٠

وكان شراء كتاب الموتى[1] يعتبر خير الطرق لاجتياز الاختبارات ٠

والكتاب عبارة عن قراطيس ملفوفة أودع فيهـا الكهنة أدعية وصلوات معينة ، وصيغا وتعاويذ من شأنها ان تهدىء من غضب أوزير ، بل قد تخدعه ٠

ومن الطرق الاخرى ان تعلن الروح براءتها من الذنوب الكبرى في صورة « اعتراف سلبى » ، وهـذا الاعتراف من اقدم ما عبر به الانسـان عن مبادئه الاخلاقية ٠

ويذكر ول ديورانت هذا الاعتراف في قصة الحضارة :

« سلام عليك أيها الاله الاعظم ، رب الصدق والعدالة ، لقد وقفت امامك ، يا رب ، وجىء بي لكي اشاهد ما لديك من جمال ٠٠٠ أحمل اليك الصدق ٠٠٠ انى لم اظلم الناس ٠٠٠ لم اظلم الفقراء ٠٠٠ لم افرض على رجل حر عملا اكثر مما فرضـه هو على نفسـه ٠٠٠ لم اهمل ، ولم أرتكب ما تبغضه الآلهة ٠٠٠ ولم اكن سببا في ان يسيء السيد معاملة عبده ، ولم أمت انسانا من الجوع ، ولم ابك احدا ولم اقتل انسانا ٠٠٠ ولم اخن أحدا ٠٠٠ ولم انقص شيئا من مئونة الهيكل ، ولم اتلف خبز الآلهة ٠٠٠ ولم ارتكب عملا شهوانيا داخل اسـوار المعبد المقدس ٠٠٠ ولم اكفر بالآلهة ٠٠٠ ولم اغش في الميزان ٠٠٠ ولم انتزع اللبن من أفواه الرضع ٠٠٠ ولم اصطد بالشباك طيور الآلهة ٠٠٠ انا طاهر ٠٠٠ انا طاهر ٠٠٠ أنا طاهر » ٠

الا انه من جهة أخرى ، انصرف الكهنة الى بيع الرقى ، وغمغمة العزائم ، واداء المراسم والطقوس السحرية ، ولم يعيروا اهتماما تعليم الناس المبـادىء

---

(١) كتاب الموتى اسم حديث اطلقه لبسيوس على نحو الفى ملف من ورق البردى وجدت في عدة قبور ، وتمتـاز عن غيرها من الأوراق باحتوالها صيغا لارشـاد الموتى ، واسمهـا المصرى هو : الخروج من الموت بالنهار ، ويرجع تاريخها الى عهد الأهرام ، ولكن بعضها اقدم من ذلك ٠

الخلقية ، وكان كل همهم جمع المال والاثراء ، وخاصة من كتاب الموتى ٠٠ الذى يشبه الى حد كبير « صكوك الغفران » التى احتكرتهـا الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى ٠

وكانت الآلهة تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضهـا بعضـا ، وتبـين الاوراق التى تركها المصريون أهمية السحر فى حيـاة المصريين ، فقد جاء بها الكثير عن السحرة الذين يجففون البحـيرات بكلمة ينطقون بهـا ، او يجعلون الاطراف المقطوعة تقفز الى اماكنها ، ويحيون الموتى ٠

وكان للملك سحرة يعينونه ويرشدونه ، وكان الاعتقاد السائد أن له هو نفسه قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء فى النهر ، وكانت الحيـاة المصرية مملوءة بالطلاسم والعزائم ٠ والرجم بالغيب ، وكان لابد لكل باب من اله يخيف الارواح الخبيثة ، او يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم ٠

ونسى الناس فى خضم هذه المعتقدات على مر الزمان ما بين الدين والأخلاق من صلات ، فلم تكن الحياة الصالحة هى السبيل الى السعادة الابدية ، بل كان السبيل اليها هو : السحر ، والطقوس ، واكرام الكهنة ٠

وهكذا انقطعت أسباب التدرج فى نمو المبادىء الاخلاقية التى كان يتميز بها الشرق القديم ، وذلك نتيجة الاساليب البغيضة التى لجأت اليها طائفة قاسية من الكهنة حريصة كل الحرص على التكسب من أهون سبيل ٠

فاذا انتقلنا الى حضارة بابل نجـد أن عقيدة الخلود ـ عكس الحضـارة المصرية ـ لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلى ، ذلك لان دينه كا ندينا أرضيا عمليا ، فاذا صلى لم يكن يطلب فى صلاته ثوابا فى الجنة ، بل كان يطلب متسعا فى الارض ٠

كانت فكرة البابليين عن الحيـاة الآخرة هى : فكرة وجود موتى ـ منهم القديسون والانذال ، وفيهم العباقرة والبلهاء ، وكل هؤلاء يذهبون الى مكان مظلم فى جوف الارض ، ولا يرون الضوء من بعد ذلك ٠

وكانوا يعتقدون في وجود الجنة ، ولكنها اختصت بالآلهة ، اما « ارالو » التي تهبط اليها جميع الناس ، فكانت دارا للعقاب في معظم الاحوال ، تقيد فيها أيدى الموتى وارجلهم أبد الدهر ، وترتجف فيها اجسامهم من البرد يجوعون فيها ويظماون ، الا اذا وضع أبناؤهم لهم الطعام في قبورهم في أوقات معينة ٠

وكانت اكثر اجسام الموتى تدفن في قباب ، ومنها ما كانت تحرق ثم تحفظ بقاياها في قوارير ، ولم تكن الجثث تحنط على غرار ما كان يحدث عند قدماء المصريين ، ولكن كانت تغسل الجثة بواسطة أناس محترفين ، ثم يلبسونها ثيابا حسنة ، ويصبغون خديها ، ويسودون جفونها ، ويلبسونها خواتم في أصبعها ، ويضعون معها بديلا من الملابس الداخلية التي تلبسها ٠

واذا كانت الجثة لامراة وضعت معها قوارير العطور ، والامشاط ، وكحل للعينين ، وذلك لكي تحتفظ بطيب رائحتها وجمال وجهها في الدار الآخرة ٠

وكان الدين عند البابليين يعنى بالمراسم الصحيحة اكثر مما يعنى بالحياة الصالحة ، فاذا اراد الانسان أن يؤدى ما يجب عليه نحو الآلهة ، كان عليه أن يقرب القربان اللائق للهياكل ، ويتلو الصلوات والادعية المناسبة ، اما فيما عدا هذا فقد كان في وسعه أن يفقأ عين عدوه المهزوم ، ويقطع أيدى الاسرى وأرجلهم ، ويشوى ما بقى من اجسامهم وهم احياء ، دون أن يؤذى بذلك آلهة السماء ٠

هذا كله خليط من الافكار ليست كلها منطقية أو متماسكة ، ولكن فيها ما يكفى لحفز البابلى الساذج على ان يقدم لآلهته وقساوسته كفايتهم من الطعام والشراب ٠

على أن الاناشيد والمزامير كانت من مراسم الديانة البابلية ، فكان الكهنة ينشدونها تارة ، والمصلون تارة ، او ينشدونها معا ، وهم يتمايلون ذات الشمال وذات اليمين ٠

ولم تكن الخطيئة عند البابليين مجرد حالة معنوية من حالات النفس ٠ بل كانت كالمرض تنشا من سيطرة شيطان على الجسم فى مقدوره أن يهلكه ، كما كانوا يعتقدون أن الشياطين المعادية للناس تعيش فى شقوق عجيبة وتتسلل الى البيوت من خلال ابوابها ، او من فتحات مزالجها ، وتنقض على فريستها فى صورة مرض أو جان ٠

وكان من المعتقد أنه يمكن اتقاء شر هؤلاء الشياطين الى حد ما باستعمال التمائم والطلاسم وما اليها من الرقى والاحاجى ٠

وقد وجدت في الآثار البابلية كتابات كثيرة محتوية على صيغ سحرية لطرد الشياطين واتقاء أذاها ، والتنبؤ بالغيب ، كما وجدت الواح نقش عليها كتب فى التنجيم وارشادات تهدى الى طريقة قراءتها ، كما عثر على بحوث فى تفسير الاحلام لا تقل براعة وعمقا عن ارقى ما اخرجته بحوث علم النفس الحديث ٠

على أن اغرب المعتقدات التى تستلفت النظر ما كتبه هيرودوت في احدى صفحاته الذائعة الصيت عن العهر المقدس اذ جاء بها ما يلي :

« ينبغي لكل امرأة بابلية أن تجلس فى هيكل الزهرة مرة فى حياتها ، وأن تهب نفسها لرجل غريب ، ومنهن كثيرات يترفعن عن الاختلاط بسائر النساء ، لكبريائهن الناشيء من ثرائهن ، وهؤلاء يأتين فى عربات مقفلة ويجلسن فى الهيكل ، ومن حولهن عدد كبير من الحاشية والخدم ٠

« أما الكثرة الغالبة منهن فيتبعن الطريقة الآتية : تجلس الكثيرات منهن فى هيكل الزهرة وعلى رؤوسهن تيجان من الحبال ، بين الغاديات والرائحات اللاتى لا ينقطع دخولهن وخروجهن ٠ وتخترق جميع النساء ممرات مستقيمة متجهة فى كل الجهات ، ثم يمر فيها الغرباء ليختاروا من النساء من يرتضون ، فاذا جلست امرأة هذه الجلسة كان عليها ألا تعود الى منزلها حتى يلقى احد الغرباء قطعة من الفضة فى حجرها ويتصل بها جنسيا خارج المعبد ، وعلى من يلقى

القطعة الفضية ان يقول : اضرع الى الآلهـة « ميلتـا » أن ترعاك ، ذلك لان الاشوريين(١) يطلقون على الزهرة اسـم ميلتا ، ومهما يكن من صغر القطعة الفضية فان المرأة لا يجوز لها ان ترفضها ، فهذا الرفض يحرمه القانون لما لها في نظرهم من قداسة .

وتسير المرأة وراء اول رجل يلقيها اليها ، وليس من حقهـا أن ترفضه ايا كان . فاذا ما تم الاتصال الجنسي بينهما وتحللت مما عليها من واجب للآلهة ، عادت الى منزلها ، ومهما بذل لها من المال بعدئذ لم يكن في وسعه أن ينالها . فمن كانت منهن ذات جمال وتناسب في الاعضاء ، فانها تعود سراعا الى دارها ، اما المشوهات فيبقين في الهيكل زمنا طويلا ، وذلك لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه عليهن القانون ، ومنهن من ينتظرن ثلاث سنين او أربعا » .

ويعلق ول ديورانت على ذلك بقوله :

« ماذا كان منشأ هذه السنة العجيبة ؟ هل كانت بقية من بقايا الشيوعية الجنسية ، اي رخصة يمنح بها عريس المستقبل « حق الليلة الاولى » للمجمتع الممثل في المواطن العارض غير المعروف ؟ أو هل كان منشؤها خوف العريس من ارتكاب جريمة سفك الدماء التي تحرمها الشرائع ؟ أو هل كان استعدادا ضمنيا للزواج شبيها بالسنة التي لا يزال يسير عليها بعض القبائل في استراليا الى هذه الايام ؟ او انهـا لم تكن أكثر من قربان يقرب للآلهة ـ فتقدم لها باكورة الفاكهة ؟ من يدري ؟ » .

والواقع أنه كان يسمح للبابليين في العـادة بقسط كبير من العـلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولم يكن يضن على الرجال والنساء أن يتصلوا اتصـالا غير مرخص به « بزيجات تجريبية » تنتهي متى شاء احد الطرفين أن ينهيها .

---

(١) كان اليونان يطلقون اسم الآشوريين على الآشوريين والبـابليين على السواء ، وكانت « ميلتا » صورة اخرى من الالهة اشـتار التي كانت دائما ظمأى الى الحب ، ثم تزوجت تموز ابن الاله العظيم اي .

كما كان الشبان يصبغون شعرهم ويقصونه ، ويعطرون أجسامهم ، ويحمرون خدودهم ، ويزينون انفسهم بالعقود والاساور ، والاقراط والقلائد .

ولما فتح الفرس بلادهم وقضوا بذلك على عزتهم النفسية ، تحرروا أيضا من جميع القيود الخلقية ، وسرت عادات العاهرات الى جميع الاوساط . واضحت نساء الاسر الكبيرة يرين أن اظهار محاسنهن أيا كانت ليستمتع بها أعظم استمتاع أكبر عدد مستطاع ليس شيئا أكثر من مجاملة عادية .

وهكذا انهمك اهل بابل فى ملاذهم ، واشباع رغباتهم الجنسية ، ونسوا واجبهم الوطنى حتى فرض عليهم نتيجة ذلك أن يخضعوا : للكاشيين والاشوريين ، والفرس ، واليونان .

* * *

وكان اليونانيون القدامى يستشيرون قراء البخت لاسباب معينة ملحة كلما احتاجوا الى مشورة أو علاج نفسى كما يزور احد فى أيامنا هذه طبيبا من اطباء الامراض النفسية ، وكما يفسر المعالجون من أنصار فرويد أو يونج الاعراض البدنية على أنها صراعات فى العقول اللاواعية مفسرين أحلام مرضاهم الرمزية فى أثناء علاجهم وهم على المسند ، فان القساوسة اليونان يفسرون احلام الزوار المرضى لمعابدهم ويردون الاعراض الهستيرية الى اسباب دينية ، ولم يكن كتاب مدرسة أبوقراط الطبية التى كان مقرها جزيرة سوس اقل نقدا لهؤلاء الاطباء النفسيين من القساوسة ، عن نقد أطباء الاعصاب المحدثين لاصحاب النظريات النفسية فى الوقت الحديث .

فاذا قلد المريض : عنزة ، أو زأر ، أو تشنج بطريقة هستيرية فانهم يقولون ان السبب هو الآلهة .. واذا أرغى وازبد من فمه وركل فان السبب يعزى الى الأبراج السماوية ، واذا كانت الأعراض عبارة عن مخاوف ومفزعات فى الليل وهلوسة وقفز من الفراش واندفاع نحو الابواب فانها توصف بانها هجمات من جانب « آلهة الفجر » أو اغارات أرواح الموتى .

ويبدو ان الاحلام والغيبوبة كانت تحدث عمدا بواسطة الايحاء . ويصف ماركوس ابليمز Marcus Apulims في كتابه The Golden Ass الاحلام التى خبرها في معبد « اس » بعد تحوله الديني الرائع بقوله :

« هل تصدق انه بعد ان ظهرت لى الرؤيا بوقت غير طويل كانت التعليمات الصادرة الى هى ان امر بعملية تعليم ثالثة لاكون عضوا في الطائفة ، فدهشت وأحسست عجزى عن فهم الامر ، لانني كنت قد مررت بطقوس الرسامة مرتين ، فظننت انه من المؤكد ان القساوسة اما انهم قد تخلوا عنى ، واما انهم قد اعطونى تنزيلا مزيفا او انهم حبسوا عنى شيئا آخر ، واعترف أننى بدات اشك فيهم وأعتقد انهم خدعوني . ولكن بينما كنت لا أزال في حيرتى حول المسالة شعرت بانه قد مسنى الجنون تقريبا من جراء القلق حتى عطف على اله لا أعرف اسمه وفسر لى الحالة في حلم من الاحلام .. » .

ومن ثم فان المعالج النفسي الحديث غالبا ما يعانى نفس هذه الصعوبة المبكرة في سبيل الاحتفاظ بايمان مريضه ، وانه لابد من أن يعود باستمرار الى الافكار الاولى عن المرض حتى يحلم المريض في النهاية بالحلم المطلوب منـه أن يحلمه ، ويساق ذلك على أنه دليل ايجابى على أن التشخيص سليم .

ولقد استعمل اليونانيون القـدامى كذلك الرقص الديني كعلاج شاف للامراض العصبية ، وكانت طقوسهم المحمومة تتكون من الرقص بشكل مبالغ فيـه على نغمـات الزار ودقات الطبول حتى ينهـار الراقصـون والراقصـات من الاعياء .

ويلاحظ جورج تومسون أن كثيرين من الكتاب اليونانيين يصفون بالتفصيل الآثار الانفعالية للرسامة الصوفية ، التى كان من المعروف أنها امر طبيعى ، وهى تتكون من : الرعشـة ، والرعدة ، والعرق ، والاضطراب الذهنى ، والوجل ، والفرح الممتزج بالخوف ، والبلبلة .

ومع ذلك ففى لوياديا تولى قساوسة تروفينوس قراءة البخت ، ونظرا لان الزوار لم يتعهدوا بالسرية التامة فلا زالت بعض المعلومات عن الاجراءات المتبعة معروفة كما شرحها بوزانياس حوالى سنة ١٧٤ بعد الميلاد ، وكان قد زار بنفسه قارىء بخت من التروفينوس .

يقول بوزانياس : « ان قارىء البخت ليس برجل بل هـو فتحة واسعة عميقة فى الارض وهى ليست فجوة طبيعية ولكنها مبنية بناية دقيقة وشكلها يشبه اناء لخبز الخبز .

« ولا يوجد ممر يؤدى الى القاع بل يذهب الشخص الى تروفينوس فيجيئونه بسلم خفيف ضيق ، وعندما ينزل يرى ثقبا بين الارض والبناء . وعلى ذلك يلقى بنفسه على ظهره على الارض ويمسك فى يده كعكة من الشعير معجونة بعسل الشهد، ويدفع بساقيه أولا فى الثقب ويندفع بنفسه بعد ذلك محاولا ادخال ركبتيه فى الثقب ، وعندما تمران فان بقية جسـمه يسحب بعدها مبـاشرة ويندفع داخل الثقب مثلما تبتلع دوامة رجلا فى نهر قوى سريع الجريان » .

ويضيف بوزانياس بأن أسلوب التنوير يختلف باختلاف الزوار فقـد تستعمل المثيرات السـمعية مع البعض والبصرية مع البعض الآخر ، ولكنهم يعودون جميعا من نفس الفتحة وأقدامهم فى المقدمة .

ويقال : أنه لم يمت أحد ممن نزلوا الا واحد من حرس ديمتريوس .

وقد جاء وصف ما بعد العلاج كذلك :

« وعنـدما يخرج الشخص من الفتحة يأخـذه القساوسة من يده ثانية ويجلسونه فوق ما يسـمى « بكرسى الذاكرة » الذى لا يبعـد كثيرا عن المذبح وباجلاسه هناك يتلقى الأسئلة منهم عن كل ما شاهد وسمع ، وعندما يخبرهم بذلك يسلمونه الى اصدقائه الذين يحملونه وهو لا زال فاقد القدرة على الحركة من تسلط الخوف عليه ، ولا يدرى شيئا عن نفسه .

وفي قصة تيماراكوس الشاب الملهوف على المعرفة ، نجد انه ذهب الى كهف تروفينوس وأدى جميع الطقوس المطلوبة لكسب الحكمة ، وظل هناك ليلتين لدرجة ان اصدقاءه يئسوا من عودته وحزنوا على فقده ، ولكنه خرج في الصباح التالي بوجه مرح وذكر لهم اشياء عجيبة كثيرة رآها وسمعها .

فبمجرد ان دخل احاطت به ظلمة كثيفة ، وبعـد ان انتهى من صلواته استلقى لمدة طويلة على الارض ولكنه لم يكن متأكدا ما اذا كان في صحوة ام في حلم ، فتصور فقط ان ضربة بارعة هوت فوق رأسـه وان روحه خرجت من بين فتحات في جمجمة راسه .

ومن العسير ان نعرف ما اذا كانت الآثار التي وصفها حينئذ كانت حقيقة ام مجرد هلوسة وخيال .

وعندما نظر الى اعلى لم ير الارض بل راى جزرا تضيء بانوار نيران هادئة كانت تتبادل الالوان طبقا للتباين المختلف في الاضواء ، وهي لا تعد ولا تحصى وهي كبيرة جدا وان كانت ليست متساوية السعة ولكنها كانت مستديرة كلها .. وعندما نظر الى اسفل ظهرت هناك فجوة ضخمة رنت في اذنه منها آلاف الصيحات، وعواء الحيوانات ، وصراخ الاطفال وزمجرة الرجال والنساء وكل اصناف الاصوات المفزعة ، ولكنها كانت خافتة كما لو كانت بعيدة جدا ، وسرت في الفضاء الشاسع وقد اشاع فيه ذلك مزيدا من الخوف .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة تكلم شيء خفي وقال لتيماركوس : ماذا تريد ان تفهم ؟ فاجاب : « كل شيء » .

ثم القى عليه الشيء الخفي عددا من الفقرات عن التبشير الفلسفي عنـدما واتته حالة عقلية مناسبة من الاستعداد :

« لكل نفس نسبة من العقل ولا يستطيع الانسان ان يكون انسانا بدونها ، ولكنه كلما اندمجت كل روح باللحم والشهوة تغيرت وأصبحت غير منطقيـة

بسبب الالام واللاذ • هنـاك اربعة اقسام لجميع الاشياء : أولها قسم الحيـاة والثانى قسم الحركة ، والثالث الولادة ، والرابع الفساد ، ويرتبط الاول بالثانى بوحدة وهى المادة المرئية ، ويرتبط الثانى بالثالث بالفهم والشمس ، ويرتبط الثالث بالرابع بالطبيعة فى القمر » •

وتوحى الاقسام الاربعة هذه بان القساوسة يوحون الى تلاميذه تروفينوس بان الجزء الأكثر نقاء من الروح لا يهبط الى البدن ولكنه يسبح فى أعلاه ويمس ابعد جزء من رأس الانسان ، فهو مثل وتر يشد ويوجه الجزء السفلى من الروح طالما اثبت طاعته ، وطالما ظل غير خاضع لشهوات البدن •

ويستمر الصوت أكثر من ذلك ويتحول تيماركوس كما قال ، ليعرف من الذى يتكلم ، ولكنـه يحس ألما عنيفا فى رأسـه كما لو كان احد قد ضغط على جمجمته وامسك برأسه حتى يفقد كل حس وكل قدرة على الفهم ، ولكنه يفيق بعد برهة قصيرة ويجد نفسه عند مدخل الكهف حيث كان مستلقيا فى البداية •

وقد طبق مثل يونانى آخر انتقل الى الرومان وكان يطبق على أى فرد يتحدث أو يتصرف تصرفا غريبا بشكل يثير الشك فى قواه العقلية : يجب ان يزور انتسيرا ! وقد اتفق الجميع بصفة عامة على اعتبارها اكثر مكان فى العالم يبعث على الامل والرجاء فى الشفاء ، وانتسيرا مدينـة بنيت على شـكل قوس برزخ صخرى نصف قطرها ثلاثة أميـال وتبرز فى خليج كورنثيا بالقرب من جبل بارناسوس ، ويقول ستيفانوس المؤرخ البيزنطى تحت عنوان « Antioyra » بان هرقل كان يعالج هناك من جنون القتل الامر الذى يوحى أن مؤسسة الشفاء كانت مؤسسة قديمة •

ويرجع سترابو المؤرخ سبب شهرة انتسيرا الى تنوع الوان الدواء الناجع لعلاج العته وكان يطلق على هذا الدواء اسم الحشائش الطبية وهى تنمو هناك بصفة خاصة نموا حسنا ، وكانت هذه الحشائش تخلط بوساطة الصيادلة المحليين بحشيش آخر محلى غير شائع هو بذور السمسم ومن شانه أن يجعل تاثيرها اكثر امنا واقوى اثرا •

وكانت هذه الحشائش نوعين فمنها الابيض والاسود ، وطبقا لاقوال البعض فان أنواع الحشائش الطبية السوداء منها والبيضاء كانت تنمو أحسن نمو فى انتسيرا ، وعلى الرغم من أن الحشائش الطبية البيضاء تشبه السوداء تماما باستثناء لون الجذور فان ديوسكوريدس وبوسيناس وبلينى اتفقوا جميعا على ان البيضاء منها تسبب القيء ، والسوداء كانت مطهرا قويا .

ويقول بلينى : ان الحشائش الطبية السوداء كانت توحى برهبة دينية قوية أكثر من البيضاء ، وكانت تجمع باحتفال كبير ، كما أن البذور التى خلطها صيادلة انتسيرا بالحشائش الطبية البيضاء كانت هى الاخرى مطهرا قويا ، ولكن هذه الحشائش الطبية السوداء والبيضاء والبذور التى تتعاطى بعد صيام فى شوربة الفول لم تكن لها القدرة على الشفاء ، اذ يقول بلينى أن الحشائش الطبية البيضاء والسوداء هى حشائش مخدرة ، ومن الواضح أن العلاج كان يتضمن صورة من عقار التفريغ الانفعالى الذى يصاحبه ايحاء قوى ، والخوف الذى ينبعث من المكان المظلم الكئيب وأعراض العقار السام المخيفة مما يزيد الانسان ضعفا وانهاكا ، وفى أثناء الاغماءة غير الطبيعية التى كانت تحدث بعد تعاطى الحشائش الطبية تستعمل القسيسات بدون شك طقوسا غير دنيوية لتساعد على تبديد اعراض المرض .

* * *

وفى الديانة الهندية القديمة كثر بها الكتب التى تشرح أصول التصوف والسحر والعرافة ، والتى تذكر الصيغ السحرية التى تهيىء السبيل لتحقيق أى غاية كانت . ومن ثم كان يعتقد الهندى الساذج فى التنجيم وكان يسلم بأن كل نجمة لها تأثير خاص على الذين يولدون وهى فى أوجها .

وقد جاء فى كتاب « كاوشتياكى — يوباتشاذ » أن سر النجاح المادى هو تقديس الهلال كلما ظهر . وكان العرافون والسحرة والمتنبئون بالغيب يستغلون هذه العقائد فيزعمون أنهم يخمدون الشياطين ويسحرون الثعابين ويتنبئون بالغيب ، كما ادعى السحرة ان فى مقدورهم أن يسلطوا الشياطين على العدو وأن ينزلوا الموت المفاجىء عليه ، أو يلحقوا به علة ليس لها شفاء ، كما زعموا أن فى

قدرتهم تجديد الحيوية الجنسية او خلق الحب فى اى انسان لآخر ، أو تهيئة سبيل الانجاب للعاقرات من النساء . ولم تكن رغبة الهنود فى الاطفال يعادلها أى شئ ، ومن ثم كانت رغبة الهندى شديدة فى القوة الجنسية ، وتقديسه الدينى للرموز التى تشير الى النسل والخصوبة ، فعبادة العلاقة الجنسية التى سادت معظم الاقطار فى مختلف العصور لبثت قائمة فى الهند من العصور القديمة الى القرن العشرين .

وكان « الهها » هو « شيفا » ورمزها هو عضو التذكير ، وكان الهنود تارة يتصورون « شاكتى » ومعناها القوة التى تبعث النشاط بأنها « كالى » زوجة « شيفا » وتارة اخرى يتصورون أن القوة الباعثة « لشيفا » على نشاطه الجنسى هى عنصر نسوى فى طبيعة « شيفا » نفسه .

وبهذا تكون طبيعة شيفا مشتملة على قوتى الذكورة والانوثة معا ، وهاتان القوتان يمثلهما الهنود بأوثان يطلقون عليها اسم « لنجا » او « يونى » ، وهى تصور عضوى التناسل عند الرجل والمرأة .

وتتضح هذه العبادة للعلاقة الجنسية على الآثار القديمة التى تركها الهنود الاقدمون ، ففى معبد « نيالير » مثلا نجد التماثيل الرمزية لاعضاء التناسل . كما نجدها فى أوثان «اللنجا» الهائلة التى تزين او تحيط بمعابد شيفا فى الجنوب .

ومن ثم نجد أن الوسائل التى استخدمت فى الازمنة الغابرة للتأثير على عقول الناس والسيطرة على سلوكهم تكاد تتشابه وأن اختلفت فى الشكل وهى تعتمد على الوسائل الميتافيزيقية والسيكولوجية وعلى الاستجابات الانفعالية التى تحدث للانسان نتيجة استخدام هذه الوسائل .

ولقد رأينا ان نستهل هذا الجزء من الكتاب بشرح تلك الوسائل حتى يستطيع القارئ ان يقارن بينها وبين تلك الوسائل التى استخدمت فيما بعد والتى ستجئ بالتفصيل فى الفصول القادمة ، ونحن نرى أنه ليس هناك ثمة اختلاف بينها سوى أن الاساليب الحديثة طبقت بشكل أكثر شمولا واعتمادا على التجريب .



اصطلاح جديد غسيل المخ

تحدثنا فى الفصل السابق عن الاساليب التى استخدمت فى الازمنة الغابرة للسيطرة على عقول الناس وتوجيهها نحو معتقـدات معينة ، وان اختلفت هذه الاساليب فى الشكل الا أن هدفها وتاثيرها كان واحدا •

وحديثا ومنذ فترة قريبة ظهر تعبير جديد فى قاموس المصطلحات السياسية هو « غسيل المخ » ولا يختلف هـذا عن تلك الاساليب التى استخدمت قديما للسيطرة على معتقدات الناس الا من ناحية الوسيلة والشمول •

وعلى الرغم من ان عملية « غسيل المخ » عرفتها البشرية فى مختلف العصور المتلاحقة ؛ فان الكتابات التى ظهرت فى هذا العصر تحاول أن تلصق هذه العملية ـ أو بمعنى آخر هـذا الاصطلاح ـ بالجهود التى يقوم بها الشيوعيون لاستمالة غير المؤمنين بالشيوعية ، مع أن القليل منهم اشار الى علاقة هذه العملية بعمليات التحويل الدينى ، والسياسى •

ولذا فاننا عندما نحاول ان نتصدى للنقاش الذى لا نهاية له عن موضوع « غسيل المخ » يجب علينا تناوله دون تحيز محاولين أن نصل الى تحليل واقعى لما قد يجابهه الانسان الحر من معارك ضد عقله وارادته لتغيير معتقداته وفكره •

ولقد استخدمت كلمة « غسيل المخ » لاول مرة بواسطة الصحفى الامريكى ادوارد هنتر Edward Hunter (١) فى ترجمته للكلمة الصينية « هسى ناو » Hsi Nao المستخدمة للتعبير عن النظرية الصينية « اصلاح الفكر » أو اعادة التشكيل الايديولوجى فى مجال سزو هسينج كاى تساو Szu Hsiang Kai - Tsao أى برنامج التثقيف السياسى الذى يقوم أساسا على أن كل النـاس الذين لم يثقفوا فى المجتمع الشيوعى لابد أن يكون لديهم اتجـاهات ومعتقدات بورجوازية ، ومن ثم يجب اعـادة تثقيفهم قبل أن يحتلوا مكانهم فى المجتمع الشيوعى •

وقد اقترن اسم البروفيسور ايفان بتروفيتش بافلوف أستاذ علم وظائف الاعضـاء الروسى بعملية « غسيل المخ » ، نتيجة تجـاربه المتقدمة على غرائز الحيوانات وسلوكهـا ، وقد ركز بافلوف فى أبحاثه على « نظام الاشـارات » Signal System وهو ما يقصد به الحس الغريزى الموجه الذى يصل مبـاشرة بين الحواس، وبين العقل . وانتهت المرحلة الحاسمة من أبحاثه بتجارب على الحيوان والانسان لاثبات نظريته « الفعل الشرطى المنعكس » Conditioned Reflex وتعنى القيـام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجيـة ، مثل سيل اللعاب عند رؤية الطعام ، أو عند حدوث أى أثر مقترن بالطعام • كما توصل بافلوف الى أنه بتغيير بيئة الانسـان يمكن تغيير طبيعته الذاتية • والواقع أن ابحاث بافلوف كانت هى المشـاعل التى أنارت الطريق أمام الشيـوعيين للتوسع فى عملية « غسيل المخ » على ما سنرى •

على أن التعريف فى رأينا أبعد من ذلك بكثير ؛ فاننا يمكن أن نطلق كلمة غسيل المخ على أية محاولة تستخدم لتوجيه الفكر الانسانى أو العمل الانسانى ضد رغبة الفرد الحر أو ضد ارادته أو عقله •

---

(١) Edward Hunter, Brain Washing, Farrar, Straus and Cudahy, New York, 1956.

ويستخدم الدكتور ميرلو العـالم النفسى الهولندى كلمة « Menticide » للتعبير عن عملية غسيل المخ ، وهذه الكلمة معناها « قتل العقل » ذلك لان العملية توجد خضوعا لا اراديا ، وتجعل الناس تحت سلطان نظام لا تفكيرى وتكون فى غمرة رق آلى لا حيلة لهم فيه ولا قدرة .

وربما اختلط بنا الامر فنمزج بين عملية غسيل المخ ، وبين عمليات التوجيه الديني والتعليمى والاجتماعى . فمثـلا قد يتساءل الكثير من أصحـاب الحرف التربوية والاجتماعيـة عمـا اذا كانوا يمارســون فى صميم عملهم نوعا من «غسيل المخ» المدرس قد يتساءل عن جوهر عمله التربوى، واطباء العقول يسالون عن حقيقة تدريبهم للمرضى بواسطة العلاج النفسى ، ورجال الدين يسالون أيضا عن طبيعة وسائلهم الاصلاحية . وهنا يتصدى خصوم هذه الاوجه من النشاط لاصحابها فيزعمون بان اعمالهم كلها ليست شيئا آخر غير غسيل المخ .

وطبيعى أن « غسيل المخ » ليس هـذا ، ومعنى ذلك أنه اذا اسـتخدم استخداما مطلقا يجعل المصطلح نقطة تجمع للخوف والامتعاض ، ولتوجيه التهم جزافا دون تقدير لاى مسئولية .

* * *

ومما لا شك فيه ان برنامج غسيل المخ ليس بجـديد تماما ، فلقد عرفت كل امة وفى كل مرحلة من مراحل تاريخها نوعا من فرض المذاهب والعقائد على مواطنيها ، فهى عرفت عمليات « الاستنطاق » وعرفت « الاستقصاء » كما مرت بها عمليات التحويل الجماعى .

ان أسلوب استخلاص الاعترافات كان معروفا فى التحقيقات البابوية التى جرت فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ثم فيما بعد وبخاصة داخل مجالات تحقيق البوليس السرى الروسى أيام القيصرية ، وفى وسائل تنظيم سجون الاصلاح ، ومستشفيات الامراض العقليـة وغيرها من المؤسسات التى أقيمت لإحـداث التغييرات العقائدية عند الافراد ، كما استخدمت أساليبها فى الطوائف الدينية

المختلفة ، وفى جماعات الصفوة السياسية ، وفى المجتمعات البدائية عند تكريس الاعضاء الجدد . ولكن الشيوعيين جاءوا بمنهجهم فى ضوء أكثر شمولا وتنظيما ، كما انهم استخدموا فيه مجموعة من الاساليب الفنية السيكلوجية المترابطة .

ومهما كان الوضع الذى طبق فيه توجيه الفكر الشيوعى فانه يتكون من عنصرين اساسيين :

١ ـ الاعتراف : وذلك بالكشف والتصريح عن كل شر ارتكب فى الماضى والحاضر .

٢ ـ اعادة التعليم والتثقيف : أو بمعنى أدق اعادة تشكيل الفرد فى الطابع الشيوعى الصحيح .

هذان العنصران يترابطان بل يتداخلان معا ، اذ أن كلا منهمـا يبرز على المسرح سلسلة من الضغوط والعوامل الثقافية والعاطفية والبدنية التى تهدف كلها الى السيطرة الاجتماعية ، والى تغيير الفرد .

* * *

وتختلف الاساليب المتبعة فى تقويم الفكر تبعا للظروف ، وتبعا للجماعة التى تكون هدفا للبحث ، ولكن الاصـول الاساسية واحـدة متماثلة فى كل الحالات ، فهى تهدف الى السيطرة على جميع الظروف المحيطة بالحياة الاجتماعية والجسمانية للفرد ، أو للجماعات لاثبات أن الافكار الفردية غير صحيحة ويجب أن تتغير ، كما تهدف الى تنمية الطاعة والاخلاص لعقيدة معينة .

فالسيطرة على بيئة الشخص الاجتماعية تبذل كل محاولة لتحطيم ولائه لاى فرد أو جماعة خارجة ، ويصحب هـذا أن يوضح للشخص أن اتجـاهاته وطوابع تفكيره غير صحيحة ويجب تغييرها ، كمـا يجب أن يعطى ولاءه الكامل لعقيدة معينة ويخضع لها دون تردد .

وعلى سبيل المثـال استخدمت الاسـاليب التالية فى السجون السياسية المختلفة :

١ — عزل الشخص عن الحياة العامة :

وذلك بأن يزج بالفرد فى زنزانة ذات أبواب حديدية وفى داخل أسوار حديدية بعيدا عن كل معارفه القدامى وعن كل مصادر المعلومات وصور الحيـاة العادية ، وهو فى هذه الحالة يصبح نهبا للتمليقات والتحذيرات المفزعة ويغشى عقله غيوم تحجب عنه ما يدور خارج سور زنزانته • ولم يختلف التكنيك الذى يستخدم اليوم عن ذلك الذى استخدم أيام محاكم التفتيش او الذى استخدمه النازيون مع أسراهم فى معسكرات الاعتقال •

لقد كان يترك الاسير لمدة طويلة دون ان توجه اليه اية اتهامات ، ودون السماح بتسرب اية اخبار اليه عن اسرته أو عن العالم الخارجى ، فيشعر الفرد بانه اصبح وحيدا فى هذا العالم ، ولا يوجد بجواره من يستطيع ان يعاونه فى محنته • يشجع على ذلك ان اخلص اصـدقائه وأحبائه عادة لا تواتيهم الجرأة ليسالوا عن مكانه ، او يشيروا الى انهم على معرفة به خشية التعرض للاعتقال والاستجواب ، ومن ثم يتم عزله !

وبعـد فترة من القلق المستمر ، وبتطبيق بعض الاسـاليب الاخرى التى سنذكرها بعد ذلك يبدأ الاستجواب • ومن المحتمل أن يتحطم الانسان تلقائيا وبدرجة ملموسة نتيجة القلق والتفكير الطويل فيمـا يعترف به ، ويصبح فى حالة يأس وتعاسة •

وغالبا ما يناله الضعف والوهن نتيجة هذه الآلام الطويلة وما يصاحبها من ضغط فسيولوجى بحيث يصبح عقله ملبدا بالغيوم ، فلا يستطيع ان يميز اى شىء ويهبط الى قرارة نفسه اى ايحاء يقدم اليه بواسطة الاجبار أو الحيلة •

وهناك وسيلة معروفة استخدمت فى السجون السياسية وهى أن يوحى الى السجين بأن بلاده لم تعد ترفع صوتا واحدا من أجله ، وأن محبيه واصدقاءه تخلوا

عنه ، مما يجعله يشعر بانه أصبح وحيدا تماما فينقاد الى المحاكمة المحزنة مسلوب الارادة تحت أشد الظروف وطأة وعنفا ٠

ويصف ادوارد هنتر ذلك بقوله : « لا يهم أن يكون الرجال الذين قابلتهم قد جاءوا من دولة تابعة فى اوروبا أو من الصين الحمراء ، فقد اخبرهم غاسلو المخ بأن بلادهم وكنيستهم وأصدقاءهم تخلوا عنهم وخانوهم ، وبذلك يداخلهم الشعور بانهم أصبحوا وحيدين » ٠ لقد تشبع ذهن روبرت فوجيلر Robert Vogeler من بودابست بهـذا الانطباع لدرجة أنه حاول تسلق السور والقاء نفسه منتحرا للتخلص من تلك الوحـدة الرهيبة ٠ وقد قيل ذلك أيضـا الى روبرت ٠ ت ٠ بريان Robert. T. Bryan من ولاية جيرسى وهو محـامى امريكى ولد بالصين فى شنغهاى كما قيل نفس الشىء لاسرى الحرب فى كوريا ٠

٢ — الضغط الجسمانى :

وهذا يتفاوت من الحرمان من الطعام ، ومن النوم ، الى التصفيد بالاغلال كعقوبة لعدم التعاون مع المستجوب ، والهدف من هذا كله هو الوصول بالفرد الى درجة من الاعيـاء والانهيار بحيث يكون عقله قابلا لتقبل أى توجيـه من المستجوب ٠

والواقع ان الجوع يلعب دورا أساسيا فى عملية غسيل المخ ، لان الانسان لا يستطيع أن يستمر فى حياته العادية دون احوال بيولوجية معينة ، منها الغذاء اللازم لبناء خلايا الجسم وتجديدها ٠

والتغذية السليمة هنـا ليست بكمية الغذاء الذى تمتلىء به المعدة ، فاننا نعرف أن الجسم يحتاج الى نسـبة معينة من المواد العضوية والفيتامينات التى تمكنه من تأدية وظيفته ،والوجبات الغذائية غير المتوازنة تخلق فى الانسان نوعا من الجوع ، فالعبرة هنا ليست بالبطون المنتفخة ذات البنية الضعيفة والذهن المشتت ، ولكن التغذية الجيدة هى التى تعمل على توازن الوجبـات التى تعطى الجسم طاقته اللازمة ٠

ولقد استخدم التجويع بهذا المعنى كعنصر من عناصر عملية غسيل المخ . اذ كان يعطى للسجين ما يكفيه من أطعمة تمكنه من البقاء على قيد الحياة وليس بالكمية التى يتطلبها الجسم لجعل ذهنه يؤدى وظائفه بدرجة كافية • وكانت الاطعمة التى تقـدم له تعدل بين فترة واخرى لتحقيق الهدف المطلوب ، اذ كانت نسب الطعام توضع تبعا لصفات المقاومة التي يتصف بها الفرد ، فكلما ازدادت مقاومته تعمد المستجوبون تجويعه •

ان الجوع يجعل الانسان يسير نحو حتفه بمحض ارادته ، بل قد يدفعه اذا وصل الى درجة مفزعة الى ان يتخلى عن معتقداته وقيمه ، وخاصة اذا عاون ذلك ظروف مضنية اخرى •

والاجهاد لا يقل تأثيرا على الانســان عن الجوع بل قد يبزه ، اذ ان الجسم يحتاج يوميا لعدد معين من الساعات للراحة والنوم ، وقد يظل بعض الناس فى فترة من الفترات دون نوم لمدة يوم كامل ، وظل الكثيرون على قيد الحياة بقسط لا يذكر من النوم ، الا ان الاستمرار في ذلك من شانه أن يقضى على صفاء الذهن ، ويؤدى باقوى الاشخاص الى الجنون والانتحار ، لان الانسان يصل فى النهاية الى درجة من الانهيار ، وتشويش ملكاته العقلية ، وفقدانه كل احساس •

ويشير الدكتور هنرى •ب• لوجين Henry. P. Laughlin الأستاذ بكلية الطب بجامعة جورج واشنطون في مناقشة لدراسة آكلينيكية لاثر اطالة فترات اليقظة على الانسان بقوله : « ان مثل هذه الحالات تؤدى الى فقدان الاحســاس بالواقع ، وتشويش الملكات العقلية فيصبح الفرد كالحالم فى حالة انفصــال عن العالم • والفرد الذى عاني الحرمان من النوم يصبح آكثر قابلية لتقبل الايحاء واكثر استعدادا لتنفيذ تعليمات الذين يطلبون منه أن يسلك سلوكا معينا ، كما يقل احتمال مقاومته لطلب اى انسان من ذوى السلطة » •

ويستغل المستجوبون فى السجون السياسية هذا كله مهيئين بيئة يصبح فيها النوم شبه مستحيل ، اذ يوقظون الفرد في ساعة غير عادية ، او يجبرونه على

الاستيقاظ كلما نام ، أو يوقظ فى غلظة وخشونة ثم يستجوب لفترة قصيرة ويعاد ثانية لزنزانته • والهدف من هذا كله هو اجهاد المتهم أو الاسير حتى يصل فى النهاية الى درجة من الانهيار تمكن المستجوب من الايحاء اليه بما يريد •

٣ - التهديدات وأعمال العنف :

يتخذ هذا الاسلوب شكلين متناقضين ، فاما أن يكون مباشرا كاستخدام العنف والضرب والركل حتى الموت وربط السجين بشدة الى أسفل بحيث لا يستطيع حراكا ، ثم يوضع حجر ثقيل فوقه ويترك هكذا لمدة طويلة ، الى غير ذلك من الوسائل غير الانسانية •

واما أن يكون التهديد والعنف بشكل غير مباشر ، فمثلا قد يتحدث المستجوب مع السجين بمنطق هادىء بينما يجعله يكتشف عن طريق شخص آخر أن صديقه الذى لم يتعاون قد ضرب أو أعدم •

وكانت لهذه الطريقة وسائل كثيرة فمثلا قد يعامل الفرد معاملة ودية طيبة ، ويتكرم المستجوب فيعطيه لفافة تبغ ، وفى أثناء الحديث يسمع هذا الفرد زميله فى الغرفة المجاورة يصرخ من الالم لرفضه الاجابة عن نفس الاسئلة الموجهة اليه ، أو أن يوضع عدد من الاسرى فى زنزانة واحدة وعندما يعود أحد الزملاء مخضبا بدمائه كقطعة من اللحم أو تعاد ملابسه فى لفافة صغيرة يكون هذا كافيا للآخرين كصورة من التهديد غير المباشر •

ومن الاساليب الوحشية التى تستخدم فى مثل تلك الحالات وضع الفرد فى غرفة على شكل اناء كبير ، ثم يوثق داخل الاناء بحيث لا يستطيع التحرك ، ويصب الماء بعد ذلك ببطء داخل الاناء حتى يصل مستوى الماء الى طرف أنفه • على أن الشخص الذى تقام عليه هذه التجربة وتكرر لفترات طويلة قد تصل الى الشهر لا يستطيع فى كل مرة أن يعرف عند أى مستوى سيصل الماء ، فتاره يقف المستوى عند عقبيه ، وأحيانا يصل الى فمه مما يجعله يصارع بشدة لابقاء رأسه خارج مستوى الماء •

ومن هذه الاساليب نفسها مثل ماخوذ من الحرب العالمية الثانية ، اذ يجرد أسير الحرب من ملابسه ويوضع فى العراء فى طقس درجة حرارته تحت الصفر ، ثم يدلى بقدميه فى حوض كبير ممتلىء بماء سرعان ما يتجمد ٠ أو يوضع الاسير فى أحد الاركان ويستجوب فى أثناء تساقط قطرات من الماء فوق رأسه كل دقيقة ويستمر ذلك لساعات كاملة ٠

٤ — الاذلال والضغوط :

تعتمد هذه الوسيلة على اتباع كل نظم السجن التى تتطلب الخضوع التام مع الاذلال فى أسلوب : تناول الطعام ، والنوم ، والاغتسال ، وما الى هذا طبقا لنظم محددة ، مع عدم القيام باى عمل دون الحصول على اذن من الحارس ، واحناء الرأس ، وابقاء الاعين موجهة الى الارض أثناء التحدث الى الحراس ٠

كما تستخدم الضغوط الاجتماعية مثل الاستجواب لمدد طويلة ، ومثل عقد اجتماعات يحاول فيها الافراد الذين تقدموا فى عمليات التقويم حث الافراد الاقل تقدما باستخدام عدة وسائل مختلفة : كالتملق ، والمداهنة ، والازعاج ، والمضايقة ، او محاولة اذلالهم وسبهم ، وسنوضح ذلك بالتفصيل فى فصول تالية ٠

٥ — الدروس الجماعية :

واستخدمت الدروس الجماعية اليومية فى الصين حيث كانت تدرس العقيدة الجديدة بواسطة قراءات ومحاضرات تتبعها أسئلة ليثبت كل فرد هضمه للدراسات التى يتلقاها ، على أن يتبع هذا بمناقشات يطلب فيها من كل فرد أن يوضح كيف يستنبط الاهداف من مقدمات الدراسات الشيوعية ، وكيف يمكنه تطبيقها هو بالنسبة لنفسه ٠ ويعتبر النقد المتبادل ونقد النفس جزءا هاما من المناقشات التى تجرى بين أفراد الجماعة ٠

وفى هذه الجلسات يمارس موظفو السجن والزملاء فى زنزانات السجن ضغطا مستمرا على السجين لجعله يعيد تقييم ماضيه من وجهة النظر الشيوعية ليتحقق من اثمه ويعترف بجريمته ٠

وتعرف الجرائم فى هذه العملية بانها « افعال » او « افكار » تضر بصورة أو بأخرى بقضية الشيوعية ، كما يتضمن الاعتراف حوادث واقعية فعلا ، ويجب أن يوضح الفرد الاخلاص والوفاء وذلك بالتشهير : بالوالدين ، والاصدقاء ، والاقارب ، والمعارف ٠

وعندما يدرك السجين جرمه واثمه أى عندما يتقبل التفسير الشيوعى لاعماله ويقوم باعتراف مرضى مقبول ويثبت ما يوضح تغيير اتجاهه وتبدل وجهة نظره ، يقدم للمحاكمة فيحكم عليه بعد ادانته بما اعترف به من جرم ، ثم يحكم عليه بجزاء لين نتيجة أنه قد تم تقويمه ، ويستغرق هذا من نصف سنة الى أربع سنوات او أكثر ٠

* * *

وبرغم ما كتب من الكثير عن عملية « غسيل المخ » ، ولا سيما فى الدول الغربية ، وبرغم اهتمام الدول والصحافة الغربية بهذا الموضوع مستندين الى ما جاء به أسرى الحرب فى كوريا وأولئك الذين تعرضوا لتجارب التوجيه سواء من المدنيين الغربيين أو المثقفين الصينيين أثناء وجودهم بالصين ، وكذا المعلومات التى توافرت لديهم عن حملة التطهير الستالينى التى قامت فى الاتحاد السوفييتى قبل الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة ، فان المعلومات التى تجمعت لدينا حتى الآن هى فى الغالب مثيرة للعواطف فى طابعها ، كما أنها ينقصها التاكيد والوضوح لعدم كفايتها ، أو قد تبدو قاتمة مبهمة نتيجة ما يبدو من الانفعالات القوية التى تثيرها عملية غسيل المخ عند كل فرد ٠

والواقع أن حالة الخوف والغموض كانت باعثة على الجدل عند الباحثين أكثر من أن تؤدى الى تفهم العملية نفسها ٠

ولذا فاننا لكي نحاول أن ننظر الى تلك العملية نظرة خالصة وعادلة يجب علينا أن نجيب عن عدة اسئلة هامة قد تنير الطريق امامنا للوصول الى الجذور الاساسية لعملية معركة العقل وغسيل المخ ٠

هذه الاسئلة هي :

ـ هل يمكن اجبار الفرد على أن يغير مذهبه او عقيدته ، واذا حدث ذلك فالى أى مدى يمكن ان يستمر ؟

ـ ما علاقة غسيل المخ بالتحول الديني ، والسياسي ، والاجتماعي ؟

ـ ما طبيعة التحول ، أو بمعنى آخر ما النواحي السيكولوجية وراء تحول الفرد ؟

ـ ما علاقة هذه العملية بغيرها من الحركات الجماعية بناءة كانت أو هدامة ؟

ـ هل هناك علاقة بين الاعترافات والاستنطاقات التي تتبع في هذه العملية ، وبين غيرها مما يتبع في المجتمع الانساني منذ خلقه ؟

ـ هل يصدق الفرد الذى يستجوب اعترافاته التي ادلى بها حتى ولو كانت زائفة غير صحيحة ؟

ـ هل لهذه العملية صلة بالتنويم المغناطيسي ، والعلاج النفسي ، واستخدام العقاقير ، وعلاج طب الامراض العقلية ؟

ـ ما مدى العلاقة بين الاساليب الميتافيزيقية والسيكولوجية ، وعملية غسيل المخ ؟

ـ الى اى مدى كان للأيديولوجيات المختلفة اثر على الصراعات التي قامت بين الناس ؟

- الى اى مـدى تنجح عمليـــة تقـويم الفـــكر واعـــادة التشـــكيل الايديولوجى ؟

- هل يمكن أن تحدث تحولات داخل عقيدة أو مذهب واحد ، وما آثار هذه التحولات عليها ؟

- الى أى مدى كانت تجارب بافلوف على الانســان والحيوان لها اثر على توجيه هذه العملية ؟

- كيف نستطيع أن ندرك ما يماثل هذه العملية فى مجتمعنا وفى ثقافتنا الخاصة ؟

- هل نستطيع ان نقاوم هذه العملية او ما يماثلها ، وما واجب كل فرد منا ازاء ذلك ؟

هذه الأسئلة سنحاول ان نجيب عنها فى فصول هذا الجزء ، ولن كان من العسير أن ندخل فى بعض التفاصيل ، على أننا يجب أن نذكر هنا ان جميع المحاولات التى واجهها الانسان ضد عقله ونفسه تحت ظروف خارجه عن ارادته ما هى الا نوع من عمليات « غسيل المخ » على نحو من الايحاء .

الفصل الثالث

تجارب على سلوك الانسان والحيوان

في احد الايام بعد جهد مضني ولسنين طويلة في حياة شاقة ، استدعى بافلوف الى الكرملين لمقابلة لينين كرئيس دولة ، واستقبل استقبالا حافلا ، وطلب منه لينين فورا أن يشرح له بالتفصيل نتيجة اعماله • وقد ذكر له في اثناء الحديث انه لم يكن شغوفا بأبحاثه الاولى على الجهاز الهضمي ، ولا بدراساته عن الدورة الدموية ، ولكن ما يهتم به هو تجاربه على الكلاب !

واستضاف لينين بافلوف في الكرملين ووفر له كل اسباب الراحة الممكنة ، وطلب منه ان يكتبملخصا وافيا عن كل اعماله المتصلة بالكلاب وسائر الحيوانات الأخرى ، ولكن من ناحية امكان تطبيقها على الآدميين ، وطلب منه أن يكون دقيقا في التفاصيل فيما يختص بالابحاث المتصلة بالجنس البشرى •

وكان بافلوف في حديثه مع لينين يؤكد أن ما توصل اليـه عن الافعال الشرطية والامتناع الوقائى Protective Inhibition نتيجة تجاربه على الحيوانات سوف تكون نعمة للبشرية في يوم ما في كفاحها ضد الآلام الانسانية •

وبعد ثلاثة شهور في عمل متواصل أتم فيها بافلوف كتابة حوالى اربعمائة صفحة بخطه ، قابل لينين وكان قد قرا هذه الابحاث بعناية ، وقال له بحماس كبير : « لقد انقذت الثورة ، وان ما قمت باكتشافه ليضمن مستقبل الشيوعية الدولية » •

لقد كانت لتجارب بافلوف على الانسان والحيوان الركيزة التى اقام عليها الشيوعيون عملية تطويع الارادة الحرة وتسخيرها لارادة الحزب والثورة • ومع أن الاقدمين استخدموا وسائل ميتافيزيقية وسيكولوجية للسيطرة على عقول الناس لتحويل معتقداتهم ، فان الجديد فى نظرية بافلوف انها تعتمد على الوسائل الفسيولوجية أكثر من غيرها •

كان بافلوف عالما روسيا من علماء النظام القيصرى ، ولما جاءت الثورة آمن لينين بقيمة أعماله ايمانا كبيرا جعله يتبناها ويشجعها بالرغم من ان بافلوف كان شديد النقد لنظام الحكم السوفييتى ، ولم يتقبل الحياة فى ظل النظام الجديد الا فى أخريات أيامه ، وبرغم ذلك فقد اعتبره السوفييت بطلا من أبطال الثورة •

وعلى الرغم من أن تجارب بافلوف على الكلاب كانت تعتمد على تعريض الحيوان لتوترات مؤلمة من أجل البحث العلمى ، فانه لم يكن ساديا يستمد اللذة من ايلام الغير • لقد كان اهتمامه بالقضاء على الانهيارات العصبية فى الكلاب مماثلا لخلقها •

وعموما فان أعمال بافلوف تمت بمنتهى الدقة والعناية ، وكان لها فضل كبير على طب الامراض العقلية ، وان تكن هوجمت من كثير من علماء الغرب ونظر اليها من زاوية دورها السياسى على أساس انها استخدمت فى عمليات التبشير المذهبى •

على أننا فى دراستنا لتجارب بافلوف وتطبيقاتها على السلوك الانسانى لن نتعرض لها بالتفصيل من ناحية ميدان طب الامراض العقلية فهناك من هم أكثر دراية منا بذلك ــ فضلا عن أنها ليست موضوع بحثنا ــ ولكننا سنحاول ان نوضح للقارىء فى يسر العامل الفسيولوجى فى هذه التجارب، وكيف كانت نتائج التجارب على الكلاب أساس ما طبق على الانسان فى عمليات التبشير المذهبى •

ولقد سبق أن أشرنا الى أن المرحلة الحاسمة من أبحاث بافلوف على الانسان والحيوان انتهت باثبات نظرية « الفعل الشرطى المنعكس » كذلك نذكر انه توصل الى أنه بتغيير بيئة الانسان يمكن تغيير طبيعته الذاتية •

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والآن لناخذ فى دراسة نتيجة ابحاثه على الحيوان بتفصيل أكثر ، ونقارن بين هذه التجارب ومدى صلاحيتها للتطبيق على السلوك الانسانى •

تعنى كلمة « شرطى » فى تجارب بافلوف القيام بسلوك معين نتيجة لمؤثرات خارجية مثل : سيل اللعاب عنـد رؤية الطعام ، أو ظهور أى اشارة مقترنة به كرنين جرس ، أو ظهور اشارة ضوئية أو صدمة كهربية • اما الفعل غير الشرطى فهو عبارة عن الاثر الغريزى على نحو ما يحدث عندما ترف العين لا اراديا بسبب اصطدامها بجسم غريب ، أو حينما يتبول الانســان اذا ما شعر ان مثانته قد امتلأت وتحتاج الى التفريغ •

ومن ناحية اخرى قد يتسبب الانسان فى احداث فعل شرطى منعكس عمدا وذلك بمحاولة خلق تغيير أساسى فى الطبيعة البشرية لتسلك سلوكا جـديدا بعيدا كل البعد عما اعتادته من قبل •

وعلى هذا الاساس جرت تجارب بافلوف على الكلاب ، وبعد ابحاث امتدت ثلاثين عاما اقتنع بان هنـاك اربعة امزجة اساسية فى كلابه تقترب كثيرا من مثيلاتها فى الانسان • وبرغم انه ميز هذه الانماط المزاجية الأساسية فى كلابه بصفات واسماء معينة ، فهو فى الواقع لم يات بجديد ، اذ سبق ان ورد ذكر هذه الانماط فى مؤلفات الطبيب اليونانى القديم أبو قراط •

فالنوع الاول اطلق عليه بافلوف اســـم « النمط الشـــديد الاثارة » Strong excitatory وهو يقابل ما ســبق ان سماه أبو قراط « المزاج النارى » Choleric ، وقد وجـد بافلوف ان هـذا النوع من الكلاب اذا تعرض لمنبهات معينة فانه يتحول الى درجة كبيرة من الوحشية ، ويحدث له ردود فعل تجعله غير قابل للانقياد بالمرة •

اما النوع الثانى فقد سماه بافلوف « المزاج النشط » Lively وهو يقابل « المزاج الدموى » Sanguine فى مؤلفات أبو قراط ، وهذا النوع من الكلاب يتصف بمزاج أكثر اتزانا من غيره ، ولذا فانه عندما كان يتعرض لمؤثرات خارجية

وتفرض عليه منبهات مشابهة للنوع الاول ، فانه غالبا ما يخضع للسيطرة ، برغم انه في بعض الاحيان كان يعمد لل ان يسلك سلوكا عدوانيا .

اما النوعان الآخران من كلابه فقد اطلق بافلوف عليهما « المزاج الوديع » Imperturable « والمزاج الضعيف المكبوت » Weak inhibitory وهما يقابلان عند ابو قراط « المزاج الهادى او المائى » Phlegmatic « والمزاج الحزين » Malancholic . وقد وجد بافلوف ان هذين النوعين من كلابه كانا يقابلان المنبهات ومواقف الصدام اما بسلبية زائدة ، واما بكبت بدلا من مقابلتها بردود فعل عدوانية كالنوعين السابقين . كما اكتشف ان كلبا من النوع الضعيف المكبوت كان يميل دائما لمواجهة الأمور المثيرة بالسلبية وتفادى المنبه ، لأن اى ضغط كان يعرض على جهازه العصبي كان يسبب له فقد توازنه وتوقف وظائف مخه . ولذا كان هذا النوع من كلابه يعتبر استثناء من قاعدة تجاربه ، لأن الأنماط الثلاثة الأخرى حينما كانت تتعرض لضغط أكثر مما تسببه الوسائل العادية فانها كانت تنتهى الى حالة من حالات « توقف وظائف المخ » Brain Inhibition وقد اعتبر ذلك نتيجة وقائية يلجأ اليها المخ عادة كملاذ اخير اذا ما فاق الضغط قدرته على الاحتمال .

وكان بافلوف ــ بعد تمييزه للأمزجة المختلفة ــ يولى اهتماما متزايدا فى تصنيف كلابه طبقا لأمزجتها الموروثة قبل ان يعرضها لأى تجربة من تجارب التكيف ، ذلك لأن الكلاب حينما كانت تتعرض لتوترات تجريبية أو مواقف صدام متشابهة فان ردود الفعل والاستجابات التى كانت تحدث لها تختلف من كلب لآخر حسب اختلاف أمزجتها ، كما كان علاج كل كلب من الانهيار يتوقف أولا على نوعه الوراثى . فمثلا اثبت بافلوف أن « البروميد » يساعد كثيرا فى استرجاع الاستقرار العصبى للكلاب التى أصيبت بالانهيار ، ولكن الجرعة من البروميد التى يحتاج اليها كلب من النوع الشديد الاستثارة تبلغ من خمسة أضعاف الى ثمانية ما يحتاج اليه كلب من النوع الضعيف المكبوت ، والذى يبلغ وزنه نفس وزن الآخر تماما .

* * *

وفى الحرب العالمية الثانية ثبتت هذه القاعدة بالنسبة للآدميين الذين أصيبوا بانهيار عصبى مؤقت نتيجة المعارك ، أو بسبب التوتر الناجم عن الغارات الجوية ، وقد اختلفت الجرعات التى اعطيت لهم اختلافا كبيرا طبقا لأنماطهم المزاجية ٠

ويقول وليم سارجنت فى ذلك (١) : « لقد وجد دليل اضافى على صلاحية اكتشافات بافلوف عن الكلاب فى تطبيقها على المشكلات السيكولوجية للانسان ، اذ استجاب مرضانا للعلاج استجابة كاملة ٠ لقد وجد بافلوف أن المهدىء الشديد الأثر قيم للغاية فى مساعدة الكلاب التى أصيبت بالانهيار العصبى نتيجة التوترات التى تعرضت لها ، وتفاوتت جرعات المهدئات التى أعطيت للكلاب تبعا لأمزجتها الاربعة الرئيسية ، وقد احتاج الأمر الى جرعات متفاوتة للكلب الشديد الاستثارة والكلب الضعيف الذى يساويه فى الوزن ٠ ووجدنا نفس الشىء فى المرضى الذين اعطوا مهدئا من مهدئات الطوارىء فى خط الجبهة الأمامية حينما كانوا يصابون بالانهيار من التوتر الناشىء عن قصف القنابل ، وقد أمكن تصنيفهم فى نفس الفئات ، وظهر ان كمية المهدىء التى يحتاجون اليها تتفاوت تفاوتا كبيرا ٠

« ولقد لوحظ قيمة مهدىء الطوارىء الذى يعطى فى خط القتال الأمامى فى منع النورستانيا الحادة من التحول الى حالة مزمنة وذلك فى مرحلة مبكرة من الحرب ، الا أن الحاجة الى جرعات مختلفة لم تنل التقدير بصفة عامة حتى ذلك الوقت ، فقد وضعت جرعات متساوية فى أغلب المراكز لكل أنواع الاشخاص الذين يصابون بالانهيار العصبى نتيجة المعارك الجوية ، ولكن بمجرد أن أصبحت اكتشافات بافلوف معروفة ، وبعد أن اعدنا تقدير هذه النقطة قررنا ان الجهاز العصبى للانسان يستجيب للتوترات الشديدة بنفس الطريقة التى تستجيب بها الكلاب » ٠

« والحقيقة انه ظهرت كل الحالات التى اثبتها بافلوف على كلابه فى الانسان خلال الحرب العالمية الثانية ، كما ظهر بشكل واضح توقف وظائف المخ عندما كانت تنهار الحالة انهيارا عصبيا فى النهاية ، ففى عام ١٩٤٢ كشفت الحالات التى

(١) Battle for the mind William Sargant, Richard clay and Company Ltd, 1963.

عرضت فى احد مراكز الأمراض العصبية المخصصة للمرضى المدنيين والعسكريين بالقرب من لندن ان ١٤٤ حالة من كل ١٠٠٠ حالة كانت تعانى من فقدان مؤقت للذاكرة ، وغالبـــا ما كان ذلك رد فعل لتوقف وظائف المخ نتيجة التوترات الشديدة التى لا يستطيع مواجهتها » •

* * *

ولقد أدرك بافلوف تماما فى تحديده للانماط السلوكية الاساسية لكلابه الأهمية الكبيرة للبيئة ، وكذا التكوين الفسيولوجي والعوامل البيولوجية ، كما وجد ان بعض الغرائز الأساسية المعينة مثل غريزة الجنس ، او الحاجة الى الطعام كانت تتعدل باستمرار لتساير التغييرات التى تحدث فى البيئة •

وحينما كان بافلوف يحاول فى أواخر أيامه ان يطبق نتيجة تجاربه فى كلابه تطبيقا تجريبيا على فسيولوجيا الانسان ، اهتم اهتماما متزايدا بما كان يحدث حينما يصاب الجهاز العصبى العالى لكلابه بتوتر يفوق حدود ردود الفعل العادية ، وقارن تلك النتائج بالتقارير الاكلينيكية الخاصة بالحالات المختلفة من حالات الانهيارات العصبية المزمنة فى الانســان ، واكتشف ان التوترات الأشد التى تطول مدتها يمكن تطبيقها على الكلاب العادية من ذوات الطراز النشط أو الوديع دون ان تسبب لها انهيارا عصبيا بعكس الانواع الشديدة الاستثارة او المكبوتة الضعيفة •

* * *

ولقد اكتشف فى احدى تجاربه طريقة لاختبار درجة توقف وظائف المخ وردود الفعل فى اى كلب وفى اى وقت من الاوقات باستخدام طريقة الافعال الشرطية المنعكسة للغدة اللعابية •

ويصف لنا ادوارد هنتر احدى هذه التجارب التى كان قد شاهدها فى فيلم تعليمى بقوله : « والفكرة الرئيسية ظهرت فى منظر يستعرض كلبا مربوطا

فوق منضدة تشبه منضدة العمليات ، وفى حجرة مليئة بالأجهزة الآلية والعدادات الغريبة ، وكان الأمر الذى جذب انتباهى مباشرة عبارة عن اناء زجاجى ادخل فى جانب الفك الأسفل للكلب ، وكان المفروض ألا يسبب هذا اى ألم ، وقد بدا أنه لا يضايق الكلب فعلا • وانشغل الأطباء الذين لا يعرفون الابتسامة بالتجربة ، فامسك احدهم بصمام فى نهاية انبوبة من المطاط وعن طريق العصر حرك ضغط الهواء صينية مستديرة عليها اناء به طعام يستطيع الكلب المربوط ان يصل اليها ، وبمجرد ان حدث ذلك ومض نور فنظر الكلب نظرة جوع الى الطعام الذى يقترب منه ، وبدا لعابه يتساقط فى انبوبة الاختبار المتصلة بفكه فقاموا بعد قطرات اللعاب وسجلوها فى جدول بيانى •

ولم يعرف الكلب فى البداية اى انتباه للضوء ، واحيانا كانت تحضر المنضدة المتحركة بآنية فارغة الى فم الكلب ، ولكن كلما حدث ذلك كانت لا تضاء الأنوار فلا ينساب اللعاب • واستمرت التجربة بطريقة روتينية أى عندما كانت تضاء الأنوار يظهر الطعام ويفرز اللعاب ، وحينما لا تضاء الأنوار يمتنع افراز اللعاب •

وبعد مدة لم يعر الكلب الا القليل من الانتباه للاناء ، فقد ربط بين الضوء والطعام ، وكان الضوء علامة كافية تعودها الكلب • على ان النقطة الهامة فى التجربة كانت قد وصلت حينئذ ، اذ ضغط طبيب فى لباس أبيض على زر فظهر النور ولكن لم تأت المنضدة المستديرة بطعام ومع ذلك انساب لعاب الكلب كالمعتاد ، لأن الضوء حل محل الطعام فى ذهن الكلب •

وبهذه الطريقة أمكن بافلوف خلق فعل شرطى منعكس فى المخ بين لحظة الاشارة ولحظة تقديم الطعام ، كما امكن قياس كمية اللعاب بدقة بواسطة عدد قطراتها وتسجيل أى تغييرات فى ردود الفعل للافعال الشرطية المنعكسة ، وكذا الأنماط السلوكية المفروضة •

على أن تأكيد التوافق بين تجارب بافلوف على الافعال الشرطية المنعكسة وسلوك الانسان اليومى شرحها وليم سارجنت فى كتابه «Battle for the mind»

بقوله : « ان الكثير من السلوك الانسانى ما هو الا نتيجة للانماط السلوكية المشروطة فى المخ ولا سيما فى اثناء الطفولة • وقد تستمر هذه الانماط دون اى تعديل يذكر ، ولكن غالبا ما ينالها بعض التعديل تدريجيا بسبب التغييرات التى تحدث فى البيئة • ولكن كلما تقدم عمر الانسان استعصى عليه احداث ردود فعل جديدة تتفق مع هذه التغييرات ، فالاتجاه حينئذ عادة ما ينمو لجعل البيئة تناسبه أو يناسبها من ناحية ردود الافعال التى تزداد قدرته على التنبؤ بها • ان جزءا كبيرا من حياتنا الانسانية كذلك ليس الا عبارة عن السير دون وعى وراء أنماط من الافعال الشرطية المنعكسة التى سبق اكتسابها عن طريق الدراسة المستفيضة، ومثل واضح لذلك ما يحدث لسائق السيارة من ردود فعل مختلفة قبل أن يستطيع قيادة سيارته فى شارع مزدحم من شوارع المدينة دون ان يلقى انتباها شعوريا للعملية • والاسم الذى يطلق على ذلك هو « القيادة الآلية » فاذا ما خرج السائق الى الريف المنبسط الفسيح فانه يتحول الى نمط جديد من انماط السلوك الآلى • فالعقل البشرى فى الواقع يكيف نفسه دائما وآليا طبقا للتغيير فى البيئة على الرغم من أن الدروس الأولى ـ كما هو الحال فى قيادة السيارة ـ قد تتطلب جهودا صعبة ومملة فى التركيز على القيادة •

وتضطر العقول البشرية وعقول الكلاب الى بناء سلسلة من ردود فعل سلبية وايجابية وانماط سلوكية • ان اغلب رجال الأعمال والقوات المسلحة يتعلمون كيف يسلكون سلوكا سلبيا أو ايجابيا امام رؤسائهم ، وقد يصل الحد الى السلوك الهجومى فى حضور مرؤوسيهم • ولقد بين بافلوف ان الجهاز العصبى فى الكلاب ينمى قدرات خارقة للعادة فى بناء هذه الاستجابات السلبية والايجابية ، كما بين أنه من الممكن جعل الكلب يفرز اللعاب حينما يرتفع صوت نغمة لها خمسمائة ذبذبة فى الدقيقة ، اذا كانت هذه عبارة عن اشارة من اشارات الطعام ، فاذا نقص المعدل الى أربعمائة وتسعين فقط ؛ فان الكلب لا يمكنه ان يتوقع طعاما ومن ثم فانه لا يفرز لعابا » •

وبرغم أنه قد يكون غير صحيح تماما أن نقارن بين سلوك الانسان والحيوان لأن للانسان عقلا وذكاء أكبر وأكثر نموا من الحيوان ، فان تجارب بافلوف على

الكلاب البتت انه يمكن تطبيقها تماما فى بعض المشكلات المعينة من مشكلات السلوك الانسانى بحيث تصبح تلك الملاحظة فى كثير من الأحيان غير ذات موضوع ٠

فلقد هيا سلوك الانسان عندما تعرض فى أثناء الحرب العالميــة الثانية لتوترات وضغوط معينة فرصــا هائلة لوضع نتائج بافلوف التى تثبت هــذا التشابه موضع الاختبار ٠

فمثلا ادخل فى شهر يونيو سنة ١٩٤٤ الكثير من المرضى المصابين بصدمات عصبية نتيجة انفجار القنابل مستشفيات الطوارىء فى انجلترا ، وكان هؤلاء المرضى اما من العسكريين الذين اخلوا من مناطق القتال فى نورماندى ، واما من مدينة لندن المحترقة ٠

ولقد ظهرت على البعض الأعراض العادية للقلق والاكتئاب التى تظهر فى حالات الأمراض العقلية أيام السلم ، كما ظهر على آخرين أعراض اعياء عادية مصحوبة بنقص ملحوظ فى الوزن ، وفى كثـير من الحـالات الأخرى لوحظ ان المرضى يظهر عليهم اهتزازات وتقلصات مفاجئة غير متوافقة ولكنها منتظمة ، وقد تزداد حدة بضعف القدرة على الكلام ، او بالتهتهــة ، او بانفجــار مفاجىء فى الحديث ٠ ولقد برزت بوضوح فى مقارنة سلوك هذه الحالات بسلوك الكلاب فى تجارب بافلوف ــ عندما تتعرض لتوترات تجريبية ــ القيمة الكبرى للأفعال الشرطية المنعكسة فى علاج كثير من حالات طب الأمراض العقلية ٠

ونشر روى سوانك وزملاءه منذ عام ١٩٤٥ سلسلة من البحوث مستندة الى دراستهم على حوالى خمسة آلاف من جرحى المعارك فى حملة نورماندى ، وكان اغلبهم من الامريكيين ، وتشير اكتشافاتهم المفصلة الى الأثر الهائل للخوف من الموت والتعرض للتوتر الدائم على زيادة الاعياء فى أثناء القتال ٠ كمــا يؤكد سوانك أن رد الفعل الاول للقتال هو الخوف ، ولكن الجزء الأكبر من الرجــال استطاعوا السيطرة على مخاوفهم الى حد بعيد ، واكتسبوا معرفة بالقتال واصبحوا واثقين من أنفسهم ومن قدرتهم على خوض المعارك ٠

ولم يحدث الا بعد فترة من القتال الفعال ، والصراع الشديد الذى اختلفت درجته من رجل لآخر ، ان ظهر اول دليل من أدلة الاعياء من القتال • ويقول سوانك فى مقارنته عن توقف وظائف المخ عند الكلاب فى تجارب بافلوف بما لاحظه فى حالات الحرب : » ظهر على الرجال حالة من حالات الاجهاد الشديد لم يستطيعوا التخلص منها الا بعد أيام عديدة من الراحة • لقد فقدوا قدرتهم على تمييز الأصوات المختلفة من أصوات القتال ، واصبحوا عاجزين عن تمييز أصوات مدفعية الاصدقاء من مدفعية الأعداء ، وأصبح من الصعب السيطرة على أى اثارة أو توترات يتعرضون لها • ولذا صار من السهل تخويفهم واشاعة الاضطرابات فيهم ، فقد فقدوا ثقتهم فى أنفسهم ، وازداد توترهم بحيث أصبح من السهل تقبلهم لأى اثارة • وغالبا ما كانت ترتعد فرائصهم ، ويستجيبون أكثر مما يجب لجميع عوامل الاثارة » •

* * *

على أن اكتشافا من أهم اكتشافات بافلوف يهمنا فى هذا البحث وهو ما اطلق عليه « الصراع فى النشاط العصبى العالى » Rapture in higher nervous activity ، وقد وصل هذا الاكتشاف عن طريق مراقبة ما يحدث للأنماط السلوكية الشرطية فى الكلاب حينما يستثار مخ كلب بواسطة توترات أو صراعات تزيد على قدرته على الاستجابة العادية • ولقد استخدم فى تجاربه هذه أربعة أنواع رئيسية من التوترات التى كان يفرضها على كلابه •

كان أولها ببساطة زيادة شدة الاشارة التى اعتادها الكلب وكيف بها نفسه ، فاذا كان التيار الكهربى المسلط على رجله اشارة من اشارات تنادى الطعام فانه يزيد ضغط التيار تدريجيا ، حتى تصبح الصدمة الكهربية أقوى مما يتحمله جهازه العصبى ويبدأ الكلب فى التهاوى والانهيار •

اما الوسيلة الثانية فكانت عبارة عن محاولة لزيادة الوقت بين لحظة اعطاء الاشارة ولحظة وصول الطعام • فاذا كان الكلب قد تعود مثلا أن يتلقى الطعام بعد اعطاء اشارة الانذار بخمس ثوان ، فان بافلوف كان يقوم حينئذ باطالة هذه الفترة بشكل ملحوظ ، وفى الحال يكون القلق والسلوك الشاذ من جانب الكلاب

الأقل استقرارا ، وهذا يحدث أيضا فى الانسان بعـد فترات الانتظار الطويلة المصحوبة بالقلق انتظارا لحدوث شيء ما ، وهذه الفترة قد تكون أشد قسوة لديه من حدوث الأمر نفسه فى النهاية .

أما الوسيلة الثالثة التى استخدمها بافلوف لاحداث الانهيار العصبى ، فكانت مزيجا من عدة وسائل مختلفة ، وذلك باستخدام وسائل شاذة فى اشارات التكيف التى تعطى للكلب ، فمثلا كانت تعطى اشارات سلبية وايجابية مستمرة ومتتالية بحيث يصبح الكلب الجائع غير متأكد مما سوف يحدث له بعد ذلك ، ولا يدرى شيئا عن الكيفية التى سيواجه بها تلك الظروف أو المواقف المضطربة ، ومن شأن ذلك أن يبلبل استقراره العصبى العادى كما يحدث للانسان تماما .

أما فى الوسيلة الرابعة فقد عمد بافلوف لاحداث الانهيار عن طريق تعريض جسم الكلب للاجهاد العنيف المتواصل ، أو لبعض الاضطرابات المعوية ، أو الاخلال بوظائف غدده .

وعلى الرغم من عدم نجاح الوسائل الثلاث الأخرى التى سبق ذكرها فى احداث انهيار عصبى فى كلب معين فانه من الممكن التحكم فيه فيما بعد باستخدام نفس النوع من التوترات بعد ازالة غدده الجنسية ، أو احداث اضطرابات معوية له .

ولقد أثبت بافلوف أن قدرة كلب على مقاومة التوتر الشديد تتذبذب تبعا لحالة جهازه العصبى وصحته بصفة عامة، ولكن بمجرد أن يحدث لمخه «توقف كامل» Transmarginal Inhibition فان تغييرات غريبـة للغـاية تحـدث فى وظائف مخ الكلب .

* * *

ولقد ميز بافلوف فى أثناء تجاربه ثلاث مراحل اضطرارية للتغييرات التى تحدث فى هذه العملية ، فاطلق على الاولى « المرحلة المتعادلة » Equivalent لنشاط اللحاء الخارجى للمخ Cortical ، وهذه المرحلة يعطى فيها المخ نفس الاستجابة لكل من المثيرات القوية والضعيفة .

واذا ما تعرض المخ لتوترات عصبية أشد ، تلى المرحلة المتعادلة مرحلة أخرى تسمى « مرحلة التناقض » Paradoxical حيث تحدث فيها المثيرات الضعيفة استجابات أكثر حيوية من تلك التى تحدثها المثيرات الأكثر شدة ، وفى هذه المرحلة يرفض الكلب الطعام المصحوب بمثير قوى ، ولكنه يتقبله اذا كان المثير على درجة كافية من الضعف • هذه المرحلة المتناقضة يمكن أن تحدث كذلك فى السلوك الانسانى عندما يكون التوتر الانفعالى شديدا ، وفى مثل هذه الظروف نجد أن سلوك الفرد العادى يبدو غير معقول لا بالنسبة لمراقب يراقبه عن بعد بل كذلك بالنسبة للفرد نفسه •

وفى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التوقف التى ســماها بافلوف « المرحلة الشديدة التناقض » Ultra Paradoxical تتحول الاستجابات الايجابية الشرطية فجأة الى استجابات سلبية ، والسلبية منها الى ايجابية • فمثلا قد يلتصق الكلب فى هذه المرحلة بخادم من خدم المعمل كان يكن له الكراهية قبل ذلك ، او يحاول أن يهجم على سيده الذى كان يكن له الحب ، ويصبح سلوك الكلب فى الواقع متناقضا مع جميع حالات سلوكه السابقة •

* * *

والواقع أن الجهاز العصبى للانسان مثل الجهاز العصبى للكلب يكون فى حالة من الاتزان الديناميكى بين الاثارة والتوقف الوقائى ، ولكنه اذا تعرض لاستثارة شديدة فانه يصل الى نفس الحالات من الاثارة الشديدة او التوقف الكامل التى وصفها بافلوف ، فيصبح المخ حينئذ عاجزا مؤقتا عن تأدية وظائفه العادية •

ولقد ذكرت أمثلة عدة لهذه الظاهرة فى كثير من المجلات الطبية ، فقد اندفع مثلا جنود الخطوط الأمامية العاديون بعد تعرضهم لحالة من حالات الاستثارة الشديدة ، واخذوا يجرون عبر الأرض الحرام دون مبرر ، واخــذوا يندفعــون اندفاعا انتحاريا لا جدوى منه فى مدى نيران المدافع الرشاشة ، وقد قيل عن أحد الرجال عام ١٩٤٥ : أنه تقدم مرتين تحت النيران ليساعد زميلا نسف ساقه ، ولكنه كان فى كل مرة يبدو مكبوتا للغاية عند وصوله بدرجة تجعله عاجزا عن

تقديم الاسعافات ، ثم تتغلب عليه حالة من حالات الاثارة الشـــديدة المفاجئة فينطح الشجرة برأسه مرارا ، ويندفع في وحشية طالبا عربة اسعاف ، وعندما وصلت عربة الاسعاف في النهاية أسرع هو في الدخول اليها بكل قوة . وحاول جندي آخر بعد مصرع زميل له مهاجمة دبابة بيده ، وقد تطلب الأمر أن يمنعه زملاءه وأن يرسلوه الى مركز من مراكز علاج الامراض العقلية .

ويبـــدو كذلك أن حالة « الامتنـــاع الوقائي » Protective inhibition التي لاحظها بافلوف على كلابه وهي تحت وطأة التوتر الحاد ظهرت في جرحى الحرب ، وكانت تتملكهم حالة من الاستسلام الهادئ ، أو يصابون بفقد الذاكرة ، أو بعجز يقعدهم عن استعمال أطرافهم ، أو بنوبات من الغيبوبة .. الخ . كما شوهد آخرون في حالة شلل فعلي نتيجة الخوف وتعرض غيرهم للاعياء العصبي Nervous exhaustion ، وعادة يكون هؤلاء من الرجال الذين يتمتعون بشخصية مستقرة ولكنهم حرموا الطعام والنوم لفترات طويلة بالاضـافة الى التـوترات العقلية الأخرى .

وقد وصف ادوارد سبيرز ذلك في أثناء الحرب العالمية الثانية بقوله : « لقد كان ذلك من الاوقات السيئة للغـاية عندما انهـار خندق وهو ممتلئ بالقتـلى والجرحى نتيجة قصفه بالقنابل ، وحينما اخـذ الرجال يحفرون في غضب بالغ لاخراج صديق وسحبوه الى الخارج توقفوا بعـد ذلك عن الحفر ففي مثل هـذه الحالات يستولي على الجنود حالة من حالات الاستسلام ، ويجب على الضابط ان يقضي عليها فورا اذا ما لاحظها بين جنوده » .

* * *

ولقد تضمنت التقارير الاكلينيكية لحالات الحرب تغيـيرات مفاجئة كتلك التي كانت تحدث في كلاب بافلوف من اثارة الى توقف أو العكس ، فلقد استلقى رجل مثلا في خندق وهو يرتعد . وقد سبب له الخوف شبه شلل عندما صدرت الأوامر لفرقته بالهجوم ، ولكن بمجرد أن عيره ضابطه بقوله : « من المؤكد ان تظهر أي فتاة بمظهر افضل من مظهرك هذا » انتابته فجأة ثورة محمومة وصاح « هيا يا رجال » وقفز من الخندق ليقوم بالهجوم ثم انتابته غيبوبة . وفي حالة

أخرى سقط رجل آخر مشلولا فاقد النطق فى أحد شوارع قرية تعرضت لوابل من قذائف المدافع ، ولكن كينما التقطه زملاءه أخذ فجاة فى الصياح والصراخ ٠

ولقد لوحظ كذلك أمثلة مذهلة للسلوك الانسانى فيما يتعلق بالمرحلة التى أطلق عليها بافلوف « المرحلة المتناقضة » ٠ ويصف سارجنت صورة من تلك الحالات التى شاهدها بقوله :

(لقد كنا فى حيرة قبل قراءتنا قصص تجارب بافلوف على الكلاب ، فلم نستطيع فهم حالة كالتى سأسردها ٠ لقد تعرض مريض كان يحظى بشخصية عادية لتوتر شديد للغاية نتيجة انفجارات متواصلة للقنابل ، وحينما طلب منه الطبيب رفع يديه ليرى ما اذا كانتا مصابين بالرعشة اطاع ٠ ولكنه وجد نفسه فجاة عاجزا عن انزالهما ثانية أثناء ملاحظة الطبيب ، وقد أقلق المريض ذلك وقال : أنه يحس أنه يستطيع انزالهما آليا اذا توقف عن محاولة فعل ذلك ٠ أو اذا فكر فى شىء آخر ٠

وقد زالت هذه الحالة بعد العلاج ، ولكن كان لدينا عدد كبير من المرضى الذين يعانون من الخوف الشديد ومن شلل الأطراف ٠ فكان كلما أجهد أحدهم نفسه فى محاولة تحريكها ازداد شللها ، ولكنه كما توقف عن قلقه وتفكيره فى صعوبة اجراء ذلك فانه يكتشف تحسن حالته » ٠

* * *

على أننا نستطيع أن نلاحظ تلك التغيرات المفاجئة التى تحدث فى المراحل المتناقضة والشديدة التناقض ـ والتى بينها بافلوف فى تجاربه على الكلاب ـ فى سلوك الانسان فى زمنى السلم والحرب على السواء ٠ فقد تظهر فجاة مشاعر الجبن فى بعض الناس الذين يتصفون بالسليقة بالسلوك العدوانى ، وقد يحس فجاة بعض اولئك الذين يستمتعون بأعظم قدر من متعة الحيـاة برغبة جامحة فى التخلص منهـا ، أو قد نشاهد انسانا يتحول فجـاة من سلوك سلبى الى عدوانى مفاجىء ٠

وفى تجارب بافلوف وجدنا أن الكلاب كان يحدث لها حالات من الانهيار العصبى نتيجة اطالة وطأة التوترات المفروضة ، وقد لوحظت نفس الظاهرة مرارا

فى المرضى الذين تعرضوا لتوترات تفوق تحمل المخ • ففى أثناء احتراق لندن فى الحرب العالمية الثانية بدأ المدنيون يشكون من أعراض النورستانيا ومن عجزهم عن فهم أسباب ظهور هذه الاضطرابات الشديدة نتيجة انفجار القنابل فى الوقت الذى ظلوا فيه غير عابئين بها لمدة أسابيع أو شهور ، وقد لوحظ فى كثير من هذه الحالات ان المرضى فقدوا ما يتراوح بين خمسة عشر وثلاثين رطلا من أوزانهم قبل أن تصبح حساسيتهم المتزايدة من انفجار القنابل ظاهرة وملحوظة •

وقد ينهار أكثر الأفراد استقرارا بعد فقد ثلاثين رطلا من وزنهم نتيجة النقص فى الاغذية ، أو عدم النوم ، أو نتيجة عوامل أخرى مشابهة كتلك التى يقابلها الجنود وقت الحرب ، وهذه نقطة هامة استغلت فى عمليات الاستجوابات والتبشير المذهبى كما سيجىء شرحها فيما بعد •

وتلقى اكتشافات بافلوف كذلك الضوء على ألوان مختلفة من السلوك الشاذ الذى يلاحظ فى صور عادية من صور مرضى الأعصاب أو الأمراض العقلية ، وقد نشر وليم جوردون مقالا هاما للغاية عام ١٩٤٨ أشار فيه الى ان المخ الناضج يبنى أنظمة للاستجابات السلبية والايجابية المشروطة تمكن الفرد من أن يكيف نفسه لبيئته وفى أغلب الظروف يؤسس سلوكه على خبرته السابقة وتتقرر سلامته العقلية على كفاءته فى هذا التكيف ، ففى حالات الاضطراب العقلى الحاد مثل الفصام العقلى(١) Schizophrenia يلاحظ انقلاب جزئى أو كلى فى التكيف السابق •

ويؤمن جوردون مثل بافلوف بأن الفصام العقلى ينتج من المرحلة الشديدة التناقض فى نشاط المخ ، ويشير الى ان المصابين بالفصام يوصفون غالبا بأنهم قد فقدوا كل اهتمام فى ملاذهم واهتماماتهم السابقة ، وسرعان ما يميلون فجأة الى سلوك مسلك انتحارى مناهض للمجتمع ، ويمكن تفسير هذا التغير أحيانا بأن المريض يستجيب ايجابيا حينئذ لتكيفه السلبى السابق ، ويتكيف سلبيا لتكيفه الايجابى السابق : أى ان حالته تنقلب رأسا على عقب •

---

(١) الفصام مرض عقلى خطير يتميز بالانسحاب من الواقع ، والعزلة ، مع اضطراب فى : التفكير ، والوجدان ، والسلوك ، وظهور اعتقادات خاطئة ، وينتهى فى كثير من الحالات بتدهور فى الشخصية •

ويصف سارجنت مدى الدمار الذى ينتج عن هذا الانقلاب المفاجيء للتكيف فى الاتجاه السلبى أو الايجابى فيقول :

« ان الكائن البشرى ينمي عادات الاكل ويكتسب فيها عددا من عوامل الاثارة منها : الشم ، والابصار ، والسمع ، والتذوق تكيفا ايجابيا قويا ، بينما تكتسب الأخرى تكيفا سلبيا مساويا ، فبعض الروائح مثلا قد تجعل فم الانسان يفرز اللعاب كما هى الحال فى كلاب بافلوف عندما تتوقع تقديم الطعام ، وتسبب الاخرى القرز وفقدانا مؤقتا للشهية ، ولكن المرضى بعقولهم يبدأون فجاة فى تناول الطعام بعد ان كانوا يتقززون منه سابقا ، ويرفضون اطعمة اخرى سبق لهم الاقبال عليها » .

* * *

ويمكننا الآن ان نلخص اكتشافات بافلوف فى النقاط الرئيسية الآتية حتى لا تغيب عن ذهن القــارىء لمحاولة الربط بينها وبين عمليات التبشير السياسي والمذهبى التى ستجيء فى الفصول التالية :

١ ـ عند حدوث توترات معينة أو صدمات فان الكلاب تستجيب تماما مثل الانسان تبعا لاختلاف أمزجتها المختلفة الموروثة التى سبق ان أشرنا اليها .

٢ ـ لا تتوقف ردود فعل الانسان والكلب للتوترات العادية على كيـانه الموروث فقط ، بل كذلك على المؤثرات البيئية التى يتعرض لها ، وهذه المؤثرات تغير تفاصيل سـلوكه فقط ، ولكن لا تغير النمط السلوكى الأساسى .

٣ ـ تنهار الكلاب كالآدميين وذلك حينما تصبح التوترات او الصدمات اكثر مما ينبغى اوبدرجة لاتستطيع اجهزتها العصبية السيطرة عليها.

٤ ـ يختلف مقدار التوتر الذى يستطيع الانســان أو الحيوان السيطرة عليه دون ان يصاب بالانهيار باختلاف حالته البدنية ، كما يمكن

تقليل المقاومة بوسائل اخرى مثل : الاجهاد ، والحمى ، والمخدرات ، والتغيير فى وظائف الغدد ٠

٥ ـ عندما يستثار الجهاز العصبى استثارة شاملة ، ويحـدث له توقف كامل كعامل وقائى فاننا نستطيع ان نميز ثلاث مراحل مختلفة من التغييرات فى السلوك وهذه المراحل هى :

ا ـ المرحلة « المتعادلة » حيث يعطى فيها المخ نفس الاستجـابات لكل من المثيرات القوية والضعيفة ٠

ب ـ مرحلة التناقض وهى التى يستجيب فيها المخ للمثير الضعيف بشكل اكثر ايجابية من المثير القوى ٠

ج ـ مرحلة التناقض الشديد وهى التى تتحول فيها ردود الفعل الشرطيـة والأنماط السـلوكية من الموجب الى السـالب أو بالعكس ٠

* * *

ولقد نجح بافلوف فى تجارب متكررة فى اثبات أنه يمكن تكييف الكلب مثل الانسان على كراهية من كان يحبهم سابقا ، أو حب من كان يمقتهم قبـل ذلك ، وهذا الاكتشاف ذو اهمية كبيرة فى عمليات التبشير المـذهبى ، أو فى عمليات التحول الدينى ٠

واخيرا فان هدف هذا الجزء ليس سرد تفاصيل لتجارب بافلوف ، كما أنه ليس الغرض منه دراسـة للسلوك الانسانى ، اذ أن كلا الموضوعين واسـع ومتشابك ، ولا يهمنا تفاصيله ، ولكننا آثرنا هذه الدراسة لأنها تتعلق بدرجة كبيرة بموضوع تغيير أفكار الناس ومعتقداتهم تغيرا شاملا ، كما أنها استخدمت فى حالات كثيرة من حالات استنطاق الاعترافات والتحويل الايديولوجى ٠

حقا أن بافلوف بدأ آخريات حياته يقارن نتائج الاضطرابات فى وظيفة المخ التى لاحظها فى حيواناته بتلك الاضطرابات التى تلاحظ فى الكائنات البشرية ،

ولكن هذه المرحلة لم تلق العناية الجديرة بها من ناحية دراستها خارج روسيا ، ولا يزال يهملهـــا عدد كبير من علماء الأمراض العصبية في كل من انجلترا والولايات المتحدة ٠

وبرغم أن بافلوف منح جائزة نوبل على أعماله ، فان أغلب علماء الامراض العصبية يفضلون أساسا أوسع مدى لعملهم من مجرد طريقته الفسيولوجية والآلية الميسرة ٠ كما أن العالم الغربي لا يزال ينظر الى ابحاث بافلوف نظرة مقت ، ويرون أن المعتقدات الثقافية تمنح الانسان بالاضافة الى مخه وجهــازه العصبي روحا عقلية مستقلة تساعد على التحكم في سلوكه الاخلاقي ، وتصبغ عليه قيمته الروحية ٠

ومع ذلك فقد أصبح البحث في الأمراض العصبية في بريطانيا أكثر واقعية بكثير منذ الحرب العالمية الثانية لأن العقاقير ووسائل العلاج الفسيولوجي قد انتهت الى نتائج لا يمكن نكرانها في علاج المصابين بأمراض عصبية حادة من المدنيين والعسكريين ، لدرجة أن الوسائل الفسيولوجية المعاونة لطب الامراض العصبية أخذت مكان الصدارة في البحوث ، ولا تزال هذه السياسة مستمرة ٠

وفي الواقع كان استخدام العقاقير في العلاج النفسي هو الذي حتم الدراسة الحالية لأساليب بافلوف التجريبية التي تستهدف تغيير الانماط السلوكية في الحيــوان ، وكذا الأساليب المختلفة وراء الفنون التاريخية للتبشير السياسي ، والتحول الديني ، وغسيل المخ ، وما شابه ذلك ٠

* * *

على أننا قبل أن ننتهي من هذا الفصل نود أن نشير الى حادث عرضي لكلاب بافلوف في اثناء اجراء تجاربه عليها ، ففي عام ١٩٢٤ حدث فيضــان بمدينة لنينجراد وتصادف أن تعرضت الكلاب للوقوع في فخ هذا الفيضان الذي تسرب تحت أبواب المعمل وارتفع تدريجيا ٠ وفي هذا الوقت كانت الكلاب داخل اقفاصها فأخذت تسبح في فزع محاولة أن ترفع رءوسها الى قمة اقفاصها ، وشعر خادم من خدم المعمل بخطورة الموقف فاندفع في اللحظة الأخيرة ودفع الكلاب الى اسفل خلال المياه ، وأخرجها من أبواب الاقفاص الى الأمان ٠

والحق ان هذا الحادث هو الذى كشف لبافلوف النقاب عن الكيفية التى يمكن بها محو ما علق بالمخ محوا تاما ولو مؤقتا من كل الأنماط السلوكية المشروطة التى غرست فيه حديثا • فقد جعلت هذه التجربة المفزعة بعض الكلاب يتحول من حالة الانفعال الحاد الى حالة من حالات التوقف الوقائى الكامل التى سبق ان اشرنا اليها •

وعندما اعاد بافلوف اختباراته على كلابه وجد أن الافعال الشرطية المنعكسة التى غرسها حديثا فى بعض كلابه تلاشت تماما فى هذه الكلاب ، الا ان الكلاب الاخرى التى واجهت نفس المحنة لم تتأثر تأثيرا مشابها ، بل استمرت بها الانماط السلوكية المغروسة •

وقد تتبع بافلوف هذه الظاهرة فى لهفة ، ووجد أنه بالاضافة الى ما وصل اليه من امكانه احداث شذوذ فى انماط سلوك كلابه فى المراحل « المتعادلة » و « المتناقضة » و « الشديدة التناقض » التى سبق ان اشرنا اليها فان هناك درجة أخرى من « النشاط الامتناعى » Inhibitory activity تستطيع ان تقضى على جميع الأفعال الشرطية المنعكسة التى غرست حديثا ومؤقتا فى الكلاب . واستطاعت اغلب الكلاب التى وصلت الى هذه المرحلة من العودة الى انماطها السلوكية القديمة بعد ذلك • وفى احدى التجارب سمح بافلوف ببعض المياه للتسرب تحت باب المعمل فكانت جميع الكلاب ولا سيما التى تلاشت منها انماطها الحديثة شديدة الحساسية لهذا المنظر لدرجة أنه أصبح من السهل التأثير عليها بهذه الوسيلة مرة أخرى •

* * *

ومن ثم فان اكتشافات بافلوف التجريبية على الكلاب أبرزت الأثر الفسيولوجى والميكانيكى الذى يحدث فى الانسان فى عمليات التحول الدينى والسياسى •

ويقول سارجنت فى هذا المجال : « ان تطبيق اكتشافات بافلوف فى الكلاب على ميكانيكية أنواع عديدة من التحول الدينى والسياسى فى الكائنات البشرية

توحي بانه لكي يكون التحويل مؤثرا يجب أن تستثار انفعالات الشخص حتى يصل الى درجة شاذة من درجات : الغضب ، أو الخوف ، أو النشوة ، فاذا أمكن الاحتفاظ بهذه الحالة ، أو أمكن زيادة حدتها بوسيلة أو باخرى ، فقد ينتهى الأمر بالشخص الى حالة من حالات الهستيريا ، وحينئذ يصبح الانسان أكثر استعدادا لتلقى الايحاءات التى قد يتقبلها فى الظروف العادية على الاطلاق ، وقد يحدث بديلا لذلك مرحلة من المراحل : «المتعادلة» أو «المتناقضة» أو «شديدة التناقض»، أو قد يحدث « انهيار امتناعي كامل » Complete inhibitory collapse يقضى على كل المعتقدات السابقة .

هذه الأحداث يمكن أن تكون عاملا مساعدا فى غرس معتقدات وانماط سلوك جديدة وسوف نلاحظ نفس هذه الظاهرة فى كثير من العلاجات الحديثة الناجحه فى مرضى الطب النفسى Psychiatric ، على أنه يمكن احداث جميع مراحل النشاط الذهنى من زيادة الاثارة الى حد الانهاك الانفعالى والانهيار الى الاستسلام الهادىء الصامت : اما بوسائل سيكولوجية ، واما باستخدام العقاقير واما بالعلاج بالصدمات الكهربية ، واما بتخفيض كمية السكر فى دم المريض بحقنة بالانسولين ، كما تاتى بعض النتائج الأفضل فى علاج حالات من أمراض الطب النفسى مثل العصاب(١) Neurosis او الذهان(٢) Psychoses باحداث حالات من حالات « الامتناع الوقائى » وهذا يحدث دائما بالاستمرار فى فرض التوترات الصناعية على المخ حتى يصل الى مرحلة نهائية من مراحل الانهيار الانفعالى المؤقت والاستسلام المؤقت Emotional collapse and stupor ويبدو أنه من المحتمل ان تتبدد بعدها بعض الانماط الشاذة الجديدة كما يحتمل عودة الأصح والأسلم منها أو غرسها فى المخ من جديد » .

---

(١) العصاب مجموعة الأمراض النفسية وتحوى : القلق النفسى ، والهستريا ، والوسواس القهرى ، والاجهاد ، والاكتئاب النفسى .

(٢) من الأمراض العقلية وتحوى عادة امراض الفصام العقل والهوس الاكتئابى وعادة ما يكون المريض بعيدا عن الواقع ، مضطرب الشخصية تحت تاثير اعتقادات خاطئة مع تغير فى المزاج والوجدان .

الباب الثاني

الوسائل والأساليب

- الفصل الأول
أساليب الانقلابات الدينية والتحولات المذهبية
- الفصل الثاني
طبيعة التحول ..



الفصل الأول

أساليب الانقلابات الدينية والتحولات المذهبية

كان الهدف من الفصل السابق ان نبين كيف ان تجارب بافلوف وآثارها على الانسان فى تجارب الحرب العالمية السابقة اثبتت انه يمكن تثبيت او ازالة انماط سلوكية فى الانسان والحيوان نتيجة عوامل فسيولوجية متشابهة ، اذ انه عندما ينهار المخ تحت وطأة توترات شديدة فان السلوك الناجم عن ذلك يتغير سواء كان ذلك فى الانســان أم فى الحيــوان ، ويعتمد ذلك على المزاج الموروث فى الفرد وعلى الأنماط السلوكية التى كونها عن طريق التكيف التدريجى للبيئــة •

وفى هذا الفصل سنحاول أن نبين كيف يمكن غرس انواع مختلفــة من العقائد فى كثير من الناس ، بعد ان تكون وظائف المخ قد اضطربت اضطرابا كافيا نتيجة تعرضه لتوترات خارجية شديدة مثل : الخوف ، والغضب ، أو القلق ، أو الاستثارة سواء أكانت عرضية أم مقصودة •

ولقد سـبق أن أشرنا الى أن أساليب الانقـلاب السياسى والدينى التى استخدمت قديما نظر اليها حتى الآن من زوايا السيكولوجية والميتافيزيقية أكثر مما نظر اليهـا من زوايا الفسيولوجية والميكانيكية ، ولـكن الواقع ان هـذه الأساليب غالبا ما تقترب جدا من الأساليب السياسية الحديثة التى تستخدم فى عمليات غسيل المخ والسيطرة على عقول البشر ، بدرجة انكلا منها يلقى ضوءا على ميكانيكية الأخرى •

ومن ثم فمن الأجدر أن نبدأ بدراسة بعض الأساليب التى استخدمت فى عمليات التحويل الدينى المفاجىء فى الأديان المختلفة التى استطاعت أن تجعل فردا أو جماعة من الأفراد تعتنق عقائد جديدة ، أو أنماطا من السلوك نتيجة لأضواء وأنوار تنبلج فى الذهن فجأة وبشدة هائلة ، وذلك عقب فترة من التوتر الانفعالى الشديد •

وفى الأديان المختلفة التى عرفها الانسان منذ فجر التاريخ ، يبدو أن دعاة العقائد الناجحة لم يستغنوا اطلاقا عن الأسلحة الفسيولوجية فى اضفاء بركاتهم الروحية على أتباعهم • فالصيام وتجويع الجسد والرياضة الروحية القاسية لتطهير النفس وتنقيتها ، واستخدام السحر فى حل الألغاز الرهيبة ، ودق الطبول والرقص والتسبيح بالأناشيد والطقوس الدينية الصارمة ، واستخدام البخور والعقاقير المنومة •• ما هى الا بعض الأساليب المعروفة من تلك الأساليب العديدة التى استخدمها الانسان لتعديل وظائف المخ لأغراض دينية •

أما الزعماء السياسيون فقد عرفوا أيضا الكلمات والأعمال التى يستطيعون بها أن يثيروا الناس ويسيطروا على عقولهم لتحويل معتقداتهم وأنماط سلوكهم غير المرغوب فيها الى معتقدات ووجهات نظر جديدة • وفى كثير من الأحيان ارتبط الانقلاب السياسى بعامل الدين مستغلا سطوته وقوته لتحقيق اطماع سياسية بحتة ، وتغيير معتقدات الناس : السياسية ، والدينية والاجتماعية •

ولذا فقد آثرنا ألا نفصل فى هذا الفصل بين أساليب الانقلابات الدينية وتلك فى التحول السياسى ، لأن أساليبهما تكاد تتشابه مع بعضهما البعض ، وذلك فضلا عن ارتباطهما الوثيق فى كثير من الحالات •

* * *

ففى اقدم المدنيات حدثت فى مصر القديمة تغييرات فى دين قدماء المصريين خلال العصور المختلفة فى تاريخهم الطويل ، حيث ظهرت ، آلهة جديدة ، ومذاهب جديدة ، وعلاقات جديدة بين العابد والمعبود ، كما ظهرت أساليب جديدة فى بناء المعابد وتقريب القرابين وغير ذلك من الطقوس الدينية • الا أن

هنـاك نوعا من التغيرات طرات فجاة على ديانة القوم وتختلف كل الاختـلاف عن سـائرها ، وذلك حينما قام امنحتب الرابع او « اخناتون » حـوالى عـام ١٣٧٥ ق٠م يدعو الى دينه الجديد ، ويصدر الامر الى الناس لتنصرف عن عبادة جميع الآلهة التي يقدسونها ، وان يعبدوا في مناسك فخمة واحتفالات متهللة الها واحدا اعلى هو الشمس في السموات العليا ، وقد ربط الصلة بين هذا الاله وبين الملك والملكة فكانا ولديه وممثليه على الارض ٠

لقد كان « رع » اله الشمس احد الآلهة التي يعبـدها المصريون ، وكان مركز عبادته في عين شمس بالوجه البحري ، وظلت هذه العبادة قرونا لا تحصى من أظهر السمات في الديانة المصرية القديمة خاصة فيما يتصل بالملكية ٠

فكان « رع » بوصفه منظم الفصول ، ومقلب الليل والنهار ملكا في السماء ، ومثالا للملك على الارض ، وكان الملك حينئذ يدعى « ابن رع » ٠

وكان يقال تعليلا لوجود معبود غير اله الشمس في بعض الاحوال كالاله التمساح « سبك » مثلا أنه مظهر خاص من مظاهر رع ، فيضاف اسم رع الى اسمه ٠ وأشهر مثال لذلك هو « آمن » وهو اله محلي كان مغمور الشأن خامل الذكر في طيبة في عهد الدولة القديمة ، ثم علا شانه وكبرت قيمته أيام الاسرة الثانية عشرة ، فاذا هو يسمى « آمن ــ رع » ويصبح له معبد عظيم ، فلما كان عهد الامبراطورية دان القوم « لآمن ــ رع » رب الحاضرة الملكية ، واعتبروه نصير الجيوش الفرعونية وواهبها الظفر والغلبة ٠

ومع أن الاله المشترك « آمن ــ رع » كان رب طيبة والدولة ، فان الرب الذي كان الطبقة المتعلمة تعظمه وتؤثره هو « رع » لا « آمن » ، فالى قرصها كان أولئك يتوجهون بدعواتهم وصـلواتهم ليل نهـار ، فحين تبزغ الشمس تنير الارض ، وحين تجنح في روعة وجـلال الى الغروب تنير من وراء المغرب عالم أوزوريس ــ عالم الاشباح تحت الارض ٠

ولذا فان الطريق كان ممهدا بعض التمهيد عند طبقة معينة من النـاس لهذا الاصلاح الديني العاصف الذي جاء به اخناتون ، برغم أن صلواتهم وتراتيلهم كانت حتى وقتئذ حافلة بالمعاني والالفاظ المأخوذة عن أساطير الاولين •

وحينما تولى اخناتون الملك بعـد وفاة أبيه الملك أمنحتب الثالث ، كان لا يزال في الحادية عشرة من عمره متأثرا الى حد كبير بما كانت توحيه اليه مربيته وأمه ، وكذا ما كان يشاهده في مقاصير الحريم ، لكن يبدو أنه كان فتى باكر النمو فقد اعرض وهو لا يزال يافعا عن جمود التقاليد ، وانبرى يفسر الكون كما يراه متأثرا بظروفه البيئية •

كان اخناتون يعرف أن الشمس معبودة منذ أمد طويل في بيت رع بمدينة عين شمس ، وأن العجل الاسود من مظاهرها البديعة المثال ، ولكنه تجاهل من الاسماء الدينية التقليدية التي كان يطلق عليها عين شمس اسمي «توم وخبر رع» كما تجاهل المدلول الديني والاسطوري « لحورس » وآشو بن رع وشقيق الربة تفنوت •

ومع أنه لم يسبق لفرعون من الفراعنة أن تلقب بلقب كهنوتي فان هـذا الملك الشاب انبرى في خيلاء يجهر بهذا التحدي على رءوس الملأ ورجال الدولة وكهنة آمون • وقد صرف همته كلها الى اتمام بنـاء معبد أو أكثر في طيبة على الصورة التي ابتدعها خاصة لاله الشمس متخذا جانبا على الاقل من بناء شيده والده أمنحتب الثالث لبعض الآلهة الاخرى ، فأبدل اخناتون في الاشكال والاسماء المحفورة على جدرانها • وأصبح آتون اسم الاله الجديد ممثلا على الدوام في صورة قرص الشمس تحت قبة السماء ، وتتدلى من حافته أفعى من نوع الكوبرا ، وهي شارة للملكية كانت دائما رمزا للشمس وما للملك من قوة مهلكة ، ولكن اقترنت في ذلك العهد برمز الحيـاة البهيجة ، ومن هـذا القرص تنبثق اشعة ممتدة كالاذرع ، تنتهي باكف آدمية هابطة من السماء الى الارض تحتضن الملك ، وتضع رمز الحياة على خياشيمه ، وتتقبل القرابين المقدمة على المذبح • ولم يبق من الاسماء الآلهية التي كانت مقترنة قديما باسم الآلهة رع الا اسم واحد •

واستمرت هذه الديانة نحو ثمانية عشر عاما ثم زالت ، اذ عاد الشعور الدينى المصرى القديم الى مجراه المعتاد بعد حركة تمرد على ديانة آتون شاعت فى جميع أنحاء مصر ، وانتهت بذلك حركة التوحيد او التغليب كما يسميها البعض أيام توت عنخ آمون حيث عادت الى مصر ديانتها القديمة وجموع آلهتها الغفيرة •

وقام المصريون القدماء بالانتقام فأزالوا أسماء اخناتون وصوره وصور اسرته من الآثار وعروا مبانيهم الفاخرة وأحالوا تلك الى محاجر • وكان توت عنخ آمون وخليفته « اى » يكنان بعض الاحترام لذكرى الراحل المبتدع ، فلما تولى الملك حور محب أعرض عن كل ذكر لاخناتون وسلالته ، فاذا اقتضى الحال ذكر احد منهم لم يكن يلفظ باسمه وانما كان يشار اليه اشارة الحفيظة والاحتقار فيقولون « مجرم اخيتاتون » •

كانت ديانة اخناتون ترى الشمس أنها من أجدر الكواكب فى السماء بالعبادة ، اذ لا يعتريها التغير فى فلكها الرحيب ، كما أنها معروفة فى جميع الاقطار التى كان للمصريين علم بها ، وهى تصرف الليل والنهار ، وتقلب الصيف والشتاء ، بنورها تستيقظ الخليقة ، وبدفئها تقوم الحياة والنمو ، فالشمس هى الاله المنظور •

ولقد تامل الملك الشاب مطالع الحياة البهيجة ، فانطلق يسبح من أعماق نفسه بالحمد للشمس ويمجدها ، لان بدونها تنعدم الحياة والوجود •

ولا نبغى من هذه القصة سرد أحداث تاريخية ، ولا نقد معتقدات معينة ، وانما هدفنا ان نبرز الظروف والعوامل السيكولوجية والفسيولوجية التى جعلت اخناتون ينقلب فجاة على دين قومه ويخرج بدين ومعتقدات جديدة ، وكذا لنوضح سبب انقلاب الناس ثانية ضد هذه المعتقدات وعودتهم الى آلهتهم القديمة ومعتقداتهم التى ورثوها عن أجدادهم فى تاريخهم الطويل •

لقد كان آباؤه وأجداده الفراعنة يعتمد ملكهم على الوهية فرعون والسطوة والجاه ، واستباحة الاستمتاع بكل ملاذها ومتع الحياة ، فجاء اخناتون يمحو ضلالة العقيدة فى الوهية فرعون ، وليشهد الناس أن فرعون ما هو الا بشر مثلهم رفعه الله مكانة عليا ، وأنه يشعر بما يشعرون ويصبو كما يصبون ، وكثيرا ما كان يشاهده الناس يقبل زوجته وهو يقود عربته ، أو وهو جالس بجوارها يستمتعان بجمال الطبيعة •

وفى هذه السن المبكرة ولا يزال عقله مشبعا باحلام‌الطفولة كان مخه مهيأ لتقبل ايحاءات أمه ومربيته ، وكانت الشمس أقرب الكائنات الى مخه لتبرير عبادتها فمنها تنبعث الحياة •

على أنه يقال : ان الملك الشاب كانت كثيرا ما تنتابه فجأة حالة من الغيبوبة أقرب الى الصرع فينصرف الجميع من حوله الا أمين القصر ، وبعد فترة يصحو فيسلك سلوكا يناقض كل العادات والتقاليد التى تسود القصر •

لقد كان القصر يعج بحريم فرعون ، وفى احدى المرات افاق من غيبوبته وأمر أمين قصره أن يصرف هؤلاء النساء ، ويقدم لهن الرعاية لانه ليس فى حاجة الى هذا الجيش الغفير منهن •

والانسان فى مثل هذه السن يكون مخه مستعدا لتقبل اى ايحاءات خارجية، فاذا ما تقبل هذه الايحاءات واقتنع بها يصبح متحمسا لها بدرجة كبيرة ، ويبدو أن الانفعالات التى كانت تسببهـا تأملات اخناتون احدثت له نوبات الاغماء هذه وكانت معروفة فى هذه الايام باسم « الجنون الملكى » •

ولكن اخناتون لم ينجح فى ازالة معتقدات قومه ، ولا ان يغرس فيهم آراءه الجديدة اللهم الا فى فئة من الانتهازيين والوصوليين كانت مصالحهم مرتبطة به ، وذلك لانه لم يســتطع ان يسبر غور نفوســهم ، فلم تكن تسبيحاته الدينية ولا الطقوس التى ابتدعها أو تمرده على التقاليد كافية لابعاد الناس عن معتقداتهم التى غرست فى عقولهم منذ أمد بعيد •

ولذا لم تنجح دعوته وثار الناس عليها بعد فترة وعادوا الى دينهم ومعتقداتهم القديمة ، وربما يرجع عدم النجاح الى انه لم يستخدم اى عامل من العوامل السيكولوجية او الميتافيزيقية التى كانت معروفة حينئذ لازالة انماط السلوك القديمة وغرس المعتقدات الجديدة .

على أنه من ناحية اخرى استغل كهنة آمن ـ الذين رأوا فى هذا الدين خطورة عليهم ـ هذه العوامل لاثارة الفتن والتمرد حتى نجحوا فى النهاية بالقضاء على اخناتون ودعوته .

فبالاضافة الى المامهم بالاساطير واعمال السحر لعبت « العرافة » دورا كبيرا فى اعطائهم قوة للتاثير على الناس ، وكان هناك انواع كثيرة منها : فمثلا كانت هناك واحدة تسمى « هتفات الآلهة » اى ان تماثيل الآلهة كانت تنطق وتتكلم . وعلى هذا النحو كان تمثال الاله آمن يفصل فى مهام شئون الدولة ويقوم بذلك التمثال الذى كان يقيم فى قدس الاقداس بالمعبد . وعند استشارته كان الكهان يحملونه فى زورقه على أكتافهم ، ثم يقفون ليسأله رئيس الكهان أو فرعون اسئلة هامة خاصة بمصيره ، فيجيب عليها بحركات خاصة ، أو بأصوات وكلمات معينة . وفى واقع الامر كان الكهان هم الذين يجيبون عن الاسئلة من طرف خفى . وهذا ما حدث فى معبد الاله « آمن » فى واحة سيوه عندما زار الاسكندر الاكبر هذا الاله فى معبده . فقد وصف بعض الذين حضروا مع الاسكندر فى هذا المعبد ما حدث امامهم . كان تمثال الاله « آمن » يحمله الكهان على اكتافهم فى زورق من الذهب الخالص . وكانوا يسيرون به فى اى مكان شاء وكان جمع خفير من النسوة والفتيات يرتلن ، وينشدون الاناشيد للاله . وكانت اجابة الاله على الاسئلة يعرفها القوم من مشية الكهان وخطواتهم فهم مسيرون بأمر الاله وحده .

* * *

وفى سيرة بوذا أو الامير سيدهاتا بن الملك سود هوادانا صورة من صور التحول الدينى المفاجىء الذى نجح وامتد أثره الى آفاق بعيدة .

لقد كان هذا الامير يعيش منذ طفولته حياة ترف ونعيم لم يستمتع بهما الا قلة من الناس ، وبرغم هذا النعيم تحول الامير فجأة الى راهب متسول

يحاول أن يبحث عن الحقيقة بعد أن شاهد في أثناء تجواله في المدينة ثلاث صور من شقاء الحياة ، فالصورة الاولى وهي الشيخوخة تمثلت له حينما رأى كهلا رسم الحزن والجهد على وجهه أثر الشقاء ومحنة الايام ، ممددا على الارض دون غطاء في يوم عاصف الريح • أما الصورة الثانية وهي صورة المرض ، فقد رسخت في ذهنه حينما رأى مريضا ملقى على الطريق يتوجع ويئن فأدرك أن هذا الامر يتعرض له كل انسان غنيا ام فقيرا ، حكيما أم صعلوكا • وأما الصورة الثالثة والاخيرة فقد اكدت له حتمية الموت ، اذ شاهد جنازة أحد المتوفين وهو محمول الى مكان حرق جسده ، ومن خلفه تسير امرأته وأولاده يبكون لفراقه •

وأثرت هذه الصورة في نفسية بوذا لدرجة أنها تعتبر نقطة تحول في تفكيره الديني ، فقد قرر منذ هذه اللحظة أنه لابد أن يكون هناك عيب في الحياة لانها تحمل في طياتها : المرض ، والشيخوخة ، والموت •

ومن ثم فقد بدأ يتعمق في بحثه عن حقيقة الحياة ، وأخذ يتساءل عن سر الفناء • لقد عجزت الكتب المقدسة التي قرأها عن تفسير هذا السر له ، ثم أخذ يتساءل من جديد :

« لماذا لا يكون كل الناس في مملكة أبيه سعداء مثله هو وأسرته ؟ » وثار سيدهاتا على تعاليم دينه ، وتعجب لماذا قسم براهاما(١) الناس الى مثل هذا العدد

---

(١) براهاما هو الخالق عند طائفة البراهمية ، وتصفه « اسفار اليوبانشاد » وهي احد الكتب المقدسة عند الهندوس بقولها :

ان جوهر النفس ليس هو الجسم ، ولا العقل ، ولا الذات الفردية ، ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له ، والكامن في دخيلة انفسنا ، واسمه آتمان •

اما جوهر العالم الواحد الشامل الذي لا هو بالذكر ولا بالأنثى اي روح العالم غير الشخص في صفاته والمحتوي على كل شيء والكامن في كل شيء والذي لا تدركه الحواس فاسمه « براهاما » ، وآتمان وبراهاما ما هما الى حقيقة الحقيقة •• روح الأرواح ، وما هما الا اله واحد بعينه ، لأن الروح اللافردية وهي القوة الكائنة في الانسان هي بعينها روح العالم -

الكبير من الطوائف الطبقيــة(١) ، وبدا له أن ذلك ظلم ، وجعله يحس ان كل ما تعلمه فى الكتب المقدسة والتراتيل الدينية غريب باطل .

وفى أحد تأملاته الاولى وهو لا يزال فى قصر أبيه سمع صوت موسيقى وغنــاء ينبعث من داخل القصر ، فزاد ذلك شـــقاءه وتوتره وانفعاله لدرجــة انه اشمأز من أن يكون لرجل واحد كل هذا النعيم بينما هناك الآلاف من التعساء يعانون الفقر والمرض والشقاء » .

وفجاة ترك سيدهاتا قصر أبيه وأخذ يضرب فى الارض متوغلا فى الغابات مرتديا ملابس راهب متسول ، وكان لا يزال فى سن التاسعة والعشرين .

واستمر بعد هذا الحادث سبع سنوات يبحث عن الحكمة والمعرفة . وكانت تعاليم براهاما تقول : لكى تبحث عن المعرفة يجب أن تطهر النفس ، ولتطهير النفس يجب تعذيب الجسد ، فبتعذيب الجسد وتجويعه تتطهر النفس .

ومارس سيدهاتا هذا الاسلوب داخل الغابة ، فظل اياما دون طعام حتى اضمحل جسمه ، وضعفت قواه ، وأصبح جسما بشريا نحيلا لا يستطيع القيام بأى حركة حتى ظنه زملاؤه من الرهبان أنه قد فارق الحياة .

وفجأة انتعش واستعاد قدرته على الكلام فبادر زملاءه بقوله :

« أيها الاخوان منذ هذه اللحظة سأكف عن تجويع نفسي » .

لقد تبين له أن الحكمة والفلسفة اللتين يبحث عنهما لم يكونا خارج نفسه واتضح له أنه لن يستطيع الحصول عليهما : بدراسة الفيدا(٢) ، ولا بتجويع

---

(١) فى عقيدة الهندوس ان براهاما خلق الناس من « مانو » أول البشر على درجـات غير متساوية فمن رأسه جاء افضل الناس وأعظمهم قدسية وهم الكهنة البراهمة ، ومن ذراعه جاء من يلونهم فى الافضلية وهم الملوك والمحاربون ويسمون بالاكشترية . ومن فخذيه جاء ارباب المهن فى العالم بين زراع وتجار وعليهم أن يوفروا مسائل العيش للكهنة والملوك والمحاربين ويسمون الفيشية . اما من قدميه فقد جاء بقية الناس الذين ينتمون الى الطبقات السفلى ، وليس لهم من عمل سوى خدمة الطوائف الثلاث الأخرى فى اخس حاجاتها ويطلق على هذه الطائفة الشوادر او النبوذين .

(٢) اسفار مقدسة عند الهندوس تحدد قوانين دياناتهم وشرائعها وتعاليمها .

نفسه ، ولا بالجلوس على المسامير والحجارة الخشبية أو الزجاج المكسور كما يفعل الآخرون من الرهبان ، بل أصبح يعتقد أنه يمكن أن يجدهما في أعماق نفسه ، وأن كل انسان يستطيع أن يحصل عليهما من داخله وفيها يجب أن يبحث عنهما .

وأخيرا ثار على كتب الفيدا ، وهاجم عبادة الاصنام التى لا تستطيع أن تغير شيئا فى هذا الوجود ، وأعلن لزملائه من الرهبان أن عبادتهم كلها ضلال ، فالصلوات التى يقيمونها لآلهتم العاجزة لا تستطيع أن تغير شيئا من قوانين الطبيعة ، فالماء يجرى دائما من أعلى التل ، والنار ساخنة دائما . وجادل بالمنطق أنه لا يمكن لهذه الآلهة أن تغير مجرى الماء ليصعد فى التل ، أو تجعل النار بردا وسلاما ، ذلك لان فى الحياة قوانين تجعل هذه الاشياء كائنة على ما هى عليه ، فما يتم حدوثه لا يمكن الغاء حدوثه ولو قدمت القرابين لكل أنواع الآلهة .

وأذاع بوذا تعاليم دينه الجديد بعد أن أعلن أن براهاما لم يخلق شيئا ، وأن العالم سيبقى الى الابد ولن ينتهى لان كل ما ليست له بداية ليست له نهاية .

ونادى بأن هناك طريقين يجب أن يبتعد عنهما الانسان ، أحدهما حياة الانغماس فى المتعة وهى حياة أنانية دنيئة ، والاخرى حياة التعذيب وهى ليست جديرة بأن يحياها الانسان ، وعلى المرء أن يسلك طريقا وسطا وذلك باتباع قواعد الحياة الثمانية[1] التى كانت أول تعاليم البوذية ، ولم يمض وقت

---

(١) ◆ الايمان بالحق : وهو الايمان بأن الحقيقة هى الهادى للانسان .
◆ القرار الحق : بأن يكون المرء هادئا دائما لا يفعل أذى بأى مخلوق .
◆ الكلام الحق : بالبعد عن الكذب والنميمة ، وعدم استخدام اللفظ الخشن .
◆ السلوك الحق : بعدم السرقة والقتل وفعل شىء يأسف له المرء فيما بعد أو يخجل .
◆ العمل الحق : بالبعد عن العمل السيىء مثل : التزييف ، وتناول السلع المسروقة ، وعدم اغتصاب ما ليس له .
◆ الجهد الحق : بالسعى دائما الى كل ما هو خير والابتعاد عما هو شر .
◆ التأمل الحق : بالهدوء دائما وعدم الاستسلام للفرح أو الحزن .
◆ التركيز الحق: وهذا لايكون الا باتباع القواعد السابقة، وبلوغ المرء مرحلةالسلام الكامل

طويل عليها حتى كان لبوذا آلاف من الاتباع ، ومضت شهرته متنقلة من مملكة الى مملكة حتى بلغت بلاد الساكى •

وبرغم أن فكرة بوذا عن الدين كانت خلقية خالصة ، تعنى بسلوك الناس ولا يهمه الطقوس وشعائر العبادة وما وراء الطبيعة ، الا أن أتباعه بعد وفاته نسوا هذا كله وراحو يؤلهونه •

وبعد أن كان بوذا يعظ ضد الاصنام ، اقام له أتباعه التماثيل فى كل معبد وجعلوا منه هو نفسه الها معبودا •

ففى هذه القصة نجد أن هناك ردود فعل حدثت لبوذا نتيجة الصراعات العقلية التى اثرت فى نفسه نتيجة مشاهداته فى شرخ شبابه لصور بغيضة فى الحياة من مرض وشيخوخة وموت ، ولقد اثرت هذه الصورة فى نفسيته بدرجة كبيرة ففرضت على مخه توترات ازدادت شدتها حينما لمس التناقض الحاد فى المجتمع الذى يعيش فيه •

فمن حياة الترف والبذخ التى لا توصف والتى كان يعيشها فى قصر أبيه ، صدم بما تقاسيه البشرية من اهوال • ولقد ادى به هذا الصراع النفسى الى نقمته على الحياة غير العادلة ، وعلى الآلهة التى لا تستطيع ان تجد حلا لهذه المشكلات •

وكان نتيجة ذلك كما رأينا أن تحول بوذا من أمير بين يديه كل مسببات الترف والجاه الى راهب متسول يبحث عن حقيقة الحياة • وفى بحثه عن هذه الحقيقة اشتد الصراع على عقله نتيجة محاولته ممارسة طقوس الفيدا من : تجويع النفس ، والرياضة النفسية العنيفة ، حتى وصل الى مرحلة الانهيار التى سبق ان اشرنا اليها ، وفى هذه الحالة لابد أن يكون مخه قد توقف تماما ووصل الى درجة تقبل أى ايحاءات •

هذه الايحاءات كانت فى الواقع قد غرست فى عقله من قبل ، سواء ايام اقامته فى قصر ابيه ، او فى اثناء تجواله كراهب متسول ، ولذا فاننا

نجد بوذا ينتفض فجأة من صومه الطويل ، وينفض يديه من كل تعاليم الكتب المقدسة التى كان يؤمن بها من قبل محاولا أن يبحث عن الحقيقة من داخل نفسه ، منقلبا على آلهته وتعاليمها •

* * *

على أن هناك نوعا آخر من المعارك التى وجهت ضد العقل البشرى عرفها الانسان منذ أقدم المدنيات • وعلى الرغم من اختلاف مظاهرها وأساليبها فان هذه المعارك كانت مهدا لكثير من الجمعيات السرية التى آثرت الظلام فى عملها على النور ، لغاية ظاهرها محاولة الوقوف على أسرار الكون الخفية ، وباطنها دوافع سياسية تنشد ابدال مجتمع بمجتمع أو سلطان بسلطان • ونحن نذكرها هنا لنتبين الاساليب المختلفة التى استخدمتها هذه الجماعات للسيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم الدينية والسياسية •

ففى الحركات الهدامة التى قامت منذ صدر الاسلام تهدف الى هدمه ، أمثلة للاساليب والوسائل المتنوعة التى لجأت اليها تلك الحركات للتأثير على عقول الناس بغرض تحويل معتقداتهم الدينية الى معتقدات جديدة تحقق غاياتها المحددة •

ففى مبادىء الازادمردية[1] ـ وهم شيعة ـ نجد مخططا ثوريا يمعن فى الهدم ويرمى الى سحق تعاليم الاسلام كلها بهدف تحطيم السلطة السياسية التى تقوم على هذه التعاليم • وكان اتباعها يميلون كثيرا الى الاسماعيلية ، وتحولوا الى الباطنية أيام المأمون ، وانتشروا أيام المعتصم متحدين مع البابكية والخرمية وبثوا مبادىء التقويض والهدم واليهم ينتمى أعظم الدعاة الثوريين والمتآمرين • وبرغم ان حركة الباطنية « الشيعة » كانت حتى منتصف القرن

---

(١) الازادمردية هم الأحرار وكانوا من السلالات الحاكمة فى فارس ، واختاروا فى الاسلام مذاهب الشيعة وجذبوا اليها سواد الشعب ممن لا يجرى فى عروقه الدم العربى ودانت بالاسلام مؤثرا مبادىء الشيعة من اسماعيلية وغيرها •

الثالث تضفي على نفسها الصبغة الدينية ولا تعنى بالهدم من المبادىء الا ما ترى انه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية ، فانها تحولت بعد ذلك الى أداة رهيبة لهدم جميع المعتقدات الدينية ، والنظم السياسية، وسحق جميع المبادىء الاجتماعية والاخلاقية اسلامية أو غيرها ، وبلغ من تاثيرها انهـا جذبت اليها « الافشين » قائد عام قوات الخليفة المعتصم فصلبه هذا سنة ٢٢٤ هجرية .

ومن أبرز الذين حملوا معول الهدم على هـذا النحو الشامل هو عبد الله بن ميمون القداح[١] الذى وصفه المؤرخون بانه اعظم هدام وأذكى متآمر عرفه التاريخ . وقد اعتمد دعاته فى نشر دعوته على : تزييف الاحاديث ، ونشر مبادىء الانكار والهدم ، والاباحية بين العامة ، وهم فى الوقت نفسه يظهرون تشيعا لاهل البيت اخفاء لحقيقة مقاصدهم . واستغل دعاته الشعوذة والسيمياء ، وتفرقوا فى الانحاء يدعون كل طائفة بما يناسب عقولها وميولها ، ويظهرون للعامة فى ثوب الورع والزهد .

ولم يبحث ابن ميمون عن أنصـاره الحقيقيين بين الشيعة المخلصين ولكن بين الثنوية[٢] والوثنيين وطلاب الفلسـفة اليونانية . وكان دعـاته الذين تلقنوا أن أول ما يجب عليهم هو اخفاء حقيقة عواطفهم ، والتظاهر باعتناق آراء سامعيهم ـ يظهرون فى أثواب مختلفة ، ويحدثون كل طبقة باللغة التى تروقها ، ويسيطرون على الجميع بأعمـال الشعوذة ، ويثيرون شغفهم بالالغاز والاحاجى الخفية ، ويتحجبون أمام المؤمنين بقنـاع الزهد والفضـيلة ، ويتظاهرون امام الصوفية بأنهم صوفية ، ويكشفون عما خفى من معـانى الغيب أو يشرحون الاساطير ومجازاتها . وقد أسفرت هذه الوسائل التى كانت تهدف الى السيطرة على أذهان المجتمع عن نتيجة رائعة هى اعتناق كثير من الناس المختلفى المذاهب هذا المذهب حيث استغلوا أسوأ استغلال فى تحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل من الدعاة .

---

(١) عبد الله بن ميمون القداح ، ابن فقيه ملحد من جنوبى فارس هو ميمون بن ديصان . وقد زعم انه وقف على الأسرار الروحية والعلوم الخفية وانتشرت دعوته فى جنوبى فارس حوالى ٢٦٠ هـ

(٢) الثنوية مذهب فلسفى دينى يقول : ان كل كائن مركب من عنصرين هما الخير والشر ، او النور والظلام .

وقد وصف المؤرخ دوزى فلسفة ابن ميمون فقال :

« أن يدمج المغلوبين والغالبين فى هيئة واحـدة ، وأن يجمع فى حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين ـ الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لاذلال الشعب ـ وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يجعل من المؤمنين آلة صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدولة التى شادوها ، وأن ينشىء حزبا كبيرا مؤتلفا منظما يرفع فى الوقت المناسب ـ ان لم يكن هو ـ فعلى الاقل أبناؤه الى العرش » .

هكـذا كانت غاية ابن ميمون ، وهى فكرة خبيثة نفـذها بحذق ماهر ، وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة بعقول البشر ، مستخدما تلك الوسائل التى اختطها بخبث ودهاء .

وفى عام ۲۷۸ هجرية قام أحد دعاته ويسمى الفرج بن عثمان القاشـانى ويعرف بذكرويه[١] وأطلق على نفسه اسم قرمط وكون مجتمع القرامطة الذى يقوم على شيوع الملكية والاباحة . وقد بدأ قرمط يجمع من أنصـاره الضريبة العامة بنسب كبيرة ، وانتهى بأن اقنع سوادهم بمزايا الغاء الملكية الفردية ، ونظم لهم فى كل مكان وجدت فيه طائفة منهم مجتمعا شيوعيا ، بل قد تطرف فى هذا الشيوع فقرر شـيوع المراة وغيره من صنوف الاباحة القائمة على اسـتغلال الشهوات والاهواء البشرية .

وقد وصف دى ساسى دعوته معتمدا على بعض المراجع العربية فيما يلى :

« لما نجح قرمط بتنفيذ كل ذلك ووافقه عليـه كل صحبه أمر دعاته ان يجمعوا النساء فى ليلة معينة بحيث يتمكن الرجال من أن يستمتعوا بهن فى اختلاط وشيوع .. وكان يقول : ان ذلك هو الكمال وأقصى درجات الصداقة والاخاء .

---

(١) ان رواية ابن خلدون عن شخص قرمط مضطربة جدا ، ففى مبدا كلامه عن القرامطة يقرر بوضوح ان قرمطا والفرج بن عثمان او ذكرويه شخصان مختلفان بيد انه بعد ذلك يقلبل فى روايته عن محاربة عامر الكبشى للقرامطة يوحى بان ذكرويه هو قرمط غير ان ابن الاثير واضح فى التفريق بين الرجلين .

واحيانا كان الزوج يقدم زوجته بنفسه الى رفاقه متى سرهم ذلك(١) . ولما رأى قرمط انه صار السيد المتسلط على عقولهم ووثق من طاعتهم ، بدأ يسير بهم نحو طريق آخر ، فنشر فيهم مذهب الثنوية واعتنقوا كل تعاليمه بسهولة ، ولم يلبث أن نزع منهم كل دين واحلهم من كل فروض العبادة والتقوى ، وأباح لهم النهب وكل انواع الرذيلة ، وأمرهم أن يتركوا الفرائض ملقنا اياهم انه لا فريضة عليهم ، وأن لهم أن ينهبوا أموال اعدائهم وخصومهم ، وأن يسفكوا دماءهم بلا وازع ولا عقاب ، وأن معرفة رب الحقيقة الذى دعاهم اليه يملأ لديهم فراغ كل شي آخر ، وأن هذه المعرفة تبعد عنهم كل خطيئة وعقاب .

ولقد أذاع بعض القرامطة كتابا نسبوه الى الفرج بن عثمان تضمن المبادىء التى تقوم عليها جماعتهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدى ، وهو أحمد بن محمد بن الحنيفة ، وهو جبريل ، وذكر أن المسيح تصور له جسم انسان وقال له : انك الداعية وأنك الحجة ، وأنك الناقة وانك الدابة وأنك زكريا وانك روح القدس .. والقبلة الى بيت المقدس ، والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء ، والسورة الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه ، المتخذ لأوليائه باوليائه ، قل ان الاهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والايام ، وباطنها اوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى ، اتقونى يا اولى الألباب ، وانا الذى لا أسال عما افعل وانا العليم الحكيم ، وأنا الذى أبلو عبادى وامتحن خلقى ، فمن صبر على بلائى ومحنتي واختبارى القيته في جنتى واخلدته في نعمتى ، ومن زل عن أمرى ، وكذب رسلى اخلدته مهانا في عذابى ، وأتممت اجلى واظهرت امرى على السنة رسلى فأنا الذى لا يتكبر على جبار الا وضعته ، ولا عزيز الا أذللته .. والصوم مشروع يوم المهرجان والنيروز ، والنبيذ حرام ، والخمر حلال .. ولا يؤكل ذو ناب ولا ذو مخلب ومن خالف وحارب وجب قتله ومن لم يحارب اخذت منه الجزية » .

---

(١) اشار ابن الأثير الى واقعة من هذا النوع حيث نسب الى ابى سعيد الجنابى زعيم القرامطة فى البحرين انه قدم زوجته الى يحيى ابن ذكرويه ليستمتع بها .

وسرعان ما تحول القرامطة بعد هذا التحول الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء ، لا عمل لها الا قتل خصومهم وسلب اموالهم واعراضهم ونشر الرعب والدمار بين ربوع البلاد • وعلى الرغم من ان فكرة ابن ميمون كانت لا ترتكز على العنف الظاهر فان تعاليمه السرية كانت تهدف الى هدم كل المعتقدات الدينية من اساسها تدريجيا والى خلق حالة من الفوضى الفكرية الا للادية ، لانه كان يعتقد ان العنف دائما يستثير العنف • ولكن القرامطة عجلوا بانفجار قبل أوانه مما جعلهم يفقدون كثيرا من أنصارهم • وليس من المبالغة أن نقول : أن انفجار القرامطة كان من أهم الاسباب التى مهدت الى سقوط الدولة العباسية •

* * *

وهناك حركة اخرى مشابهة من حركات الباطنية او الاسماعيلية[1] لعبت دورا كبيرا فى التأثير على عقول البشر بطريقة مثيرة ، هى حركة الحشاشين وقد حشدت هذه الطائفة جموع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق اغراض سياسية ، واعتمدت فى محاربة خصومها على الاغتيال الخفى المنظم ، باكثر مما اعتمدت على الحروب العلنية •

وكان الذى نظم هذه الحركة ووضع برنامجها الفذ هو الحسن ابن على المعروف بالصباح • وقد اشار فون هامار الذى يعتبر الحسن الصباح عبقرية كبيرة الى برنامجه التنفيذى فى هذه العبارة « ان الآراء ضعيفة قاصرة اذا ما وقفت عند اجهاد المخ دون تسليح اليد فلم يظفر التشكك والتفكير الحر بسحق عرش من العروش حينما اكتفيا بالاضطرام فى عقول الكسالى والفلاسفة ، بيد أن التعصب الدينى والسياسى هما أنفذ أسلحة فى يد الامم لسحق العروش • ان ذا الاطماع لا يعنى بما يعتقد الناس ، ولكنه يعنى كل العناية بمعرفة الوسيلة التى يستطيع بها أن يستعملهم فى تنفيذ مآربه » •

---

(١) يطلق الاسماعيلية على انفسهم ايضا الباطنية لقولهم بالامام المستور والباطن ، وقيل: انهم سموا كذلك لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره اذ يزعمون ان للقرآن ظاهرا هو الالفاظ وباطنا هو المعانى الخفية ، وقيل لأنهم كانوا يلقون تعاليمهم سرا ويكتمونها عن العامة •

ولما كان الاغتيال المنظم هـو الوسـيلة الفعالة التى اعتنقهـا الصباحية أو الحشاشية ، فقد اعتمدت على الفدائيين واعتبرتهم عماد حركتها الثورية .

ولكى تؤثر فى عقلية هؤلاء الافراد بدرجة تمكنها من تحويلهم الى آلة صماء تحقق أهدافها ، كانت تأتى بهم أطفالا الى منازل الدعاة وتربيهم منـذ الحداثة على مبادىء المخاطرة والتضحية واحتقار الحياة الدنيا ، وتلقنهم أن قوام الاسلام الصحيح هو بذل النفس ، وأن الحياة الدنيا انما هى تجربة خلو من النعيم الحق لا تعدل فى متاعبها وآلامها ذرة من رغد الحيـاة الاخرى ونعيمها البالغ ، وأن السبيل الحق الى اكتساب الجنة والتقلب فى نعمائها ، وسعادتها الخالدة هو افتداء النفس بعمل من أعمال الدنيا .

وكان الزعماء يتلمسون لغزو هذه العقيدة فى نفوس أولئك الفتيان أغرب الوسائل ، وقد وصف عبد الله عنان فى كتابه الحركات السرية صورة من هذه الاساليب التى كانت تتبعها هذه الطائفة فى السيطرة على عقول أولئك الفتيان بأسلوب شيق فيقول :

« من ذلك أنهم كانوا ينشئون حول قلاعهم الحدائق الفيحاء ، قد غرست فيها أطيب الفواكه وأذكى الازهار والورود ، وشـيدت الفوارات والشـلالات البديعة وجهز المكان بأنفس أنواع الرياش والبسط ، وغصت بالغيد الكواكب يرقصن بأقداح ذهبية من الخمر . وكان من يرى فيه النجابة والاخلاص من الفتية الفدائيين يدعى الى مجلس شيخ الجبل وهو أعلى درجات هذه الطائفـة ويسقى جرعة من المخدر(١) ثم ينقل خفية الى احدى هذه الحدائق الغناء ، ويزج به الى احدى الابهاء الضخمة فتوقظه الحان الموسيقى الشجية وخرير الفوارات، ويحيط به الغيد والغلمان، ويسقى أطيب الخمر، ويتمتع ما شاء بهذا النعيم . ثم يسقى المخدر ثانية وينقل خفية الى مجلس شيخ الجبل وقد رتب على نظامه الاول فاذا انتبه آكد له

---

(١) غالبا هو الحشيش الذى كان مستخدما فى هذا الوقت ، وقد سمى الصليبيون الاسماعيلية بالقتلة ASSASSINS ولعل ذلك لامعانهم فى الاغتيال والقتل ، او لعله ـ كمـا يرى البعض ـ تحريف لكلمة حشاشين التى ربما اطلقت على الاسماعيلية فى هذه العصـور بسبب طريقتهم فى استعمال المخدر فى اغواء الفدائيين على النحو المذكور .

الشيخ أنه لم ينتقل من مكانه ، وأن الذى رآه وآنسه فى ذهوله انما هو الفردوس بذاته وانه يفوز بهذا الفردوس الى الابد بحسن طاعته وبذل نفسه ، فيلتمس الفدائى من امامه فرصة للتضحية وبذل النفس ، فيدفع به الى الامام الى قتل من تقرر قتله من خصوم الطائفة من الامراء والوزراء والفقهاء وغيرهم • وبهذه الوسيلة استطاع الاسماعيلية أن يحشدوا فرقة هائلة من فتيان مقاتلين ، لا يرهبون الموت بل يطلبونه ويطاردون فرائسهم بعزم لا مثيل له فى تاريخ الجريمة » •

وقد لا تكون مغالين اذا شبهنا هذه الاساليب بتلك التى استخدمتها فلول جماعة الاخوان المسلمين المنحلة فى أيامنا هذه ، من استغلال الدين لتحقيق أطماع سياسية • فهذه الجماعة استطاعت أن تحشد جموعا غفيرة حولها مستغلة الدعوة للدين للتأثير على عقول كثير من البسطاء فى تحقيق مآربها للسيطرة على السلطة • ان أسوأ ما فى البشرية أن تقوم الجماعات الدينية المختلفة بالجمع بين السلطة الروحية والزمنية ، فحينما تحولت هذه الجماعة من جماعة روحية تحاول أن تطبق تعاليم الاسلام الى جماعة سياسية تحاول السيطرة على السلطة والحكم مستغلة الدين كان فى ذلك دمارها وخرابها • ولقد استغلت نفس الوسائل التى استخدمت قديما فى التأثير على العقول ، وجمعت أعدادا غفيرة من : المتطرفين ، والمتعصبين ، والبسطاء ، والمضللين ، واستغلتهم أسوأ استغلال فى عمليات الاغتيال والارهاب • ولئن اختلفت الوسائل فى الشكل فان الاساليب التى استخدمتها هذه الجماعة هى نفس الاساليب التى استخدمتها الجماعات الهدامة القديمة •

ان الجهاز السرى الذى أنشأته هذه الجماعة للقيام بعمليات الاغتيال والارهاب بين ربوع البلاد العربية جمعاء لدليل واضح على الوسيلة الفاضحة التى استخدمتها هذه الجماعة فى السيطرة على السلطة • ويمكننا أن نتساءل هل يستطيع الارهاب وحده أن يؤثر فى عقلية الجماعات والافراد ؟ الاجابة عن هذا السؤال سهلة للغاية وهى أن الارهاب قد يفيد فى بعض الاحيان ولفترة وجيزة فى تغيير عقلية بعض الناس ، ولكن حينما يزول هذا الخطر فانه ليس هناك مانع من أن يرتد هؤلاء الذين اعتنقوا هذا المذهب تحت ظروف معينة الى عقيدتهم القديمة •

لقد بث في عقول أفراد الجهاز السرى للاخوان المسلمين عقيدة تعصب وزيف ، وأصبحوا اداة صماء فى يد تلك الجماعة تحركها تبعا لأهواء المسيطرين على هذه الحركة ، من اعمال الاغتيال والارهاب . ان الأمثلة على ذلك واضحة وبارزة فى تلك الصور العديدة من أعمال الاغتيال والارهاب التى قامت بها هذه الجماعة ضد كثير من الحكام منذ نشأتها ، بل ضد أبناء الشعب الذين لا يسايرونها ولا يؤمنون بأعمال العنف والتخريب .

* * *

وفى المسيحية قامت جمعيات سرية كثيرة على نمط نفس تلك الجمعيات التى قامت لهدم الاسلام كان هدفها هو الثورة على النصرانية وتقويض تعاليمها . ان جمعية « فرسان المعبد » Les Templiers التى أنشئت عام ١١١٨ ميلادية لتعتبر مثلا حيا لتلك الجمعيات التى تحاول أن تسخر عقول البشر لتحقيق مآربها . وحينما قام البابا بمطاردتهم ومحاكمتهم قبض على جميع فرسان المعبد الفرنسيين فى أكتوبر سنة ١٣٠٧ ميلادية ووجه اليهم المحقق العام التهم الآتية :

- ان رسوم اللحاق بجمعيتهم تقترن بإهانة الصليب وانكار المسيح مع أعمال فجور شنيعة .
- انهم يعبدون صنما يقال انه صورة للآله الحقيقى .
- انهم يغفلون الفاظ التقديس حين القاء القداس .
- ان زعماءهم يزاولون حق منح الغفران مع انهم ليسوا من رجال الدين .
- انهم يبيحون ارتكاب الشذوذ الجنسى .

وفى التحقيق الذى أجرى مع أعضاء هذه الجمعية اعترف كثير من الفرسان ومنهم الاستاذ الأعظم بالتهم المنسوبة اليهم ، وقرر بعضهم انهم عند الحاقهم بالجمعية كان يقدم اليهم صليب نصب عليه تمثال المسيح ، ثم يسألون عما اذا كانوا يعتقدون فى الوهيته ؟ فاذا أجابوا بنعم ، قيل لهم : انهم على ضلال ، لان المسيح ما هو الا نبى زائف . وقرر آخرون أنهم قدم اليهم صنم أو رأس ملتح

ليعبدوه ، كما اعترف آخرون أنهم كانوا يؤمنون بالبصق على المسيح ، وقال كثيرون منهم أنهم أجبروا على ارتكاب أفعال شائنة من الفجور مثل ممارسة الشذوذ الجنسي وقد هددوا بالعذاب والقتل اذا لم يمتثلوا .

وعلى كل حال فان العقيدة التى استغلها الفرسان كانت عبارة عن خروج على النصرانية ، ويعرف لوأزلير نظريتهم فى الألوهية بقوله :

« يعترف فرسان المعبد فى نفس الوقت باله خير لا يصل البشر اليه وليست له اشكال مادية ظاهرة ، واله شرير يمثلونه بصنم رائع الشكل ، وهو الاله الأدنى منظم العالم المادى وسيده ، خالق الخير والشر ، الذى نفث الشر فى الخليقة » .

* * *

وبرغم ذلك فان دعوة الهدم تخمد بمطاردة الفرسان وحل جماعتهم . ولكنها نفذت فى الواقع الى أعماق البيئات المظلمة فى مختلف الدول الاوروبية ، واتخذت مبادىء الالحاد والثورة على الدين أطوارا جديدة . ففى أوائل القرن الرابع عشر اتخذت الحركات الهدامة وسائل جديدة هى : ايثار الشر ، وعبادة الشيطان أو التوسل بالقوى الشريرة الخفية على محاربة القوى الخيرة ، أو بعبارة أخرى ما يسمى بالسحر الأسود . وقد كان التوسل بالخفاء والظلمات معروفا منذ العصور الغابرة ، كما أن للسحر دولة ترجع الى أقدم المجتمعات الانسانية سواء فى الشرق أو الغرب . ولكن حركة السحر الاسود التى ظهرت فى خاتمة القرون الوسطى واجتاحت كل المجتمعات الأوروبية كانت دعوة منظمة ، وثورة واسعة النطاق على سلطان الكنيسة وتعاليم النصرانية ، وان بدت فى ظاهرها طائفة من الحركات المحلية .

وفكرة هذا المذهب هى التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين وسحق أقدس رسومه ورموزه . وهو ما يعنيه ابن خلدون فى مقدمته بقوله : « رياضة السحر كلها انما تكون بالتوجيه الى : الأفلاك ، والكواكب، والعوالم العلوية، والشياطين بانواع التعظيم، والعبادة ، والخضوع ، والتذلل ، فهى لذلك وجهة الى غير الله وسجود له ، والوجهة الى غير الله كفر » .

والواقع أن ريحا عاتية شاملة من شغف الخفاء لبث نحو ثلاثة قرون تعبث بعقلية المجتمعات الأوروبية ، وتمعن فى تحطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنيسة ، ولبثت الكنيسة من جانبها تطارد هذه الحركة بكل قوة وعزم تارة بانشاء الجماعات الدينية الرجعية ، وأخرى بواسطة مجالس التحقيق . وفى عام ١٤٦٠ م ظهرت بادرة بوجود طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السحر حيث اندس السحرة والمشعوذون فى جميع المجتمعات الاوروبية ، وعهد فى معظم الدول الى القضاء المدنى بمحاكمة اعضاء هذه الطائفة لاستفحال أمرها واشتداد عبثها . وقد كانت ميول العصر وتقاليده ترمي الى أن تلحق المخترعين والكيمائيين وغيرهم من النابهين بطائفة السحرة وأخوة الشياطين ، وكان العلم يعتبر من العناصر الشيطانية حتى أن معظم العلماء والفلاسفة الذين كان تفكيرهم يسمو على هذا العصر كانوا معرضين دائما للريب والشبهات .

ويقول فولتير : « كان يلجأ عادة الى اليهود فى تأدية الشئون السحرية ويرجع هذا الوهم القديم الى اسرار الكابالا[1] التى يزعم اليهود انهم وحدهم يملكون اسرارها . وكانت كاترين دى مديتشى ، والمارشال دانكر وكثيرون غيرهما يستخدمون اليهود من أجل هذا الامتياز » .

والحقيقة ان نسبة السحر الأسود الى اليهود منذ أقدم العصور برغم ما يشوب هذه الروايات من مبالغة له أساس ، فقد جعلوا من أنفسهم موضعا للشبهة والشك بالانهماك فى مزاولة فنون السحر ، وأكثر من ذلك أن التوسل الى الشياطين فكرة يهودية فى الأصل ، بل هى من تقاليد اليهود ومعتقداتهم القومية فقد ورد فى التلمود مثلا :

---

(١) الكابالا مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والشعوذة والسحر متعارف عليها عند اليهود منذ أقدم العصور ، وقد ظهر اثر تعاليمها فى المجتمعات الأوروبية وبالأخص منذ القرن الثانى عشر ، وخلاصة هذه التعاليم هى ان الله هو كائن مطلق ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث نفسه الى عالم الأرواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، وان روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود فى النهاية الى الله وتفنى فيه .

« اذا استطاعت العين أن تبصر الشياطين التى تعمر الكون كله كانت الحياة ضربا من المستحيل ، ذلك لأن الشياطين أكثر منا عددا ، وهم يحيطون بنا من كل صوب ، ولكل منا على يساره الف شيطـان ، وعلى يمينه عشرة آلاف » ويعد التلمود فوق ذلك الطريق التى يستطيع الانسان أن يبعد بها الشياطين وغيرها من ضروب التخويف والوهم •

* * *

ولا ريب أن السحر كان قوة عظيمة فى مثل تلك العصور التى كان يعصف فيها الجهل المطبق بعقلية المجتمع ، وكان للخرافات والأوهام السخيفة التى تلصق بالدين سلطان قاهر على النفوس ، كما كان التماس السحرة لعالم الخفاء والغيب فتنة خلابة للذهن البشرى ، ومن ثم كان نفوذهم وكان انتشار تعاليمهم وطرقهم فى جميع انحاء العالم •

وفى منتصف القرن السابع عشر عصف بالمجتمع الأوروبى وباء رهيب من الشعوذة ، واجتاحها شغف الاحاطة بما وراء الطبيعة والغيب ، وذاع السحر فى معظم البلاد الأوروبية • وقد ظهر هذا التطور واضحا فى فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر حيث اجتاحت المجتمعات الراقية حمى الأبحاث الطبيعية ، كمحاولة استخراج الذهب من المعادن الرخيصة ، وصنع السموم والمخدرات والمركبات الغرامية • وظلت تلك الأعمال الرهيبة التى كانت تروع الناس بأسرارها وضحاياها مستمرة مختفية حتى اكتشفت مأساة السموم سنة ١٦٦٦ م عقب موت الشيفاليه دى سانت كروا ، والقبض على خليلته المركيزة دى برافلييه • ولم يكن السحرة الذين يعملون فى هذا الوقت أفرادا متفرقين يعملون باستقلال ذاتى ، انما كانوا ينتمون الى جمعية سرية كبرى ذات شعب وفروع فى جميع أنحاء أوروبا ، وقد كشفت التحقيقات عن هذه المأساة مفاجأة غريبة ، فقد ظهر أن المتآمرين حاولوا مرارا ان يقتلوا : الملك ، وولى العهد ، وكولبير ، ومدام دى لافلير ، بواسطة السم ، وأن الكثيرين من الخاصة وعظماء البلاط كانوا يلجأون الى السحرة والسممين للانتقام وقضاء حاجاتهم ، حتى قيل أن مدام دى مونتسبان خليلة الملك كانت تسعى الى استبقاء غرامه ووده باقامة القداس الأسود ، والاستعانة بلافوازان اشهر ساحرة فى هذا العصر •

وفى القرن الثامن عشر حيث كانت النهضة العلمية لا تزال فى المهد وصلت أساليب الجمعيات السرية الى ذروتها من الانتشار والتسلط على الأذهان • هذا الدور الجديد كان يكمن فى القوة الخارقة التى يدعى السحرة والمشعوذون أنهم بلغوا فيها درجة لا تضارع من الازدهار ، فذاع أمر أكسير الحياة ، وظهر جماعة من اقطاب الدعاة السريين بذوا سلفهم فى الابتكار والتأثير ، والتسلط على الأنفس •

كان هذا العهد عصرا ذهبيا للأدعياء والعرافين السحرة ، وكان أولئك الدعاة يناهضون العلم من جانبه الغامض ، ويزعمون أنهم وصلوا الى ما لا يستطيع العلم ادراكه • ففى الوقت الذى بدأ فيه العلم دراسة الموضوعات الطبيعية دراسة جديدة نهض فردريك مسمر[1] الالمانى زاعما أنه يستطيع شفاء جميع الأمراض ، ولا سيما الأمراض العصبية وذلك بتعريض اجسام المرضى الى تأثير ما كان يسميه بالمغناطيسية الحيوانية • واستطاع أن يؤسس من الذين وفدوا اليه طلبا للشفاء جمعية سرية عرفت « باصدقاء التناسق » • وان كنا لا نستطيع أن نقدر من الناحية العلمية قيمة ما قام به هذا الالمانى من أعمال اذ كان الشفاء يأتى للمرضى على أثر نوبة عصبية تعترض المريض ، الا أننا نستطيع ان نقول : أن ايمان المريض وعقيدته كانا يساعدان غالبا فى نجاح التجربة فى كثير من الأحوال .

وبالاضافة الى تلك الجهود التى قام بها مسمر آمن بتجاربه وعلمه نفر من الأطباء والعلماء ، ورأوا أنه افتتح الطريق الى ميدان مثمر جدا ، واعتبروا ان مغناطيسية مسمر الحيوانية هى التى تطورت بعد تجريدها من نواحيها الخرافية الى علم حقيقى نعرفه اليوم باسم التنويم المغناطيسى والذى سنتحدث عنه فيما بعد •

---

(١) ولد فرانز انطوان مسمر فى عام ١٧٣٣ م فى قرية صغيرة فى النمسا هى قرية ايسنانج بالقرب من بحيرة كونستانس • وكان مسمر قد عقد النية على الرهبنة فالتحق بمدرسة الرهبان حتى سن الخامسة عشرة ثم تحول الى القانون ، وفى نهاية الأمر درس الطب وحصل على درجته العلمية وهو فى سن الثانية والثلاثين بعد أن قدم رسالته عن تأثير الكواكب على الجسم البشرى ، وتضمنت رسالته هذه أول اشارة الى آرائه عن المغناطيسية الحيوانية ، وهى نظرية توسع فى شرحها بعد ذلك فى مجموعة المقترحات السبعة والعشرين المشهورة وتضمنت فى جوهرها النقاط الرئيسية لتعليمه •

وفي هذا العصر أيضا ظهر كثير من السحرة الأصاغر مثل : شريدر الذى اسس عام ١٧٧٦ م جمعية سرية لمزاولة السحر، وجاسنر الالمانى الذى عكف حينا على مزاولة الأعمال الخارقة والمعجزات ، وليون اليهودى وهو عضو من طائفة لبثت حينا تغرر بعقول البسطاء وتسلب أموالهم بعرض المرايا السحرية التى يرون فيها أصدقاءهم الغائبين . ومن هنا نجد ان هذا العصر انتابته هذه الموجة العاصفة من الاعتقاد في تلك الاعمال ، مما مكن هؤلاء المشعوذين من أن يسيطروا على عقول العامة وعقول الطبقة المختارة من النبلاء وغيرهم ، وذلك لأن شغف الخفاء كان ينتاب هذا المجتمع .

ومن ثم فاننا نجد ان هذه الحركات التى سبق ذكرها استخدمت كثيرا من الوسائل السيكولوجية والميتافيزيقية المعروفة من : ارهاب ، وخوف ، وقلق . واستغلال التعصب الدينى والسياسى ، وكذا الشهوات والأهواء البشرية ، واعمال الشعوذة والسحر الاسود ، والمخدرات – فى السيطرة على عقول الناس وتحويل معتقداتهم وأنماط سلوكهم الى معتقدات جديدة وانماط من السلوك تختلف تماما عما اعتادوها من قبل .

* * *

على ان المقارنة بين الأساليب التى سبق ذكرها ، وتلك التى تستخدم بواسطة القبائل البدائية فى جميع أرجاء العالم لاعداد المراهقين من الصبية وتكييفهم نحو المجتمعات الدينية يجدر بنا ذكرها لأن العوامل الفسيولوجية التى تحكمها تكاد تتشابه . ومع ذلك ففى مثل هذه الحالات نجد أن للميول الجديدة المطلوب تثبيتها اتصالا وثيقا مع تجاربها السابقة وتقاليدها الثقافية الموروثة .

ويصف جوستاف بولندر فى كتابه « أكمة الشيطان » كيف يؤخذ أبناء غرب افريقيا من والديهم الى معسكر فى الغابات حيث يخلعون ملابسهم ويتعرضون الى عناء فسيولوجى شديد باثارة الخوف فيهم ، فكان اول ما يتعرضون له هو أن يقدم المشرف عليهم لهم شرابا ويوحى اليهم بانه سوف يقتلهم عاجلا او آجلا اذا ما كشفوا أسرار هذا المجتمع أو تفاصيل الطقوس التى سيمارسونها ، ثم يتلو ذلك الحمام الدينى ، وعند الأصيل يقفون فى صف واحد ليشرح لهم :

« ان الحياة خارج « بورو PORO » لا تساوى شيئا ، والانسان الذى لا يحصل على شرف عضويته يسبح فى الظلام ، اذ انه لا يمكن له الا عن طريق « بورو » أن يدرك الهدف الذى يعيش من أجله ، والشخص الذى يرغب فى ان يصبح عضوا فى « البورو » لا بد له أن يودع الحياة التى عاشها من قبل ، ومن ثم يولد من جديد ! » .

وحينئذ يعرض عليهم وهم فى هذه الحالة من التوتر والخوف قناع الجمعية السرية ، فيقترب منهم بعيون جاحظة وحواجب كثة مع فكين متضخمتين كفكى التمساح الذى تتلألأ اسنانه وهى مخضبة بالدماء ، وتنساب لحيته كالشبح المسن، وله قرون وريش فوق رأسه بحيث يظهر على شكل لا علاقة له بالشكل الآدمى ، بل يكون أقرب الى صورة الشيطان .

ويبدو هذا الشيطان حقيقيا بالنسبة للأولاد فيزداد رعبهم ، الا انه ليس مسموحا لهم أن يحدثوا أى صوت يعبر عن الجزع ، ثم يوضعون جنبا الى جنب على الارض ، ويقوم مساعد الشيطان بحمل كل واحد منهم بالدور ويضعه بين فكى الشيطان وهو فاقد الوعى نتيجة الخوف . وحينئذ ينقلون ثم يتعرضون فجاة لطقوس أليمة من الوشم الدينى ، ويصاحب الحفل أصوات عالية من اصوات الآلات الخشبية .

وبالتدريج يسترد الأطفال أنصاف الواعين حواسهم ويحسون اقتناعهم بأن الشيطان قد انتهى معهم ، وقد رفعهم بورو الى مستوى حياة جديد .

وبعد أن يتم اندمال الوشم فى أيام قليلة ، يبدا الاولاد عملية تدريب طويلة فى المعسكر المخصص كأعضاء نافعين للقبيلة والمجتمع الذى اصبحوا من افراده ، وتتبدد عادات الطفولة فيتعلمون الى جانب ما يلقنونه من التعاليم الاتجاهات الصحيحة التى يجب عليهم السير فيها لزيادة صلابتهم وقوتهم ، كما يدربون تدريبا جيدا على: الأشغال اليدوية البدائية، والتجارة ، وصيد الأسماك ، وما شابه ذلك .

ولازالة بقايا الشخصية الفردية او الآراء غير المستقيمة تستخدم تدريبات معينة تبدأ بحركات مملة يقوم بها الولد وتنتهي بطقوس صوفية ، والعامل الاول هنا هو الرقص . فيقوم الأولاد بالرقص حول الشجرة في بطء ورءوسهم منحنية تصاحبهم الطبول الخشبية باصواتها وبدون توقف ، ويستمر الرقص البطيء المتوافق ساعات بعد ساعات ، وفي النهاية يصبح الأولاد نصف واعين يتحركون آليا على النغم المستمر المتكرر ، فيحسون أنهم ارتفعوا عن الارض وأصبحوا مندمجين في وحدة مع شيطان الغابة القوى ، ويشعرون أن روحهم قد ارتفع شـــانها .

ويقص فريزر امثلة أخرى عن الاعداد الديني في كتابه « الغصن الذهبي » The Golden Bough فيقول :

« ان بعض القبائل في شمال غينيا الجديدة . وكثيرا من القبائل الاسترالية كذلك تجعل الختان مظهرا جوهريا من مظاهر الاعداد القبلي ، وهم يعتقدون أن هذا الاعداد عبارة عن عملية ابتلاع يقوم بها حيوان أسطوري ضخم يسمع صوته عند همهمة آلة خشبية اسمهـا Bull Roarer تدور حول الراس فوق وتر فتطلق صوتا يشبه صوت الثور الذي يخور ، أو العاصفة العاتية » .

ويستمر في شرح هذه العملية ووصف بعض وسائل الابتلاع التي لابد للشخص من ان ينجو منها بقوله :

« والآن عليه أن يمر بعملية الختان الخطيرة ، ويفسر البتر الذي يتم بمبضع الجراح على انه عضة او هرشة يقوم بها الوحش الرهيب في الشخص عندما يلفظه من بين فكيه القويين ، وفي أثناء العملية تطلق الدفوف الخشبية المتارجحة صوتا رهيبا لتمثل زئير الوحش في اثناء عملية ابتلاعه للشيطان .

وبعد أن تتم طهارة الصبية يبقون لبضعة أشهر في خلوة ، ويحرم عليهم اى اتصال بالنساء او حتى مجرد رؤيتهن ، فيعيشون في الكوخ الطويل الذي

يمثل بطن الوحش الهائل • وفي النهاية عندما يرقى الصبية الى رتبة المتبتلين يردون بحفل صاخب الى القرية فيستقبلون بدموع الفرح من جانب النساء كما لو كانت القبور قد لفظت من فيها من الموتى » •

لقد ترك كل واحد منهم قريته طفلا ، وها هو ذا يعود اليها رجلا له شأنه . ومن ثم فهو يثب في الفضاء بنشاط وخفة مزهوا بنفسه ليثبت اكتمال قوته ورجولته •

وفي احتفالات أصحاب الأديان البدائية ، نرى دقات الطبول المنتظمة وحركات الرقص العنيفة تصل بالانسان الى حالة من حالات الانهيار الانفعالي والفسيولوجي ، اذ يحدث أن تشيع الفوضى في وظائف المخ الطبيعية نتيجة الهجوم عليه بأنغام صوتية متوافقة قوية تليها اخرى بتوقيت مختلف مع حركات الرقص العنيفة ، وغالبا ما تستعمل المشروبات الكحولية ، والعقاقير لزيادة استثارة الراقصين الدينيين •

هذه العوامل مجتمعة تساعد على أحداث الانهيار العصبي ، وتسيطر على النفس مشاعر التحرر من : الاثم ، والخطيئة ، والاحساس ببداية حياة جديدة ، ويكون الانسان مستعدا لتقبل أي ايحاءات أو معتقدات •

وتوضح الطقوس الدينية التي تمارسها بعض القبائل في غرب افريقيا مدى سهولة تقبل الايحاءات عن طريق تعرض المخ لتوترات فسيولوجية عنيفة ، وللساحر في هذه القبائل أساليب متعددة من العبادة ، ويمارس الأهالي طقوسهم في جو صاخب من دقات الطبول ، والرقص العنيف •

فاذا ما أصيب شخص بمس مثلا فانه يحضر الى الساحر الذي يأمره بأن يقوم بحركات تنسجم مع ما يتطلبه نوع معين من الطقوس الدينية حتى يصل الى مرحلة من الغيبوبة ويفقد القدرة على التذكر ، ولكنه عندما يسترد وعيه مرة أخرى بعد ساعة ، أو أكثر يشعر كأنه ولد من جديد •

وتبين حالة الرجال والنساء الذين أعدوا لحالة من الحالات القابلة للايحاء بواسطة دقات الطبول قوة مثل هذه الاساليب ، فزيادة الاستثارة والقابليةنتيجة تغير ارتفاع دقات الطبول ، وقوة الغناء والتصفيق بالايدى لزيادة حدة الحماسة الدينية تؤدى في النهاية الى احداث الانهيار التام حيث يتحـــول الافـراد الى استسلام تام ، وحينما يستيقظون بعد ذلك يشعرون بمشاعر البعث الجديد .

ويؤيد ذلك ما تقـــوله بيرل بريمس Pearl Primus الكاتبة الزنجيـة الامريكية فى كتابها « الرقص الافريقى » :

« لا أستطيع أن افـكر فى افريقيا دون أن اســمع ثانية دقات الطبول العالية ، ودون ان تمر امام عينى حشود الراقصين ، وسرعان ما أحس الاستجابة حتى كانى أفكر فى نفسى وكأننى أركع على ركبتى أمام « أوانى » زعيم شعب « الايفى » IFE لأسمع من بين شفتيه « أومى .. والى » أى « الطفلة التى تعود الى وطنها » ، وكلما خطر لى هذا أحس وكأن قوة خفيـة تمسك بذراعى معطلة سير عجلة الزمن فاتوقف عن الكتابة لأهدىء هذا الجانب من روحى الذى يصرخ بى قائلا : « ارقصى .. أرقصى » .

وليس من الصعب أن ندرك السبب الذى يجعل للرقص مع ما يصحبه من دقات الطبول والموسيقى والغناء هذه المكانة الكبيرة فى حياة القبيلة ، فالرقص والغناء هما فى أبسط صورهما تعبـير أولى عن عوامل اثارة المشــاعر ، وعن الاستجابة طواعية للباعث عن هذه المشاعر ، فاذا كان الباعث يسبب توترات فى بعض المناسبات فان الحركات والتعبيرات الصوتية لا تلبث ان تاخذ طابع اظهار السرور فى الزواج أو عند مولد طفل .

وتتوافر مظاهر ردود الفعل لهذه المناسبات فى أنها لا تجىء وسيلة لاطلاق العاطفة فحسب ، بل فى زيادتها وتنظيمها ، فمثلا تعمل الروح الاعتدائية التى يُعبر عنها برقصة الحرب على ايجاد اندفاع تعصبى بين أفراد القبيلة نحو العدو .

* * *

على أنه اذا كان الرقص يلعب هذا الدور الكبير في حياة القبائل البدائية الدينية ، فانه كان له الأثر في المجتمعات الاوروبية .

ففي القرن الرابع عشر انتشر الطاعون في اوروبا وقضى على الملايين من البشر ، وسرعان ما ساد وهم غريب في المانيـا استولى على اذهان الرجال بأن رقصة القديس جون ، أو بمعنى آخر القديس فيتس تقي الناس هذا الوباء . وصدق الكثيرون هذا الوهم متأثرين بالقفزات الكهنوتية التى كان يتميز بها هذا النوع من الرقص ، وكانت حركات الرقص العنيفـة ، وصراخ الراقصـين ، وثورة غضبهم تعطي مظهرا بأنهم قد مسهم الجن او الشيطان .

ويصف ج. ف. هيكر جنون الرقص الهسـتيرى الذى انتشر في اوروبا بقـوله :

« يكون الراقصون دائرة في الشوارع أو الكنائس ، ثم تتشابك أيديهم ويسـتمرون في الرقص دون أن يأبهوا بالواقفين الى جوارهم لسـاعات كاملة ، وفي النهاية وبعد هذه الثورة الهوجاء يسقطون على الارض في حالة انهيار تام » .

وحتى بداية القرن السادس عشر عندما أصبح جنون الرقص موضـوع اهتمام طبى من جانب باراسيليس الالمانى وغيره كانت الكنيسة وحدها هي التى تعتبر قادرة على علاجه ، وقد تنبأ هيكر بأن الدواء الناجح لشفاء هذه الحالات هو أن تجعل المريض يستمر في رقصة حتى يصل الى نقطة الانهاك الكامل والانهيار العصبى .

وكان الواقفون امام حلقات الرقص لايستطيعون أن يكبحوا جماح الراقصين الا بوضع عوائق ومقاعد في طريقهم ، حتى يستطيعوا أن ينهكوا قواهم باغرائهم بالقفز عاليا .

وكان الراقصون بعد ان تنهك قواهم يتساقطون على الارض كالأموات ، ثم يستردون قواهم تدريجيا وببطء . على أن العلاج بواسطة احداث مثل هذه

النوبات نجح تماما لدرجة أن عاد كثير من المرضى الى مصانعهم أو مزارعهم وكان شيئا لم يحدث لهم ٠

وظهر جنون مشابه تماما فى القرن السابع عشر فى ايطاليا حيث عزيت الأعراض العصبية الى عضة عنكبوت الذئب الضخم Tarantula Spider واستخدمت رقصات الذئب لضمان شفاء المرضى ، ويذكر هيكر أن هذا الاعتقاد كان لا يزال قويا للغاية لدرجة أنه شاهد مرضى يقاسون من أمراض الحمى الخبيثة وهم يجبرون على الرقص على نغم الموسيقى لخشيتهم من أن تكون الاعراض راجعة الى عضة الذئب ٠ وقد مات واحد من هؤلاء فى الحال ولحقه اثنان بعد فترة وجيزة ٠

* * *

ولقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الطاعون « الموت الاسود » كنوع من العقاب نتيجة مساوىء أمة المسيحيين ، واستغلت التهديد بعودته كوسيلة من وسائل اعادة النفس الى الخضوع ، والى التفكير الحقيقى ٠

وقد تم بموافقتها انشاء جمعية « اخوان الجلادين » والتى كانت تسمى « اخوان الصليب » حيث كانت تتم فيها اجتماعات للاعتراف علانية بالخطايا ، والتوسل الى الله لرفع غمة الطاعون ، وأصبحت جماعات « اخوان الصليب » منظمة تنظيما جيدا ٠

وعلى الرغم من أنها بدأت كطبقة عاملة ، وحركة من حركات عمال الزراعة فان الطبقات الأكثر ثراء هى التى سيطرت عليها ٠ وكانت وسائلها للاستثارة الجماعية فعالة للغاية ، اذ كانوا يدقون النواقيس وينفخون المزامير ، ويجلدون أنفسهم حتى تسيل الدماء٠٠ وقد وجد قادتهم أن من المفيد أن ينظموا الحملة ضد اليهود لا لتهمة صلب المسيح القديمة ، ولكن لتهمة جديدة وهى نشر الطاعون عن طريق تسميم الآبار ٠

وكما لقى هتلر فى تحويله الجماهير الالمانية للعقيدة النازية العون من : نغمات الموسيقى ، والأغانى الحماسية ، ومواكب الشعلة ، وما شابه ذلك لاثارة

الناس وجعلهم فى حالة من الهستيريا لتقبل أى ايحاءات قبل أن يتحدث اليهم ، فان نفس الأساليب ساعدت اخوان الصليب الذين تنبأوا بغضب المجتمع على السامية ، ففي مدينة مينز وحدها انتحر في يوم واحد اثنا عشر يهوديا ، وغالبا ما كان وصول موكب من مواكب اخوان الصليب الى اى مكان علامة من علامات المجزرة التي ستحدث .

* * *

على أن التبشير عن طريق العقل دون احداث استثارة انفعالية في المستمع يعتبر عديم الجدوى ، ففي حركة الاحياء الديني لمذهب جون ويزلى لم تنجح جهوده كمبشر وواعظ الا بعد أن نجح فى خلق نوع من الانفعالات فى مستمعيه ، وتمكن من مخاطبة العاطفة أكثر من مخاطبة الذكاء ، وقد حصل بذلك على أسلوب فعال فى تحويل الناس نحو مذهبه الدينى .

كان أول شيء يقوم به ويزلى هو أن يخلق توترا انفعاليا عاديا فى من يود تحويلهم ، ولقد وجد أن من السهل اقناع عدد كبير من المستمعين بأن عدم التوفيق فى الحصول على الخلاص يستتبعه دائما عذاب الجحيم الأبدى ، وكان تقبل الناس لهذا الايحاء تجعلهم فى حالة توتر انفعالى شديد لدرجة أن أى شخص كان يغادر الاجتماع دون أن يتحول ، ثم يصيبه حادث مفاجىء خطير قبل أن يكون قد حصل على الخلاص فانه يشعر بأنه يسير مباشرة الى أتون النار ، وكان هذا الشعور الملح يزيد القلق السائد الذى يمكن نقل عدواه الى جماعات الناس كلما ازدادت القابلية للايحاء .

ويصف جون نلسون وهو واحد من أقدر اتباع ويزلى التائبين كيف تحول فجأة نحو هذا المذهب بقوله :

« وبمجرد أن اعتلى ويزلى المنصة دفع بشعره الى الخلف ، واتجه بوجهه نحوى حيث كنت أقف ، واعتقد أنه ثبت عينيه على وأشاع منظره الرعدة فى أوصالى قبل أن أسمعه يتكلم ، لدرجة انه جعل قلبى يدق كبندول الساعة ، وعندما تكلم شعرت أن حديثه كله كان موجها الى » .

وقد عرف ويزلي في الوقت المناسب أنه لكي يسيطر على السـامع يجب عليه أن يقيس أولا قدراته العقلية والانفعالية ، ويقول في تقرير له عن تجواله في أيرلنده عام ١٧٦٥ ميلادية :

« ركبت الى ووتر فورد والقيت موعظة في فناء صغـير عن قسنا العظيم الاعلى الذي انتقل الى ربه في سمائه من اجلنا ، ولكنني سرعان ما وجدت أنني ارتقيت باسلوبي الى مستوى أعلى من مستوى أغلب المستمعين اذ كان واجبي يقضي على بالتحدث عن الموت ويوم الحساب ٠ وفي مساء الثلاثاء نظمت حديثي بحيث يناسب المستمعين فلاحظت الانتباه العميق وقد ارتسم على كل وجه » ٠

ويصف ويزلي احدى نتائج عظاته بقوله :

« بينما كنت اتحدث سقط واحد أمامي كالميت ، وفي الحال تبعه ثان وثالث، وغاص خمسة آخرون في أماكنهم لمدة نصف الساعة ، وكان اغلبهم يعانون آلاما عنيفة ، اذ سيطرت عليهم فكرة عذاب السعير ، وتحكمت فيهم فخاخ المـوت ، وحينما توسلنا الى الله استمر أحدهم يحس أوجاعه الشديدة لمدة ساعة ، وظلت الآلام تؤرق واحدا او اثنين آخرين لمدة ثلاثة أيام ، على حين ظهرت راحة النفس على الآخرين في تلك الساعة ، وانصرفوا فرحين مهللين ومكبرين لله » ٠

ويلاحظ ان في مثل هذه الاساليب من الوعظ لا تكفي الهجمات الانفعالية على المخ للقضاء على الأنماط السابقة للسلوك ، لأن الانسان غالبا ما يحاول أن يهرب من هذا التوتر الاجباري ، فنيران الجحيم تتراءى للعين فقط كنتيجة لرفض هبة الخلاص الأبدي الذي يكتسب بالايمان ، ولذا فان الانهيار العصبي الناجم عن محاولة الخلاص من العذاب الأبدي عن طريق التحول الكامل يمكن تعزيزه حينئذ بالاستعانة بدستور حب الله ٠ ومع أن العقاب على الارتداد عن العقيدة يجب ان يكون عالقا بالاذهان ، فان استغلال الحب حينئذ بدلا من اثارة المخاوف يساعد الى حد كبير في تثبيت هذا الكسب ٠

على أن هناك تباينا شاسعا من ناحية درجة الخوف أو المتاعب التى يتعرض لها الانسان قبل أن يحصل على دليل للخلاص ، أو العفو ، أو القبول عند الله ، فبعض الناس يشعرون منذ البداية بأمل وشجاعة زائدة عن غيرهم ، ويلاقى البعض متاعب نفسية أقل بكثير من غيرهم ، اذ يبدو الموضوع بالنسبة لهم سواء ، كما كان يخشى آخرون غضب الله والخطر المحدق بهم من اللعنة لدرجة انهم لم يستطيعوا النوم ليلا .

وفى اغلب الاحيان كانت المخاوف الرهيبة والمتسلطة على الأشخاص تزداد بصورة أكثر كلما شعروا بقربهم من لحظة الخلاص على الرغم من انهم غالبا ما كانوا يمرون بتغييرات وتحولات فى نطاق عقولهم وظروفها ، فاحيانا كانوا يعتقدون انهم فقدوا الوعى تماما ويخشون ان روح الله قد تخلت عنهم وتركوا لأقدارهم الصعبة ، وفى أحيان اخرى يبدو لهم أنهم قد امتحنوا امتحانا قاسيا من هذا الخوف واصبحوا فى لهفة تامة نحو الايمان مرة ثانية .

* * *

على أن الطقوس الدينية التى كان يمارسها راسبوتين الراهب الروسى الارثوذكسى، والتى كان لها سحرها العميق على آخر قيصرة فى روسيا ، اعتمدت على احداث الاثارة الانفعالية فى اتباعه كما انها لا تختلف عن الأساليب المعروفة التى استخدمت فى عمليات التحويل الدينى أو السياسى .

ويصف الامير يوسو فوف الذى أحس عام ١٩١٦ م ان واجبه الوطنى يحتم عليه اغتيال راسبوتين هذه الاساليب بقوله :

« لقد خضع راسبوتين لنفوذ قسيس أيقظ فيه الروح الصوفية الا أن تحوله كان يعوزه الاخلاص . وتبعا لطبيعته الشهوانية الوحشية انجذب بسرعة الى طائفة الجلادين الذين يدعون انهم تلقوا وحى الكلمة ، وأنهم تجسدوا روح المسيح .

« وقد اعتاد اتباعه الاجتماع ليلا فى كوخ او منطقة فضاء فى احدى الغابات تضاء بمئات القناديل • وكان هدف هذه الاجتماعات هو خلق انفعال دينى وثورة عصبية ، وبعد ترتيل التواشيح يكون الاتبـاع حلقة ثم يتمايلون فى حركات متوافقة ، ثم يدورون بعد ذلك وتزداد حركة دورانهم •

« ونظرا لأن حالة من حالات الغشيان تعتبر جوهرية من اجل الفيض الآلهى، فقد كان سيد الحفل يجلد اى راقص يخبو نشاطه ، وينتهى الحفل بخلاعة بشعة فيتمرغ كل شخص على الارض وهو فى حالة غيبوبة ، أو فى حالة تشنج فيقولون : ان الشخص الخاضع لسيطرة الجن لا يملك نفسه بل يصبح مملوكا للجن الذى يسيطر عليه ، ويعتبر مسئولا عن جميع اعماله وعن كل خطيئة يرتكبها » •

* * *

ويصف لنا د • فورستيه فى كتابه عن الماسونية صورة لما كان يحدث فى احتفالات الماسونيين الفرنسيين ، وهى صورة اخرى للأساليب التى تستخدم لخلق استثارة انفعـالية فى الأعضـاء حتى يصبحوا فى حـالة اسـتعداد لتقبل تعاليم الجمعية :

« يبدو ان المائدة كانت النقطة الثابتة التى تجمع البنائين الأحرار • انهم يريدون ان ياكلوا ويشربوا ويستمتعوا ، وهذا ما يثير تأملاتهم » •

كان الشراب يتغير على المائدة ثلاث مرات أو خمسا او سبعا أو تسعا ، وكانوا يطلقون على الزجاجة برميلا صغيرا وعلى الخمر والماء بارودا • ان الماء بارودا أبيض والخمر بارودا أحمر • وكانوا يتدربون على طريقة خاصة للشراب فحينما يشربون فى الاحتفالات يقولون : « اعطنى من البارود » فيقف كل منهم ، ويقول المحترم « عبئوا » فيضع كل منهم خمرا فى طاســـته لأنه كان لا يســمح لهم باستخدام الكئوس •

ثم يقال لهم بعد ذلك : « ارفعوا الأيدى الى السـلاح ، النار ، فيقومون بحركات ثلاث وهم يشربون ـ ففى الحركة الأولى يضعون الأيدى على الطاسة ،

وفى الثانية يضعونها أمامهم كانهم يعرضون سلاحهم ، وفى النهاية يشربون وعيونهم مصوبة الى المحترم ليقوموا بالتمرين دفعة واحدة • وحين يسحبون الطاسات يضعونها أمامهم ثم يحملونها الى الثدى الايسر فالى الثدى الايمن ، ويقومون بهذا العمل ثلاث مرات ، ثم يهتف كل منهم بصوت عال ثلاث مرات كلمة يعيش •

ولما كانت الوليمة لا تتم دون اغان فان البنائين الاحرار قد نظموا أغنيات تؤكد ايمانهم بباخوس « اله الخمر » وبالمحبة الانسانية •

وكانت هناك محافل كثيرة يجرى فيها الغناء مصحوبا بأصوات أبواق الصيد وغيرها من الآلات ، حيث ينشر اتساق النغم شعائر الاتحاد الوثيق ، وفى نهاية الوليمة كان المدعوون يشكلون سلسلة بتشابك ايديهم وينشدون نشيد انتهاء المحفل بحماسة شديدة وهم متأثرون من الخمر :

أيها الاخوان والرفاق فى الماسونية ••

لنستمتع دون غم ••

بمسرات الحياة ••

وليكن شرابنا نخب اخواننا ••

برهانا على اتفاقنا ••

* * *

ولقد اثبتت تجارب بافلوف وتجارب علاج مرضى الاعصاب فى الحرب العالمية الثانية أهمية العوامل السيكولوجية والفسيولوجية فى مسائل التحول الدينى والسياسى • وقد رأينا ان نجاح غرس العقائد الجديدة ، وازالة أنماط

السلوك القديمة تطلبت خلق حالة من التوترات الشديدة لدرجة قد تؤدى الى حالة من الانهيار وتوقف وظائف المخ .

ويصف آرثر كوستلر Arthur Koestler (١) فى كتابه « السهم الازرق » Arrow in the blue كيف تحول فجأة الى الشيوعية :

« على الرغم من أننى كنت أميل الى الشيوعية لمدة أكثر من عام ، الا أن القرار النهائى الذى أصبحت بموجبه عضوا فعليا فى الحزب الشيوعى جاء نتيجة سلسلة كاملة من احداث بشعة تجمعت كلها فى أمسية من أمسيات شهر ديسمبر عام ١٩٣١ م لتجعلنى استثار الى درجة من الغضب والمهانة والاشمئزاز » .

والحق أن الانسان اذا ما استثير الى مثل هذه الدرجة ، فانه غالبا ما ينهار ويصبح من السهل تقبله لاى ايحاءات ، لان الانســان كما وضحنا فى الفصــل السابق حينما يتعرض لتوترات شديدة متزايدة فان اضطرابات مختلفة تحدث فى وظائف مخه تبعا لنمط مزاجه ، ويكون حينئذ مستعدا لتقبل اى ايحاءات ، كما انه تنقلب انماط سلوكه المشروطة كما سبق ذكره ، ويتجه نحو انماط جديدة .

ويستمر كوستلر فى وصف حالته فيقول : انه ذهب فى مساء يوم سبت لاحضار سيارته من ورشة مكثت بها لمدة ثلاثة أسابيع لاجراء بعض الاصلاحات ، ولما استلمها كان سعيدا بعودتها اليه فقادها الى مسكن صديق حيث اجتمع مع بعض الأصدقاء واخذوا يلعبون الورق . وكان كوستلر يحب البوكر ولم يكن ماهرا فى اللعب ولكنه كان من النادر أن يخسر كثيرا ، الا أنه خسر فى هذا المساء ما يساوى أجر عدة اشهر وبشكل لا يمكن أن يتحمله .

وغادر المكان فى حالة ألم ويأس الى حفل ساهر استمر حتى الثالثة صباحا حيث شرب حتى الثمالة ، وعند انصرافه لم يتنبه الى أن البرد قد اشتد بدرجة كبيرة ، وانه ليس فى السيارة جهاز مضاد للتجمد . فعندما تحركت السيارة

---

(١) A. Koestler, Arrow in The Blue, Hamish Hamilton, London, 1952.

انفجرت الماكينة التى دفع ثمن اصلاحها فى صباح اليوم ، وبرزت كتلة من الجليد خارج راس احدى الاسطوانات ، فكان المنظر يجعل أى قائد سيارة يبكى حتى ولو لم تكن السيارة ملكا له ٠

وازدادت متاعبه بعد ذلك ، فقد رأته فتاة ريفية فى تلك الحالة المحزنة وعرضت عليه استضافته فى مسكنها القريب ، وحينما استيقظ فى الصباح شعر بوطأة تأنيب الضمير ، واللوم والقلق ، والاحساس بالذنب ، اذ وجد أنه اتصل جنسيا بفتاة لا يحبها ولا يشعر بها ، فضلا عن تحطيمه ماليا وتخريب سيارته ٠

ويعلق كوستلر بقوله :

« فسلسلة الحوادث المؤسفة فى مساء هـذا السبت بدت كأن القـدر قد رتبها ، فعند عودتى الى مسكنى كان قرارى قد اتخذ على الرغم من شعورى بأنه ليس قرارى ، ولكن القرار هو الذى صنع نفسه ٠ وفى أثناء سيرى جيئة وذهابا فى حجرتى انطبع فى ذهنى انطباع مفاجىء مؤداه أننى كنت انظر الى أسفل ومن ارتفاع شاهق الى الطريق الذى كنت أجرى فيه ، فشاهدت نفسى بوضوح كخيال أو ظل يخدم الثورة بالكلام ، تلك الثورة التى كانت تهز الارض هزا » ٠

وتحول كوستلر الى الشيوعية وظل شيوعيا مخلصا لمـدة ست سنوات تالية ، الا أنه حدث له بعد ذلك انقلاب مفاجىء يستوى فى شدته مع الاول ، وقد جاء هذا الانقلاب نتيجة سلسلة من الصدمات الانفعالية بعد أن أسر وسجن فى أثناء الحرب الاهلية الاسبانية ٠

لقد كان الخوف من التعذيب والاهانة ، وتصوره للموت الذى ينتظره بعد الحكم عليه بالاعدام ، ثم تصوره أمام حائط فى الشارع لنشر صورته فى متحف الاوغاد ويداه مصفدتان بالاغلال فى وسط جماهير معادية ــ كل هذه لعبت دورها فى احداث حالة له من التوتر الانفعالى ٠

وزاد هذا التوتر ما شاهده وهو فى السجن من عمليات الاعدام بالجملة ٠ ثم أتت فى ذهنه المثيرات التي أحدثت له التوترات السابقة واوصلته الى اعتناق الشيوعية فقللت من مقاومته ٠

لقد تراكمت متاعبه الجديدة على القديمة حتى أثبتت وطأتها المستمرة أنها أكثر من ان يحتملها جهازه العصبى ، ومن ثم فقد جاء القرار ثانية بالعودة الى سلوكه القديم والارتداد عن اخلاصه للشيوعية ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

طبيعة التحول

تحدثنا فى الفصل السابق عن الاساليب التى واجهها الانسان عبر التاريخ لتحويل معتقداته الدينية والمذهبية ، والتى لاحظنا فيهـــا الارتباط الكبير بين الدين والسياســة ، كمـا يمكننـا ان نرى بانه فى كثير من حالات التحـول استغل الدين للسيطرة السياسية على جماهير الشعب ، كما أن الوسائل التى اتبعت والتى وقع على أثرها التحول كانت وسائل ذات طبيعة اخاذة مثيرة بلغت فى بعض الاحيان حد الهستيريا الجماعية ٠

والآن يجـدر بنا أن ندرس العوامل السيكولوجية التى تتضمنهـا عملية التحول الفردية ــ تلك العوامل التى سجلت فى كتابات السيرة لاشخاص جربوها بأنفسهم ٠ ويصف ثولس R. H. Thouless (١) فى « كتاب سيكولوجية الدين » الصراعات الكامنة وراء مثل تلك التحولات فى ثلاثة مجالات : صراعات فى غالبيتها خلقية ، وصراعات طابعها الســائد عقلية ، وصراعات فى معظمها اجتماعية ، ويقول : ان من المحتمل جدا أن تدخل العوامل الثلاثة فى معظم التحولات ٠

ومن الواضح أن عملية التحول تقوم على صراع عقلى وعلى احساس بعـدم الكفاية ، والا فلن يكون هناك مغزى من وراء تغيير معتقدات الفرد ٠ وفى هـذا

---

(١) Thouless, Robert H. The Psychology of Religion, Cambridge University Press.

الصدد تشبه هذه العمليــة حالة الوقوع فى الحب التى يشرحها المحلل النفسى « ثيودور ريك » بقوله : « ان الحبيب المرتقب يعانى أولا من شعور عدم الرضا ، فقبل ان يقابل فاوست جرتشين وقبل أن يقــابل روميو جوليت كان كلاهما لا يحسان الرضا • ان الحب ليس أزمة ظهرت نتيجة لحالة عــدم رضاء نفسى ، فبعد ان يفشل الفرد فى تحقيق المثل الاعلى للانا Ego-ideal ، يستخدم الفرد الحب كوسيلة لايجاده فى شخص آخر وبهــذه الطريقة يحقق صورة متكاملة • والشخص المحبوب يعتبر بديلا للمثل الاعلى للانا ، والمحبان اللذان يقعان فى الحب يتبادلان تغيير المثل العليا للانا بينهما • والتحول بالنسبة للكثيرين هو وسيلة لاسترجاع المثل الاعلى للانا المفقود وهى عمليــة الوقوع فى الحب ، ولكن حتى الكراهية او امكان ايجاد حل خلاق تستطيع أن تلعب دورا » •

يقول هوفر فى هذا الصدد : « ان هؤلاء الذين يسيطر عليهم الاحساس بالافتقار الى هدف فى حياتهم ـ قد يجدون مضمونا جديدا لا بتكريس انفسهم فحسب لقضية دينية ، ولكن أيضا بالتدريب على الاحساس بالتذمر المتعصب ، والحركة الدينية تتيح فرصا غير محدودة لكليهما » •

وقال وليام جيمس[1] متحدثا عن سيكولوجية الاستسلام النفسى •

« هناك طريقان فقط يمكن بهما التخلص من : الغضب ، والقلق ، والخوف ، واليأس ، او العواطف الاخرى غير المرغوب فيهــا • الطريق الاول هو أنه من الواجب أن تجتاحنا عاطفة مضادة ، والطريق الثانى هو أن نرهق انفسنا بالكفاح لدرجة تضطرنا الى التوقف • وهكذا فاننا ننهار ونستسلم ولا نهتم أكثر من ذلك • وتبدأ مراكز المخ الانفعالية فى العمل ، وننغمس فى حالة تبلد مؤقتة فى الشعور » •

---

(١) James William, The Varieties of Religious Experience, Fontana.

وقد اشرنا من قبل الى ان حالة الارهـاق المؤقت تكون احيـانا جزءا من ازمة التحول ، كما ذكرنا كيف ان بافلوف اظهر بالتجربة ان الاجهاد العصبى هو احد الظروف او الاحوال التى ادت الى تدمير انماط المخ القديمة ٠٠ واستبدالها بانماط جديدة ٠

ويؤكد جيمس هـذا الاستنتاج بعـد دراسـته لآداب التحـول فيقول : « ان الحب سـعيا وراء موضوع ما ، والكراهيـة ، والغضب والقـلق ، واليأس والاجهاد النـاجم عن الصراع العقلى او الاجهاد البـدنى ـ كل هذه حالات تعد العقل ـ فى ظروف بيئية مناسبة ـ للتحول الدينى ٠

وفى التاريخ امثلة كثيرة تؤكد ذلك ، فقـد تعرض « القديس اوغسطين » قبل تحوله لضغط شديد من والدته التى حاولت اقناعه على التخلى عن عشيقته ، كما انه فى قصة « رابعة العدوية » نجد ان الطبيعة الانفعالية التى اتصفت بها عملية تحولها بعد ذلك كانت تحكمها الى حد كبير اعادة توجيه حبها الدنيوى الى الله ، وكانت القديسة كاترين فى جنوا ، ومدام جيون فى منتهى التعاسة فى حياتهما الزوجية قبل تحولهما الذى اتسم بطابع التصوف ٠

وينتقد براون J. A. C. Brown (١) عمل بافلوف فيقول : « ان العيب فى عمل بافلوف هو أنه اذا لم يكن لدينا بعض المعلومات عن الامراض النفسـية من الناحية الشخصية كما يقدمها فرويد، فاننا سوف نضل الطريق لو استمررنا فى الاصرار على الاعتقـاد بانه من الممكن محو كل شيء من العقل ـ اذا تعرض لضغط ـ حتى يصير لوحة نظيفة تماما ، وبأنه من الممكن فرض أنماط جديدة عليه ـ أنماط لا صلة بينها وبين ما وقع من قبل ، ومعنى هـذا انه من الممكن تغيير الشخصية تغيرا كاملا الى شخص يختلف تماما عن الشـخص الاصلى ٠

---

(١) Brown J. A. C. Techniques of Persuation, From Propaganda to Brain Washing. Penguin Book, Cox and Wyman Ltd, London, 1968.

وليس هناك ادلة تثبت ان هـذا صحيح فالتحول يوصف عادة على انه عملية فجائية وان ذروة العمليـة غير قابلة للتغير فى غالبيتها ولكن من السـهل أن نستكشف من حالة مدروسة بعناية الطريقة التى سارت بها الحالة طوال الطريق• فالاتجاهات الجديدة تتخذ ، ولكن الاعتقاد بها يسير بنفس الطريقة التى اتبعت فى الاتجاهات القديمة • فكلاب « بافلوف » التى اظهرت أكبر مقاومة ممكنـة أمام انهيار الانماط القديمة ، كانت قد اظهرت أكبر مقاومة ممكنة للتحول الى الانماط الجديدة ـ فقد ظلت الكلاب كلابا عنيدة ! » •

واحيانا تكون المعتقـدات الجديدة مشابهة بصـورة عجيبة فى المضمون الانفعالى للمعتقدات القديمة ، واحيانا وحتى بعد التحول تدفع المعتقدات القديمة نفسها للظهور فى مجال الشعور من حين لآخر مبينة انهـا لم تمح نهائيا من صفحات العقل ولكنها كبتت فى اللاشعور الذى برزت منه المعتقدات الجديدة فى الاصـل •

وعلى سبيل المثال هنـاك حالة سردها « ذولس » عن رجل مهـذب كان يفرط فى شرب الخمر ولكنه كان يعيش على وفاق مع زوجته واولاده ، ولم يهمل اى واجب عائلى ، وعندما تحول بفضل منظمة دينية تخلى عن عائلته وترك لها مالا قليلا حتى عانت الوانا من الفقر ، وبعد عامين عاد الى حالته الاولى ، ولكنه عاد ليعيش مع عائلته فى جو ودى رسمى ـ ثم عـاد الى شرب الخمر مرة أخرى • ومرة اخرى تحول وفى هذه المرة عاش على المرتب الضئيل الذى منحته له المنظمة الدينية ، ورفض أن يعول زوجته وعائلته اطلاقا ، واعلن ان عائلته « تعيش فى الخطيئة » ، وباع المنزل بينما كانت العائلة تعيش فيه • وهنا نرى كبتا مترددا للجوانب « الطيبة » و « السيئة » فى طبيعة هذا الرجل •

ويجب أن ننظر الى كل انسان على أنه يملك عددا من الطاقات او مجموعات من الافكار ، التى لا يستفيد منها دائما استفادة كاملة فى الاحوال العادية ، ففى الحقيقة يكون بعضها مكبوتا فى اللاشعور حتى يستطيع الانسان أن يتوافق مع النظم الاجتماعية القائمة •

وقد أوضح فرويد ذلك بقوله : « بأن الافكار المكبوتة ليست الافكار غير المقبولة اجتماعيا فقط ولكن الافكار التي لا تتفق مع الكيان القائم للشخصية » .

وعلى سبيل المثال يذكر « شارلز داروين » في الكتاب الخاص بتاريخ حياته كيف ان اهتماماته تركزت على دراسة العلوم ، وكيف فقد الاهتمام بالشعر ومسرحيات شكسبير - وهي النواحي التي كانت عنصرا هاما في حياته قبل التحول .

* * *

والجنس وما يرتبط به من الشعور بالاثم يلعب دورا كبيرا في التحول وفي الظواهر الدينية بصفة عامة .

وجدير بنا ان نلاحظ - كما أوضح ستاربك Starbuck في كتابه « سيكولوجية الدين » - ان معظم حالات التحول تحدث بين سن العشرين والخامسة والعشرين ، وهي الفترة التي يمر بها الشباب بالعواصف والضغوط التي ترتبط بفترة المراهقة . ومثل هذه التحولات تميل الى أن تكون غير دائمة ، وتميل الى الاختفاء كلما زالت الضغوط تدريجيا وبنفس الطريقة ، فان الاطباء النفسيين يؤكدون ان حالات الكآبة التي تظهر عند تغيير النمو في الرجال والنساء قد تتضمن أحيانا عنصرا كبيرا من عقدة الذنب والاعتقاد بالخطيئة الذي يرتبط بالانغماس في الأمور الدينية . ولذلك فالعاطفة الدينية تنمو وتخبو ، وهذا يتفق مع تغيرات مماثلة في الحياة الجنسية ، ففي فترة المراهقة وفترة منتصف العمر تميل الرغبة الجنسية الى أن تزداد ثم تضعف بعد ذلك . ولقد لاحظ الكثيرون أن الكتب الدينية تستخدم الرمزية الجنسية في كتاباتها ، وانها تميل الى التعبير عن الشعور الديني بصور عن الحب الشهواني حتى تصل الدرجة الى وصف الحب الشهواني بصورة من الممكن ان يظن المرء انها وصف لعملية الشبق الجنسي لو أنها وردت في كتاب آخر .

* * *

على انه من جهة اخرى نجد فى الاحزاب السياسية فى البلاد المختلفة ان أولئك الذين انضموا الى جماعات الاقلية ، هم أولئك الاشخاص الساخطون الفاترون غير المستقرين المنبوذون غير المتلائمين اجتماعيا والطموحون الذين لم يوفقوا فى ايجاد مكان لائق لهم فى المجتمع ٠

والواقع ان التحول الى آراء خاصة عمل يبدأ احيانا بعدم القدرة الاجتماعية على ملاءمة الفرد لنفسه مع جماعته ، كما أن البحث المستمر عن فلسفة حقيقية يخفى احيانا البحث عن جماعة اجتماعية يستطيع المرء أن يتلاءم معها حتى يتوقف عن كونه منبوذا فى نظر نفسه ٠ وعندما يجد تلك الجماعة ، سوف يقبل معتقداتها ودرجاتها مهما بدت حمقاء ، ولذلك فان محاولة ازالتها سوف تلقى مقاومة كبيرة من هذا الفرد الذى يخشى العودة الى وضعه القديم ـ كمنبوذ ٠

ولنحول اهتمامنا الى ظواهر أكثر اثارة فى عملية التحول ـ ظواهر لها صلة اكبر « بغسيل المخ » ـ وذلك باستخدامها لمؤثرات مثل : الصيام ، الارهاق البدنى ، بث الخوف المشوب بالذعر ، تنظيم التنفس كما يوجد فى « اليوجا » ، دق الطبول ، الرقص ، الغناء واستخدام العطور او العقاقير المخدرة ٠٠ الخ ٠ كما سبق أن اشرنا لذلك ٠

وقد يكون من المناسب أن نعود فنقول : « ان اثارة انفعالات قوية من القلق والاحساس بالذنب ، او الغضب ، او اثارة صراعات عقلية ، أو ارهاق الفرد عقليا وجسمانيا ، وتطويل مدة الضغط وذلك بترك الفرد فى حالة شك لاوقات مختلفة من غير أن يدرى ما يكون مصيره ـ كل هذا سوف يؤدى الى حالات من القابلية للاستهواء فى الكائنات البشرية ، كما حدث فى حالة كلاب بافلوف ٠

ويستخدم « المسيحى الانجيلى الأصولى » طرقا ثلاثا :

أولا : لا يجادل ابدا ، ولكنه يغرس المعتقدات عن طريق التأكيد والجزم لسامعيه بأن المسيح ينتظرهم ، وعن طريق تكرار التهليل ومدح الله ٠

ثانيا : تصدر منه تحذيرات رهيبة عن نيران الجحيم . ولذلك فان احتمال عدم وجود النار « الجحيم » لا يخطر في بال المستمعين اطلاقا .

ثالثا : بعد ان ينجح في بث الخوف والذنب في نفوس جمهور المستمعين ، يخبرهم المسيحي الانجيلي عن الطريق الذي يمكن به خلاصهم ــ وباعتباره رسول العناية الالهيــة فان جمهوره لن يشكو اطلاقا في قدرته على الوفاء بوعده لهم : « اندموا وسوف تنقلون » .

ولقد كانت حركة الاحياء الديني في نيو انجلند ــ وهي الحركة التي لعب فيها ادواردز دورا كبيرا ــ احدى المظاهر المبكرة للحملات الانجيلية في الازمنة الحديثة . لقد بدأ انصار هذه الحركة نشاطهم الديني في مدينة نورثمبتن ــ في نيو انجلند ــ عام ١٧٣٤ م بعد حالتين من الموت المثير في ابراشية ادواردز . وبعد موعظة لادواردز في يوم من ايام الأحد عن الايمان وجد ان كل شــخص كبير او صغير بعد القاء موعظته ــ قد أدرك الاشياء العظيمة في الحياة الخالدة ، ومن الســكان الذي بلغ عددهم ١١٠٠ قام ٣٠٠ شــخص على الاقل بالاعتراف الارثوذكسي وأعلنوا أنهم تحولوا الى الدين الجديد .

وكان الاعتراف العام اجراء غريبا اتسم بطابع من الشبه الكبير لما نعرفه اليوم باسم اســاليب « غسيل المخ » الفنية . فقــد كان اعتراف التائب امام الاجتماع الديني ــ بلغة منمقة مبالغ فيها تذكرنا باللغة التي استخدمها ضحايا حركات التطهير الستالينية في الثلاثينات : « انني أبدو لنفسي شريرا كريها حقيرا بل أحقر المخلوقات على الارض » . هــذا هو نوع من الكلمات التي نطق بهــا احد التائبين ، وفي تلك الحالة يسأل التائب قائلا : « ماذا أستطيع أن افعله حتى يتم خلاصي ؟ » ، ويكون الرد على هــذا السؤال : « لا شيء » . هنــاك فرصة ضعيفة واحدة ، وهي فضل الله ــ وهذه لا يمكن كسبهــا بمجهود من جانبك ، ولكنك تستطيع أن تأمل فيها ، والطريق الآخر هو اللعنة الابدية » .

وفي المرحلة الثانية ــ يوصل التــائب الى المرحلة التي يقول فيهــا أمام الاجتماع الديني : ان « الله قد يمجد نفسه في لعنتي » ، وانه اذا رفض قبول العقيدة فان كل شيء آخر لا فائدة منه .

وهكذا عندما قال شخص تائب : ان المسيح كان قد ظهر له ، وانه انقذ ، قيل له : ان هذا ليس كافيا ـ بل عليه ان يكون مستعدا لان يقول : انه سوف يستمر فى حب المسيح حتى ولو قرر المسيح ان يلعنه الى الابد • ويبدو على التائب التردد فى قول هذا ـ وعندئذ يقال له ان عليه ان يوافق على ذلك اذا اراد الخلاص لنفسه •

وعندما اشتدت حركة « الاحياء العظمى » الى ذروتها كان الخوف يبث فى نفوس الناس بدرجة كبيرة ويقال عن احد التائبين : انه « عندما كان ينغز فى قلبه ، وعندما راى نفسه معلقا فوق حفرة تشب منها نيران خالدة بلغ به الالم والضيق درجة كبيرة لمدة نصف الساعة حتى اضطر ان يخفى فمه بيديه لكى يمنع نفسه عن الصراخ » • وعندما بلغت حركة الاحياء العظمى ذروتها وصل من انجلترا « هوايتفيلد » زميل جون ويزلى الذى جعل الامور اسوأ مما كانت ، فقد كان هناك : نحيب جماعى ، وتنى جماعى للايدى وحالات غيبوبة ، وانهيار بدنى ، ورعشة وبث مظاهر الهستيريا الجماعية • واخيرا ظهرت فضيحة كان من شانها ان وضعت حدا نهائيا لحركة الاحياء • فقد ادعى ان شبان المدينة وصبيانها يقرأون كتبا اباحية • ونادى ادواردز بعقد اجتماع وطالب الآثمين بالحضور للمثول امام الشيوخ ـ ولكن عندما اكتشف ان بعض الاولاد الذين اشتركوا فى هذا الاثم هم ابناء ابرز الشخصيات فى المدينة ، فقد الآباء حماسهم سريعا فى القضية ، وبدأ الشباب يتحدى ادواردز تحديا سافرا ـ وسرعان ما تدهورت سمعته ومكانته •

وتحول جون وشارلز ويزلى خلال ايام قلائل من الاعتقاد بان انجاز الاعمال الطيبة قد يؤدى الى الخلاص والى ادراك ان الايمان هو الطريق الوحيد للخلاص • وجدير بالملاحظة ان التحولات وقعت عقب نوبة كآبة عقلية عنيفة فى حالة الشقيقين • وكان جون قبل ذلك واعظا ليس له اثر كبير نسبيا ، ولكنه ـ كما سبق ان ذكرنا ـ اكتشف بنفسه الوسائل الفنية التى حققت نجاحا كبيرا فى نيو انجلند • وبهذا فهو سوف يخلق حالة توتر انفعالية قوية فى نفوس جمهوره وذلك ببث الخوف من الجحيم او النار الابدية •

ويقول « سرجنت » في هـذا الصدد : « ان جهنم كانت في ذهن ويزلي حقيقة واقعة واضحة مثل البيوت والحقول التي كان يلقي فيها مواعظه • وكما هو الحال في حالة كلاب بافلوف ، فان أي فرد يصير متورطا انفعاليا سواء أكان ذلك ايجابيا او سلبيا ، فانه عرضة للتحول لان الغضب ضـد الافكار الموحى بها وكذلك الخوف يستطيعان بث الاضطرابات النفسية التي تجعل الفرد قابلا للاستهواء او تعكس انماط سلوكه الشرطي ــ كما يقول بافلوف » •

واحيانا كان ويزلي ــ الذي يتميز بقوة الالهام والشعور الداخلي ــ يركز عينيه على رجل واحد او امرأة واحدة من بين جمهوره ويجعل منه او منها هدفه الرئيسي ، وكان هذا الشخص هو موضوعه المباشر ، فاذا استطاع اقامة علاقة تتسم بالتعاطف معه فان العدوى سوف تسرى منه الى الجمهور •

ثم ظهرت حركة الاحياء في ولاية كنتوكي سنة ١٨٠٠ م فاوردت أمثلة مثيرة لحالة الهستيريا الجماعية ، وكان المسيحي الانجيلي في هذه الحركة هو القس جيمس ماك جريدي المتعصب من انصـار كالفين • وكان اتباعه معظمهم من لصوص الخيل ، ولصوص البنوك ، والقتلة والمجرمين العديدين الذين هربوا من الولايات الامريكيـة الاخرى التي تحترم القـانون • وكانت المرحـلة الاولى لحركة الاحياء تشبه الى حد كبير حركة ويزلي في وسائلها ونتائجهـا حتى جاء الصيف من نفس العام ، فتقرر تنظيم خدمة دينية كبرى في الهواء الطلق • ولمدة شهور كانت الجماهير تقدم الى الولاية على ظهور الخيل وفي عربات مغطاة ، وظل الاجتماع الديني يعقد في الخلاء لعدم وجود مكان يتسع للعدد الكبير من الناس المشتركين في الاجتماع • وكانت تقطع جذوع الاشجار لكي تستخدم كمقاعد للناس ، وصفت منصة من جذوع الاشـجار ، وكان ماك جريدي ومساعدوه يسيرون جيئة وذهابا في الخلاء بين الجمهور حاثين اياهم على التوبة ، وعلى الهرب من اللعنة الخالدة • وكان الاجتماع يستمر انعقاده مدة طويلة من يوم الجمعة حتى الثلاثاء التـالي ــ وكان الاجتمـاع يضاء بالنيران المشـتعلة من أكوام من الخشب •

وفى ظل هذا السيل من الوعظ والصلاة والترتيل أصيبت امرأتان بحالة هستيرية ـ وعندئذ القى مئات من الرجال والنساء الآخرين بانفسهم على الارض وهم فى حالة انهيار ، وفى بعض الحالات كانوا يظلون غائبين عن الوعى لمـدة ساعات ، وعندما كانوا يفيقون بعد ذلك كانوا يعلنون انهم انقذوا ٠

وفى الاجتماع الذى أعقب ذلك فى سنة ١٨٠١ م اجتمع ٢٠٫٠٠٠ رجل وامرأة وطفل فى الخلاء واستمعوا الى مذهب نيران جهنم واللعنة الابدية التى تلحق بالشخص الذى لا يتوب أو يندم ـ وحالما استمعوا الى ذلك ظهرت حالة اضطراب عامة فجرى البعض فى أرجاء المكان صائحين فى ألم ، وتدحرجوا على الارض لمدة ساعات فى فترة واحدة ، بينما اندفع آخرون الى الغابة المحيطة بالمكان صائحين بأعلى أصواتهم : « لقد ضعنا ـ لقد ضعنا » ٠ وبدأ يسيطر على عـدد كبير من الموجودين حركات عصبية واهتزازات عنيفة سرعان ما انتقلت عدواها الى عدد كبير فى الجمهور ، بينما قام عـدد من الرجال والنساء بممارسة عملية أخرى « لطرد الشيطان » ـ وكانوا يزحفون حـول المكان على أيديهم وأرجلهم وهم يعوون ويزمجرون الواحد ضد الآخر لفترات طويلة من الزمن ، وكانت هناك ظاهرة اخرى يطلق عليها « قفز الضفادع » ـ فكان الرجال والنساء سواء ، يشغلون انفسهم بالقفز الواحد فوق الآخر بشكل يشبه قفز الضفدعة ٠ وكما يتوقع المرء ـ فانه فى نهاية الاجتماع كان عدد كبير يروح فى غيبوبة ، أو كان يسيطر عليهم هلوسة بصرية وكان الامر ينتهى بهم الى ممارسة عمليات جنسية متطرفة ٠

والرقص الى حـد الاجهاد وخاصـة مع اسـتخدام المشروبات الكحولية والمخدرات قد يؤدى الى حالات مماثلة من الانهيار العقلى والجسدى ، ففى عشيرة الفودو فى هايتى مثلا يعتقد الناس أن الآلهة تسيطر على الشخص أو تمتلكه حينما يرقص على دقات الطبول ، وهؤلاء الذين تمتلكهم الآلهة يسلكون نفس السلوك الذى يسلكه الآلهة طبقا للتقاليد الخاصة ، وعندما يفيق هؤلاء الأشخاص بعد ساعة أو أكثر لا يتذكرون ـ كما يزعمون ـ أى شىء مما فعلوه ولو أن ما عملوه فى نظر المراقب قد بدا له انه عمل يتسم بالذكاء والفاعلية ٠

وفى جنون الرقص الذى أعقب الموت الاسود فى أوروبا ، والذى وصفناه فى الفصل السابق يمكننا أن نلاحظ الظواهر بين هؤلاء الذين مارسوه .

لقد كان الراقصون لا يرون أو يسمعون شيئا لانهم كانوا غير حاسين بالانطباعات أو الآثار الخارجية عن طريق الحواس ، ولكن كان يسيطر عليهم رؤيا معينة ، وكانت أوهامهم توحى اليهم بالارواح التى كانوا ينادونهـا باسمائها وهم يصيحون ، وبعضهم كان يؤكد بعد ذلك أنهم أحسوا كما لو أنهم غمسوا فى بركة من الدماء ــ الامر الذى كان يرغمهم على القفز عاليا .

وكانت الظواهر الاخرى التى ظهرت بعد « الطاعون » عندما كان سكان أوروبا كلها فى حالة رعب مصحوب بالذهول هى جماعات الضاربين أنفسهم بالسياط لينالوا رضا الله . لقد كانوا يسيرون فى موكب من مدينة الى مدينة وهم يضربون أنفسهم بالسياط أو العصى وأحيـانا كانت عدوى هـذا العمل تسرى بين ربوع البلاد التى ينتقلون فيها .

وهناك أدلة كافية تثبت أن الرقص لعب دورا هاما فى المسيحية الاولى وان سانت امبروز ــ احد الاباء الاولين المشهورين ــ كتب يقول : « ولهذا السبب لا يجب على الحكيم أن يعتبر الرقص دلالة على الاحترام للغرور والفخفخة ــ ولكن يجب أن ينظر اليه على أنه شىء يعمل على رفع كل جسم حى بدلا من أن يسمح للاطراف أن تظل ساكنة على الارض ، أو أن يسمح للقدم البطيئة أن تحسس بالتنميل .. وعنـدما تريد أن تاتى الى حوض المعمودية ارفع يديك .. اننا ننصحك أن تسير بخطوات أسرع حتى يمكنك أن تصعد الى الحياة الخالدة فالرقص حليف للايمان ، وتكريم للرشاقة » .

ويتضح الدور الذى لعبته الدوافع الغريزية الجنسية المكبوتة فى انتشـار الهستيريا انتشارا وبائيا من المرات العديدة التى تكرر حدوثها فى الاديرة .

وقد اورد الدوس هاكسلي مثالا مفصلا في كتابه « Devils of Loudun » ، (١) والامثلة الاخرى تتضح في حالة معروفة في القرن الثامن عشر ـ وهي تتعلق بدير في فرنسا حيث بدأت راهبة تصدر صوت القطة حتى صار المجتمع كله يصدر صوت القطة ولم يتوقفوا عن ذلك الا بعد استدعاء المليشيا المحلية، ثم هناك حركة هستيرية جنونية اخرى وهي هستيريا العض والتي انتشرت في الاديرة في : المانيا ، وهولندة ، وايطاليا . وفي الحالة الاخيرة ظهرت الاثارة الجنسية واضحة لا في العض فحسب بل في مظاهر بعيدة كل البعد عن اللياقة ، مثل : تمزيق الشعر من جذوره ، والعواء الجماعي ، أو القرض على الاسنان بصورة جماعية .

ولقد بين الدوس هاكسلي أهمية هذه الظواهر مع اشارة خاصة الى اثر الرقص والغناء والترتيل والغناء التوقيعي : « لا يستطيع الرجل ـ مهما بلغت درجة تمدينه ـ أن يستمع مدة طويلة لدق الطبول الافريقية ، أو الغناء الهندي ، أو ترتيل التراتيل الويزلية مع الاحتفاظ بشخصيته النقادة الواعية لا تمس ، وسوف تكون تجربة مثيرة لو اخذنا جماعة من كبار الفلاسفة من أكبر الجامعات واغلقنا عليهم غرفة جوها حار ومعهم دراويش مغاربة أو أنصار الفودو ، ثم نقيس بواسطة ساعة ايقاف قوة المقاومة السيكولوجية لديهم ضد آثار الصوت التوقيعي .. وكل ما نستطيع ان نتكهن به ونحن واثقون هو أنه لو تعرض الفلاسفة لهذه التجربة مدة طويلة ، لانتهى بهم الامر الى اصدار اصوات وحركات هؤلاء المتوحشين » .

ومن الواضح أنه من الجائز جدا أن التحول يسبقه نوع من الصراع العقلي ذلك لان هؤلاء الراضين عن أنفسهم هم اقل الناس استعدادا للتحول . وجدير بالذكر أن التحول أحيانا ما يتبع حالات من الارهاق العقلي أو البدني وكثيرا ما تنتج الحالات التصوفية أو شبه التصوفية من تجارب يمر بها المرء عندما يكون منفردا في زنزانة ، أو في سجن ، وخاصة عندما يفرض الرعب أو الخوف نفسه فرضا سائدا على التوتر .

---

(١) Huxley, Aldous, The Devils of Loudun, Chatto and Windus.

ويصف جيمس حالة سكير كان قد رهن كل بضائعه وباع كل شيء يملكه لشراء المشروبات الروحية :

« لم أكن قد تناولت طعاما لمدة أيام ، ولمدة اربع ليالى سابقة كنت اقاسي من حالة هذيان تصاحبها رعشة من منتصف الليل حتى الصباح • لن اجد نفسي فى مأزق ـ اذ عندما تحين الساعة ـ لو قدر ذلك ـ فانني سوف أجد مأوى فى قاع النهر • ولكن الله أراد غير ذلك فعندما حانت الســـاعة لم أكن قادرا على السير ربع المسافة الى النهر • وبينما كنت أجلس مفكرا بدا لى احساس بوجود شيء هــائل عظيم لم أدرك كنهه فى تلك اللحظــة • وعلمت بعد ذلك انه كان المسيح ـ صديق الخاطىء • وسرت الى البــار ودققت عليه بقبضــة يدى حتى اهتزت الزجاجات من عليه • وحملق فى هؤلاء الجالسون يحتسون الخمر بحب استطلاع مشوب بالاحتقار • وقلت انني لن اتناول جرعة خمر مرة اخرى حتى لو مت فى الطريق ـ وهذا ما احسست انه سوف يحدث لى قبل الصباح . وهتف هاتف « اذا اردت ان تحــافظ على وعدك فاذهب واحبس نفسك » وذهبت الى اقرب مخزن للسكك الحديدية وحبست نفسى فيه » •

وبعد ذلك بوقت قصير ذهب الى ارسالية ومارس عملية التحول •

ويسرد جيمس حالة اخرى عن رجل أحس نوبة حــادة من الخطيئة امتنع بعدها عن الأكل طيلة اليوم ، وحبس نفسه فى غرفته فى حالة يأس كامل وهو يصيح بصوت عال : « حتى متى يا الله •• حتى متى يا الله ؟ » ويستمر فى الحديث فيقول : « بعد أن كررت هذا بكلمات مماثلة عدة مرات بدا لى انني اغوص فى حالة من اللاشعور • عندما افقت لنفسى كنت جالسا على ركبتي اصلى لا من اجل نفسي ولكن من اجل آخرين •• لقد احسست بالخضوع لارادة الله صاغرا •• لارادته أن يفعل بى ما يراه خيرا لى • وتحول اهتمامى بنفسى الى الاهتمــام بالآخرين » •

ولقد أوضح لوبا Louba (١) ـ الذى أجرى دراسات عديدة على ظواهر التحول ـ أنه ليس من الضرورى أن توجد صلة بين مضمون التحول وبين الدين اطلاقا ـ وأعطى أمثلة عن تحولات السكارى الى امتناع كامل عن تعاطى الخمر ـ فقد كانت التحولات تتسم بالطابع الخلقى ولا تتضمن أية معتقدات دينية .

ويذكر لوبا أنه كم من مرة صاحب التحول شعور من عدم الكمال أو شعور من عدم الكمال الخلقى ، او الخطيئة يصاحب شعور الشغف والتلهف .

ويورد لذلك أمثلة عديدة تتراوح فيهـا الخطيئة بين العربدة وبين العزة الروحية .

ومغزى هذا بالاصطلاحات السيكولوجية هو ان الخاطىء يحس انه معزول عن الحقيقة اما فى صورة الله ، واما فى حياة الكائنات البشرية الأخرى ، ويحس رغبة قوية لازالة السدود . وهذا له أهميته خاصة عندما نتحدث عن الاعترافات فى الباب (الرابع) ، ذلك لانه يجب أن ندرك أنه يوجد فى معظم النـاس رغبـة طبيعية لمشـاركة الآخرين فى تجـاربهم وخبراتهم العقليـة والانفعالية ـ وهى التجارب التى يحس فيها المرء أنه معزول عنها لأنه يحس أنه مختلف اما بسبب الشعور بالخطيئة واما لايمانه بمعتقدات تتعارض مع معتقدات الآخرين .

والاحساس بالحاجة الى التخلص من الشعور بالانعزال عن طريق الاعتراف هو احســاس حقيقى جـدا بل ملح . ولقـد بين المحللون النفســيون مثل « أوتورانك » و « ايريك فروم » حقيقة هى ان عبء الفردية الانعزالية هو عبء ثقيل بالنسبة لنا وخاصة بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من امراض عصبية ، ويوجد فى الانسان احساس بالخوف من الحرية ، احساس يدفع الناس الى اغراق انفسهم داخل جماعة ما . والاعتراف هو أحد الوسائل الممكنة الواضحة التى يستطيعون به أن يفعلوا ذلك ـ لأنهم بهذه الطريقة يفقدون خواصهم التى هى

(١) Louba, H., The Psychology of Religious Mysticism, Kegan Paul.

سبب الاحساس بالانعزال • والوسيلة الأخرى هى أن يفقد المرء الاحساس فيه بكيانه الشخصى وذلك باغراق كيانه الشخصى وادماجه فى السلوك الجماعى للجمهور •

وكما يقول هوفر : « لأننا عندما نتخلى عن الذات ونصير جزءا فى كل متكامل متماسك ، فاننا لا نتخلى عن مميزاتنا الشخصية فحسب بل نتخلى أيضا عن المسئولية الشخصية • وعندما نفقد حريتنا الشخصية فى تضامن أو اتحاد حركة ديكتاتورية ، فاننا نجد حرية جديدة بان نفعل كما تفعل الغوغاء ـ وقد تتخذ تلك الحرية اشكالا مختلفة مثل « طرد الشيطان » ، أو الذهاب فى حالة غيبوبة طويلة ، أو من ناحية أخرى ـ اكتساب الحق فى الكراهية ، أو معاملة الآخرين بقسوة ، أو الكذب أو التعذيب أو القتل ، بل اقتراف اية جريمة من غير الاحساس بالذنب او العار او الندم » •

على أن هناك من ناحية أخرى جانبا هاما من « قابلية الاستهواء » وهذا الجانب هو انه خلال الحياة ـ بوجه عام ـ نجد اننا نكافأ لأننا نفعل كما يفعل الآخرون ، ونعاقب لأننا لم نوفق فى التوافق والامتثال ويقوى من هذا الدافع للتقليد أو المحاكاة شعور القلق ، لأن القلق ـ كما يقول فرويد ـ هو التعبير عن الدوافع الفطرية القوية المضادة للمجتمع من اللاشعور ـ وهو الذى قد يؤدى بنا الى اعمال لا يوافق عليها المجتمع ، ولذلك قد نكون على استعداد لتحاشيها وبهذا نظهر بمظهر الموافقين أو الممتثلين بدرجة أكبر •

ولقد أظهر بعض علماء النفس أن القلق يؤدى الى تضييق مجال الانتباه ـ الذى يطلق عليه « نفق الرؤيا » Tunnel Vision ، وعندما يحس الناس القلق يصبحون غير قادرين على الاهتمام بالموقف كله بالدرجة التى تمكنهم من القيام بهذا بصورة معقولة منطقية ، وتدفعهم النوازع الفطرية الى القيام بالتصرف باول ما يخطر ببالهم ، وهذا يحدده ما يفعله الآخرون فى نفس الوقت •

والتحـول الديني ـ من وجهـة نظر العالم النفسي ـ قد يتخـذ صـورة هي ملء الفراغ الذى تسبب فى التذمر أو عدم الرضا من الشخصية القائمة ، وفى تلك الحالة يقدم التحول ـ الجزء الناقص من اللغز ، أو قد يتخـذ التحول صورة أخرى هي استبدال جزء من السلوك بآخر ربما ظل فى ثبات لعدة سنوات سابقة • ومن الواضح ـ أن التحول يغير معتقدات الفرد واعماله ، ولكن ما كان هذا يحدث لو أن المعتقدات الجديدة لم تكن فى حالة اتفاق تام مع شخصية الفرد الأساسية •

واخيرا نود أن نشير الى أن العوامل او العناصر الانفعالية التى أكد هاكسلى اهميتها فى حالة الفودو ، والتى استخدمها سارجنت فى كتابه « معركة العقل » لكى يبرهن على رأيه « بأنه من السهل التعـامل مع النـاس » ـ هذه العوامل الانفعالية من الممكن ان تفسر تفسيرا آخر • وهناك دليل يقدمه المتخصصون فى هذا الميدان ـ وهم أكثر تخصصا من هاكسلى وسارجنت ـ بأن مثل هذه الأعمال تتسم بطابع القصد والارادة اكثر مما يبدو لنا ـ فهى فى الواقع « أعمال تقوم على المحاكاة والتقليد » •

وهكذا فان تلك الأعمال وغيرها ذات الطبيعة المماثلة هى اعمال يدخل فيها عنصر « النية والارادة » وهذا يتعارض مع هاكسلى الذى يقول : « بأنه لو وضع فلاسفة فى جو تسوده الأصـوات التوقيعية الصـادرة من طبول الفودويين من تاهيتى ، لانتهى الأمر الى الصياح والعواء والرقص مثل المتوحشين » •

وبالرغم من كل هذه الاختلافات والتناقضات فاننـا لا نستطيع أن ننكر أن تأثير النغم والترتيلات ودقات الطبول وغيرها مما سبق أن شرحناه لها تأثير كبير على العقل البشرى ، وقابليته للاستهواء •

الباب الثالث

بين العلاج النفسي وطب الأمراض العقلية

- الفصل الأول
  أساليب العلاج النفسي واستخدام العقاقير
- الفصل الثاني
  الصدمات الحديثة وجراحة المخ ..



الفصل الأول

أساليب العلاج النفسي واستخدام العقاقير

قد يبدو لنا ان نتساءل هل هناك علاقة بين أساليب العلاج النفسى وتلك التى تستخدم فى عمليات التحول الدينى أو السياسى ؟ وهل هناك ارتباط بين الآثار الفسيولوجية التى تنتج عن كل منها ؟

لقد سبق ان أشرنا الى ان العلاج الحديث الناجح فى الطب النفسى استطاع ان يحدث فى الفرد جميع مراحل النشاط الذهنى من مرحلة زيادة الاستثارة حتى مرحلة الانهيار والاستسلام الصامت : اما بوسائل سيكولوجيــة ، واما بتلك الأساليب التى تستخدم فى علاج مرضى الطب النفسى .

والواقع أن بعض اساليب العلاج النفسى توضح أن أساليب التحول الدينى والسـياسى لهـا ما يقابلهـا فى تجـارب الطب النفسى Psychiatric اذ يمكن احداث التحولات الفسيولوجية فى وظـائف المخ باستخدام مثيرات سيكولوجية متكررة دون الالتجاء الى العقاقير ، أو احداث انهاك خاص للفرد ، أو أى ضغط صناعى يعين المريض على عملية التفريغ الانفعالى ، بالرغم من أن هذه الوسائل تساعد فى الاسراع على احداث التفريغ الانفعالى المطلوب .

وهذا الفصل يختص بدراسة بعض الأساليب التى تستخدم فى علاج مرضى الطب النفسى حتى نستطيع أن ندرك مدى العلاقة بينها وبين تلك التى تستخدم فى عمليات التحول الأخرى .

على أننا سنقتصر بحثنا فى هذا الفصل على : التنويم المغناطيسى ، والتحليل النفسى ، واستخدام العقاقير لما لها من تشابه كبير بأساليب التحول الدينى والسياسى من ناحية الآثار الفسيولوجية التى تحدثها فى وظائف المخ .

التنويم المغناطيسى وقابلية الايحاء :

ارتبط التنويم المغناطيسى فى الماضى بمفاهيم أو تصورات خيالية مثل : المغناطيسية الحيوانية ، وأثر النجوم ، وأكاذيب مماثلة وبرغم أن الناس لا يزالون يتخبطون حول حقيقته فان نظرية التنويم المغناطيسى وممارستها من الموضوعات الهامة التى تشغل الرأى العام ، وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بما نحن فيه فى هذا الجزء من الكتاب .

ولقد كان أبرز ما اهتمت به الأعمال التجريبية فى هذا الميدان فى السنوات الأخيرة ، هو تحديد الأخطاء التى وقع فيها المنومون المغناطيسيون الأول .

وقبل أن نحاول شرح المظاهر الرئيسية للتنويم المغناطيسى نذكر القارىء هنا بما أشرنا اليه فى الباب الثانى عن « المغناطيسية الحيوانية » التى ترتبط بشخصية « فرانز أنطوان مسمر » الغامضة .

ولندخل فى شىء من التفصيل عما جاء به مسمر ، اذ تقوم نظريته على أن هناك تأثيرا متجاوبا بين الأجرام السماوية والأرض والأجسام الحية ، ووسيلة هذا التأثير هى المادة السائلة أو الغاز المنتشر فى الكون . ولقد دلت التجارب على أن انتشار المادة دقيق بدرجة كافية لأن تنفذ فى كل الأجسام بدون فقدان كبير للطاقة .

ويتم هذا العمل من مسافة بعيدة بدون أى تدخل أو مساندة من مادة وسيطة . وهذه المادة ـ مثل الضوء ـ تنعكس عن طريق المرايا .

وهكذا كان من المعتقد ان المغناطيسية الحيوانية نوع من السائل أو الغــاز الذى لا يمكن لمسه أو الاحساس به ، وكان الســائد ان الافتراض بأن الارادة البشرية كانت تتحكم فى انتشار هذا الغاز ـ غير القابل للمس ـ وتوزيعه وعمله ، كما كان معتقدا ايضا ان من الممكن انعكاس هذا الغاز بواسطة المرايا ورؤيته .

كما أعتقد أن الذين ينومون مغناطيسيا او الذين يمشون وهم نيام كانوا يرون هذا الغاز وهو يسبح من أعين المنومين المغناطيسيين وايديهم ، ومع ذلك لم يتفق هؤلاء على لون هذا الغــاز ، وهل كان أبيض او احمر او ازرق اللون . وكل هذا يبدو فى نظر المفكر الحديث غير معقول ولكن مسمر يؤكد فى ادعائه ان هذه المبادىء سوف تشفى الأمراض العصبية .

ولم تلق الأساليب التى اتبعها مسمر قبولا فى الأوساط الطبية والدينيــة ولا سيما الأوساط الطبية فى فيينا ، كما كان نجــاحه المؤكد فى شفاء المرضى الذين استعصى على الأطباء علاجهم ـ سببا فى اشتداد الكراهية نحوه ـ والخيرا عندما اوشك مسمر على شفاء فتاة ذات مركز مرموق من العمى ، نجح الأطبــاء المؤمنون فى ابعاده عن فيينا ، فذهب الى باريس .

واشتد ضغط العمل على مسمر ، فاضطر الى ادخال العلاج الجماعى وهذا يشبه الى حد كبير الطريقة التى اضطرت العيادة النفسية الحديثة الى اتباعها . ويبدو أن عيادته كانت مكانا مرموقا حقا . وكان العلاج يجرى فى قاعة واسعة كانت تغلق فيها النوافذ لكى يسود الظلام ، وكان يضع فى وسط القاعة حوضا واسعا مفتوحا يبلغ ارتفاعه حوالى قدم ، وكان كبيرا بدرجة تسمح لثلاثين مريضا بالوقوف حوله .

وكان الحوض يملأ بالمــاء ، ويوضع به برادة حديد ، وزجاج مســحوق ، وزجاجات من أنواع مختلفة مرتبة على نمط منتظم . وكان الحوض مغطى بقطع طويلة رفيعة خشبية لها فتحات تبرز خلالها قضبان حديدية متصلة ، وكان المرضى يضعون تلك القضبان الحديدية على مواضع الألم، وبذلك يسمحون للقوى العلاجية

الكامنة فى المغناطيسية الحيوانية أن تعمل • وكان يطلب من المرضى أن يلتزموا الصمت ، كما كانوا خـلال هذه التجربة يستمعون الى موسيقى تعزفهـا فرقة موسيقية مختفية عن الأنظار • وفى اللحظة السيكولوجية كان مسمر يظهر مرتديا روبا حريريا زاهيا ، وكان يتنقل بين المرضى وهو يحملق فى عيونهم ويمر بيديه فوق اجسامهم ، ويلمسهم بعصا خشبية طويلة •

وليس هناك من شك فى أن عددا كبيرا من هـؤلاء المرضى كانوا يعتبرون هذا العلاج مفيدا ، بل كانوا يعلنون ان مسمر استطاع شفاءهم بعلاجه •

ويصعب علينا اليوم أن نقرر : هل كان مسمر دجالا استغل قابلية مرضاه للاستهواء ، أو انه كان يؤمن باخلاص فى الحقيقة العلمية التىتقوم عليها نظريته .

ولقد هاجم «برنهيم» تدجيل مسمر المقصود وأثره السيىء على ممارساته ، ولكن « مول » الذى يعتبر حجة فى الكتابة عن تاريخ التنويم المغناطيسى كان أقل قسوة من برنهيم فى حديثه عن مسمر فقال :

« اننى لا اريد أن أنضم الى ركب هؤلاء الذين يشنون هجوما على مسـمر فقد مات مسمر ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه الآن ضد هؤلاء الذين لم يضعوا فى اعتبارهم الظروف او الوقت الذى عاش فيه • اننى أميل الى الاعتقـاد بأن مسمر اخطأ فى تعاليمه ، ولكن هذا لا يبرر شن الهجـوم ضد خلقه الشخصى ، ولذلك دعنا نتدارس ما كان يعتبر جريمة مسمر الكبرى • لقد اعتقد مسمر فى البداية انه يستطيع شفاء الأمراض بواسطة المغناطيس ، واعتقد بعد ذلك أنه يستطيع شفاء الأمراض بفضل قوة كامنة فيه يستطيع نقلها الى الحوض المملوء بالمياه • كانت هذه عقيدته القوية ولميحاول اخفاءها . ولقد اعتقد آخرون أنخيال المريض كان يلعب دورا ، أو ان مسمر كان يحدث آثاره بوسائل خفية معينة •

« وبعد ذلك وتدريجيا ظهرت الأسطورة بان مسمر كان يمتلك سرا ما ، وانه استطاع عن طريق هذا السر ان يحدث آثاره على الناس ، ولكنه رفض الكشف

عن هذا السر . والحقيقة هي أن المسألة لم تكن مسألة سر اخفاء مسمر طالما كان يتخيل أنه يمارس قوة فردية من نوع ما .

« أخيرا ، فاذا كان مسمر يستخدم هذه القوة المزعومة من اجل كسب المال ، فانه لم يكن اسوأ من الأطباء الحديثين الذين يعالجون المرضى لكسب قوتهم وهم محقون فى هذا . ولم يكن سلوك مسمر أسوأ من هؤلاء الذين يكتشفون هذه الأيام عقارا جديدا ويعتبرون انتاجه مصدرا للربح . لذلك يجب الا نتجنى على مسمر ونوقف حملات الهجوم ضده ، فهو لم يفعل أكثر مما يفعله هؤلاء الناس الذين اشرنا اليهم . هؤلاء الناس الذين لا يتعرضون للنقد او التجريح حتى ولو كانت العقاقير التى يكتشفونها لا تملك اية خواص علاجية » .

وفى باريس تدخلت الحكومة فى أعمال مسمر فعينت لجنة للتحرى فى مدى صحة مزاعمه ، واهتمت اللجنة بوجه خاص بما كان يطلق عليه « ازمات مسمر » .

وفيما يلى ما أدلى به الماجور « شارلز دى هاسى » أحد المرضى الذين عالجهم مسمر الى تلك اللجنة بعد ان أقسم على صحة أقواله :

« بعد أن عالجنى أطباء آخرون طيلة اربع سنوات من غير جدوى استشرت « مسمر » ، وكان رأسى يهتز بصورة مستمرة ، وكانت رقبتى تميل الى الأمام ، وكانت عيناى جاحظتين وملتهبتين ، وكان ظهرى مشلولا تقريبا ، وكنت أنطق الكلمات بصعوبة ، وكنت اضحك برغمى ولأسباب غير واضحة ، وكنت اتنفس بصعوبة ، وكنت اقاسى من الم شديد بين كتفى ، وكنتاعانى من هزات عصبية ، وكنت اترنح فى سيرى .

وعالجنى مسمر ، ومررت بازمات عاطفية قوية وكنت احس برودة الثلج تسرى فى اطرافى يعقبها حرارة شديدة وسيل من العرق ، واختتم دى هاسى تصريحه بقوله : واخيرا وبعد مرور اربعة شهور شفيت من مرضى » .

ولقد وصلت تلك اللجنة الى قرار وهو : « لقد ظهر بالتجارب القاطعة أن الخيال بدون القوة المغناطيسية يؤدى الى الهزات العصبية أو الاضطرابات ، وان

القوة المغناطيسية من غير الخيال لا تترك اى اثر » ، واتفق أعضاء اللجنة بالاجماع على راى فيما يتعلق بوجود القوة المغناطيسية وفائدتها فقالوا : « ليس هناك ما يثبت وجود السائل او الغاز المغناطيسي الحيواني ، ولذا فان هذا السائل او الغاز ليس له اثر مفيد طالما كان غير موجود • ان التاثيرات العنيفة التى نشاهدها فى المرضى تحت العلاج هى تاثيرات تعزى الى اضطراب الخيال ، والى المحاكاة الآلية التى ترغمنا لا اراديا على أن نكرر ذلك الشيء الذى يصيب احساساتنا » •

وفى نفس الوقت تقريبا نشرت الجمعية الطبية الملكية تقريرا مماثلا مؤداه « انه من وجهة النظر العلاجية فان المغناطيسية الحيوانية ليست الا فنا يجعل الناس الحساسين يصابون بهزات عصبية عنيفة » ، وكانت نتيجة تلك التقارير ان قضى على مستقبل مسمر كطبيب يعالج الحالات العقلية ، وغادر مسمر فرنسا بعد ذلك بوقت قصير •

لقد ارتبط فى اذهان الناس ان مسمر كان أول من اكتشف التنويم المغناطيسى ، ولكن الواقع أن الظاهرة الطبيعية للتنويم المغناطيسى كانت معروفة منذ الاف السنين ، وأن مسمر ــ فى الحقيقة ــ لم ينوم مرضاه تنويما مغناطيسيا .

لقد بدا أن بعض مرضاه كانوا يصابون بهزات عصبية هستيرية ، وبهزات عاطفية مماثلة ، ولكن ليس هناك فى عمل مسمر ما يشير الى ظاهرة التنويم المغناطيسى الطبيعية الحقيقية • ويعجب المرء كيف ارتبط اسم مسمر باكتشاف التنويم المغناطيسى مع أن ذلك كان اكتشاف أشخاص آخرين !

كان اول من توصل الى ايجاد حالة النوم الهادىء « الغيبوبة » وهى الحالة التى تعتبر جانبا أساسيا فى التنويم المغناطيسى هو المركيز بايسجور احد تلاميذ مسمر ، فبينما كان يحاول احداث الهزة العصبية الهستيرية العادية لشاب راعى غنم يدعى فيكتور باستخدام طريقة التنويم بالتاثير المغناطيسى ، اكتشف المركيز بايسجور ان فيكتور راح فى نوم هادىء لم يستيقظ منه الا بعد وقت طويل ، ولم يستطع فيكتور أن يتذكره بعد أن افاق لنفسه •

وقد لفتت تلك الظاهرة الانظار ، وسرعان ما تحدث آخرون عن ظواهر مختلفة للتنويم المغناطيسي مثل الحالات الهستيرية السلبية ، كأن لا يرى الشخص اشياء موجودة فعلا ، ومثل حالات عدم الاحساس كعدم احساس الشخص عندما يلمسه آخر ، وحالة عدم الاحساس بالألم وغيرها من الحالات من الحـالات التى سوف نناقشها فيما بعد .

* * *

والآن قد نتساءل كيف تحدث حالة التنويم المغناطيسي ؟

فى الواقع هنـاك وسـائل عديدة لاحداث التنويم المغناطيسى ، وكل منوم مغناطيسى مجرب له وسائله التى تختلف اختلافا طفيفا عن الوسائل التى يتبعها الآخر ، ومن الجائز ان أكثر الوسائل شيوعا هى الوسيلة التى تتبع الأسلوب التـالى :

فالمنوم المغناطيسى يحـاول الحصول على تعـاون من الشخص الذى ينومه مغناطيسيا وذلك بأن يوضح له مزايا حالة النوم المغناطيسى كالمســاعدة التى يحصل عليها المنوم لمعالجة مرض عصبى .

ويحـاول المنوم المغنـاطيسى ازالة اية مخـاوف فى نفس الشـخص المراد تنويمه ، وقد يخبره بأن المرور بحالة الغيبوبة ليس دليلا على الضعف أو عدم الاستقرار فى شخصيته بل بالعكس فان المرور بحالة الغيبوبة والخضـوع لتأثير المنوم المغناطيسى هى دليل على ذكائه ، وقدرته على التركيز .

وتاتى بعد ذلك الخطوة التـالية ، وهى أن يطلب المنوم من الشخص الذى يراد تنويمه ان يرقد على مسند ، أو يجلس جلسة استرخاء فى كرسى مريح ، ثم تقلل المؤثرات الخارجية الى الحد الأدنى ، وذلك باسدال الستائر وبالتخلص من الضوضاء التى قد تكون مصدرا لتشتيت الانتباه فى أثناء العملية . واحيـانا يطلب المنوم من الشخص المراد تنويمه أن يتجه بأنظاره الى شىء معلق فى السقف فوق مستوى النظر حتى يضطر الى النظر لأعلى قليـلا ، وهـذا يؤدى سريعـا الى اصابة أعصاب العين بالتعب فيزداد تقبل الشخص الذى سينـام للاستهواء

بانه يحس التعب وان عينيه مغلقتان ، ثم يبـدا المنوم فى التحدث اليه بلهجـة خافتة ، ثم يكرر له مرات ومرات الايحـاءات بانه يحس ميلا الى النوم والتعب وان عينيه مغلقتان وانه يروح فى سبـات عميق ، وانه لا يسمع سوى صوت المنوم ٠ فاذا كان الشخص المراد تنويمه حساسا ، فانه يروح فى الغيبوبة بعد دقائق قليلة ، ويبدا المنوم فى العمل على تعميق تلك الغيبوبة فيه ، وعلى اختبار ردود الأفعال من جانبه وذلك عن طريق ايحاءات يقوم بهـا المنوم ويصعب على النائم تنفيذها ٠ فمثلا يطلب المنوم من الشخص المراد تنويمه أن يشبك يديه ثم يخبره بانه من المستحيل أن يفصل يديه بعضهما عن بعض ويحاول الشـخص المنوم ـ لدهشته الكبيرة ـ أن يفصل بين يديه ، ولكنه لا يستطيع فعلا ٠ ومثل هذه الايحاءات الناجحة هي اداة مسـاعدة لتعميق فترة الغيبوبة أو فترة النوم المغناطيسى حتى يمكن استخلاص كل الظواهر المغناطيسية فى النهاية ولا سيما فى حالة الأشخاص المنومين الذين يستجيبون ٠

هذه باختصار هى الوسيلة العادية لوضع الشخص المراد تنويمه فى حالة غيبوبة ، وانه ليصعب ان نحدد أى عامل من العوامل المشار اليها هو المؤثر فى العملية ٠

فالعزلة مثلا والهدوء والظلام ليست أمورا هامة ، فقد تمت عملية التنويم المغناطيسى فى مناسبات كثيرة بنجاح فى جو من الضوضاء وفى وضح النهار ٠ بل كثيرا ما تتم عملية التنويم المغناطيسى بنجاح على خشبة المسرح امام حشـد من الجمهور ، والاكثر من ذلك ان بعض المنومين المغناطيسيين يزعم أن الضوضاء والضوء يساعدان على احداث حالة الغيبوبة العميقة للاشخاص المراد تنويمهم ٠

وان كانت لم تجر اعمال تجريبية على هذه النقطة فان الرد على ذلك هو ان الظروف المختلفة تناسب اشخاصا مختلفين ٠ فبينمـا يكون من الأسهل تنويم الاشخاص ذوى النفس الانبساطية والأشخاص المصابين بحـالة هسـتيرية فى ظروف يسودها الضوضـاء والاضطراب ، يفضل الأشـخاص الذين يتصفون بالانطواء النفسى والأشخاص القلقون أن ينوموا مغناطيسيا بعيدا عن الاضواء ،

بل فى جو هادىء فى غرفة الاستشارة . وبالرغم من ذلك فان كل هـذا مجرد حدس وتخمين ولم يصل الأمر الى الحقيقة الثابتة .

وبعكس ما يعتقد معظم الناس فانه ليست هناك صعوبة كبيرة فى ايقـاظ الشخص الذى ينام عندما يقرر المنوم انهاء فترة الغيبوبة . وعادة يوحى المنوم له بانه عندما يصل فى العد حتى رقم ١٠ ، سوف يستيقظ من حالة الغيبوبة ، وبانه سوف ينسى كل ما حدث له فى اثناء فترة الغيبوبة ، وانه سوف يحس الانتعاش . وليست هناك سجلات تشير الى صعوبات واجهها المنوم عندما حاول ايقاظ اى شخص تحت تاثير التنويم المغناطيسى ، وحتى فى الحالات التى يصعب فيها على المنوم ايقاظ الشخص لاسباب ما ، فان كل ما يمكن أن يحدث هو ان يستمر هذا الشخص فى نوم عميق طبيعى يستيقظ منه بعد ساعات قليلة .

* * *

والآن يمكننـا ان نسـأل : ما هى انواع الظواهر الطبيعيـة التى يمكن استخلاصها ؟

ان أول ظاهرة بل اكثر الظواهر وضوحا هى الزيادة الهـائلة فى تقبـل الشخص الواقع تحت تاثير التنويم لأى ايحاء يقدمه المنوم ، ويحاول تنفيذه بقدر المستطاع . فاذا اوحى المنوم اليه انه كلب فانه سوف يزحف على يديه ورجليه ويدور فى الغرفة وهو يعوى ، واذا أوحى اليه انه هتلر فانه سوف يرفع يديه فى الهواء ويبدا فى الخطابة على طريقة الفوهرر .

وقد نكون مبالغين لو قلنا : ان الأشخاص المنومين مغناطيسيا يتقبلون جميع الايحاءات من المنوم المغناطيسى حتى فى حـالة الغيبوبة العميقة ، وينطبق هـذا بوجه خاص على الحـالة التى يوحى فيها المنوم المغناطيسى للشـخص بعمل شىء يتنافى مع المفاهيم الأدبية او الخلقية التى يؤمن بها هذا الشخص . ونسوق على سبيل المثال قصة تؤيد هذا ، فقد كان شاركوت اخصائى الأمراض العصبيـة الفرنسى يلقى محـاضرة عن التنويم المغناطيسى ، وكان يشرح ظواهر الغيبـوبة المغناطيسية مستعينا فى شرحه بفتاة فى سن الثامنة عشرة . وعندما نومها تنويما مغناطيسيا استدعى فى امر هام خارج قاعة الدرس ، وتولى احد مساعديه اتمام

الشرح والايضاح • ولما كان المساعد شخصا تنقصه الجدية ، فانه أوحى الى الفتاة الواقعة تحت تأثير التنويم المغناطيسي أن تخلع ملابسها • ولكنها استيقظت على الفور وصفعته على وجهه وخرجت من الغرفة !

واحيانا لا يستجيب الشخص المنوم لايحاء المنوم لأسـباب غير معروفة • اسباب لا ترتبط بالمفاهيم الأدبية او الخلقية ، فمثلا قد يوحى المنوم له أنه منضدة او سيارة ، ولكن الشخص لا يستجيب له ، ويرفض مثل هذا الايحاء •

وفي هذه الحالة لابد من وجود سر وراء هذا السلوك ، ولا بد من اجراء تجربة طويلة على مثل هذا الشخص لمعرفة السر وراء رفضه تقبل هذا الايحاء •

والظاهرة الطبيعية الثانية التي نراها في اغلب الأحيان هي المعروفة باسم « الهلوسة أو الهوس الايجابي » وفي هذا المقـام يرى ويسمع ويحس الشخص الذي نوم اشياء ليست موجودة موضوعيا • فاذا قيل له : « ان خطيبته تجلس في كرسي امامه فانه يبدأ في تحيتها ثم يعبر الغرفة ويقبلها • واذا قيل له : ان اسدا دخل الغرفة من النافذة فان كل اعراض الخوف تظهر عليه ، بل قد يندفع مرعوبا خارج الغرفة •

« والهلوسة السلبية » عكس « الهلوسة الايجابية » هي حالة يصاب بها الشخص المنوم ايضا • وفي هذه الحالة لا يستطيع الشخص ان يرى أو يسمع او يحس اشياء أو اشخاصا موجودين فعلا امامه • فاذا اوحي اليه مثلا انه والمنوم هما الشخصان الوحيدان في الغرفة فانه لن يلتفت الى الآخرين الموجودين في الغرفة ، ويسلك سلوكا كما لو أنهم غير موجودين فعلا في الغرفة ، واذا اوحي اليه انه لا يستطيع ان يحس اية لمسة لجلده ، أو بانه لا يسـتطيع أن يسمع صوتا معينا ، فانه سوف يسلك سلوكا مطابقا لذلك •

وكمـا ان الهلوسة السـلبية يمكنهـا احداث حالة فقـدان الاحسـاس بحيث لا يستطيع الشخص المنوم أن يحس لمسـة فوق جلده ، فانه من الممكن ايضا احداث حالة عدم الاحساس بالالم •

ولقد ظلت هذه الظاهرة موضع شك وهدفا للسخرية عدة سنوات ، لان معظم الظواهر التى وضعت حتى الآن كان من الممكن أن تختلط بالزيف والخداع .

ومع ذلك فقد نجح خلال منتصف القرن الماضى طبيب هندى يدعى « ايسديل » فى استخدام التنويم المغناطيسي فى اجراء العمليات الجراحية ، وكانت العقاقير المخدرة لم تكن قد اكتشفت بعد .

واليوم بعد أن ارتقى استخدام العقاقير المخدرة الى درجة كبيرة فانه يندر استخدام التنويم المغناطيسى فى العلاج الطبى لغرض التخفيف عن آلام المريض على الرغم من أنه يفوق فى نواحى كثيرة افضل العقاقير المخدرة .

ولقد نجح المنومون المغناطيسيون أخيرا فى خلع الاسنان والضروس من غير أن تنزف دماء . ومنذ سنوات قليلة مضت وفى معرض اقيم فى الولايات المتحدة وأمام حشد كبير من أطباء الاسنان استطاع منوم مغناطيسى أن يخلع ضرسين فى الفك العلوى وضرسا فى الفك السفلى فى الجانب الايمن من الوجه بدون استخدام أى عقار أو بنج ، ولم يحس المريض الذى كان فى حالة غيبوبة كاملة أى ألم ، ولم ينزف منه دماء .

وهناك ظاهرة أخرى لوحظت منذ الايام الاولى لاستخدام التنويم المغناطيسى وهى الصلة الوثيقة او التعاطف المتبادل بين المنوم وبين الشخص المراد تنويمه ، وهذه العلاقة الخاصة تجعل الشخص يتلقى الاوامر والتعليمات ويتقبل الايحاءات من المنوم بالذات لا من أى شخص آخر .

فاذا ما أمكن ايجاد هذه « العلاقة الخاصة » فانه من الممكن نقلها الى أناس آخرين طبقا لاوامر المنوم المغناطيسى .

على أن فقدان الذاكرة التى تعقب عملية التنويم المغناطيسى أو التى تصاحبه هى فى الواقع ظاهرة مصاحبة لحالة الغيبوبة العميقة .

وحالات فقدان الذاكرة هذه هى حالات شائعة فى حالات الغيبوبة العميقة ، وهى حالات لا يستلزم الايحاء بها للشخص المنوم ، ولكنها حالات تعتبر نتيجة

تلقائية لحالات الغيبوبة العميقة ، فاذا لم تكن حالة الغيبوبة عميقة بالدرجة الكافية وجب على المنوم ان يوحي الى الشخص المنوم بضرورة نسيان كل ما حدث ، وعادة تطاع مثل هذه الاوامر بسهولة .

ولذلك فان هناك استمرارا بين اللحظة الاخيرة قبل ان يروح الشخص المنوم فى غيبوبة ، وبين اللحظة الاولى عندما يستيقظ وهو لا يذكر تماما اى شىء حدث بين اللحظتين .

وليس هناك شك فى القوة الكبيرة الكامنة فى « الايحاء ما بعد التنويم » وقدرته على احداث فعل ما ، ولتوضيح ذلك نعطى المثال التالى :

لقد كان موضوع التجربة عالم نفسى معروف يهتم اهتماما كبيرا بظواهر التنويم المغناطيسى ، وكانت شخصيته مستقرة وقوية ، ولم يكن بها اثر من آثار الضعف العصبى . ولقد اعرب عن رغبته فى أن يجرب ظواهر التنويم المغناطيسى بنفسه ، فنوم تنويما مغناطيسيا وراح فى غيبوبة عميقة . وفى أثناء الغيبوبة اوحى له أنه عند اعطاء اشارة متفق عليها من قبل ، يقوم من كرسيه ويعبر الغرفة ويجلس فى كرسى آخر .

ثم اوقظ من الغيبوبة المغناطيسية وبعد نصف الساعة أعطيت الاشارة المتفق عليها من قبل ، فبدا عليه الاضطراب قليلا وبدأ ينظر عبر الغرفة متجها بنظره الى الكرسى الآخر وأخيرا قال : « اننى أميل ميلا شديدا الى عبور الغرفة والجلوس فى ذلك الكرسى . اننى متأكد انك اعطيتنى ايحاء بعد التنويم بهذا المعنى . حسنا على اللعنة اذا كنت افعل هذا ! .

واستمر يشترك فى الحديث ولكن بدا عليه أنه مشتت الفكر ، ثم قفز فجأة من كرسيه وعبر الغرفة وجلس فى الكرسى الآخر وصاح قائلا : « لم استطع المقاومة اكثر من ذلك » .

لا عجب اذن فى أن المحاولات قد بذلت لاستخدام « الايحاء بعد الغيبوبة المغناطيسية » كعامل معالج . وكانت هذه الفكرة واضحة بوجه خاص عندما عرف أن الايحاء بعد التنويم المغناطيسى يستطيع ان يدوم فترات طويلة .

وقال بعض المجربين الموثوق بهم أن الايحاءات بعد التنويم تدوم فترات تتراوح بين سبعة شهور وعام ، وبالرغم من ذلك فان نتائج استخدام الايحاء بعد التنويم المغناطيسى لم تكن ايجابية عادة •

ولنفترض انك اردت ان تقلع عن عادة تخدير نفسك بالمشروبات الروحية او التبغ ، فمن الممكن ان تعطى ايحاء بان المشروبات الروحيـة سوف تمرضك ، وأن التبغ سوف يكون طعمه كطعم نبات الصبار المر • وسوف يكون لهذا الايحاء اثره فى اثناء فترة الغيبوبة المغناطيسية ، وحتى عندما يعطى الايحاء بعد التنويم المغناطيسى فان آثاره سوف تدوم لمدة يوم او يومين بعد ذلك ، ولكن قوة الايحاء تتضاءل تدريجيا حتى يزول الاثر بعد اسبوع ، ويعود الشخص المنوم مرة اخرى الى ادمانه الاصلى • ومن الممكن طبعا اعادة تنويمه كل بضعة أيام قليلة ، ولكن هذا الاجراء غير محبب لان الكثير من الناس يخشون ان يتحول التنويم المغناطيسى فى حد ذاته الى ادمان ، بل قد يكون أسـوأ وأكثر تكاليف بالنسـبة للفرد عن المشروبات الروحية أو التبغ ، ولذلك ففى الوقت الحاضر لا يستخدم الايحاء بعد التنويم الا نادرا ، بالرغم من انه يبدو انه لو اجريت تجارب صادقة مخلصة ذكية على هذه الطريقة لتحققت نتائج افضل وأكثر فاعلية •

وهناك ظاهرة اخرى نلاحظهـا احيانا فى التنويم المغناطيسى وهى سمو او ترقية طاقة العمل العادية ، ولقد بالغ بعض الـكتاب القدامى مبالغة تتسم بالحمق فى قدرة الشخص المنوم على الاتيان بأعمال خارقة ، ولكنهم لم يجربوا ما اذا كانت هذه الاعمال من الممكن تنفيذها فى الحالة الطبيعيـة • وبالرغم من ذلك فنحن لا ننكر أن بعض الاعمال تتم تحت تاثير التنويم المغناطيسى بسرعة أكثر وبدقة أكثر عنها عندما تتم فى حالة اليقظة العادية •

ثم ظاهرة أثارت اهتماما أكبر من غـيرها من الظواهر بسبب ما تبشر به من نتائج طيبة فى الميـدان العـلاجى ، هى تحسين الذاكرة تحت تاثير التنويم المغناطيسى • ويقول اخصائيو التنويم المغناطيسى : ان الشخص تحت تاثير التنويم المغناطيسى يسـتطيع ان يتذكر امورا قد لا يسـتطيع أن يتذكرها فى حالتـه الطبيعية • ويقال : ان الشخص تحت تاثير التنويم المغناطيسى من الممكن «ارجاعه»

الى مرحلة مبكرة ، وأنه فى هذه الحالة سوف يمر بنفس الاحداث التى كانت قد وقعت طوال المرحلة ، بل سوف يحس العواطف نفسها التى أثارتها تلك الاحداث فى نفسه • ولقد أثار هذا الادعاء او هذا الراى الذى ذهب اليه الاخصائيون فى التنويم المغناطيسى جدلا وانتقادا ، لا سيما أن أصحاب هذه النظرية ، نظرية ارجاع الشخص تحت تأثير التنويم المغناطيسى الى مرحلة مبكرة قد بالغوا كثيرا فى آرائهم ، حتى زعموا أنه من الممكن اعادة الشخص الى الفترة التى كان فيها جنينا لم ير النور بعد • ومثل هـذا الزعم لا يمكن أن يجعل الموضـوع مقبولا لدى العلماء الناقدين •

على أن هناك شيئا له أهميته ، فنحن اذا نظرنا الى ذلك الشيء الذى يحدث عندما ينام الشخص عائدا الى المرحلة المبكرة نراه يستخدم عادة اللغة التى يتوقع المرء أن يسمعها من شخص عاد بذاكرته الى مرحلة مبكرة ، وقد يصبح صوته كصوت الاطفال ، وربما احتفظ بلهجته أو نغمته العادية ولكنه لا يستعمل سوى الكلمات والعبارات السهلة ، ويميل سلوكه العام الى ما يطابق السن المبكرة التى ارجع اليها ، فاذا أعيد الى سن الخامسة مثلا فمن المفروض أنه يلعب بالدمى ويبكى ، أو يحتج مثل الاطفال فى حالة تحطيم الدمية ، واذا رسم فستكون رسومه فى مستوى رسوم أطفال هذه السن •

ولقد لوحظ فى احدى تجارب ارجاع فتاة فى العشرين من عمرها الى أعمار متفاوتة تحت تأثير التنويم المغناطيسى أنها نقلت قطعة الطباشير الى يدها اليسرى فى مرحلة السنوات الست من عمرها ، لانها كانت تفعـل ذلك وهى فى هـذه السن ، ثم أجبرت على التغيير بعدها •

كما أجريت أنواع اخرى من الابحاث على سلوك الاشخاص المنومين الذين أعيدوا الى الوراء فى مراحل مبكرة ، وذلك فى اختبارات ذكاء واختبارات تحصيلية من أنواع مختلفة ، ووجد عادة أنه عندما يعاد النـاس الى مرحلة معينة فانهم يميلون الى السلوك الذى يتناسب تقريبا مع السن المحددة •

هذا وأثبتت التجارب بما لا يترك مجالا للشك أن هناك جانبا من الصدق والصحة فى الافتراض بأن اعادة الذاكرة الى الوراء يحدث فعلا ، وأنه من الممكن

استرجاع الذكريات التي يظن بعض الناس انهم قد نسوها تماما ، كما أنه من الممكن استغلال تلك الحقيقة لاغراض علم النفس العلاجي • ونستطيع ان نسوق مثالا نشرح به كيف تستخدم عملية استرجاع الذاكرة في العلاج النفسي •

ففي احدى حالات العلاج كانت المريضة سيدة متزوجة في سن الاربعين ذكية ومطلعة ، وظلت هذه السيدة أعواما طويلة تعاني من نوبات الربو وكان عملها يتطلب منها التردد على المستشفيات ، فقد كانت تعمل كاخصائية اجتماعية في العيادات النفسية • وفي كل مرة تدخل فيها مستشفى كانت تحس خوفا ، وكانت الاسباب التي تسبب لها الخوف غير معقولة ، اذ كانت تخاف عندما ترى يد رجل شعراء أو عند رؤيتها سكاكين ، كما كانت تعاني من الكابوس والاحلام المزعجة • وفي ذات يوم وبينما كانت في حالة غيبوبة نتيجة لايحاء ذاتي اعيدت ذاكرتها الى الوراء لسن مبكرة حيث وقع لها حادث كانت قد نسيته تماما •

لقد تذكرت هذا الحادث وهي في الغيبوبة فبدت راقدة على منضـدة تحت أضواء براقة يقف بجانبها رجل ممسك سكينا صغيرا ، وكان هناك شيء غامض يسقط من مكان فوق رأسها ثم رسا هـذا الشيء على وجهها ، واحست الرعب وحاولت النهوض ولكن ذراعين يغطيهما الشعر امسكتاها بخشونة وارغمتاها على النوم على المنضدة ، واستمرت تناضل ولكن شخصا ظل يهزها ويصفعها ، وأخيرا رسا ذلك الشيء على وجهها وكتم انفاسها •

وبالاستفسار اتضح أنها في طفولتها اجريت لها عملية جراحية في اذنها ، ولكنها ظلت مريضة مدة طويلة بعد العملية نتيجة المضاعفات التي نجمت عن صدمة شديدة • وكانت ممرضتان في المستشفى قد أبلغتا أمها بأن طبيب البنج كان قاسيا للغـاية مع الطفلة ، وانهما قدمتا استقالتيهما احتجاجا على ذلك • وظلت الطفلة وقتا طويلا بعد ذلك تعـاني من الـكابوس ومن القلق العصبي • وبدأت أول نوبات الربو عندها بعد هذه العملية الجراحية • وكانت نتيجة التنويم المغناطيسي أن عولجت هذه السيدة من الربو ، وزال خوفها من الايدي الشعراء ، ومن منظر السكاكين ، ومن ارتياد المستشفيات •

وقد يبدو للقارىء ان يتساءل بعض الاسئلة التي قد توضح الهدف من هذا الجزء وهي :

* هل من الممكن اقناع الأشخاص تحت تاثير التنويم المغناطيسي بارتكاب الجرائم أو السلوك بما يتعارض مع اخلاقهم ومعتقداتهم ؟
* ما عدد الناس القادرين على أن يناموا تنويما مغناطيسيا ؟
* ما علاقة التنويم المغناطيسي بالعلاج النفسي ؟

أما فيما يختص بالسؤال الاول فان الكتاب المتزنين حتى الآونة الاخيرة يميلون الى تكذيب هذا الرأى ، وكانوا يدللون على ذلك بحالة المساعد الشاب للاخصائي النفسي « شاركوت » ذلك الشاب الذى لم يوفق عند تغيب استاذه في حث فتاة تحت تاثير التنويم المغناطيسي على ان تخلع ملابسها .

ويعتقد هؤلاء الكتاب أن الايحاء لشخص تحت تاثير التنويم المغناطيسي بالقيام بعمل مناف لمبادئه واخلاقه لا يجد استجابة من الشخص المنوم ، بل على العكس قد يدفع الشخص المنوم الى أن يستيقظ من حالة التنويم المغناطيسي . وهناك ملاحظات عديدة من هذا النوع في الادب التجريبي ، توحي بأن الشخص المنوم لن يستجيب لايحاء صريح بالقيام بعمل مناف للمبادىء والاخلاق .

الا أنه في الآونة الاخيرة أجريت عدة تجارب تبين أن هذا الحكم ليس صحيحا بصورة عامة ، كما أن اطار ذلك النوع من التجربة اطار ضيق جدا ، ويكفي مثال واحد لكي يبين نوع التجريب المرتبط بهذه المسألة .

فقد أجريت تجربة « ايحاء ما بعد التنويم المغناطيسي » على جندى مكلف بواجب عسكرى . وقد نفذ الجندى ايحاء ما بعد التنويم المغناطيسي وترك واجبه ، وهذا عمل مناف للعمل الاجتماعي ويؤدى بصاحبه الى عقوبة صارمة اذا لم تكن الظروف معروفة . ونرى من ذلك أن الاعمال المنافية للاعمال الاجتماعية من الممكن احداثها عن طريق التنويم المغناطيسي حتى ولو لم تبد هذه الاعمال للقارىء ذات طابع خطير جدا .

والصعوبة ـ بالطبع ـ هى انه لو كان هذا العمل المنافى للمبادىء الاجتماعية ذا طابع خطير جدا فان تنفيذه يؤدى حتما الى عقوبة توقعها المحاكم على المنوم والشخص الذى نوم •

ولا يختلف التكنيك الذى يستخدم لاقناع الشخص المنوم على الاتيان باعمال تتنافى مع المبادىء الاجتماعية والخلقية ، عن ذلك الذى يلجا اليه بعض الناس فى الحياة العادية • ولنضرب مثالا لذلك بشخصية « سير بمبر دينك فلانل فلانل » ذلك الافاق فى الميلو دراما فى عصر فيكتوريا الذى كان هدفه الاعتداء على الفتيات العذارى ، فلماذا كان يفعل ؟ كان يلجا الى اسلوب يقوم على محاولة خلق اثر موقف معين على عقل الفتاة وهو موقف غير موجود بالفعل ، فهو يتظاهر بالحب الخالد ، كما يتظاهر بالرغبة فى الزواج منها ، ويقوم ببذل الوعود ، والنتيجة دائما كانت ناجحة كما تدل احصائيات الاطفال غير الشرعيين •

* * *

ولننتقل من مرحلة الافتراض الى مرحلة التجريب ، ففى احدى التجارب التى اجريت على جندى أمريكى يبلغ من العمر عشرين عاما وضع فى حالة « غيبوبة » فى حضور ضباط برتب كبيرة من الجيش ، ووقف ضابط برتبة عقيد أمام الجندى مباشرة وعلى مسافة ١٠ اقدام منه ثم وضع الجندى حينئذ فى حالة غيبوبة ، ووجه اليه هذا الايحاء :

« سوف تفتح عينيك بعد دقيقة • سوف ترى أمامك جنديا يابانيا ، انه يمسك بالسونكى ، وهو يستعد لقتلك اذا لم تبدأ بقتله • عليك أن تخنقه بيديك » • وفتح الجندى عينيه ، وبدأ يزحف للامام ببطء وأخيرا قفز قفزة سريعة وأوقع الضابط على الارض وبدأ يضرب رأسه ويخنقه بيديه • وتطلب الامر ثلاثة رجال لشده وابعاده عن الضابط ، ولم يعد الى هدوئه الا بعد أن استطاع المنوم ان يرسله فى سبات عميق • ولقد قال الضابط أن هجوم الجندى عليه لم يكن تمثيلا ، وانه كان من الممكن أن يقتله أو يصيبه باصابات خطيرة لولا أن هب الآخرون لانقاذه • ولما كان ضرب ضابط فى الجيش مخالفة خطيرة فانه يتضح لنا أن المنوم المغناطيسى الماهر يستطيع بسهولة أن يؤثر على المنوم ويحثه على الاتيان بأعمال خطيرة • اذا ما أضفنا الى تلك الاعتبارات حقيقة أن من الممكن

تنويم الشخص تنويما مغناطيسيا برغم ارادته ، فاننا نستطيع أن ندرك خطورة الموقف بالرغم مما يقال أنه لا يقع ضرر كبير تحت تأثير التنويم المغناطيسي بسبب الضمانات الكامنة في المبادىء الخلقية عند الفرد • ونحن نحتاج الى جهود كبيرة قبل ان نعرف كيف نقيد تحكم المنومين المغناطيسيين في الافراد الآخرين • ولذلك يجب علينا الا نقلل من شان الاخطار الكامنة في قدرة المنوم على حث الافراد على الاتيان باعمال منافية للآداب والاخلاق •

اما السؤال الثـانى الخاص بنسبة الناس الذين لديهم قابلية واستعداد للتنويم من بين أفراد المجتمع فهو سؤال لا يظفر باى رد واضح • فهناك ظروف لها مواصفاتها ، ولم تجر تجارب كافية لتوضيح آثار هذه الظروف ، فان الحدس أو التخمين ليس له ما يبرره ، ومع ذلك يقول كثير من الثقات : انه اذا توافرت ظروف معينة مثل وجود منوم مغناطيسي كفء مستعد لقضاء اربع ساعات على الأقل مع الشخص المراد تنويمه ، واذا ما تيسرت الظروف الملائمة للتنويم فان ظواهر التنويم المغناطيسي يخضع لها ٨٥٪ من الناس ، بل من الممكن أن يرتفع هذا الرقم الى ١٠٠٪ ولذلك فان التنويم المغناطيسي ليس بظاهرة نادرة معزولة ، ولكنه ظاهرة لها صلة بالغالبية العظمى من الناس بل بكل شخص •

وللاجابة عن السؤال الثالث قد يكون من الافضل أن نشير الى الدراسات الاولية التى قام بهـا « فرويد » فى علاج الهيستيريا ، فقـد لاحظ ان بعض المرضى يستريحون بالتنفيس عن طريق الكلام ، كما اكتشف فرويد ان الذكريات العديمة الاثر التى لا يتم فيها اى تفريغ انفعالى كانت عديمة الجدوى ، اى بمعنى أوضح أنه اذا لم يستطع الطبيب المعالج جعل مرضاه يعيشون الانفعالات التى ارتبطت اصلا بتجربة مكبوتة وكانت سببا فى حالة المريض ، فان مجرد تذكر التجربة لا يشكل علاجا •

كما عرف سادلر Sadler فيما بعد ان « التخلص من العقد عبـارة عن عملية احياء ذكرى تجربة غير سارة ، والعمل على خلق الانفعالات المرتبطة بها وبذلك يمكن تخليص الانسان من آثارها •

ولقد اجريت محاولات عديدة في الحرب العالمية الاولى لتخليص عدة مصابين ببعض الامراض العصبية من العقد بواسطة التنويم المغناطيسي، وكللت التجارب بنجاح .

وفي كل من الحربين العالميتين الاولى والثانية كان لعلاج التخلص من العقد بواسطة التنويم المغناطيسي مكان محدد في علاج حالات نورستانيا القتال الحادة .

وقد كتب ميلز كلبن Millais Culpin (١) يقول : « بمجرد ان يتغلب الشخص على المقاومة الواعية لمناقشة خبراته في الحرب ، فانه يتبع التفريغ الانفعالي للاحداث خلاص عظيم . وقد بدا كان الانفعالات الكامنة ــ نتيجة هذه المقاومة الواعية ــ قد تمخض عنها ــ نتيجة التوتر ــ ظهور بعض الاعراض، فالتذكر ــ وهو أمر لا شك فيه ــ يبرز حينئذ، وربما يعقب عودته : ازدياد في امتلاء شرايين الوجه ، وضغط بالايدي على الوجه ، ورعشات، وعلامات بدنية اخرى للانفعال » .

وعلى كل حال ، فقد يود القارىء ان يتأمل أوجه شبه بين : تطور نظرية مسمر ، وبين تطور التنويم المغناطيسي ففي كلتا الحالتين هناك شخصية قوية تعتبر المؤسسة للفكرة ، ولكن هناك جماعة كبيرة من اتباع كل مدرسة تتعصب لمبادىء مدرستها والدعوة لها ، كما ان هناك مدارس جديدة انشقت على بعضها البعض وكونت مدارس جديدة . وهناك صياغة لنظريات غير عادية تقوم على أساس براهين لم تثبت صحتها ، وفي كل الحالات نجد تقارير تفيد بنجاح العلاج في بعض الحالات ، ولكن لا توجد التجربة الموجهة المقيدة وهي الوحيدة التي تستطيع أن تتحقق من صدق ادعاء كل منهما .

على اننا قبل أن نختتم هذا القسم نود أن نشير الى نقطة هامة تتعلق بالايحاءات ، فمن المعروف أن الكثيرين من المرضى الذين تعرضوا لعملية التفريغ الانفعالي خلال شهور أو حتى سنوات على مسند المعالج النفسي يصبحون شديدي

---

(١) Culpin M. - Recent Advances in the Study of Psychoneuroses, J. and A. Churchill, London, 1931.

الحساسية من ناحية ايحاءات الطبيب المعالج • وقد يكون قادرا حينئذ على تغيير انماط سلوكهم السابقة بدون صعوبة كبيرة ، اذ انهم يستجيبون برغبة اكبر حينما يحاول ان يزرع افكارا جديدة فيهم ، أو يبعث تفسيرات جديدة لآرائهم القديمة • وتلك امور من المؤكد انهم كانوا يرفضونها دون تردد قبل أن يحدث لهم هذا التغيير •

التحليل النفسى Psycho Analysis :

لقد قامت دراسات عديدة فى السنوات الاخيرة فى موضوع الارتباط بين الاضطرابات النفسية ، وبين الاحوال الفسيولوجية ، ومعنى هذا ان بعض اضطرابات الجسم قد تتسبب عن احداث سيكولوجية مثل الانفعالات القوية ، وانه من الممكن ان يتحقق علاج الاضطراب الجسمانى اذا أمكن أولا آداء عملية تطهير سيكولوجية •

هذا التاكيد للعلاقة بين الجسم والعقل والتفاعل بينهما ـ يدل على اتجاه حديث ، ويرجع الفضل الى فرويد والمحللين النفسيين الآخرين فى اكتشافه ما اعتبره كثير من الناس حقيقة جديدة هامة فى ميدان الطب •

ونظرية الارتباط بين الاضطرابات النفسية ، وبين الاحوال الجسمانية هى على الاقل نظرية قديمة قدم التفكير الانسانى عن العقل والمادة ، وكل ما نراه فى هذه النظريات الحديثة نستطيع ان نراه فى اعمال الفلاسفة اليونانيين او ما قبل ذلك • وليس تطبيق المبادىء التى تستخدم فى التشخيص الطبى والعلاج الطبى امرا جديدا •

وعلى سبيل المثال نروى قصة قيلت فى القرن الخامس عشر فى كتاب فارسى معروف • وتقول القصة : ان الطبيب العظيم « رازيس » استدعى الى ترانسكيا لمعالجة الامير منصور اذ كان يعانى من روماتزم المفاصل الذى لم ينجح

احد من اطباء الامير فى شفائه • وعندما وصل « رازيس » الى ضفة نهر اوكسوس رفض ان يعبر النهر فى القارب الذى اعد له لان القارب كان صغيرا وضعيفا ـ ولكن رجال الملك قيدوا يديه ورجليه والقوا به فى القارب رغما عنه • وشرح لهم رازيس سبب مقاومته لهم فقال : انه يعرف ان آلاف الناس تعبر نهر أوكسوس بسلام ، ولكن لو تصادف وغرق هو فى النهر يقول الناس عنه انه كان مغفلا لانه عرض نفسه للمجازفة بمحض ارادته ، ولكنه لو هلك وهو يقاوم اثناء ارغامه على عبور النهر قسرا لكان الناس يحسون الرثاء من اجله • وعند وصوله الى بخارى حاول « رازيس » طرقا مختلفة للعلاج ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح • وأخيرا قال للامير « سوف أحاول طريقة جديدة فى العلاج غدا ولكنها سوف تكلفك افضل جواد وافضل بغل فى اسطبلاتك » وبعد ان وضع الجواد والبغل تحت تصرفه ، ساق رازيس الامير الى حمام ساخن خارج المدينة ـ وهناك ربط الجواد والبغل بعد أن وضع على كل منهما السرج واللجام ودخل غرفة الحمام الساخن ومعه مريضه « الامير » واخرج سكينا وأخذ يهدد به الامير داخل الحمام مهددا اياه بالقتل بسبب المعاملة السيئة التى لاقاها عندما نقله رجال الامير برغم انفه فى القارب الذى عبر به النهر • وغضب الامير وبدافع من الغضب او الخوف وقف على قدميه بقوة بالرغم من عجزه السابق عن ذلك ـ وهرب « رازيس » من الحمام حيث يقف الجواد والبغل وتابعه ، وفر باقصى سرعة من البلاد وعبر نهر اوكسوس ، ولما وصل رازيس الى « ميرف » كتب للامير يقول :

« أتمنى لك طول العمر فى صحة وسلطة دائمة • لقد استخدمت كل قدراتى لمعالجتك • لقد ادركت ان أصل الداء هو نقص الحرارة الطبيعية فيك • وما كنت اريد اطالة مدة العلاج ـ ولذلك لجأت الى العلاج النفسى ـ وعندما امسكت بالسكين وتفوهت بالفاظى التى تذكرها وهددتك بالقتل فاننى كنت اقصد استثارتك حتى تزيد فيك الحرارة الطبيعية ، ولقد نجح علاجى هذا عندما رأيتك تقف على قدميك » •

وسر الامير لانه وجد انه استعاد صحته فكافأ رازيس : بعباءة ، وعمامة ، واسلحة ، وبزوج من العبيد ، يتميزان بجمال التقاطيع ، وبجواد ، وامرأة ، ومنحه هبة سنوية قدرها ٢٠٠٠ دينار ٠

* * *

وقصة شبيهة بهذه تلك القصة التي رواها ابن سينا أكبر طبيب في عصره ، وكان المريض في هذه الحالة امرأة في حاشية الملك ، وبينما كانت تنحني لاعداد المائدة اصيبت بتورم روماتزمي مفاجيء في المفاصل لم تستطع بعد ذلك ان تقف منتصبة القامة ٠ وطلب من طبيب الملك شفاؤها ، ولما لم تكن لديه المعدات الطبية لجأ الى « العلاج النفسي » ٠ واستعان في علاجه بانفعال الخجل وبدأ يخلع عنها ملابسها ــ فبدأ بالبرقع ثم بالفستان وما أن وصل الى هــذا الحد حتى « سرت حرارة في جسم المريضة ازالت التصلب الروماتزمي » ووقفت المريضة منتصبة على قدميها وقد شفيت تماما ٠

ونستطيع أن نروى قصصا اخرى من نفس النوع من الكتب التاريخية لبلاد عديدة ٠ وكل هذه القصص تشير الى أن المعرفة بمبادىء معينة تتحكم في العلاقة بين الجسم والعقل ، كانت أمرا مفهوما منذ القدم ٠

* * *

وفى الفصل السابق بينا أنه حينما يستثار مخ الانسان بدرجة تفوق قدرته على احتمال التوترات المفروضة عليه فانه يحدث له « توقف وقائى » ، واذ ذاك لا تكبت فقط تلك الانماط السلوكية التى سبق أن غرست في المخ بل قد يحدث كذلك أن تتحول الاعمــال الشرطية المنعكسة السابقة من ايجابية الى سلبية او بالعكس ، فيصبح الفرد اكثر قابلية للايحاء حتى ليتقبل اى شيء يلقى عليه ــ ولو كان لغوا ــ على أنه حقيقة ثابتة غير مفروضة عليه ٠

ويمكن ملاحظة كل هذه الآثار حينما يتعرض مرضى الامراض العقلية فى وقت السلم الى تكرار العلاج بالتفريغ الانفعالى ســواء باستخدام العقاقير كما سيأتى فيما بعد أو بدونها •

وكلما كانت شخصية المريض أكثر ميلا الى المزاج الطبيعى ازدادت ثقتها عند رؤية الامور في ضوء جديد • وبعد تفريغ انفعالى عنيف بدرجة معينة فان المريض يتحول تماما فى آرائه عن الدين أو السياسة أو فى وجهات نظره تجــاه العائلة أو الاصدقاء ، وقد تتحول وجهات النظر هذه بسرعة ، كما أنه يمكن زيادة القابلية للايحاء ولو مؤقتا عن طريق التفريغ الانفعالى المتكرر ، فقد يصبح المريض أكثر قابلية للتأكيدات العادية من الطبيب النفسى المعالج، وهذه التأكيدات قد يستحيل أن يتقبلها من محاميه ، أو منالواعظ ، او طبيب العائلة وهو فى حالة عقلية أكثر هدوءا •

ويعتمد التحليل النفسى اساسا على مثيرات سيكلوجية متكررة ، اذ يستلقى المريض فى اثناء العلاج على مسند حيث يشجع يوميا ـ لعدة شهور وقد يمتد الزمن الى سنوات ـ على الاندفاع فى « عملية التداعى الحر » •

وغالبا ما يكون المرضى على جانب كبير من الحساسية تجــاه المعالج الذى يحاول أن يحدث فيهم فورات انفعالية متكررة ، ويطلق المحللون النفسيون على هذه الظاهرة « تكوين تحويل ايجابى أو سلبى تجاه أنفسهم » • وعلى اســاس هذه الظاهرة يقترح فرويد ومدرسته وسائل علاجهم • وعلى الرغم من أنه من المعترف به الآن بصفة عامة أن الصــدمات الجنسية ليست سبب كل الامراض العقلية فانهم لا يزالون يشجعون المريض عمليا على اثارة الطاقة الجنسية مبكرا ، او ما يصاحبها من مشاعر الاثم الجنسى ، وبذلك يساعدون على أن يثيروا فى نفسه الانفعالات الضرورية للتفريغ الانفعالى الناجح •

ونعود الآن الى المريض وهو مستلق على مسند المحلل النفسى • ان عليه أن يعود الى نزواته الجنسية الماضية ويعيش ثانية حوادث من تلك التى أثارت فيه

ولا سيما في طفولته قلقا شديدا : كالخوف ، او الشعور بالذنب ، او الاعتداء ، ويتقدم التحليل وربما تزيد العواطف الانفعالية حتى يصبح المريض أكثر حساسية تجـاه المحلل ، وتنمو ما نسميه « مواقف التحول » الموجبة أو السـالبة نموا فسيولوجيا ، وغالبا ما يلقى ذلك مساعدة في مراحل العلاج الاولى نتيجة التعب والارهاق الناجم عن القلق الذى يستثار • وقد يزداد توتر المريض واعتماده على الطبيب المعالج زيادة كبيرة ، وفي النهاية يصل الى مرحلة تضعف فيها المقاومة امام تفسيرات الطبيب المعالج لاعراض المرض عند المريض ، وقد يبدا في تقبلها باستعداد أكبر من ذى قبل ، فيؤمن حينئذ بنظريات عن حالته العصبية تتعارض في أغلب الاحيان مع معتقداته السابقة ، ويجوز كذلك أن ينقلب عدد كبير من أنماط الفرد السلوكية المعتادة نتيجة هذه العملية وتحل محلها أنماط جديدة •

وتعزز هذه التغييرات بجعل سلوك المريض متمشيا بقدر الامكان مع الفهم الجديد الذى اكتسبه ، ويؤيد ذلك ما أشار به أحد المرضى بعد أن عالجه فرويد بالتحليل النفسي :

« كنت عاجزا في الاشهر الاولى القليلة عن الشعور بأى شيء اللهم الا القلق المتزايد والمهانة والذنب ، واصبح كل شيء عن حياتى الماضية لا يرضينى بعد ذلك ، وبدت لى كل آرائى القديمة عن نفسى متناقضة ، وعندما وصلت الى حالة من حالات اليأس التام بدأ فرويد يسترجع لى ثقتى في نفسى ، ويضع كل شيء في وضع جديد » •

* * *

على أننـا يجب أن نشير هنـا الى ثلاثة اكتشافات هامة من بين الاعمـال الكبيرة التى قدمهـا فرويد ، وهي تتصل بصفة خاصـة بهذه الدراسة • هذه الاكتشافات هى :

• هنـاك جزء « لاشعورى » من عقل الانسـان يرغب في اشياء كثيرة لا يقرها الجزء « الواعى » من العقل • ان الكبت النفسي والتعليـل العقلى ما هما الا شيئان مشتقان لهما أثر عظيم على السلوك •

• كثيرا ما يخترع العقل خيالات وتصورات وكثيرا ما تكون لهذه الخيالات والتصورات نفس السيطرة التى للحقائق على السلوك الانسانى •

• يلعب « الجنس » دورا هاما فى تقرير اعمال الانسان •

وعلى أساس هذه الاكتشافات ، وعلى اساس عوامل كثيرة أخرى شيد فرويد صرحه الضخم • وما كاد ينشر موضوعا يعالج فيه نقطة معينة حتى بدأ كثيرون فى الكتابة ليدللوا على صحة ما كتب او ليعارضوه • وكان من أثر الخلاف الشديد الذى كان بين انصار فرويد أو الذى كان بين انصاره ومعارضيه أن ظهرت كتابات كثيرة متعارضة أو متناقضة لدرجة لا تسمح لغير من أوتوا مقدرة كبيرة ان يميزوا فيها بين الغث والسمين •

وكان هناك خطان كبيران للهجوم : الاول أنه لم يكن هناك دليل لتأييد معالجة فرويد لعلم النفس ، والآخر أن فرويد كان ينسب صحة ما يقول الى عوامل لا تنطبق ولا تنتشر الا فى المجالات الاوروبية •

اما بالنسبة لخط الهجوم الاول فهو معقد الى حد ما • ان المعالجة الساذجة — طالما عجزت عن أن تجرى التجربة على فار فليس هذا من علم النفس فى شىء — قد طرحت فى معظم الاحوال وتركت • وظل بعد ذلك شك فى كل نظريات فرويد على اساس انه يعوزها الدليل • ويقف اغلب علماء النفس موقفا يشبه الموقف الآتى : « ان علماء التحليل النفسى — مثل فرويد ويونج وأدلر وغيرهم — قد ساهموا دون شك فى مشكلة « الدافع » أو « الباعث » ولكن نظرا لحماستهم الشديد فانهم مدوا نظرياتهم الى ما هو أبعد من الحدود العلمية . وفى أحوال كثيرة قاموا بتفسير مادتهم بعبارات غير دقيقة وأعطوها مدلولات غامضة • انهم يتحيزون الى « الشاذ » بحيث يعالجون الشخص « العادى » على ضوء الشخص « الشاذ » •

ولكن مهما اختلفت الآراء فان الخبرة الاكلينيكية تؤيد بعض نظريات فرويد . ان كثيرا من معتقداته الكبرى قد أكدته أحسن البراهين برغم أن كثيرا من التفاصيل لم يمكن اثباتها •

ويقول تقرير كينسى Kinsey (١) فى أحد أقسامه : « ان هذه البيانات عن النشاط الجنسى للذكور الصغار تزودنا بالدليل على صحة وجهة نظر فرويد عن الجنس اذ يقول : أن الاخير موجود فى الحيوان الانسانى من بدء الطفولة • ولكنه لا يؤيد وجهة نظر فرويد التى تقول بوجود مرحلة مبكرة يشعر فيها الصغير بالشهوة التناسلية التى تسبق النشاط التناسلى • كما أنها لا تبين أى ضرورة لفترة يكون فيها الجنس خامدا فى السنوات المتأخرة من المراهقة الا اذا كان هناك كبت من الوالدين ، أو كبت اجتماعى فى الطفل النامى » •

أما النقد الثانى الخاص بأن فرويد عمم أمثلة يختص بها السلوك الاوروبى فهو نقد صحيح ، فقد كتب العالم الفرويدى المعروف كارين هورنى Karen Horney عن عقدة أوديب يقول : « يفترض أن الدوافع الغريزية أو العلاقات الموضوعية الكثيرة الحدوث فى معتقداتنا تقررها طبيعة الانسان ، أو أنها تنبع من مواقف لا تتغير • ان اغفال فرويد للعوامل الثقافية لا يؤدى به فقط الى تعميم خاطىء ولكنه يقف فى طريق فهم القوى الحقيقية التى تدفعنا الى العمل • وانى اعتقد أن هذا الاغفال هو السبب الرئيسى الذى دفع علماء التحليل النفسى الى أن يصلوا فى النهاية الى طريق مسدود برغم ما يبدو من أن مجاله غير محدود • وهذا يبدو فى ظهور النظريات المبهمة العسيرة الفهم وفى استخدام الالفاظ الغامضة غير الواضحة •

« ان مشاهدات فرويد بشأن عقدة أوديب كانت على أشخاص مصابين بأمراض عصبية ، ففى هؤلاء وجد أن الغيرة الفائقة الحد التى تؤدى الى ردود افعال تجاه أحد الوالدين كانت من النوع المدمر الذى يثير الخوف ، ويحتمل أن يكون له أثر باق فى تكوين الخلق وفى العلاقات الشخصية • وما أن لاحظ هذه الظاهرة كثيرا

---

(١) الفريد تشارلس كينسى (١٨٩٤ ـ ١٩٥٦) من علماء علم الحيوان الأمريكيين ، كان هو الذى قام بالمسح الاجتماعى للسلوك الجنسى فى الولايات المتحدة ، وأهم ما كتبه :

- السلوك الجنسى عن الذكر •
- السلوك الجنسى عن الأنثى •

فى المصابين بأمراض عصبية حتى افترض انها عامة • ولم يكتف بان جعل من عقدة أوديب أس الامراض العصبية بل انه حاول أن يفهم الظواهر المعقدة فى الثقافات الأخرى على نفس الأساس • أن هذا التعميم هو موضع الشك • ليس هناك أى دليل على أن ردود أفعال الغيرة المدمرة التى نفكر فيها عندما نتحدث عن عقدة أوديب موجودة فى ثقافتنا أو فى الثقافات الاخرى ، كما أنها ليست عامة كما يفترض فرويد » •

والواقع أن نظرية فرويد أجرى فيها بعض التعديلات والتفسيرات سواء من جانب العلماء الفرويديين أو غيرهم ، الا أن هذا التعديل أو التغيير لم ينقص من قدر العالم النفسى الكبير •

ولكى نوضح كيف أعيد تفسير نظريات فرويد الأصلية نضرب مثلا بأريك فروم Erich Fromm (١) فهذا العالم يرى أن الخلق هو الذى يتحكم فى السلوك الجنسى ، وذلك عكس ما كان يقول فرويد : أن التطور الجنسى هو الذى يتحكم فى الخلق •

والآن ما علاقة النظرية الفرويدية بموضوع دراستنا ؟

يجيب فروم على ذلك بقوله :

« لقد ظل الانسان يدرس فقط البيانات الخاصة بما يفكر فيه الناس بدلا من دراسة القوى العاطفية خلف هذا التفكير • ان الاحصاءات الخاصة بالرأى قد تكون ذات اهمية فى بعض الأغراض الا أننا فى حاجة الى أن نعرف المزيد • انها ليست الأدوات التى تساعدنا على فهم القوى التى تعمل تحت سطح التفكير • اننا عن طريق هذه القوى الاخيرة فقط يمكننا ان نتنبأ كيف يتصرف اعضاء

---

(١) ايريك فروم عالم فرويدى مشهور ولد بفرانكفورت بالمانيا (٢٣ من مارس ١٩٠٠ م) حصل على الدكتوراه من جامعة هيلدبرج سنة ١٩٢٢ ، عمل فى معهد الأبحاث بنيويورك (١٩٣٢ ـ ١٩٣٩) ، يعمل فى معهد ابحاث امراض العقل بواشنطون منذ سنة ١٩٤٣ واستاذا بجامعة مكسيكو سنة ١٩٥٦ م •

بجتمع من المجتمعات حيال مواقف حرجة بالنسبة لأفكار يؤمنون بها ، وبالنسبة لأيديولوجيات جديدة كانوا يعرضون عنها • فمن وجهة نظر علم القوى الاجتماعية أن الرأى لا يساوى أكثر من القالب العاطفى الذى صب فيه » •

ثم يمضى فروم فيقول : « أننا ما زلنا بعيدين عن رسم صورة شاملة عن الخلق الاجتماعى ، ونحن ما زلنا نفتقر الى معلومات كثيرة عن معظم مشكلاتنا الملحة ، فمثلا الى اى حد يمكن أن نعرف درجة تأثير علم الاخلاق على سلوك الرجل الحديث ؟ • وهل للمستويات الخلقية اى تأثير ؟ أو هل أعمالنا : يمليها الخوف ، أو يمليها عدم الموافقة ، أو تمليها العقوبة ؟ » •

ومن راى فروم أن السبب فى عدم سبر غور هذه الموضوعات يرجع الى موقف معظم علماء النفس التحليلى • وهو يقول : ان معظم هؤلاء الذين يبدون اهتماما بالظواهر الاجتماعية يعتقدون أنه ما لم يقوموا بدراسة هذه الاشياء وهؤلاء الناس بطرق تسمح بتحليل كمى دقيق ، فانه لا يمكن دراستهم مطلقا • وبدلا من أن يقوم علماء علم النفس الاجتماعى بابتكار طرق جديدة تكفل دراسة هذه المشكلات الهامة الخاصة بالناس يجعلون من طرق العلوم الطبيعية أصناما • وتكون النتيجة أن تحدد الطريقة اختيار المشكلات بدلا من أن تقوم المشكلة بتحديد الطريقة •

ولقد أثبتت مرجريت ميد[1] فى دراستها النفسية الانثروبولوجية أن العقد والغرائز مثل مركب أوديب لا توجد فى بعض القبائل فى جنوب امريكا وغيرها وهذا يدل على أنها مكتسبة بواسطة البيئة والثقافة•

* * *

---

(١) مرجريت ميد ١٩٠١ ـ من علماء علم الأنثروبولوجيا الأمريكان ، درست العلم فى جامعة كولومبيا وقامت بالبحوث العملية فى جزيرتى « ساموا ، أدمير » • التى عملت فى ادارة المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى • ومن اهم كتبها :

1) Coming of Age in Samoa.

2) Growing up in New Guinea.

ونود أن نشير هنا الى أن القضاء على الأنماط السلوكية القديمة للمريض هو فى الواقع من بين الأهداف التى يسعى اليها المعالج ، ويستعين على ذلك باثارة الانفعالات الشديدة والقابلية المتزايدة للايحاء عند المريض . وهذا الأسلوب يساعد المعالج لا على تغيير تفكيره الواعى فقط ، بل أيضا على توجيه ما ينتابه من احلام فى حياته اليومية ، وغالبا ما يعتبر التحليل كاملا اذا ما تشرب المريض وجهات نظر المعالج تماما ، وانهارت مقاومته تجاه تفسيراته للاحداث الماضية .

وهذه الطريقة فى العلاج قد تشابه بعض الاساليب فى عمليات التحويل الدينى . والقدرة على أن يحلم الانسان بأنواع معينة من الاحلام لصالح معين تشاهد كذلك بين الشعوب الأكثر بدائية ، ويوضح بنجت صندكلر (١) Bengt Sundkler فى كتابه « أنبياء البانتو فى جنوب أفريقيا » كيف أن رعاة الكنيسة من البانتو يعلقون أهمية كبيرة جدا على جعل الذين يسعون الى التحول الدينى ، أو الذين تحولوا حديثا الى دين جديد يحلمون بالنوع الصحيح من الأحلام ، يقـــول :

« لقد شعر بعض رجال الارساليات بالمهانة بل حتى بالفضيحة بسبب الأهمية التى يوليها الأفريقيون للأحلام ، ويحس المبشرون صـدمة لأن الثروة الروحية مثل التحول الدينى تبدو ناشئة فى حالات عديدة من حلم سخيف أكثر من رجوعها الى القرار الواعى للارادة » .

ويدلى الينا صـندكلر بتفصيلات أخرى عديدة وطريفة عن الأحـداث الصناعى لهذه الأحلام بقوله :

« يعرف بعض الصهيونيين ما يشيرون اليه « بهبة الأحلام » ومرة أخرى لابد من تدريب آخرين وتلمذتهم فى الأحلام حتى يتسنى احراز الحلم الصحيح المطلوب .

---

(١) B. G. Sundkler - Bantu Prophets in Africa - Lutterworth press, London, 1948.

وعلق النبى × قيمة كبرى على أحلام اتباعه الجدد فبعد اعتراف عام مبدئى بالخطايا ، يطلب منهم الذهاب الى بيوتهم ثم العودة بعد ذلك ليقصـوا عليه كل ما حلموا به ، وأكد لهم انهم لا يمكن الا يكونوا قد حلموا بحلم ذى مغزى، والشيء العظيم الذى ينتظره والذى يتوقعه من الحالم هو ظهور ياهـوا Jehovah او الملاك ، أو يسوع فى ثياب طويلة بيضاء لامعة دائما » •

وليس الغريب أن يتسنى تبشير الشخص العادى بسهولة أكثر من الشخص الشـاذ ، وحتى التحليل النفسى القوى قد يحرز نجاحا قليـلا جدا فى مثل الاضطرابات النفسية الشديدة ـ كالفصـام والاكتئاب ـ التى تشيع الانقباض فى النفس ، ويمكن أن تكون بنفس القادرة عديمة الاثر فى بعض الحالات المعينة كالقلق والكآبة المزمنة • ويعتبر المجتمع الشخص عاديا او طبيعيا لأنه يتقبل اغلب مستوياته الاجتماعية وأنماطه السلوكية ، الأمر الذى يعنى فى الواقع انه على استعداد للايحاء ، وانه قد اقنع بانه يسير مع الغالبية فى جميع المناسبات العادية أو الشاذة جدا •

والناس الذين يعتنقون آراء الأقلية على الرغم من احتمال ثبوت صحتها من قبل ، غالبا ما يسمون فى اثناء حياتهم بالمجانين أو على الاقل « بالشواذ » ولكن نظرا لامكان اعتناقهم آراء تقدمية او حديثة لايستسيغها المجتمع ككل ، فان ذلك يظهرهم على انهم اقل قابلية للايحاء من زملائهم العاديين الذين يتمتعون بقدرة أعظم على التكيف طبقا للظروف •

وهذه الظاهرة تتمشى مع ظاهرة التحول الدينى او السياسى •

ويقول سارجنت فى ذلك :

« من الخطأ الشائع ان الشخص العادى اكثر استعداد من الشاذ لمقاومة اساليب غسيل المخ الحديثة • ولو لم يمتلك العقل الانسانى قدرة خاصة على التكيف طبقا لبيئة دائمة التغير وعلى تكوين اعمال شرطية منعكسة باستمرار وأنماط لردود الفعل ، وكذا الاستسلام مؤقتا حينما يبدو عدم جدوى اية زيادة

فى المقاومة ، لما استطاعت البشرية ان تعيش وتصبح العنصر السائد ، فالشخص الذى يتسم بالقدرات العاجزة عن التكيف ، والجمود الشديد فى السلوك او الفكر يتعرض باستمرار لخطر الانهيار العصبى ، أو الدخول فى مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية ، أو أن يصبح مصابا بمرض عقلى مزمن •

ويعتبر ارتفاع نسبة أعراض الهستيريا بين الاشخاص العاديين تحت وطأة التوترات الحادة للحرب بمقارنتها بتلك التى تحدث من نفس النوع من الناس تحت وطأة التوترات الأخف فى وقت السـلم ـ أو بين المصابين بقلق مزمن أو المجانين سواء فى وقت السلم ، أم فى وقت الحرب ـ قرينة اخرى على الرأى الذى نحاول تكوينه ، ألا وهو من الجائز ان يكون البسطاء والأصحاء من بين أكثر الضحايا استعدادا لغسيل المخ او التحول الدينى » •

استخدام العقاقير فى العلاج النفسى :

فى أوائل الحرب العالمية الثانية فى اثنـاء علاج حالات الأمراض العصبية الحادة الناجمة عن توترات الحرب ، أصبحت قيمة بعض العقاقير المعينة واضحة فى مساعدة المرضى على التخلص من الانفعالات التى علقت بأذهانهم نتيجة المحن المخيفة التى تسببت فى انهيارهم العصبى ، وقد استخدمت هذه الوسيلة أيضا على نطاق محدود للغاية فى ممارسة العلاج ايام السلم بواسطة كثير من الاطباء •

واليوم أصبح من الميسور أن تستخدم أنواع من العقاقير تحقن فى وريد المصابين بأحد الأمراض العصبية او العقلية أو عضلهم لتساعد على الانطلاق فى الحديث وتذكر احداث عاشها من قبل • ففى الوقت الذى يبدأ فيه العقار أثره بعد الحقن يبذل الطبيب جهده ليجعل المريض يعيش مرة ثانية فى القصة التى تسببت فى انهياره العصبى • وفى بعض الأحيان تكون تلك القصة أو القصص قد ضاعت من ذاكرة المريض فيتطلب الامر اعادتها الى ذاكرته ، وأحيانا أخرى يتذكر المريض القصـة الا أن الانفعالات التى تصاحبها تكون قد كبتت منـذ حدوثها • ومن ثم فان التحسن الذى قد يلاحظ فى حالة المريض من ناحيـة جهازه العصبى يعزى الى اطلاق هذه الانفعالات الاصلية وتفريغها •

وقبل أن نحاول أن نبحث أثر استخدام العقار فى علاج حالات الامراض العقلية والعصبية ، وقبل أن نحاول أن نربط بينها وبين تجارب بافلوف ـ نود أن نشير الى أن عناصر هذه الامراض كامنة فى كل عقل بشرى ، ولكنهـا فى العقل السليم محجوبة عن الظهور بطبقة رقيقة من الارادة سهلة العطب ، ولعل هذا ما حدا بفرويد الى ان يقول :

« اننا نسير فوق طبقـة رقيقة من طبقات العقل السليم على سطح كرة تشتعل بالجنون » ، ان هذا يعنى أن العقل عرضة لهزات نفسية عنيفة وصدمات توترية تشبه البراكين قد تؤدى باى عقل سـليم الى حالة من حالات الامراض العقليـــة •

والحقيقة ان مخ الانسان يمكن أن نشبهه بآلة دقيقة سـهلة العطب قد يعتريها الخلل لأقل المؤثرات ، وفى كثير من الاحيان تبقى آثار الاختـلال غير محسوسة ظاهريا ، بينما هى تعمل دون وعى فيظهر صاحبها عاقلا فى تصرفاته وسلوكه بينما يكون فى الواقع مختل الفكر فى تصوراته وتأملاته وتخيلاته ، ولا يمكن كشف ذلك الا عن طريق الطبيب المختص •

واقرارا بالواقع قلمـا يخلو عقل ولو بدرجة خفيفـة من وجود ظاهرتين متباينتين من ظواهر الاختلال العقلى : احداهما من النوع الهستيرى والاخرى من النوع النورستانى ، والظاهرة الأولى تدفع الانسان الى النشاط فى الحياة والجد فى العمل ، فاذا ما قويت دفعته الى التهور ، واذا وصلت الى اشدها فانه يصل الى درجة من التهيج ويتبع نمطا من السلوك الاعتدائى •

أما الظاهرة الأخرى فانها تجعل الانسان يميل الى : الروية ، والحكمة ، وحب العزلة ، والهدوء والفكر العميق ، فاذا ما ازدادت هذه الظاهرة نتيجـة عوامل خارجية فانها تؤدى الى القلق والاضطراب الفكرى ، وقد تصـل هـذه الحالة الى أشدها فتتحول الى « الاكتئاب » •

ونود ان نشــير هنـا الى راى « يونج » Jung الذى قسم البشر من الوجهة النفســية[1] قســمين رئيسيين أطلق على الأول اســم « الانبساطى » Extravert وعلى الثانى « الانطوائى » Introvert ويقول يونج ان النوع الاول تجذبه مباهج الحياة ويحب الاختلاط بالناس ويألف المجتمعات ، والنوع الآخر لا يعبأ بمظاهر الحياة ويحب العزلة ويميل الى الاعتكاف عن الناس · النوع الأول يكون عرضة « للهستيريا » اما الآخر فعرضة للنورستانيا ،وهو يقول أيضا : ان كلتا الظاهرتين فى نهاية الأمر متضادتان من حيث النتائج ، فالهستيريا تنتهى باتخاذ السلك الاعتدائى ، والنورستانيا قد تؤدى الى الانتحار ، والأولى قد تنتهى بالجنون الحاد ، والاخرى قد تنتهى بالبلة والعتة ·

ويمكننا الآن ان نشير الى الفصل الثانى من الباب الاول فيما لاحظه بافلوف فى كلابه نتيجة الانهاك البدنى الذى كان يعجل من احداث انهيار عصبى تحت وطأة التوترات التى كانت تفرض عليها ، كما يجب ان نذكر مالوحظ فى ظهور أعراض من النورستانيا على المدنيين فى اثناء احتراق لندن وعجزهم عن فهم اسباب ظهور هذه الاضطرابات الشديدة نتيجة قصف القنابل فى الوقت الذى ظلوا فيه غير عابئين بها لمدة اسابيع او شهور · وقد سبـق أن أشرنا الى ان هذه الحساسية المتزايدة فى المرضى جاءت بعد نقص اوزانهم بين خمسة عشر ، وثلاثين رطلا ·

على أن عددا كبيرا من ردود الفعل التى تظهر بوضوح أكثر نتيجة توترات الحرب يطلق عليها « هيستيريا القلق » Anxiety Hysteria وقد خلع بافلوف نفس الاسم على نفس الاستجابات فى كلابه عند انهيارها تحت وطأة التوترات المفروضة ، وشخص الحالة فوجدها حالة من حالات التنويم المغناطيسى ·

وتسجل أوصاف الهستيريا فى جميع كتب طب الامراض العقلية أعراضا غريبة لايمكن فهمها دائما الا بمقارنة وجه الشبه بينها وبين تجارب بافلوف الآلية على الكلاب . وغالبا ما يكون « الانحراف العقلى » Mental aberration المعروف عن الهستيريا مشابها لصورة من صور التوقف الوقائى ، وينطبق نفس الشىء

---

(١) Psychological Types by Jung, Printed 1924, P. P. 412.

على « الشلل الهستيرى » Hysterical paralysis ، وحتى فى وقت هستيريا السلم فان هنـاك مرحلة تقرب مما يطلق عليـه مرحلة « صـدمة القنـابل » Bomb Happy (١) التى تعتبر مرحلة نورستانيا الحرب الحادة ٠

وبمجرد حدوث حالة من حالات الهستيريا فى الرجال أو الكلاب بزيادة التوترات حتى يصبح المخ عاجزا عن احتمالها ، فان من المحتمل أن تحدث حالة « الامتناع الوقائى » التى قد تثير الاضطراب فى الانماط السلوكية المشروطة العادية للفرد والكلب فتظهر حالات من القابلية الشديدة المتزايدة للايحـاء ، أو يحدث العكس عندما يصم المريض أذنيه عن كل ايحاء مهما كان معقولا ٠ ولقد أتاحت الهستيريا مخاوف مفاجئة لا يمكن تفسيرها فى اغلب الحروب ، وغالبا ما كانت بين القوات المشهورة بسجلها العظيم فى القتال ، فقد كان جنود فيلق قيصر القدامى من بين اعظم المحاربين فى العالم القديم ، واختار حملة النسر من بين أشجع المحاربين ، ومع ذلك قد أصيبوا بالانهيار العصبى فجأة بعد عشر سنوات او خمس عشرة سنة من الغزو المستمر فى بلاد الغال ٠ وسجلت مذكرات « سيتونوس » Seutonius حالتين لاثنين من حملة النسر أصيبا بالهستيريا وهربا فى مناسبات مختلفة ، وعندما حاول قيصر ابقاءهما حاول الأول ضربه بالسن الحاد لنسره ، وترك الآخر النسر فى يده واندفع الى المعركة بدونه ٠

ولقد لفت بافلوف النظر فى ابحاثه الى أوجه تشابه أخرى بين النورستانيا فى الانسان ، ونورستانيا الكلاب ، فقد كان بافلوف يتعامل مع كلاب عادية فى تجاربه ، وكانت التوترات التى يتعرض لها الكلاب تقترب من تلك التى يتعرض لها الانسان وقت الحرب ٠ فالكلب المعزول داخل قفصه وهو يواجه الغرق فى مياه الفيضان ، والجندى القابع فى خندقه أو فى مكان منعزل أمام نيران العدو ، والمدنى الذى يعمل فى احدى فرق الانقاذ تحت وطأة القنابل ٠ كان على كل منهم أن يتقبل ما يصادفه مهما كان الأمر ، بالاضافة الى أن هذه المحن التى يتعرضون لها تتشابه فى أثرها ٠

---

(١) الاصطلاح يعنى الشعور بالسـعادة لسماع اصوات انفجـار القنـابل ، وليس التعرض لمؤثراتها ، والفكرة أن فى هذه المرحلة تعتبر تمهيدية للاصابة بالنورستانيا ٠

ولقد وجد بافلوف عند احداثه النورستانيا فى كلابه أن من الضرورى أن يضمن تعاونها معه كقاعدة عامة ، فالكلاب التى ترفض وهى فى قفص التجربة أن تتعاون فى اجراء التجربة يمكن أن نشبهها بالجنود الذين يهربون قبل سماع أول طلقة ، وهم بهذا السلوك يستطيعون أن يحافظوا على جهازهم العصبى سليما مؤقتا حتى تداهمهم المتاعب التى سيتعرضون لها ٠

ولقد اثرنا أن نناقش هذه الحالات حتى نعطى القارىء صورة قد يتعرض لها الانســان نتيجة توترات الحرب ، وكذا لنربط بين آثار هذه التوترات على الانسان وتلك التى فرضت على كلاب بافلوف ٠

ويمكننا الآن أن ننتقل لدراسة آثار استخدام العقاقير فى علاج حالات أمراض الطب النفسى ٠

أشرنا فى الفصــل السابق الى أن مهدىء الطوارىء الذى كان يعطى فى الخط الأمامى للقتال فى الحرب العالمية الثانية كان له قيمة فى منع النورستانيا الحادة من التحول الى حالة مزمنة فى مرحلة مبكرة من مراحل الحرب ، كما أن اكتشافات بافلوف اثبتت أن الجهاز العصبى للانسان يستجيب للتـــوترات الشديدة بنفس الطريقة التى تستجيب بها الكلاب ٠

وكان يوصف « البربيتيوريت » Barbiturates فى أوائل الحرب العالمية الثانية بكميات كبيرة شرابا مهدئا للذين بقوا على قيد الحياة بعد معركة دنكرك ، وبكميات أقل حقنا فى الوريد ، وقد احدثت عملية الحقن فى المرضى حالة نصف ثملة ساعدتهم على تفريغ بعض انفعالاتهم المكبوتة Inhibited emotion من : الخوف ، والغضب ، واليأس ، وخيبة الأمل ٠

وكان قد سبق أن اقترح وليم براون William Brown عام ١٩٢٠ (١) : أن التفريغ الانفعــالى Emotional abreaction غالبــا ما يكون وســيلة أكثر

---

(١) W. Brown, Psychological Methods of Healing An Introduction to Psychotherapy. University of London Press, 1938.

فعالية بكثير في شفاء نورستانيا الحرب عن مجرد الايحاء تحت تاثير التنويم المغناطيسي ، فالايحاء يزيل الاعراض ولكن التخلص من الانفعالات يزيل أسباب الأعراض ، اذ تحدث اعادة للارتباطات المصاحبة بشكل كامل ، ومع ذلك فانه يجوز ان يكون للايحاء دور هام في الشفاء بواسطة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة بعملية التفريغ الانفعالى ٠

وكانت نتيجة التقارير التى نشرت عن قيمة « التخلص من العقد » بواسطة العقاقير فى علاج ضحايا النورستانيا فى أوائل الحرب العالمية الثانية أن اصبح هذا العلاج هو الشائع فى بريطانيا ، بل برز ايضا الاهتمام بين اطباء الامراض العقلية الامريكيين نتيجة استخدام كل من جرنكر وسبيجل Grinker and Spiegel (١) عام ١٩٤٢ لنفس العلاج فى شمالى افريقيا ، على الرغم من انهم اعادوا تسميته باسم آخر يثير الارتباك وهو « النوم الترابطى » Narcosynthesis « اى العلاج العقلى الذى يهدف لجعل الشخص تحت تاثير وقف النشاط الذهنى يتذكر ويتحدث عن ذكريات مؤلمة حبيسة » ٠ وبهذه الوسيلة يمكن تخليص المريض من الصراع الانفعالى ، مع تمكينه من لم هذه الذكريات ودفعها الى ذاته الشعورية ٠

وبالاضافة الى ذلك كان هارولد بالمر Harold Palmer (٢) طبيب الامراض العقلية البريطانى فى الطريق الى التوصل لنتائج هامة فى نفس مسرح الحرب باستخدام « الاثير » Ether بدلا من البربيتيوريت ، واحرز تقدما فى فنون علاج الامراض الهستيرية ٠

وفى عام ١٩٤٤ استخدم الأثير بدلا من « البربيتيوريت » ـ كما اوصى بالمر ـ لاحداث عمليات التخلص من الانفعالات فلوحظ تحسن مباشر فى سلوك المرضى ٠

---

(١) R. R. Grinker and J. P. Spiegel, War Neuroses in North Africa, The Tunisian Campaign (January May, 1943) Jr. Foundation, New York, 1943.

(٢) H. A. Palmer, « Abreactive Techniques - Ether. » J. Roy. Army Medical Corps, LXXXIV, 86; 1945.

ويصف سارجنت ذلك بقوله : « في اغلب الحالات احدث « الأثير » انفجارا انفعاليا بدرجة أكبر بمراحل عما سبق ملاحظته باستخدام العقاقير الأخرى ، وكان من نتيجة ذلك أن اتخذ المرضى في سردهم للحوادث شكلا دراميا او محزنا ، وكانت هناك ملاحظة أخرى تثير الانتباه وهى ان حالات الانهيار المفاجىء بعد الانفجارات الانفعالية يتكرر حدوثها وتستمر أكثر مما يحدث من استخدام التنويم المغناطيسى او البربيتيوريت .

« وحينئذ ظهر لزميلي الدكتور H. J. Shorvon ، كما ظهر لى ان ظاهرة الانهيار العصبى المفاجىء هذه التى كنا نلاحظ تكرارها قد تقابل ما سماه بافلوف « التوقف الكامل » ، وهو يحدث عندما تصبح الطبقة الخارجية للمخ عاجزة عن القيام بأى نشاط .

« ولقد تذكرنا كيف أنه فى حالة بعض كلاب بافلوف ففى فيضان لينينجراد صدفة على أنماط السلوك الحديث التكييف التى غرسها بنفسه ، فهل كان يحدث نفس الشىء فى بعض مرضانا الذين انهارت اعصابهم فجاة بهذه الطريقة ؟ واذا كان الأمر كذلك فانه من الجائز أن نتوقع ايضا ان يصبح الآخرون أكثر قابلية للايحاء أو أن يظهروا انقلابا للانماط السلوكية والفكرية السابقة لان ظاهرة التناقض او الشديدة التناقض لنشاط المخ تكون قد حدثت .

« ولقد امكن اقناع بعض المرضى تحت تأثير الأثير بأن يعيشوا ثانية خبرات الخوف والغضب والانفعالات الاخرى بسهولة ، وقد ينهار بعضهم حينئذ من الانهاك الانفعالى ويسقطون بلا حراك لمدة دقيقة او ما يقرب من ذلك دون ان يتأثروا بالمثيرات العادية . وقد ينفجرون بالبكاء غالبا ويقررون أن أعراضهم الظاهرة قد اختفت فجأة ، أو يصفون عقولهم بعد أن تكون قد تحررت حينئذ من الخوف الناشىء من بعض الصور التى تسلطت عليها ، ومع ذلك قد يستطيعون التفكير فيها اذا أرادوا ذلك ولكن بدون القلق الهيستيرى السابق، وعندما لا تصل الاثارة العادية الناجمة عن سرد الخبرات الماضية الى مرحلة التوقف الكامل

والانهيار قد نلاحظ تغيرا يسيرا او عدم تغيير بالمرة من ناحية تحسن حالة المريض العقلية ، ولكن اذا تكرر العلاج بطريقة التخلص من العقد والرغبات المكبوتة واستعملت العقاقير لزيادة درجة الاثارة الانفعالية حتى يحدث الانهيار العصبى فمن الممكن حدوث التحسن الفجائى •

ومثل هـذا الاسلوب الهام لم يكن دائما ضروريا ، فمثلا لم يحتج بعض المرضى الذين يعانون من فقدان الذاكرة الا الى جرعة صغيرة من البربيتيوريت عن طريق الحقن فى الوريد ، وذلك لجعل امخاخهم فى حالة استرخاء ، ومن شأن هذا أن يعيد الذاكرة الى الوراء فتنساب بدون مجهود اضافى ، وقد ثبتت فائدة الاثير فى حالات لم ينجح فيها البربيتيوريت ، وعلى سبيل المثال تلك الحالة التى اصبح السلوك الشاذ منظما وثابتا بحيث تشبه « النمط المتكرر » Stereotypy الذى وصفه بافلوف فى كلابه • ومن الممكن أن تصبح هذه الحالات مستديمة وهى تعمل على مقاومة الاجراءات العلاجية السهلة • الا أن الاثارة الكاملة التى تنتج من تاثير الأثير والتى تنتهى بحالة من حالات التوقف الكامل والانهيار العصبى يمكن أن تقضى على القالب السلوكى الشرير باكمله ، وتؤدى الى العودة بشكل سريع الى صحة عقلية طبيعية افضل » •

* * *

وفى الواقع كان للتقارير التى نشرت عام ١٩٤٥ عن استخدام العقاقير مع ضحايا الحرب لمساعدتهم على التخلص من انفعالاتهم المكبوتة فضل فى توضيح هذه الوسيلة كنوع من العلاج •

ويصف سارجنت حالتين من هذه الحالات واثر استخدام العقاقير على كل منها • ففى الحالة الاولى أدخل جندى فى الحلقة الثالثة من عمره الى مركز للاسعاف على ساحل نورماندى باكيا فى صمت ويعانى حالة شلل ، وكان قد قضى فترة اربع سنوات فى خدمة الجيش كسائق لعربة قبل ذلك ولم يحدث ان ذكر عنه انه يشتكى مرض الاعصاب اطلاقا ، حتى تحول فجاة الى سلاح المشاة وارسل

الى جبهة القتال حيث تسببت نيران مدافع الهاون والقنابل فى احداث انهيار عصبى سريع ، ولما ثبت عدم جدوى العلاج بواسطة المهدىء لمدة اسبوعين فى فرنسا ، نقل الى انجلترا وعند دخوله أحد مستشفيات طوارىء الحرب ، كان لا يزال يبدو متوترا يرتعد من الخوف وبطيئا من الناحية الذهنية ، فأعطيت له مهدئات اضافية واجرى له بعد أسبوع علاج بالأنسولين بقصد زيادة وزنه ، ومع ذلك لم تتغير حالته العقلية فكان يسير ببطء مقوس الظهر جامد الملامح ، وقد أدى بطء تفكيره وخوفه الى صعوبة استنطاقه ومعرفة قصته .

وفى هـذه المرحلة اعطى حقنـة وريدية من البربيتيوريت وطلب منـه وصف ما حدث فجعله المخدر أكثر استرخاء من الناحية الذهنية ووصف حالته وهو بين وابل من نيران مدافع الهاون لمدة ثمانية أيام فى نفس القطاع من خط القتال ، وحينئذ اخذ عبر نهر من الأنهار الى غابة وصدرت اليه الأوامر بالهجوم ، وفى الغابة زادت عصبيته وبدأ يرتعد ويهتز وقتل العديد من الرجال بنيران الهاون بالقرب منه حيث فقد صوته وانفجر باكيا واصبح مشلولا شللا جزئيا . وفى النهاية ساعده جريحان على العودة على نقالة ، وقال : « شعرت بنوع من الدوار فجلست أبكى ولم استطع الكلام ، وكل ما استطعته هو الصراخ واخراج الأصوات » . ولم يستطع البربيتيوريت ان يحدث فيه سوى انفعـال ضئيل للغاية بينما كان يسرد قصته كما لم يلاحظ اى تغيير فى حالته سواء فى نفس الوقت ، أو فى صبيحة اليوم التالى .

ولكنه أعطى بعد الظهر عقارا يساعده على التفريغ الانفعالى واستخدم فى هذه المرة الأثير بدلا من البربيتيوريت ، وحينما أعيدت عليه القصة الاصلية مرة ثانية قص القصة فى تلك المرة بانفعالات أكبر بكثير . وفى النهاية اصبح فى حالة اضطراب وغثيان وحاول تمزيق كمامة الأثير ، واخذ يتنفس وهو فى حالة رعب شديد حتى توقف العلاج . وعندما وصل الى الاريكة ونهض منها ظهر عليه تحسن واضح ، اذ ابتسم لأول مرة وبدا عليـه الخلاص وقال بعـد ذلك بدقائق قليلة : ان معظم متاعبه قد تلاشت باستعمال الأثير وامكن الاحتفـاظ بهذا التحسن لفترة اسبوعين بعد ذلك .

اما الحادثة الأخرى فقد استخدم فيها الأثير ولكن بدرجة غير كافية لاحداث تفريغ انفعالي كامل ، وبعد عدم توفيق مبدئي اثيرت ثورة المريض عمدا حتى وصل الى شفى الانهيار الضرورية وعندئذ تحطم قالبه السلوكي وتحسن تحسناعظيما •

وكان هذا الجندي قد قضى اربع سنوات ونصف السنة في الجيش سائقا ميكانيكيا ، وكان قد نزل في نورماندي بعد « يوم الغزو » اى يوم فتح الجبهة الثانية في غرب أوروبا ، فظهرت عليه الأعراض تدريجيا بعد أن ظل يقاتل لعدة اسابيع فاعطى هو الآخر علاجا مهدئا في فرنسا لمدة اسبوع ولكنه لم يستجب للعلاج ووجد نفسه وقد نقل الى المستشفى في انجلترا ، وكان حينئذ مكتئبا منقبض النفس ويشتكي من الغثيان ، وعجز عن تحمل صوت طلقات المدافع أو الطائرات • ولم يستطع تخليص ذهنه من التفكير في أصدقائه الذين قتلوا في فرنسا ، والأمر الذي ارقه هو منظر قتل فيه أحد اصدقائه بعد حدوث ثقب في راسه وقد طارت ذقن آخر ، واخذت الدماء تطفح من يد الثالث •

وعلى الرغم من اعطائه مهدئا اضافيا وعلاجه بالأنسولين لزيادة وزنه فقد اشتكى بعد ذلك بأسبوعين انه كان يشعر بازدياد حالته سوءا عن اى وقت مضى، فقد رسخ المنظر الذى قتل فيه اصدقاؤه أو جرحوا في مخيلته ، وعندئذ أعطى له الأثير لجعله يعيش هذا المنظر ثانيا وانفعل انفعالا كافيا وقال : انه اعتقد بان الرأس التالى الذى سيطير سيكون رأسه ، الا انه لم يصل الى درجة الانهيـار العصبي • وعند استرداده لوعيه بكى وقال : انه لم يشعر بأى تحسن ، اذ أنه كان لا يزال يشاهد المنظر بعقله • وعلى ذلك فقد عولج ثانية بالأثير ، وفي هذه المرة تعرض لتجربة قتال مرة اخرى ، فقد كان قد تعرض لنيران الهاون وقنابل الطائرات المنقضة في فناء احدى الكنائس ، وعندما اوحى اليه الطبيب المعالج وهو تحت تاثير الأثير انه أعيد الى هناك مرة اخرى بدأ يخمش الأريكة بأظافره متصورا أنه كان في خندق ، فاستغل الطبيب المعالج مخاوفه عمدا عن طريق الادلاء اليه بتعليقات واقعية عن حالته التى تزداد سوءا باستمرار حتى وصل الى ذروة الاثارة ، وهنا انهارت اعصابه فجاة وسقط كما لو كان من الاموات •

لقد حدث التوقف الكامل ، وفي هذه المرة عندما استرد وعيه ابتسم وقال : لقد تبدد كل شيء ويبدو انني احس ارتياحا اكبر يا دكتور ، واشعر بانني افضل حالا مما كنت عندما حضرت الى هنا !

وعندما سئل عما اذا كان يتذكر وجه صديقه عندما نسف زمجر وقال : « يبدو انني قد نسيت كل شيء عنه • ان فرنسا لا تشغل بالي حاليا » وعندما سئل ثانية عن هذه الحادثة قال : « نعم • وكذلك اتذكر الزميل الذي ثقب راسه ولكن صورته تلاشت من ذهني » • وعندما سئل لماذا حدث ذلك اجاب : لا أستطيع له تفسيرا • وحينئذ ناقش المنظر كله بحرية وبدون الانفعالات المعتادة وقال في وقت متاخر بعد ذلك : « انني أحس تحسنا كبيرا ، لقد تخلصت منها ، انني اعرف كل شيء عنها ولكنها لا تلازمني ولا تؤثر علي بنفس الدرجة ، وبعد ذلك بدا يتحسن بسرعة •

على أنه ليس من الضروري دائما أن نجعل المريض يتذكر القصة التي سببت انهياره بدقة ، اذ يكفي أن تبعث فيه اثارة مشابهة لتلك التي تسببت في حالة النورستانية المستمرة حتى ينهار وحينئذ يبدأ في التحسن •

ويقول سارجنت في ذلك : « نرى لزاما علينا استعمال الخيال في اختراع مواقف مصطنعة او في تشويه الحوادث الحقيقية ، ولا سيما اذا كان المريض في اثناء تذكره للتجربة الحقيقية التي تسببت في النورستانيا او عندما يعيشها مرة اخرى تحت تاثير المخدر ـ لم يكن قد وصل الى درجة الانهيار الكامل اللازم للقضاء على أسلوب السلوك المرضي الجديد • ومن بين المرضى الذين تمكنا من استنباط النتائج الهامة السابقة من حالاتهم نجد جنديا في فرقة من فرق الدبابات امكن توصيله الى حافة الانهيار الانفعالي تحت تاثير الاثير فقط عن طريق اقناعه بانه قد وقع في فخ دبابة تحترق ، وعليه ان يحاول الخروج منها باي ثمن ، وبالطبع لم يحدث هذا اطلاقا » •

على ان الاستثارة التي توصل المريض الى نقطة « التوقف الكامل » والانهيار قليلة النفع في العــلاج ، الا انها ذات اتصال وثيق باساليب التحول الديني والسياسي الذى تحدثنا عنه في الباب السابق •

وخلاصة القول : ان التفريغ الانفعالي تحت تاثير العقاقير قد يكون عبـارة رنانة أكثر مما ينبغي لظاهرة مالوفة ، فعندما يكون لدى الانسان شيء يقلقه ويود التخلص منه فانه يظهر استعدادا لتناول مشروبات كحولية بكمية كبيرة ، أو لتعاطي انواع من المخدرات ويتوقع منها أن تفك عقاله •

والتفريغ الانفعالي حيلة فسيولوجية أكل عليهـــا الدهر وشرب ، وقد استخدمت بواسطة اجيال من : الوعاظ والديماجوجيين ، أو غشاشي الشعوب لتهدئة سامعيهم ولمساعدتهم على السير في الأســاليب المرغوبة من العقيــدة والسلوك ، كما سبق شرحه •

الفصل الثانى

الصدمات الحديثة وجـراحة المـخ

ذكرنا فيما قبل أن بعض الوسائل السريعة للعلاج نتيجة التفريغ الانفعالى الذى ينجم عن العقاقير والعلاجات النفسية الأخرى انما تحدث حينما تصل حالات الاثارة فى المخ الى مرحلة التوقف الوقائى والانهيار ٠

الا أنه فى حالات الاضطراب العقلى الشديدة قد لا تكفى هذه الوسائل وحدها لازالة الأنماط السلوكية الشاذة التى غرست فى المريض ، ومن ثم فان ربط هذه الوسائل بأحد الأساليب الحديثة كالصدمات الحديثة ، وجراحة المخ Leucotomy تعتبر من أنجح الوسائل فى علاج كثير من تلك الحالات ٠

ويؤيد سارجنت ذلك بقوله :

« من الواضح فى حالات كثيرة انه لكى يمكننا تغيير انماط السلوك فى فكر العقل البشرى وعمله بشىء من السرعة والكفاءة ، يجب أن تحدث فى المخ صورة من صور الاضطراب الفسيولوجى ، وقد يتطلب ذلك : اخافة المريض ، أو اغضابه ، أو اشاعة اليأس ، أو بث الاضطراب فيه من الناحية الانفعالية بطريقة أو بأخرى ، ذلك لأنه من المحتمل أن مثل ردود الفعل هذه التى تسبب تغييرا فى وظيفة المخ قد تزيد قابليته للايحاء أو تجعله معرضا للتخلص من تكيفه الطبيعى ٠

واساليب العلاج النفسي التي تتضمن مجرد التحدث مع المريض برهنت على عدم جدوأها بصفة عامة في علاج حالات الاضطراب العقلي الأشد حتى عندما يتسنى اثارة انفعالات قوية ، اذ أنه في أغلب مثل تلك الحالات من الامراض العقلية نجد أن الأنماط السلوكية الطبيعية أصيبت بالدمار ، وحلت محلها أخرى شاذة ، أو اخرى في طريقها الى ذلك ٠ وقد يمكن احراز نتائج أفضل بكثير بالربط بين العلاج النفسي بواحد أو غيره من العلاج بالصدمات أو عن طريق اجراء عمليات جراحية في المخ ٠ ويبين تاريخ العلاج العصبي أنه قد بذلت منذ أزمان بعيدة لا تعيها الذاكرة محاولات لعلاج الاضطرابات العقلية باستعمال الصدمات الفسيولوجية والتخويف ، ومختلف العناصر الكيميائية ، وقد تمخضت هذه الوسائل دائما عن نتائج رائعة في أنواع معينة من المرضى ، على الرغم من أنها استعملت بدون تمييز أو روية مع مرضى عجزوا عن الاستجابة الى ذلك النوع من العلاج » ٠

وقد ثبتت قيمة وسائل العلاج بالصدمات الكهربية في تبديد حالات معينة من الاكتئاب الذهني الشديد ٠ وهذه الوسيلة ببساطة عبارة عن احداث نوبة صناعية من « الصرع » Epileptic-fit ويحدث ذلك بتمرير تيار كهربي خلال المخ بحيث لا تزيد قوة التيار عما هو لازم لاحداث النوبة ٠

وقد تؤدى سلسلة من أربع نوبات الى عشر بحيث تكون مرة أو مرتين أسبوعيا الى تحسين مدى الاصابة بالاكتئاب في فترة أسابيع قليلة ، على حين قد تطول حالة المرضى الى سنة أو سنتين ، أو ربما أطول من ذلك اذا لم تستخدم هذه الوسيلة ٠

ومع هذا فانه اذا لم تحدث نوبة من نوبات الصرع فان العلاج الكهربى يكون عديم النفع ، فالصدمة الثانوية Sub - Shock اى الصدمة الكهربية التي لا تسبب تشنجا في المخ Convulsion يكون ضررها أكثر من عدم استخدامها ٠

ونعنى بالتشنج الكامل ان المخ يستمر فى تشنجاته الى الحد الذى لا يستطيع أن يعمل بعده ، ولكنه يصبح مرهقا ومتوقفا بصفة مؤقتة فيستطيع أن ينفث عن انفعالاته المكبوتة عن طريق التفريغ الانفعالى . ونود أن نشير هنا الى أن هناك تشابها بين التشنج والتفريغ الانفعالى الشديد تحت وطأة العقاقير القوية .

على أنه من جهة أخرى فان من العسير جعل المرضى شديدى الاكتئاب ينفسون عن انفعالاتهم المكبوتة بواسطة العقاقير . ولا تكون الانفعالات حينئذ انفعالات اعتدائية كما هى الحال فى الأنواع المزاجية الأقوى التى سبق أن وصفناها ، ولكنها تأتى فى جملتها على صورة تحقير النفس ولومها .

ومع ذلك فان هذه الحالة الشاذة التى تدل على وجود نشاط عقلى متناقض أو شديد التناقض سرعان ما تتلاشى بعد سلسلة من التشنجات التى تحدث بواسطة الصدمات الكهربية ، ويبدأ المريض حينئذ فى اظهار الاعتداء ضد العالم مرة أخرى أكثر من لوم نفسه ، كما يتوقف احساسه عن الشعور بالمسئولية عما ارتكبه من أخطاء ، وقد يصب جام غضبه على الطبيب الذى يقوم بعلاجه .

وعند هذه النقطة يصبح المريض مرة أخرى متقبلا للصور العادية للايحاء والعلاج النفسى ، لأن العقل كما يبدو يكون قد تخلص من أوهامه بالذنب ، وذلك بعد أن تحرر من أسباب توقفه ، فنجد أن المشاعر المخيمة عليه تتلاشى وتتبدد .

ونود أن نشير هنا الى أن « الفصام » قبل الحرب العالمية الثانية ولا سيما فى المراحل الأولى من المرض كان يعالج بنجاح بواسطة صدمة الأنسولين ، وهذه الطريقة عبارة عن اعطاء المريض مقادير كبيرة من الأنسولين لتقليل كمية السكر فى دمه ، وبذلك يمكن احداث حالة من الاضطراب والاستثارة العقلية فيرقد لمدة ساعة أو أكثر فى حالة نصف يقظة وهو يهتز ويرتعد ، وربما يتحدث حديثا غير مترابط حتى تحدث نوبة عميقة . وعندما يستعمل طبيب الأمراض العقلية هذا العلاج فى معالجة الفصام قد يبقى المريض فى حالة غيبوبة لفترة نصف الساعة ، فيعطى السكر حينئذ بواسطة أنبوبة معوية أو حقنة وريدية ، فيتنبه بسرعة .

وقد تزول الأعراض بعد علاج من هذا النوع يعطى يوميا مع اضافة علاج عادي من علاجات الامراض النفسية . وعلى ذلك نجد هنا علاجا اضافيا يتضمن مرحلة مبدئية من حالات الاستثارة العقلية التى لا سيطرة للمريض عليها ، وتنتهى باستسلام وتوقف مؤقت للمخ .

ويرى سارجنت أن كلا من الصدمة الكهربية وصدمة الأنسولين يصلحان لازالة الأنماط السلوكية الشاذة الحديثة بالرغم من أنهما نادرا ما تكونان فعالتين فى الحالات التى تكون قد رسخت فيها لفترة طويلة ، وهو يفرق بين المجالات المفيدة لهذه العلاجات المختلفة بقوله(١) :

« من المعترف به بصفة عامة أن الحالات الشديدة من الفصام المبكرة قد تستجيب جدا لعلاج الأنسولين الاكثر تعقيدا ، على حين أنه يمكن فى أغلب الأحيان شفاء حالات الكآبة العقلية التى قد تحدث بسبب طول فترة الاضطراب بوساطة صدمة كهربية فقط ، وقد يستجيب مرضى الأعصاب فى الحرب الذين تظهر عليهم اعراض الانقباض الناجمة عن توتر شديد العنف مرة أخرى لعمليات تفريغ انفعالى أقل شدة بوساطة العقاقير .

« فالمصاب بعصاب الوسواس القهرى المزمن Obsessional Neurotic هو من بين أنواع المرضى المختلفين الذين لا يستجيبون بسهولة اطلاقا سواء للعلاج النفسى أو لأى علاج من علاجات الصدمات الحديثة ، وهو الذى يحس الدوافع للقيام بأعمال متكررة كما كان الدكتور جونسون يحس رغبة قاهرة للمس الاعمدة القائمة فى مفترق الطرق للاشارة للاتجاه فى أثناء سيره ذهابا وايابا فى شارع فليت ، وغالبا ما تكون هذه غير مؤذية .

« وسأل مرة استاذ كلاسيكى بجامعة أكسفورد فى العشرينات الماضية الدكتور وليم براون وهو قلق عما اذا كانت رغبته الدائمة الجامحة فى السير

---

(١) William Sargant, Battle for the Mind, Pan Books Ltd, London, 1963, P. 72.

جيئة وذهابا فى الحجرة وهو يلقى محاضرته فى سبع خطوات متتابعة يعتبر أمرا خطيرا ؟ فوضع براون أصبعه على خده وبدا على ذهنه الهدوء وقال : « عندما لا تجد نفسك سائرا فى خطوات سبع فلتحضر لى ثانية ·· لأن الخطوات السبع لا غبار عليها » ·

وفى الواقع هناك درجات مضطردة للشعور بالضيق ، فقد تحس أم مثلا القلق المستمر خشية أن تكون قد أسقطت دبوسا فى زجاجة اللبن ، وأن الزجاجة ستعاد الى محل الالبان دون أن تكون قد غسلت جيدا ، وأن الطفل التالى الذى سيشرب اللبن من الزجاجة سوف يبتلع الدبوس ، وقد تكون مدركة تماما سخافة مثل هذه المخاوف المتكررة التى لا يكون لها سبب محتمل ، ولكنها مع كل ذلك تحس أنها مضطرة لفحص كل زجاجات فارغة خمس مرات أو ست مرات قبل أن يتسلمها اللبان · وقد تكون فى جميع مظاهرها الاخرى ربة بيت عاقلة وعلى درجة كبيرة من الكفاية · أما غيرها ممن تظهر عليهن أعراض اخف من نفس المرض ، فيتأكدون قبل النوم من أن كل صنابير الغاز مقفلة ، وأن كل الابواب موصدة جيدا ، ويكررن العملية مرتين أو ثلاث مرات ، وبالطبع يحتمل أن يبررن سلوكهن أحيانا بقولهن : ان كل العقلاء من الناس يقومون باعمال امن مختلفة ، والامر يستحق ذلك فعلا ·

ويصف سارجنت مرضى الوسواس القهرى الذين يخيم عليهم الشعور بالمرض بأنهم يميلون : الى شدة العناية بمظهرهم ، وترتيب منازلهم ، والى غسل أيديهم مرات عديدة دون ضرورة ، والى أن يكونوا جامدين جمودا دائما فى الفاظهم العقلية ، وعادة ما يستطيع الجيران ضبط ساعاتهم بالوقت الذى يسير فيه المصابون بالوسواس القهرى فى طريقهم للعمل وعند عودتهم منه · وهذا النوع من الناس يفخر بانه لم يحدث أن ذهب متأخرا لعمله فى الثلاثين سنة التى قضاها فى عمله ، ولم يحدث أن ذهب اليه مبكرا باكثر من دقيقة أو دقيقتين ، وبرغم ذلك فقد تنهال على روحه هواجس تافهة ، وشكوك دينية منفرة يعجز عن تبديدها ·

ويقول سارجنت : انه حينما تتطور حالة المريض الى حالة مزمنة ، ويفقد ارادته بحيث يصبح عبئا على نفسه وعلى من معه ، فانه لا يوجد سبيل لشفائه فى مجال طب الامراض العقلية سوى القيام بجراحة المخ Leucotomy التى خلالها تقطع الالياف العصبية الموصلة بين الفص الامامى فى المخ والتلاموسى وهى احدى الدوائر العصبية التى تعبر عن الانفعال ، والضيق والاكتئاب ‥ الخ ٠

كما يشير الى انه كثيرا ما تتلاشى الأعراض الاشد اثارة فى مرضى الوسواس القهرى تدريجيا من تلقاء نفسها على طول الزمن ، وقد يجوز أن تكون حادة فقط عندما تقترن بالانقباض ، فاذا تسنى تخفيفها فان المصاب بالوسواس القهرى يستفيد من علاج الصدمات الكهربية ولكنه يجد من الاستحالة حتى ولو لم يكن الانقباض كاملا مناقشة نفسه فى أتفه التفاصيل ، فمثلا اذا كان يعانى من صدمة قنبلة فقد يناقش بدقة ما اذا كان الانفجار حدث فى الدقيقة الخامسة أو الدقيقة العاشرة بعد الثالثة مساء ٠ وهو فى هذه الحالة سوف يعوق كل المحاولات التى تبذل لاستثارته استثارة كلية لاصراره على الدقة المطلقة فى كل ما يدلى به ، ويصبح بذلك محصنا ضد الايحاء حتى ولو كان تحت تأثير الأثير ٠

ويعلق سارجنت على هذه الظاهرة ، ومدى امكان استغلال التغلب عليها كسلاح ضد عمليات التحول الدينى والمذهبى بقوله :

« لو أمكن اكتشاف طريقة طبية يسيرة للتغلب على الانقباض المزمن فسيكون لدينا أحد الاسلحة الحاسمة النهائية نستعمله ضد الذين يمارسون عمليات التحول الدينى والسياسى ٠ على أنه فى نفس الوقت قد نجحت أساليبهم بدرجة أكبر مع الغالبية التى تتمتع بصحة عقلية سليمة ، وغالبا ما يكتب لهم عدم التوفيق مع الشواذ ما لم يستطيعوا انهاك قواهم البدنية أولا

وارهاقهم الى الحد الذى تصبح فيه معتقداتهم أقل رسوخا ، ويرون ان املهم الوحيد فى البقاء على قيد الحياة هو الاستسلام ، وحينئذ يجوز أن يتحولوا تحولا كاملا ، ويعاد تبشيرهم تبشيرا سياسيا » .

على أننا قبل أن ننتهى من هذا الفصل نود أن نشير الى أن العلاج الوحيد لحالات الفصام الشديدة المزمنة ، وكذا المرضى المصابين بالانقباض والقلق المزمن الذين لا يستجيبون لأى صورة من صور الصدمات العلاجية أو العلاج النفسى والعلاج بالعقاقير ـ هو العلاج عن طريق جراحة المخ .

واذا كان لا يصح أن نعرض لهذا الموضوع لان هناك من يستطيع أن يبحثه افضل منا على أساس التخصص ، كما أننا لا نستطيع ان ندلى فيه بآراء أكلينيكية سليمة ، فاننا لأهميته وعلاقته بعمليات التحول الدينى والسياسى سنكتفى بسرد أراء الدكتور وليام سارجنت الذى بنى هذه الآراء على اساس من التجربة والبحث .

يقول سارجنت : ان الجراحة فى صورها المختلفة الحالية تلقى ضوءا كبيرا على الميكانيكية المخية التى يمكن بواسطتها بذر الأنماط السلوكية والفكرية فى الانسان أو ازالتها ، وقد ادخلت لاول مرة فى سنة ١٩٣٦ على يد طبيب الاعصاب البرتغالى مونيز Moniz الذى نال جائزة نوبل لنجاحه فى تمكين مرضى يشكون المرض المزمن من الخروج من مستشفى الامراض العقلية والعودة الى أعمالهم وعائلاتهم ، وقد تمت دراسة الآثار المترتبة على هذه الجراحة دراسة دقيقة فى حالة المرضى البريطانيين الذين تعرضوا لها حتى عشر سنوات ماضية أو أكثر ، فقد تم علاج حوالى خمسة عشر ألف مريض فى بريطانيا العظمى وحدها .

كما يشير الى أنه يحتفظ بجراحة المخ للمرضى الذين يعانون من حالات شديدة ومستمرة من القلق والتوتر الناجم فى بعض الحالات من بعض الحقائق

الثابتة غير السارة أو غيرها من الهلوسة او الاوهام ، وفي كلتا الحالتين تكون هناك مقاومة عنيدة للعلاج بالطرق غير الجراحية • والجراحة لا سيما في صورها المتطورة المعدلة الحديثة يمكن أن تقلل التوتر بدرجة كبيرة ، ولو أنها لا تزيل دائما الأفكار التي خلقها التوتر • فالانسان يمكنه في الواقع بهذه الوسيلة تقليل القلق الحاد الناتج سواء من التفكير العادي ، أو التفكير الشاذ دون أن يؤثر على العمليات الفكرية الاخرى ، أو على الذكاء نفسه • ولقد هذبت العملية تهذيبا كبيرا في السنوات الاخيرة ويمكنها الآن أن تسبب تغييرا أقل بكثير في الشخصية بصفة عامة •

ويقول : ان مراقبة التقدم في مثل هؤلاء المرضى بعد الجراحة معناه أن ندرك انه بمجرد التقليل من قلق المريض من جراء فكرة حقيقية او وهمية ، فان الفكرة في حد ذاتها تتضاءل في أهميتها ، فمثلا يجوز أن يوضع المريض في مستشفى من مستشفيات الامراض العقلية لانه مريض بوهم مؤداه أن له وجها شاذ التقاسيم يثير ضحك كل من يراه ، وبعد الجراحة قد يظل على تفكيره في وجهه الشاذ ، ولكنه يتوقف عن اعتباره عجزا اجتماعيا ، وسوف يمكنه هذا من ترك المستشفى والعودة للعمل ، والاستمرار في الحياة كما يفعل كثيرون غيره ممن لهم بالفعل تشوهات في وجوههم ، وبعد ذلك باشهر قليلة نجد أن فكرة تشوه الوجه هذه تتلاشى ، أو تقل في اهميتها بدرجة ملحوظة من ناحية انها تتوقف عن تقوية انفعالاته وقلقه من ناحيتها •

ثم يشير الى أثر جراحة المخ على شخصية الفرد فيقول : « يقال ان جراحة المخ تميل الى جعل الناس جامدين وتقليديين بشكل يجعلهم يفقدون شخصيتهم ، والحقيقة أن النتيجة هي بصفة عامة جعل الناس عاديين بشكل أكثر من الافراد العاديين وقابلين للايحاء والاقناع بلا مقاومة عنيدة ، لأنهم لن يفكروا في آرائهم

بعد ذلك بعمق ، وعلى ذلك فسيفكرون بمنطق افضـل ، ويفحصون النظريات الجديدة بدون تحزب انفعالى • وكمثـال لذلك كان هنـاك مريض من المرضى له افكار مسيحية مضللة ، ولبثت مقاومته تماما للعلاج بالتحليل النفسى ، ولكنه استطاع بعد الجراحة التى اجريت له فى المخ ان يناقش آراءه المسيحية مع ممرض ذكى وتخلص منها بعد الجدل • كما يمكننا ان نشاهد كذلك التحولات الدينيـة الصادقة بعد جراحات المخ الجديدة المعدلة ، لأن العقل يتحرر بعدها من اصفاده القديمة ، وحينئذ يمكن للمعتقدات الدينية او لوجهات النظر الجديدة أن تحل محل القديمة فى يسر » •

ويرى سارجنت انه من الممكن القضاء على المشاعر الدينيـة فى الانسـان اذا اجريت له عملية أكبر مما ينبغى فى الفصوص الأمامية للمخ Frontal Lobes ويعطى مثالا لاحدى هذه الحالات فيقول : ان عاملة فى جيش الخلاص، وضابطة من كبار الضابطات تزوجت أحد رجال الدين وبقيت فى المستشفى لسنوات عديدة وهى تشكو باستمرار ارتكابها الخطايا ضد الروح القدس ، وشكت من هـذا لاسابيع وشهور ، وفعل زوجها المسكين كل ما فى وسعه لابعاد الهواجس عنهـا ولكن بلا جدوى ، وحينئذ تقرر اجراء عملية جراحية لها ، وبعد فك الرباط عنها سئلت عن حالتها ورأيهـا فى الروح القدس فأجابت وهى تبتسم : آه الروح القدس •• لا يوجد شىء اسمه الروح القدس •

كمـا يقول : انه مع ذلك أمكن باسـتعمال أساليب الجراحة الأحـدث ، واستئصال اجزاء محدودة من الفصوص الأمامية ـ تقليل اعراض القلق والانقباض المزمن بدون احداث آثار مرغوبة من ناحية المعتقدات الدينية العادية •

ثم يعود فيقول : انه سوف تبقى مسالة ما اذا كان من الخطأ تغيير اناس يتمتعون بتنظيم عقلى الى اناس عاديين ممن لم تكن تعتلج فى نفوسهم مثل هـذه

المشاعر العاتية بطريقة أو باخرى ـ ستبقى مسألة جدلية بالنسبة لعدد كبير من الناس •

وعلى أى حال فان نجاح جراحة المخ ليس الا وسيلة للتذكير بعدم جدوى الطريقة الجدلية المجردة بالنسبة لعـدد كبير من المرضى الذين يعـانون من آراء ثابتة ، ولما يتبع ذلك من الالتجاء التعس لكثير من النـــاس عبر التـاريخ الى مستشفيات مرضى العقول ومعسكرات الاعتقال أو المشانق كوسيلة من وســائل تخليص المجتمع من أفراد لا يمكنهم بوسائل اخرى قبـول عقائد يقبلهـا الناس العاديون أو الغالبية العظمى القابلة للايحاء •

الباب الرابع

وسائل الاستجواب

* الفصل الأول
الاستجواب.. وخداع الاعتراف
* الفصل الثاني
سيكولوجية وسائل كشف الكذب



الفصل
الأول

الاستجواب وخداع الاعتراف

اهتم اغلب الباحثين الغربيين فى كتاباتهم عن عمليـة غسـيل المخ ببحث الوسائل التى كان يستخدمها الشيوعيون فى استجواب اسراهم او المرتدين عن الشيوعية من أبناء وطنهم على أسـاس انها احدى الوسـائل التى استغلهـا الشيوعيون فى الهجوم على المعتقدات والاتجاهات والقيم •

وعلى الرغم من أن الكثيرين قد كتبوا فى هذا الموضوع عند دراساتهم لعملية غسيل المخ بشىء من التفصيل والتحليل ، فاننا نعتقد أنهم لم ياتوا بجديد فى ميدان الاستجواب واستنطاق الاعتراف • فالشرطة فى جميع انحاء العالم تستخدم فى يومنا هذا نفس الأساليب الأساسية لاستنطاق الاعترافات ، كما اتبعت نفس الأساليب الحركة الكاثوليكية المناهضة للهرطقة التى كانت تحاول أن تبحث عن المعلومات الخاصة ، وتجبر الفرد على أن يدلى باعترافات زائفة •

ومن هنا نرى انه لكى نستطيع أن نقيم هذه الأساليب تقييما صحيحا يجب أن نشير الى الأساليب التى استخدمت فى الماضى ، والتى تستخدم اليوم للحصول على الاعترافات ، كما يجب ان نحاول أن نربط بين اهداف هذه العملية فى انظمة المجتمعات المختلفة ، وان كنا من زاوية أخرى نرى أن الشيوعيين لجئوا الى أبحاث فسيولوجية للوصول الى اسلوب قائم بالفعل الى حد الكمال •

لقد اتبع المحققون في الكنيسة أساليب أساسية قريبة جدا من تلك التي تستخدم في عملية غسيل المخ ، ففي عام ١٢٢٩ ميلادية أيام البابا جريجوريوس التاسع تقرر انشاء محكمة يقدم اليها كل من اتهم في دينه الكاثوليكي سواء من : اليهود ، أو البروتستانت ، أو جماعة المفكرين ، أو الاحرار ، أو المسلمين الذين كانوا يعيشون في اوروبا في ذلك الوقت ولا سيما أولئك الموجودين في أسبانيا والبرتغال ، وكذلك كل من كان يتهم بالالحاد والزندقة في مسيحيته الكاثوليكية .

والعجيب في هذه المحاكم ـ وهو ما يخص بحثنا ـ أن محاكم التفتيش هذه تحولت لتصبح طريقة جديدة لتحويل الناس الى المسيحية الكاثوليكية ، وكانت نتيجة رفض الناس التحول اليهـا التعذيب حتى الموت • ويشهد التـاريخ أن المسيحيين الاوائل الذين عاشوا قبل قسطنطين ، والذين كانوا يعذبون ويقتلون ويلقى بهم الى الاسود في روما لم يعاملوا بمثل تلك القسوة التي عومل بها غير الكاثوليك في ظل محاكم التفتيش التي استمرت أكثر من مائة عام ، وقتل خلالها آلاف الناس بابشع طرق التعذيب والوحشية ، اذ كانوا : يحرقون احياء على قوائم خشبية ، أو توضع على أجسامهم آلات هـائلة تتفنن في تعذيبهم حتى الموت ، او يمزقون اربا بأدوات وحشية رهيبة •

وكان من يطلق عليهم الهراطقة يدعون للتحقيق الأولى ، ويمنعون من التحدث عن استجوابهم لاقاربهم • وبمجرد ان يجدوا أنفسهم في السجن يواجهون بالتهديد بحرقهم احياء ، ثم يوحى اليهم انهم يمكنهم تفادى ذلك بوسيلة واحدة هي الادلاء باعتراف كامل • ونظرا لأن هذا الاعتراف لابد ان يكون اعترافا مخلصا ، فانه يجب عليهم أن يصدقوا أنفسهم باخلاص انهم مذنبون بارتكاب جرائم يوحى بها المحققون أو يختارها ويزيفها خيالهم المريض نتيجة ما تحملوا من آلام ومشاق •

وكان النادمون الذين يعترفون يمنحون ميزة الموت شـنقا قبل حرقهم ، او ربما يعتقون ويجردون من كل ممتلكاتهم ، أو يسجنون مدى الحياة ، كما كان يطلب منهم كذلك الادلاء بكل شيء عن عائلاتهم ، وكان عدم الادلاء باى معلومات تتعلق بجريمة أب أو أحد أفراد العائلة يعرض الشخص للعقاب وبنفس القدر •

وقد نتساءل لماذا يعترف هؤلاء الناس بما لا يعتقدون ؟ لو تصورنا درجة التعذيب التى كان يتعرض لها هؤلاء الضحايا لوضعنا هؤلاء الضحايا فى قائمة الشهداء !

ويصف سليمان مظهر فى كتابه « بين السماء والارض » صورة من آلات التعذيب التى استخدمتها محاكم التفتيش لتحويل عقائد الناس بقوله :

« كانت قاعة التعذيب عبارة عن غرفة مظلمة ، جدرانها سوداء تغلق بباب من الحديد السميك ، وفى داخل هذه الحجرة تفنن الاخصائيون فى اختراع أدوات التعذيب من : مسامير ناتئة فى الحائط ، الى مجالد من الجلد المعقود على رصاص ، الى تلك القيود الحديدية ذات المسامير الناتئة التى كانت تضيق تدريجيا حول راس الضحية ، علاوة على تلك الآلات الرهيبة ذات الرءوس الحادة التى تستخدم لسحب أثداء النساء من الصدور ، وغيرها لسل اللسان من أصله ، واخرى لتكسير الاسنان ، وغيرها من وسائل التعذيب الرهيبة ٠

« وفى النهاية نجد تلك المشنقة المعلقة فى السقف لكى تشنق الضحية نصف شنق ، فلا هو حى ولا هو ميت ٠ وفى وسط هذه القاعة نجد ما يسمى « بالجحش الخشبى » الذى كانت تربط اليه الضحية لازهاق روحها بواسطة التضييق على رئتيه ٠ وتحت هذه الظروف كان يستجوب من تعتبرهم الكنيسة كفرة أو هراطقة خارجين عن الكنيسة ، وكلما ازداد ايمان الفرد فى تحدى المستجوب ازداد جزاؤه ، ونال من وسائل التعذيب ما لم تعرفه البشرية » ٠

كان هدف المحققين من استخدام هذه الاساليب هو الضغط على الهرطوقى حتى ينهار ويعترف ويندم باخلاص ٠ وكانت الأساليب التى استخدمت هى نفس الأساليب المستخدمة اليوم ، فكان يوحى الى المتهم أنه باعترافه وندمه سينقذه من نار الجحيم الأبدى حتى ولو أدانه القانون وقرر حرقه حيا على الأرض ، كما استخدم الجواسيس لمواجهة الهرطوقى الذى لم يعترف بهرطوقى أدلى باعترافه ، كما كانت تعطى الوعود بالعفو بعد الاعتراف وهو وعد كان من الممكن سحبه

فيما بعد ، ومع ذلك فقد تم حرق أشخاص أحيــاء ، ولــكن الكثيرين اسرعوا بالاعتراف وتقبلوا المعتقدات الجديدة والغرامات التى فرضتها الكنيسة ، وكان ضحايا الحرق عادة من الهراطقة الذين سبق العفو عنهم ، ولكن العفو عنهم سحب بعد ذلك •

ونروى على سبيل المثال قصة احد الشــهداء المؤمنين الذين وضعوا تحت أصعب الظروف للحصول على اعترافات زائفة منهم ومحــاولة تحويل عقولهم وعقيدتهم ، لكن ايمانهم الراسخ جعلهم يفضلون الموت والخلاص من هذه الآلام عن متعة الدنيا •

حينما قامت هذه المحاكم بمحاكمة صموئيل فرنانلس • وواجه من وسائل التعذيب والآلام ما لا يستطيع أن يتحمله بشر لكى يدلى باعترافات زائفة ، استمر فى المقاومة معتمدا على ايمانه الراسخ • ولكن الحوار الذى دار بين رئيس المحكمة وهذا الشهيد ، وكذا الأسلوب الذى اســتخدم لاستنطاقه الاعتراف بالحــاده الكاثوليكى لا يختلف عن تلك الأساليب البشعة المعروفة ، والتى طبقت فيما بعد، وربما فاقتها ضراوة وقسوة •

وسنذكر فيما يلى ما دار فى محاكمته فهو يوضح لنا كيف استغلت هــذه المحاكم للقضاء على معتقدات الناس وقيمها ، مستخدمة أبشع ما عرفته البشرية من وسائل سلب عقول الناس وجعلهم آلة صماء مسلوبة الارادة •

لقد دار الحوار بين رئيس المحكمة ، والمتهم على النحو التالى[1] :

• ما اسمك ؟

• أنا مسلم مغربى •

• لا بل اذكر اسمك المسيحى الجديد •

---

(١) بين السماء والارض لسليمان مظهر ص ٤١٧ ــ ٤٢٤ •

• صموئيل فرناندس ٠

• ان صموئيل هذا اسم يهودى ؟

• لقد كان المسيح يهوديا ايضا ٠

• قل صدقا ٠ كم عمرك ؟

• ثلاث وثلاثون ٠٠ مثل عمر المسيح ٠

• اذن أنت مستعد للتضحية ؟

• باذن الله ٠

• أتقبل ذلك وأنت راض ؟

• نعم ٠

• ما الذى تفكر فيه الآن وما هو تاثير المحاكمة عليك ؟

• تاثير داخلى ٠

• وماذا يقول لك هذا التاثير الداخلى ؟

• لا أدرى ٠ فانى الآن لا أدرى ماذا اقول ٠

• قل ما فكرت فيه بصوت مسموع ٠

• لا اقدر على الكلام لأنى متألم جدا من الضغط على صدرى والكلام لا يكون حسب الامر بل حسب الاستطاعة ٠

• سننظر ذلك جيدا جدا ٠٠ ايها الحراس ٠٠ اظن أن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام ٠

وسرعان ما جذبه احد رجال التعذيب ٠ وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء ٠ فاحمر جلد وجهه حتى كاد يخرج منه الدم واخذ يتلوى من الالم ٠

ثم عاد رئيس المحكمة يسأله :

- اين ولدت ؟
- في طنجة ..
- اسباني أنت ؟
- كنت اسبانيا .
- ولماذا تقول كنت ؟
- أقول هذا لاني لست باسباني لكي أظل اسبانيا الا الابد .
- واين أبوك وأمك ؟
- ليس لي اب ولا ام .. فقد ماتا .
- واين ماتا ؟
- في سجون ديوان التفتيش .
- احرقا ؟
- بل تعذبا حتى تهرأ جسداهما فماتا من شدة العذاب .
- هل لك اخوة ؟ واين يقيمون ؟
- بل قل اولا .. اين ماتوا واين قبورهم ؟
- يظهر انك تريد ان ينفد صبرنا معك فسنبدأ بتعذيبك ..
- يسوءني هذا .
- اذن أنت لا تريد ان تدلنا على البقية الباقية من اخوتك ، ولا عن مكان اقامتهم . ان الديوان المقدس لا يخفى عليه أن لك أخوة على قيد الحياة وأنهم يصلون في مساجد خفية . ألا تعلم أين هم ؟
- لا اعلم .

• عندما صدر الامر بسجنهم هربوا ، ألا تعلم الى أين ؟ تذكر •

• كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر مسلوب العقل ؟

• يجب ان تساعدنا على معرفة مقرهم حتى نخلص نفوسهم •

• كما ستفعلون معي الآن !

• انت تسكن مع امرأة فمن تكون ؟

• زوجتي ••

• يجب عليك ان تسلمها الى ديوان التفتيش •• نحن نأمرك ••

• اذا كنتم تأمرونني فأولى بكم أن تقتلوني • وهذا كل ما يمكن أن تفعلوه . وعندئذ سوف تصلى زوجتي من أجلي •

• سوف تساق الى التعذيب الآن فأولى لك الاقرار •

• لا يعنيني العذاب فان جسمي مخدر لا يشعر •

• اذا لم تجب على ما سألناك فسوف نسقيك الماء برغم أنفك •• يدفع اليك من حلقك حتى يقضى عليك •

• لقد احترقت قدماي أولا بناركم فلم أمت حتى الآن •

واقترب منه أحد المعذبين وهو يتصنع الرقة والعطف ، وقال بصوت متكلف :

• أعلم يا بني اننا لا نرمي من وراء تعذيبك الا أن تقر عن بقية أهلك الذين تحبهم ، وبذا تنجي نفسك ونفوسهم ونصعد بكم الى السماء • أجاب الرجل :

• اذا صعدنا نحن الى السماء فمن يهوى بكم أنتم الى الجحيم •

وعندئذ استلمه المتوحشون الواقفون أمام آلات التعذيب ، وبعد أن أوثقوه وضعوه على مائدة خاصة وتقدم أحدهم وهو يحمل جرة مملوءة بالماء وتقدم آخر

وفى يده قمع وأدخله قسرا فى فمه ، ثم صب الماء داخل القمع تدريجيا والطبيب الى جواره يلاحظ عملية التعذيب ليرى الى أى حد يمكن لهذا الشهيد أن يتحمل العذاب الذى يؤدى الى قتله خنقا ، ولكن ايمان الرجل منعه من الاعتراف وظل بطنه ينتفخ الى أن جحظت عيناه ثم مات خنقا بالماء !

هذه صورة من الصور التى كانت تجرى فى محاكم التفتيش ، برغم ما فيها من وحشية وقسوة فان ايمان هذا الرجل بمعتقداته الراسخة جعله يتحمل كل تلك الآلام ، وأن يضحى بنفسه فى سبيل مبادىء معينة ٠

* * *

وفى هـذا العصر الذى نعيش فيه نجـد أنه حتى فى تلك الدول الكبيره المتقدمة التى تتشدق بالديمقراطية ، وتفخر بسلامة التحقيق وعدالته كثيرا ما يدان ابرياء ويسـاقون الى الاعدام نتيجة استنطاق المتهمـين اعترافات خاطئة ترجع اساسا الى الاساليب التعسفية التى استخدمت فى الاستجواب ٠

ان قضية تيموثى ايفانز ومحاكمته لاتهامه بقتل زوجته وطفله تعتبر سبة فى جبين الطب الشرعى الانجليزى ورجال سكوتلانديارد ، لانها انتهت باعدام رجل من المحتمل أن يكون بريئا نتيجة استنطاقه لاعترافات تالية خاطئة اقتنع بها البوليس بعد أن عثر على جثتى زوجته وطفله مخبأتين فى حجرة من الحجرات التى كانت تستأجرها الاسرة فى أحد المنازل بلندن ٠

وفى عـام ١٩٥٣ اكتشف مستأجر آخر لبعض الحجرات فى نفس المنزل بقايا بشرية مخبأة خلف الحائط ، وكشف تفتيش تالى للمنزل والحديقة بقايا جثث لست فتيات قتلن من قبل ، وحوكم مجرم اسمه كريستى وادين بالقتل بعد ان اعترف بانه قتل الفتيات الست فى ظروف تشابه مقتل زوجة ايفانز وطفله ٠

لقد أدلى ايفانز بأربعة اعترافات للبوليس ، ولكنه لم يعترف بالقتل الا فى الاعترافين الثالث والرابع ، وقد كان ايفانز على درجة كبيرة من التخلف العقلى أميا عاش بين يدى رجال البوليس لمدة ٤٨ ساعة دون أى عون قانونى ٠

ان الاجزاء التى نشرتها الحكومة الانجليزية عن هذه القضية المشهورة تشير الى التوترات الانفعالية المختلفة التى لابد من أن يكون عقل ايفانز المختل قدتعرض لها قبل الادلاء باعترافاته النهائية ، ومن المؤكد ان هذه الاشياء لعبت دورها فى تغيير وظائف مخه والسلوك التالى لذلك ٠

ويصف سارجنت أسلوب استجواب ايفانز فيقول :

«وأول كل شيء انه مرت بايفانز فترة طويلة من الرعب والقلق بعـد أن وجدت زوجته قتيلة فى منزله ومنزل كريستى ، ونتج عن ذلك هربه الى ويلز ، وهناك نجد أن الاعترافين الاولين اللذين أدلى بهما للبوليس يتلخصان فى عملية التخلص من جثة زوجته وليس قتلها ، ثم تبع ذلك سفره بالقطار للعودة الى لندن تحت حراسة البوليس ، وهناك قابل أحد كبار المفتشين الجدد الذى كان قد تولى أمر القضية ٠

وعند الوصول اعترف ايفانز بانه علم لأول مرة أن طفله الذى كان يحبه جدا قد وجد أيضا قتيلا مثل زوجته وفى نفس المنزل ٠ ومع أنه لم يكن لديه الوقت الكافى ليفيق من هذه الصدمة فقد ازداد توتره حينما عرضت عليه بعد هذا الموقف مباشرة بعض ملابس زوجته وطفله القتيلين ، وكذا حبل طويل وغطاء منضدة اخضر وبطانية ، وقيل له : أن كلها تشير اليه كمتهم لا كقاتل اعترف بقتل زوجته وطفله ٠ كما أن ايفانز اخطر بواسطة رجال الشرطة بالطريقة التى خبئت بها زوجته وطفله فى المنزل وانه يعتبر مسئولا عن الجريمتين ، وحينئذ أدلى باعتراف عام ثم بعد ذلك باعتراف مفصل عن ارتكابه جريمتى القتل » ٠

والواقع أن هذا الاستجواب لعب فيه الايحاء فى المستجوب والمتهم دورا كبيرا ٠ وأحدثت هذه القضية ضجة كبيرة فى الرأى العام البريطانى ، واعتقد الكثيرون أن ايفـانز لا يمكن أن يكون قد قتل زوجتـه وطفله ٠ وعلى كل فان المعلومات الخاصة بهذه القضية نشرت فى كتاب أبيض صـدر بواسطة الحكومة

البريطانية ، وكذلك في كتاب « الرجل الذى يعيش فى ضمائرنا(١) » وفى نشرة خاصة من جريدة سبيكتاتور بقلم لورد الترنشام وايان جلمور(٢) تحت عنوان « قضية تيموثى ايفانز » ويمكن الرجوع اليها للراغبين فى دراسة تفصيلية ٠

* * *

ويروى هوجو منستر برج الذى كان استاذا لعلم النفس فى جامعة هارفارد فى كتابه « فوق منصة الشهادة » On The Witness Stand قصة اعتراف زائف حدث نتيجة توترات فرضت على المتهم ، وملخص هذه القصة فيما يلى :

« ان فتاة قتلت وعثر رجال الشرطة على جثتها فى الطريق ، وحصرت الشبهة فى شاب كان له بها اتصال قديم ، فاستدعاه المحققون الى غرفة التحقيق حيث توجد الفتاة ثم كشفوا له الغطاء عنها » ٠

وبدا للشاب وجهها الشاحب المخضب بالدماء فباغته المحققون على الفور بسؤاله : « أين رأيتها ؟ » وخر الفتى جاثيا على ركبتيه ثم وضع كفيه على وجهه لتحجب رؤيتها عن ناظريه ، الا أن المحققين جذبوه بغلظة نحو جثة الفتاة وأمروه أن يضع يده فوق جبينها البارد فاطاع كرها وقسرا ٠ ولكنه لم يلبث أن سحب يده عن بدنها مقشعرا ، وسرعان ما جروه عنوة اليها وأرغموه على أن يضع يده ثانية عليها ٠

وفى خلال ذلك أطلقوا عليه السؤال تلو السؤال حتى أصابوا من عزمه مقتلا ومن ارادته مصرعا ؛ فسقط منهوك القوى واعترف بقتلها فى الحال وهو شارد الفكر مضطرب البال ٠

ولقد أطاع الشاب المحققين فى كل ما طلبوا منه الاقرار به ، بل ابتدع لهم الاسباب وانتحل المعاذير ، وأضاف من بنات أفكاره الى الوقائع بعض التفاصيل ٠

---

(١) M. Eddowes, the Man on Your Conscience, Cassell, 1955.

(٢) Lord Altrincham and I. Gilmour The Case of Timothy Evans, Special Spectator Publication, 1955.

وبناء على هذا الاقرار قدم الشاب الى المحاكمة ، وشاءت الاقدار بعد ذلك ان يكشف الغطاء عن سر قراره الغريب وظهرت لهيئة القضاء براءته بأجلى بيان • اذ اتضح انه لم يعترف الا بتأثير صدمة عصبية أصابته من جراء الرعب الشديد فتركته فى شبه حالة تنويم . فاضحى عقله المضطرب سهل الاقتناع شديد التأثر بفعل الايحاء والتغرير ، واعترف متأثرا بما اوحى به اليه فى خلال الاستجواب ، واتهم نفسه معتقدا فى نفسه الاجرام وهو برىء » •

ومما لا شك فيه أن الخوف الناتج عن التوتر الشديد قد يصل بمخ الانسان الى حالة من حالات توقف وظائفه التى ثبتت فى تجارب بافلوف كما سبق أن بينا ، ويصبح مخ الانسان خاضعا لاى ايحاءات توجه اليه •

* * *

ويروى لنا سارجنت بعض التفصيلات الطريفة عن الاساليب المستخدمة فى الدول الغربية فيقول :

« اذا كان أسلوب الاستجواب يتخذ طريق العطف واظهار الود للمتهم فمن المستحسن استغلال التبرير النفسى الذى يكون عادة فى ذهن المجرم عند ارتكابه للجريمة ، ولهذا أوحى اليه انه كان هناك سبب وجيه لارتكاب جريمته ، وبانه يتمتع بقدر كبير من الذكاء يمنعه أن يفعل ذلك دون مبرر ، وفى حالات جرائم الجنس يشرح للمتهم أن الجوع الجنسى يعتبر غريزة من أقوى الغرائز التى تحرك حياتنا ، وفى حالة السرقة يوحى اليه أنه ربما كان جائعا او محروما من ضروريات الحياة ، وفى ارتكاب جرائم القتل يقال له : ان الضحية قد اساءت اليه اساءة بالغة ، وربما كان القتل فى الطريق اليه • كن صديقا وعطوفا وشجعه على كتابة القضية وسردها بأكملها حتى ينفس عن نفسه ويبدأ من جديد » •

ويستشهد سارجنت بحديث أدلى به نائب مدير بوليس نيويورك الى مجلة البوليس عام ١٩٢٥ ــ على الاساليب الغريبة المعروفة فى استنطاق الاعترافات والذى يقول فيه :

« ان اسلوبي المعتاد هو أن ادون بيانات السجين عندما يحضر امامي في الشكل الذي يريده تماما ، وفي اليوم التالي بعد أن تكون قد جمعنا معلومات اضافية نقوم باستجوابه ثانية ، ونوجه أسئلتنا على ضوء هذه المعلومات ، وبعد ذلك نحلل التناقض بين بياناته الاولى والاخيرة ، ثم نستجوبه في اليوم التالي ونحلل مرة ثانية الاختلافات . ثم نضيق عليه الخناق اذا أشارت الحقائق التي تم جمعها الى ادانته بصفة مؤكدة • ونستمر في اجباره على الكلام مرارا وتكرارا يوما بعد يوم ، وفي النهاية ينهار ويدلي بالقصة كلها وذلك اذا كان مذنبا أو لديه فكرة عن الجريمة •

« وفي حالة وجود مجرم دمث لطيف مستقيم ومثقف تثقيفا طيبا فاننا نستمر معه حتى نكتشف نقطة ضعف ، ومثل هذا المتهم يدلي بروايته الاولى بطلاقة ويكون زلق اللسان في كل مناسبة تالية ، ولكن التناقض يبـدأ في الظهور بوضوح متزايد في كل مرة ، ومن ثم فاننا نكرر عليه السؤال حتى ينهار في النهاية • وبطبيعة الحال فان المتهم سوف يردد نفس القصة اذا كان صادقا ، اما اذا كان يكذب فان لسانه سوف يزلف في احدى المرات ؛ لان الكاذب لا يستطيع تذكر كل شيء اذ انه معرض لنسيان اي شيء ذكره من قبل •

« وهناك اسلوب ثالث هو أن ندفع ببساطة المتهم الى مأزق عقلي بشرط أن يكون مذنبا فعلا ، وحينئذ نجده يتعثر في كل مرة ، ومعنى ذلك انك دققت « اسفينا » كبداية ، فاذا لم يكن لديك مفتاح صغير تبدأ منه لتوجيه اسئلتك فانه يصعب عليك الحصول على الاعتراف ، ولكن بعد ان تستكشف نقطة الضعف يبدأ التناقض يتسع في رواية المتهم حتى يصبح في النهاية في غاية الارتباك والحيرة بل يرى أن اللعبة قد بلغت نهايتها بسقوط جميع دفاعاته ويصبح أشبه بالفأر في المصيدة وحينئذ ينفجر باكيا ويأتيه العذاب من داخل نفسه لا من خارجها » •

ويعلق سارجنت على ذلك وعلى علاقته بالعلاج النفسي بقوله :

« ان الشيء الوحيد الذي يضاف هو أنه من المعروف في مثل هذا الاسلوب ان تختلط الحقيقة والزيف بشكل يدعو للياس في عقل كل من المتهم والمستجوب ،

ومن المحتمل اذا لم تبرز ما يسمى بنقطة الضعف فان المستجوب قد يخلق بنفسه الايحاء بالاعتراف اذا أصر على أن يحصل عليه ٠

« ان استنطاق الاعترافات غير الصحيحة التي قد يقتنع بها كل من المستجوب والمتهم عن طريق الايحاء لتذكرنا بظاهرة مشابهة في حجرة استشارة المعالج النفسي عندما يبدأ في تصديق وتقبل ما يصدقه هو ومريضه من أن صدمة في الطفولة مثلا قد سببت هذه الاعراض . وبعد ساعات من امعان الفكر والاضطراب قد ينتهي المريض بالادلاء بروايات مفصلة عن الضرر الانفعالي الذي حدث له في هذه المناسـبة أو تلك ، واذا كان الطبيب واحـدا من أولئك الذين يؤمنون بالصدمات في الطفولة فيسأل عنها ؛ فان المريض حينئذ يبدأ يتذكرها وهكذا يعيش مرة أخرى في تفاصيلها ٠ ان المريض يردد عن حسن نية ما أوحي به اليه ، ومع ذلك قد يصدق كل من الطبيب والمريض عن اقتناع مثل تلك الحوادث » ٠

وهنا يبدو مدى التشابه بين « غسيل المخ » الحديث ، وبين بعض الاساليب الحديثة للعلاج النفسي ، الا أن خطر تعرض الطبيب النفسي والمريض الى « غسيل المخ » يظهر في كتاب أيرنست جونز الحديث عن فرويد الذي يقول فيه(١) :

« كانت حماسة فرويد في التوصل الى الحقيقة على أعلى درجة من الكمال واليقين ، ومع ذلك فقد لاحظت في حالة مريض كان يعالجه فرويد قبل الحرب وكان تاريخ حياته معروفا تماما لي ، ان فرويد كان يصدق البيانات التي كان يدلي بها المريض المرة تلو الاخرى في أثناء عملية التحليل النفسي ، وكنت أعلم علم اليقين أنها غير حقيقية ، كما كان يرفض عرضا أن يصدق أمورا مؤكدة تماما » ٠

* * *

ومع التطور العلمي استخدمت آلات ومعـدات لتسـاعد المسـتجوب في استنطاق الاعترافات ، وأهم هذه وأحدثها جهاز كشف الكذب الذي يستخدم في أغلب الدول المتقدمة ٠

---

(١) E. Jones - Sigmund Freud: Life and Work, 2 Vols, Hogarth Press, London, 1956.

وجهاز كشف الكذب الذى تستخدمه هذه الدول الآن فى استجواب المجرمين ما هو الا التطور العلمى لوسائل كشف الكذب البدائية التى استخدمها الاقدمون، فقد كانوا يعتمدون على الوسائل العضوية والنفسية فى محاولة كشف الكذب عند استجواب المتهمين •

فمن الوسائل العضوية التى استخدمت قديما تلك التي كان يستخدمها الصينيون الاقدمون مع المتهم وذلك بوضع أرز مسحوق فى حلق لسانه ويأمرونه بمضغه ثم بصقه فاذا وجد جافا فالمتهم مذنب ، وشبيه بذلك ما كان يقوم به العرب من وضع قطعة من الحديد المحمى على لسان المتهم فاذا لم يحرق اللسان من تاثير هذه النار كان المتهم بريئا • كانت مثل هذه الوسائل تعتمد على ردود فعل الغدد واللعاب فى جسم الانسان •

كما استخدمت الوسائل النفسية البحتة كذلك لكشف الكذب ، فمن اقدم الامثلة على ذلك قصة سليمان المعروفة حينما جاءته امرأتان تتنازعان طفلا وكل منهما تدعى أنه ابنها ، ولما اقترح سليمان تقسيم الطفل وقبلت احداهما عرف سليمان أنها كاذبة • كما أن هناك تلك الوسيلة المضحكة التى كان يستخدمها اليهود ، اذ كانوا يضعون حمارا مقدسا فى حجرة مظلمة بعـد أن يدهن ذيله بمسحوق أسود ، ثم يطلبون من المتهم أن يمسك بذيله فاذا نهق كان مذنبا •

وبرغم أن هذه الوسائل تعتبر محل طعن ولا يمكن الاعتماد عليها ، فان جهاز كشف الكذب الذى خرج على أساس علمى يعتبر ايضا آلة لا يمكن التعويل عليهـا فى قاعة المحكمة ، ولكنهـا كمـا يقول مسـتر كلارنس لى فى كتـابه The Instrumental detection of deception « أنه أداة فعالة للغاية لاخافة قليل الخبرة والجاهل من المذنبين واجباره على الاعترافـ(١) » •

والواقع أن جهاز كشف الكذب واجراءات الاختبار التى يواجهها المذنب يكون لها أثر نفسى قوى على نفسه من ناحية اقناعه بالاعتراف •

---

(١) C. D. Lee, The Instrumental Detection of Deception. The Lie Test, Edited by V. A. Leonard Charles C. Thomas, Springfield, Illinois, 1963.

ويقول سارجنت فى كتابه « Battle for the mind »

« ان منظر المؤشرات وهى تتارجح مع كل دقة من دقات القلب أو نفس من الانفاس قد تحطم معنويات المذنب ٠ كما أن اطلاعه على النتائج المسجلة مع شرح مختصر عن مغزى كل خداع مسجل يتمخض فى الغالب عن نتائج مباشرة » ٠

ويرى سارجنت أن هذه الوسيلة مباحة وقانونية ، ولكن يجب أن يقتنع المستجوب أولا بتهمة الشخص بوسائل اخرى ٠ ويضيف لى « ان ما بين ٦٠٪ ، ٨٠٪ ممن تظهر ادانتهم باجراء الاختبار عليهم يعترفون فى النهاية ، ولكن النسبة المئوية للاعتراف تتوقف على ثقة المستجوب فى نفسه وقدرته على الاقناع وجلده ومثابرته ، واظهار عطفه نحو المتهم ، كما يجب على المستجوب ان يوحى للمتهم بكل الطرق فكرة تأكده من ارتكاب الجريمة ، ذلك لان أى بادرة من بوادر الشك من ناحية المستجوب قد تقضى على هدفه ٠

ويرى لى نتيجة تجاربه ان أسهل النـاس فى الادلاء بالاعترافات نتيجة استخدام هذا الجهاز هم أولئك الذين يتأثرون بشكل كبير عند مخاطبة انفعالاتهم. ويشمل هذه الفئة من يسمون بالمجرمين العرضيين مثل : المجرم الذى يضرب ويهرب ، أو الذى يقتل فى ثورة غضب ، أو الاحداث الذين يرتكبون جريمتهم الاولى ، وكذلك مرتكبى جرائم الجنس ، والذين يغتصبون الاعراض ، والسفاحين الذين يقتلون بعد هتك العرض ، والساديين ، والماسكويين[١] ٠

أما الذين يستعصى اكراههم على الاعتراف بواسطة « كاشف الكذب » فهم المجرمون المحترفون ممن يحتمل أنهم تعلموا بالتجربة خطورة التعاون بأى صورة مع رجال الشرطة أثناء استجوابهم أو اثنـاء الاختبار بجهاز كاشف الكذب ،

---

(١) السادى هو الشخص الذى يجد لذته الجنسية فى ايقاع الألم على الغير وخصوصا فى الجنس الآخر ، والماسوكى هو الشخص الذى يتلذذ ويصل الى نشوته الجنسية من ايقاع الألم على ذاته : اما بنفسه واما بوساطة شريكه فى العملية الجنسية ٠

فهم يرفضون بتاتا الاجابة على أى سؤال · وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فى الفصل القادم ·

* * *

والآن نستطيع ان ننتقل لدراسة الاساليب التى اتبعهـا الشيوعيون فى الاستجواب حتى تكتمل الصورة لدينا ونرى الى أى مدى تتشابه أو تتباين تلك الاساليب عن غيرها المستخدمة فى الدول الاخرى ·

لقد لجأ الشيوعيون الى هذه الوسائل فى حركات التطهير التى قام بهـا ستالين قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، كما استخدمها الصينيون مع كثير من الاسرى فى الحرب الكورية ، وكذا مع كثير من الصينيين المرتدين عن الشيوعيه ·

ونظرا لعدم اتساع المجال فاننا سنأخذ أسلوب الصينيين فى استجواب الاسرى كنموذج لذلك ·

كانت الاستجوابات تستمر لساعات ولايام بل حتى لاسابيع ، وفى بعض الاحوال كان المحقق يعيش مع من يستجوبه ويحـاول أن يخلق معه جوا من الصداقة ·

وكانت النقطة الاساسية على ما يبدو هى جعل الاسير يتكلم دون تحديد موضوع يدور الحديث حوله ، وكان الحديث أحيانا يأخذ طابع الجلسات التهذيبية التثقيفية نتيجة علاقة الصداقة التى اقامها المحقق ، فاذا ما تطرق الضعف الى معتقدات الاسير وبدأ يفحص معتقداته فحصا انتقاديا يكون بذلك قد وصل الى منطقة الخطر حيث يصبح عرضة لان يتغلب عليه المحقق بحججه الجدلية ·

ولقد حاول الصينيون أن يوجدوا انطباعا بانهم يستطيعون الحصـول على أى معلومات يريدونها من أى فرد ، وذلك باتباع أسلوبهم الخاص فى الاستجواب . فاذا ما استمر اسير ما فى رفض الاجابة عن سؤال معين برغم الاجهاد والضغط وتكرار القاء السؤال عليه المرة بعد الاخرى ، أخرج المحقق من جيبه دفترا صغيرا

وراح يعبث فى صفحاته ثم يلقى على مسامع الاسير الاجابة الصحيحة • وأحيانا تكون الاجابة دقيقة فى أقل التفاصيل بدرجة تثير الدهشة ، وينتقل المحقق عندئذ الى موضوع آخر ويتكرر ما حدث المرة بعد الاخرى حتى يحس الاسير الحيرة متسائلا عما اذا كان ليس هناك شيء لا يكون الصينيون على دراية به •

لقد كان التكرار احد المبادىء العامة فى استجوابات الصينيين للاسرى ، كما كان الصبر الذى لا حد له احدى الخاصيات البارزة فى كل ما يقومون به سواء فى استجواب الاسرى أو الحصول على اعترافات ، فهم يكررون الطلب مرة بعد الاخرى بصبر عجيب ولا ينتابهم اليأس من عدم التوفيق •

وكانت الخاصية الثانية للصينيين هى « التدرج فى المطالب » اذ كانوا يبدأون فى استجوابهم بمسائل تافهة لا قيمة لها ، وبعد أن يغرسوا فى الاسير عادة الاستجابة ينتقلون تدريجيا الى ما هو أهم فأهم تبعا لازدياد تدريبه على الكلام أو الكتابة ، وكانت هذه الوسيلة مؤثرة جدا ولا سيما فى الحصول على اعترافات عن طريق الاستنتاج والاستنباط ، وكذا فى جعل الاسرى يقبلون على نقد أنفسهم ، وعلى تقديم المعلومات أثناء عمليات الاستجواب •

وقد ارتبط بأسلوب « التدرج » أسلوب « المشاركة » أى جعل الاسير نفسه يشترك فى العملية دون أن يدرك الى أى مدى سيوصله ذلك •

واستخدم الصينيون اسلوبا آخر هو أن يطلب من الاسير أن يكتب السؤال ثم يطلب منه الاجابة عنه ، فاذا رفض أن يكتب الاجابة الصحيحة طواعية واختيارا طلب منه أن ينقلها من كراسة المحقق • وهنا لا يجد الاسير أى غضاضة فى نقل هذه الاجابة ما دام لن يوقع فى الورقة التى كتبها ، ولكن كانت هذه الورقة تعرض على زميل آخر للتدليل على أنه قد اعترف بما كتبه بخطه ، كما أن هذه السطور التى كتبها بخطه كانت تستعمل ضده لتهديده ، ذلك لانه فى الواقع يكون من الصعب أن يقنع أى فرد بأن دور زميله انما كان مجرد نقل بعض سطور من كراسة المحقق •

ولقد تضمنت أيضا الاستجوابات التى تعرض لها كل الاسرى تقريبا معلومات غير عسكرية تماما •

كان الصينيون شغوفين بكل صور الحياة فى العالم الغربى • وقد ألقوا الكثير من الاسئلة عن هذه الحياة، وكانوا يطالبون باجابات تفصيلية الى حد بعيد .

وكانوا يستخدمون استمارات مطبوعة بقصد الحصول على تاريخ شخصى لكل اسير ، وشددوا بخاصة على : الماضى الثقافى لكل اسير ، ومستواه الاجتماعى ، وكذا مستوى أبويه ، وما يعملان فيه الى غير ذلك •

وقد عمد اغلب الاسرى فى البداية الى عدم الادلاء بمعلومات حقيقية فملأوا الاستمارات ببيانات مصطنعة ، ولكن طلب منهم بعد فترة ان يقوموا مرة ثانية باعادة ملء هذه الاستمارات • ولما كان من العسير أن يتذكر الاسير ما سبق أن اصطنعه فانه غالبا ما كان يتعرض لمواجهة هذه الاختلافات ويواجه مجاهدات تستلزم منه ان يوضح اسباب هذا الاختلاف والتباين •

فاذا ما شعر الصينيون بأنهم حصلوا على بيان صحيح نسبيا من احد الاسرى كان هذا البيان موضوع مناقشة بين المحقق . وبين الاسير بقصد تحطيم معتقداته وما يؤمن به من قيم •

وقد استغلت بعض النقاط التى تجىء فى تاريخ كل اسير لتوضح له اخطاءه . فمثلا اذا قال الاسير : ان والديه كانا من الرأسماليين وضح له كيف استغل أبواه العمال الذين لم ينالوا جزءا تافها من هذا الاستغلال •

ومن الاساليب المؤثرة الاخرى التى استخدمت لجعل الجنود يشكون فى معتقداتهم وفى القيم التى يؤمنون بها محاولة جعلهم يعترفون علانية باخطاء اقترفوها ثم انتقاد انفسهم • وفى طوال الوقت الذى قضاه الاسرى فى المعسكر طلب منهم أن يمروا بهذه « الطقوس » المرة تلو الاخرى • ولقد كان على الاسير أن يعترف بأقل الاخطاء وأتفهها . وكانت هذه الاخطاء فى الواقع مخالفات

ومناقضات لنظم المعسكر ٠ وكان الاسرى فور وصولهم الى المعسكر الدائم يعطون نسخا من نظم المعسكر ويطلب منهم أن يوقعوا اقرارا بأنهم سيتبعون هذه النظم ، وكان اغلب الجنود يحسون الجوع وكانوا ينتفضون من البرد ، فلم يكن تتوافر لهم الطاقة لقراءة عدة صفحات تجمع ادق التفاصيل للحياة فى المعسكر ولذا غالبا ما كانوا ينقضون تعاليم هذه الانظمة نتيجة جهلهم بها ٠

وعلى سبيل المثال قد تضمنت هذه التعليمات عدة فقرات خاصة بكيف يستطيع الاسير أن يبصق لطرد البلغم ؟

ولذا فانه كان محتما عاجلا أو آجلا ان ترتكب بعض مخالفات لهذه القواعد والنظم ، وكان يعرض مرتكب المخالفة من فوره على رئيس المعسكر الذى يذكر له ان جريمته خطيره ، وانه كان لابد أن يعاقب بشدة لولا سياسة اللطف التى يتسم بها الصينيون ، كما يوضح له أنه ينظر اليه كشخص مسئول قد وقع كتابة على اتباع هذه القواعد وعدم مخالفتها ، وهنا قد يذكر الاسير انه فى الواقع لم يقرأ الاوامر التى وقع عليها مما يعرضه الى المزيد من اللوم ، وعندئذ يسأله قائد المعسكر عما اذا كان على استعداد ليعترف بأنه قد خرق القواعد ، وهل هو آسف لهذا السلوك ، وهل يعد بألا يفعل ذلك مستقبلا ؟ فاذا ما وافق الاسير على هذا لا سيما أنه قد لا يبدو له اطلاقا اى خطر فى مثل هذا الاعتراف بل قد يعتبره وسيلة سهلة للافلات من موقفه ، يطلب منه قائد المعسكر توا أن يكتب « اعترافا » بخطئه الذى ارتكبه ٠

وقد ينتهى الامر احيانا عند هذا الحد ، ولكن فى العادة كان يطلب منه ان يقرأ اعترافه أمام مجموعة من زملائه الاسرى وأن يتبع هذا « بنقد نفسه » الامر الذى يستدعى تحليل الفعل الخاطىء على أساس أنه وراء « فكرة » خاطئة وأنه كان من واجبه أن يكون « عميقا فى اخلاصه » ٠

وهكذا تنشأ سلسلة متتابعة من « فكر » و « فعل » فيتساءل الاسير : لماذا كان هذا « الفكر خطأ » ولماذا كان هذا « الفعل جريمة ؟ » ويصحب هذا بتجسيم للوعود عن المستقبل والاعتذار عن الماضى ٠

وكان في هذا « المحو لاثر النفس » أو بمعنى أدق « طمس النفس » علانية ، اذلال للشخص واهدار لكرامته كما انه يعتبر سابقة سيئة لاولئك الذين كانوا يحاولون مقاومة التكيف •

على انه قد نظر في البداية الى ان كتابة الاعترافات وقراءتها علانية ونقد النفس لاخطاء تافهة في المعسكر مسألة لا أهمية لها اذا ما قورنت فيما يحتمل من توقع عقوبات بدنية او تعذيب او سجن • ومع ذلك فان هذا الاسلوب على بساطته كان يمكن ان يتحول الى تعذيب سيكولوجي بمجرد أن يتم الاذعان الاول من جانب الاسير ، وكان الرجل الذي يخالف أمرا ما من أوامر المعسكر ويمر بهذه السلسلة من الطقوس من : اعتراف ، الى تسطير اعترافه كتابة ، الى قراءته علانية، ثم الوقوف أمام الآخرين لتوجيه النقد الى نفسه ـ لايلبث ان يعود من جديد لمخالفة امر آخر مما قد يثير عداء الصينيين ، وفي هذه المرة يطالبونه باعادة تلك الطقوس بصورة أكثر تجسيما ، ولكن الفكرة أن الاسير كان في المرة الاولى قد ارتكب الخطأ عن جهل بالقواعد والتنظيم ، واعترف طواعية بخطئه ، ولكنه في هذه المرة يجد نفسه متهما بجرم لا يعرف اذا كان هو على صواب أم خطأ فالتقدير ليس من جانبه ، وفي هذه المرة يجد الاسير ألا مناص له من الاعتراف كوسيلة للخلاص ، ولكن لابد له من أن يجسم هذا الخطأ التافه ويعترف بجرمه الكبير •

وبرغم ان الصينيين قد حاولوا اغراء بعض الاسرى للتعاون معهم عن طريق المكافآت والوعود باعادة ترحيلهم الى أرض الوطن ، الا أنهم استخدموا التهديد بالعقاب في حالات كثيرة •

وقد استخدم الصينيون كل اشكال التهديد من : انذار بالموت ، او عدم الاعادة الى أوطانهم ، أو التعذيب ، أو انقاص كميات الغذاء ، أو الامتناع عن تقديم الدواء والعلاج •

على أن العقوبة التي استخدمت فعلا كانت « الحبس الانفرادي » وان كان قد اوحي للاسرى أنه من الممكن تنفيذ باقي ألوان التهديدات ، لا سيما أنه من السهل

انكار وجودهم ، اذ لم تكن لدى الأمم المتحدة أى معلومات عن الأسرى حتى تم تبادل البيانات الخاصة بهم فى « بانمونجوم » وذلك حينما قطعت محادثات الهدنة شوطا بعيدا . وكان من الواضح أيضا أن من المستطاع قتل أى اسير وتسجيل أنه مات بسبب نوبة قلبية أو ما شابه ذلك .

وكان الخوف المبهم من المجهول يزيد من شدة تاثير هذه التهديدات ، فلم يكن الأفراد يعرفون ما سيواجههم بعد لحظات ، ولم يستطيعوا أن يقدروا ردود الفعل من جانب الصينيين بالنسبة لأى أمر ، وكانت الوسيلة الوحيدة لتخفيف هذا التوتر هى الاسهام بصورة ما فى مشروعات الصينيين .

وكانت العقوبات الواضحة التى اتبعها الصينيون بصورة علنية تختلف : تبعا للجرم ، وتبعا للموقف السياسى ، وكذا الشخص الذى ارتكب الجريمة .

وقد قام الصينيون فى أثناء عمليات الاستجواب ببعض العقوبات البدنية العادية كالصفع أو الركل بالقدم ، وذلك اذا ما رفض الأسير الاجابة عن سؤال ما ولكن الأسير الذى كان يبقى صـامتا كان عادة يصرف من أمام المحقق دون أى عقاب بدنى آخر .

وكان للعقوبات البدنية التى وقعهـا الصينيون على الأسرى أثر كبـير فى انهيار الكثير منهم وهذه العقوبات على سبيل المثال :

- القيام بعمل عنيف مجهد .
- الوقوف فى الوضع انتباه لفترات طويلة .
- التعرض للحرارة الشديدة او البرد الشديد .
- الحبس الانفرادى فى غرفة ضيقة لا تمكن الأسير من الجلوس أو الرقاد ، وكانوا يطلقون على هذا النوع من الحبس الانفرادى « الاسـقاط فى الحفرة » .
- الوقوف على أطراف أصابع القدمين .

• الابقاء فى غرف قذرة دون السماح له حتى بازالة الضرورة فى الأماكن المعدة لذلك .

وكان الصينيون بالاضافة الى هذا يعزلون غير المتعاونين عن باقى الأسرى ، ويبقونهم فى معسكر آخر بحيث يكونون عرضة لنظام أكثر قسوة .

وكحديث عام فان « سياسة اللطف » لم تطبق الا على هؤلاء الذين أمل الصينيون أنهم يستطيعون استخدامهم .

على أن الكثير من صور العقوبات للمخالفات العادية كانت تاخذ طابعا اجتماعيا بايقاف الأسير للاعتراف بأخطائه امام زملائه ، أو بتسطير اعترافه وقراءته علانية امام الآخرين ، أو بجعله يقوم بنقد نفسه ، وذلك بقصد تقليل قيمته فى نظر نفسه وفى نظر اخوانه .

ولا يوجد أى دليل على ان الصينيين استخدموا العقاقير أو وسائل « التنويم المغناطيسى » كما لم يعرف قط أنهم عرضوا « ممارسات جنسية » أو استخدموا الاتصال بالنساء كوسيلة للحصول على معلومات غير قانونية ، أو الوصول الى جعل بعض الأسرى يتعاونون معهم مقابل ذلك .

وبرغم ذلك فقد تحدث بعض الأسرى عن تعذيب بدنى قاس ، ولكن من الصعب تقدير المجال الذى حدث فيه ذلك .

ويذكر لنا ادوارد هنتر فى كتابه « غسيل المخ » صورة تفصيلية عن الوسائل والاساليب التى استخدمها الصينيون الشيوعيون فى استجواب الدكتور جون د . هيز John D. Hayes الأمريكى عام ١٩٥١ ، ومحاولة استنطاقه اعترافات خاصة ، ونحن نذكرها هنا على سبيل المثال اذ أنه مهما كانت هذه المعلومات تشوبها الدقة أو المبالغة فانها تعطينا صورة واضحة للأساليب التى قد تستخدم فى عمليات الاستجواب واستنطاق الاعترافات[1] .

---

(١) Edward Hunter, Brain Washing, Farar, Straus and Cudahy, New York, 1956, PP. 66 - 88.

كان هيز مبشرا بالوراثة فقد ولد بالقرب من كفو «Chefoo» فى شمال الصين من أبوين من المبشرين وورث عنهما هذه الوظيفة ، وكان يحس وهو بين الصينيين انه فى وطنه تماما كما أتقن لغة الـ Mandarin أى اللغة القومية اتقانا تاما ، وكثيرا ما كانوا يقولون : انهم يعتبرونه واحدا منهم .

ولكن المتاعب ابتدات معه حينما أعدمت السلطات الصينية عام ١٩٥١ احد أصدقائه الصينيين وكان يعتبره قدوة له ومثله الأعلى . وفى احد الفصول التى كان يلقى بها دروسه ساله بعض الطلبة الحمر رايه فى هذا الموضوع ، فاجاب بصراحة : « لا يمكن لدولة متحضرة أن تعدم انسانا بسبب آرائه السياسية » .

وفى اليوم التالى اخبرته السلطات أنه ارتكب خطيئة كبرى للهجوم على الحكومة ، وانه لا بد من وجود أشياء اخطر من ذلك وراء هذا الهجوم ، ولذا فان القانون سيتخذ مجراه .

ومنذ ذلك الوقت وضع هيز لمدة شهر شبه معتقل فى منزله تحت وطأة قلق وخوف من المستقبل المجهول ، ثم رفعت الحراسة عنه وأبلغ انه يستطيع أن يتصرف كما يشاء لعدم ثبوت أى نشاط مضاد له .

ولكن فى فجر احد الأيام سمع طرقا عنيفا على بوابة منزله تبعه صوت اطلاق رصاصات مسدس على باب حجرة نومه ، وعندما فتح الباب حملق فى ثلاثة مسدسات وكانت أول كلمة سمعها : « انك جاسوس استعمارى » .

كان الهدف من هذا كله اجهاد ذهنه ، ووضعه فى حالة من التوتر النفسى تهيئه للتدرج فى عملية أخرى اشد قسوة وعنفا .

وتم بعد ذلك نقله الىاحدى الزنزانات، حيث تناوب عليه لفترة تتراوح بين ثلاث ساعات وتسع يوميا ولمدة اربعين يوما متتالية جماعات متتابعة من المسجونين والمبشرين السياسيين ، وقد حطم التوتر الناشىء من الضغط السيكولوجى أعصابه ، وحينئذ بدات الضغوط البدنية العنيفة المصحوبة بالضغوط الذهنية .

ويصف هيز نفسه فى هذه الحالة قائلا :

« كنت جائعا بصفة مستمرة فقد كان غذائى اليومى عبارة عن قليل من الأرز مع ملعقتين من الخضر ، وكنت احس التخدير نتيجة قلة النوم ، كما كان الامتهان أشد أثرا على نفسى ، وشعرت ان آدميتى قد امتهنت فى بلد احببته .

وحينما كنت أستدعى الى غرفة غسيل المخ أجد نفسى فى حجرة فى الطابق السفلى من السجن مساحتها ١٢ × ١٨ قدما حيث يواجه الانسان فيها عددا من الناس يتراوح عددهم من شخص الى سبعة أشخـاص وذلك كلما نظر الى اى اتجاه ، فمنهم : المستجوب ، والمبشر السياسى ، والجلاد ، والقاضى ، والفضولى ، والمكلف بالتعذيب .

وهنا بدأت مرحلة استنطاق الاعترافات حينما أخطره المحققون فى بساطة أنه كبير الجواسيس فى منطقة شرق الصين بأكملها ، وطلبوا منه ان يكتب جميع التفصيلات فى اعترافاته .

واستخدمت مع هيز أغلب الوسائل والأساليب المعروفة فمن : وعود باغتفار ذنوبه اذا اعترف ، الى ضغوط نفسية حادة ، الى كيل اتهامات واهانات تجعل الانسان ينهار فورا ، ويستغل المستجوب الموقف فورا فيضع البيـان المطلوب فى صيغة سؤال .

ولم يكل المستجوبون من عدم توفيقهم فى الحصول على الاعترافات المطلوبة ، بل استخدموا المناورة وخاصة حينما كان يصمت المتهم .

وكان المستجوبون فى كثير من الحالات يركزون على تفصـيلات لا ترتبط بالموضوع ويرددونها بين الحين والآخر ، ثم يقفزون فجاة من نقطة لأخرى حتى يسقط الموضوع برمته ويظهر شىء آخر لا علاقة له بالموضوع ، مما يثـير المتهم ويجعله دائما فى حالة من التوتر والانفعال .

ففى أحد الاستجوابات مثلا وهى شبيهة بما كان يحدث فى محاكم التفتيش اصر المستجوب على أن يذكر له هيز أسماء المتاجر التى حول السوق ، وبعد ان فكر هيز بامعان أخذ يذكر اسم كل متجر . واستمر الاستجواب المضحك كما يلى:

- هل قلت : أن هناك متجرين للأدوات الكهربية ؟
- نعم ٠
- هل اشتريت من المتجرين ؟
- لا ٠
- من أى متجر اشتريت ؟
- الثانى ٠

ويقوم المستجوب بنهره بصوت حاد :

اشتريت من ذلك المتجر ولم تشتر من المتجر الآخر ولماذا ؟

- آه ٠٠ لا اعرف ٠
- لابد وأن هناك سببا ٠٠ فكر الآن وكن صريحا لماذا اشتريت من ذلك المتجر بالذات ؟
- أعتقد أننى احببت هذا المكان ٠٠ واننى احاول دائما أن أصادق من أشترى منهم ٠
- آه ٠٠ اذا كان هذا هو السبب ٠٠ هل ابتسم صاحب المتجر حينما اشتريت منه ؟
- ابتسم ٠٠ آه ٠٠ ابتسم ٠٠ نعم ٠٠ ابتسم ٠
- لماذا ابتسم ؟
- لماذا ؟ لماذا ابتسم ؟ لا أعرف لماذا ابتسم ٠٠ لقد ابتسم وكفى لأنه ٠٠

ولقد مرت بهيز الكثير جدا من مثل تلك الاستجوابات التافهة ، ولكنها لم تخرجه عن اتزانه ، الا أن الأثر الذى كان يهدف اليه المحقق هو تشويش صفاء ذهنـه ٠

واستطاع المستجوبون فى النهاية أن يصلوا بهيز الى درجة من الهلوسة نتيجـة وطاة المطالب المتتـالية المسـتمرة على ذهنـه فى تلك البيئـة المزعجـة ويقول هيز :

« انه بسبب المحاولات الملحة لجعلى أتذكر كل تفصيل نسيته كانت الغمامة تنحسر عن المنظر طالما تعلق الأمر بالحقائق ، ولكن المستجوبون كانوا يدقون باستمرار على الوتر فيما يتعلق بأى اتهام يوحى الى ، ولذا كان امامى خليط غريب من الحقيقة والخيال » .

وبعد أن وصل المستجوبون بهيز الى هذه الدرجة ولم يستطيعوا أن يقتطعوا منه الاعترافات المطلوبة انتقلوا الى طريق آخر ، ففى احدى الجلسات قال له أحد المحققين :

« لقد وجدنا أنك لست جاسوسا امريكيا بل جاسوسا دوليا » وترك هيز يتخبط فى حيرته واستطرد المحقق فى القول : « ان لديك أفضل جهاز للتجسس مر بنا أيها الصديق » .

وبعد أن ترك هذا النبأ يغوص فى اعماقه ساله : « اى بلاد زرت ؟ ولقد ذكر هيز تلك البلاد بعناية وهو يدرك أن الدقة مطلوبة فى هذا النوع من الاستجواب الذى كان يقصد به أن يكون فخا أكثر منه استجوابا .

وقد ذكر هيز كل البلاد ولكن اجابة المحقق على ذلك كانت ضحكة عالية مخيفة مما جعل فرائص هيز ترتعد لعجزه عن فهم مغزى ذلك .

واستدار المبشر العقائدى اليه وقال : « انك لم تذكر الصين فى قائمتك » ثم أمره بالانصراف الى زنزانته مكبلا بالحديد .

هذه صور لبعض الأساليب التى لجأ اليها الصينيون فى الاستجواب واستنطاق الاعترافات ، وبرغم أن هذه الأساليب لم تنجح مع هيز الا انها نجحت مع الكثيرين غيره ، وهى فى شكلها لا تختلف عن الاساليب المعروفة قديما وحديثا .

ويقول هيز وهو جالس فى زنزانته يحلل معركته الصغيرة فى حرب العقل : « كلما ازددت تفكيرا فيها ازداد يقينى بأن العقل يتأثر الى حد كبير ببيئتها

وتدريباتها الا ان عامل الروح يعتبر العامل الحاسم الحق فى مقاومة هذه المعركة ٠ فانت لا تستطيع تحطيم الروح اذا كانت سليمة مؤمنة » ٠

ومن ثم فاننا نجد ان وسائل الاستجواب واستنطاق الاعترافات لا يختلف بعضها عن بعض من ناحية الجوهر فى كل المجتمعات المختلفة ، وان كان الشيوعيون قد استخدموها كوسيلة من وسائل التثقيف الايديولوجى ٠

والحق أن استنطاق الاعترافات يتطلب دائما من المستجوب أن يحاول خلق مشاعر من القلق والاثم عند الفرد ، وكذا وضعه دائمـا فى حالات من الصراع النفسى ٠ وحتى لو كان المتهم مذنبا بحق فان المســتجوب يحـاول دائما اثارة الاضطراب فى وظيفة مخه العادية بحيث تصبح احكامه خاطئة ٠

وحينما يصل الفرد الى درجة الانهيار نتيجة الاستجواب فان عقله لا بد من أن يحدث له أحد أمرين : فاما أن يظهر استعدادا فى زيادة القابلية للايحاءات التى قد يستغلها المستجوب فورا فى عملية اقناع الفرد باعترافه ، واما أن تحدث حالة متناقضة تماما اذا ما أصبح ذهن الانسان فى حالة من الارتباك والفوضى ، وفى هذه الحالة ينتقض الانسان تماما كل معتقداته وأنماطه السلوكية السابقة بشكل يجعله يحس الرغبة فى الادلاء باعترافات تتناقض مع طبيعته واحكامه العادية ٠

* * *

وفى الحروب قد يحس الأسرى فى بعض حـالات الاستجوابات تحت وطأة التوتر الناتج مع الظروف القاسية صراعا فى الرغبة فى الاعتراف ، ثم الانصراف عن ذلك ثانية ٠

ففى هذه المرحلة يبدو للأسرى أشــياء غريبة للغاية ، ومن لحظة لأخرى يتارجح ايمانهم بوجهات نظر وآراء مختلفة تماما ، نتيجة عدم استقرار وظيفة المخ ، ولكن من المحتمل غالبا أن ينتهى هـذا الصراع بتقبـل وجهـــات النظر الجديدة ، والادلاء باعترافاتهم ٠

ويقول سارجنت :

« اذا ضمنا أن الضغط الصحيح يتم تطبيقه بالطريقة السليمة ولمدة طويلة كافية ، فانه لا يتسنى للأسرى العاديين سوى فرصة ضئيلة لتجنب الانهيار العصبى • ومن المحتمل ألا يكون عنيدا غير الشاذ او المريض عقليا لمدة طويلة ، ودعنى أكرر هنا أن الاشخاص العاديين لابد من أن ينهاروا لانهم مرهفو الحس يتأثرون بما يدور حولهم • ان المريض بعقله هو الذى يستطيع أن يكون عنيدا ضد الايحاء ، كما أن الجندى اذا ظل مدة طويلة يحارب في الخطوط الامامية دون توقف لفترة فانه لابد من أن ينهار فى النهاية ، وقد حدث ذلك فعلا لجميع رجال الولايات المتحدة المحاربين باستثناء بعض الشواذ • ومع ذلك فانه يمكن حتى للشخص المتوتر عصبيا أن يستثار فى زنزانة السجن وفى مركز الشرطة بواسطة استجواب ماهر ، وبشكل أشد من الاثارة التي قد تحدثها قناصة العدو ، أو رجال مدافعهم الرشاشة القابعون فى خندق » •

والحقيقة أن الاساليب العقلية التي تستخدمها الدول المختلفة فى الاستجواب واستنطاق الاعترافات تهدف كلها : الى اثارة القلق ، وغرس الشعور بالذنب ، واشاعة الاضطراب فى نفسية المتهم وعقله ، كما تهدف الى خلق حالة له لا يعرف فيها ما سيحدث له بين دقيقة وأخرى • فاذا أضفنا الى ذلك المثيرات الفسيولوجية التى تنتج بسبب الاعياء والظروف القاسية التي يعيش فيها المتهم مما تؤدى الى القضاء على الانماط السلوكية العادية له ـ فان تلك الاساليب يشوبها احتمال عدم العدالة بالنسبة للمتهم ، وكما أوضحنا سابقا فان هذه الاساليب قد أوصلت الكثير من الابرياء الى الموت نتيجة أحكام خاطئة ، ولذا فان الاعتراف الحق هو الذى يصدر عن المتهم بكامل ارادته وتحت الظروف العادية •

وان كان الشيوعيون قد استخدموا هذه الاساليب كوسيلة من وسائل تقويم الفكر والاصلاح الايديولوجى فقد سبقهم من فاقوهم فى ذلك • ان الانسان لا يمكن أن تفرض عليه أى معتقدات ولا يمكن تقويض قيمه حتى فى أحلك الظروف ، اذ أنه بمجرد أن تزول هذه الظروف الخارجية لا يلبث أن يرتد عن هذه المعتقدات التى أجبر عليها ، ويعود الى عقيدته الاصلية النابعة من : وحيه : وضميره ، وعقله الكامل •

الفصل الثانى

سيكولوجية وسائل كشف الكذب

اشرنا فى الفصل السابق الى بعض الاساليب التى كان يستخدمها الاقدمون لاكتشاف الكذب ، وكذا تحدثنا باختصار عن جهاز كشف الكذب الذى يستخدم فى هذه الايام لاستجواب المذنبين والمجرمين ٠

وفى هذا الفصل سوف نحاول أن ندرس هذه الوسائل بشىء من التفصيل محاولين ان نتعرف العوامل الفسيولوجية والسيكولوجية التى بنيت عليها نظريات وسائل كشف الكذب ، وكذا لتوضيح الاستجابات وردود الفعل التى تحدث نتيجة استخدام هذه الوسائل فى عمليات الاستجواب ، والحصول على الاعتراف ٠

وكما قلنا سابقا فان طرق الكشف عن الكذب التى استخدمت فى الماضى البعيد قد بنيت على اساس فسيولوجى وسيكولوجى ، واغلب هذه الطرق يقرها اليوم علماء علم النفس ٠

ونعود لنضرب مثالا لاحدى هذه الطرق التى استخدمت فى الماضى بشىء من التفصيل ٠ وتتلخص هذه الطريقة فى قصة حدثت منذ آلاف السنين حينما قتل رئيس احدى القبائل ، ووجهت التهمة الى خمسة أشخاص كان رئيس القبيلة قد سبق ان أساء اليهم ٠ وظهرت المشكلة فى التعرف على المذنب ولكن الطبيب

الساحر ـ طبيب القبيلة ـ حل هذه المشكلة ، اذ جمع القبيلة فى شكل نصف دائرة بجانب شاطىء النهر ووقف المتهمون الخمسة يواجهون القبيلة وظهورهم للنهر •

وبدأ الساحر وهو يرتدى ملابس مخيفة ووجهه مقنع يرقص من مكان لآخر امام القبيلة على صوت دقات الطبول المنتظمة ، وبدأ التوتر يزداد لاقتراب لحظة اكتشاف الحقيقة •

واخيرا توقف الرقص وبدأ الساحر يملأ خمسة أطباق مصنوعة من سعف النخيل بالارز من اناء كان يحمله • وبدأ يتحدث مع أفراد القبيلة عن خطورة الجرم فى قتل شيخها ، وعن السحر الذى سوف يساعده على اكتشاف القاتل • وقال لهم : أن الابرياء سوف ياكلون الارز بسهولة ، أما المذنب فانه لن يستطيع ابتلاع حبة واحدة • ولكى يكون لحديثه هذا أثر كبير قال : « ان طريقته هذه لاكتشاف المجرم قد حققت نجاحا فى مرات عديدة سابقة » •

ثم قدم للمتهمين الخمسة الاطباق المملوءة بالارز فاقبل أربعة منهم عليها بنهم ، ولم يبد عليهم أى أثر من آثار القلق ، بينما وقف الخامس وقد شحب لونه واهتزت ركبتاه محاولا ابتلاع بعض الارز ولكنه لم يوفق • وكان هذا اوضح دليل على جرمه •

وأمر الساحر أفراد القبيلة باعتقال الرجل المذنب الذى اعترف بجريمته قبل أن يلقى به الى افواه التماسيح •

ان العمليات السيكولوجية واضحة هنا بصورة معقولة ،فكلنا يعرف عن « جفاف الريق » عند الخوف اذ أن الانفعال الشديد يمنع افراز اللعاب وهو على صلة قوية بالهضم ، وبدون اللعاب يكون ابتلاع الطعام صعبا بل مستحيلا •

وفى ضوء هذا نستطيع أن نفسر ما حدث للمتهم الذى ثبت جرمه ، فقد كان المتهم يعرف ذنبه ، ويشعر بخوف من قوة الساحر ، ومن مقدرته على

استخراج الحقيقة منه ، ولذلك فقد آمن بكل ما قاله الساحر عن الصعوبات التى سوف يلقاها عند محاولته ابتلاع الارز .

ولذلك فان خوفه من اكتشاف جريمته ـ وهو اكتشاف حتمى ـ عمل على تجفيف لعابه ، كما ان احساسه بوقوع هذا التغيير زاد خوفه واعتقاده أن جريمته قد اكتشفت . وحينما قدم له الارز لم يكن فى حالة تسمح له بالاكل .

وقد تبدو هذه القصة بدائية ، ولكن كل الوسائل التى تستخدم حديثا تعتمد الى حد كبير على ما جاء فى هذه القصة . وبالرغم من ان هناك تحسينات فنية معينة فى تسجيل آثار الانفعالات الا انه من ناحية اخرى فان الوسائل الحديثة تولد قدرا أقل من الانفعال الذى استطاع الساحر أن يولده فى نفس المتهم . ولو قارنا بين الاثنين فاننا لا نستطيع أن نجزم بأن الوسائل الحديثة افضل من الوسائل القديمة .

ومن جهة أخرى فان خبراء الكشف عن الكذب الحديثين لا يستخدمون « در » اللعاب كدليل على الانفعال ، بل أصبح يعتمد اليوم بدرجة أكبر على : الدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والآثار الكهربية على الجلد .

وهناك قصة أخرى أقل فظاعة من قصة الساحر وهى توضح لنا ان هذه الوسائل معروفة منذ الف عام .

هذه القصة رواها « ابن سينا » شيخ الاطباء فى أحسن كتبه « القانون » ، والفصل الذى تحدث فيه عن الحب ـ وهو فصل عن الامراض المخية والعقلية ـ تضمن ايضا الحديث عن : الارق ، والسبات ، وفقدان الذاكرة ، والجنون ، والكآبة .. الخ .

ففى احدى جولات ابن سينا وصل متنكرا الى مدينة هيركانيا عن طريق بحر ايجه ، وكان أحد أقارب حاكم هذه المدينة مريضا بمرض حير كل الاطباء المحليين . واستشير ابن سينا فى هذا المرض وبعد أن فحص المريض بعناية طلب أن يؤتى بشخص يعرف كل شىء عن مناطق هذه الولاية ومدنها .

وبدأ هذا الشخص يردد أسماء المناطق والمدن بينما كان ابن سينا يضع أصبعه على نبض المريض ، وحينما جاء ذكر مدينة معينة احس ابن سينا سرعة فى نبض المريض • وحينئذ طلب احضار شخص يعرف كل الشوارع والاحياء فى هذه المدينة •

ومرة اخرى حينما جاء ذكر شارع معين فى هذه المدينة احس ابن سينا ازدياد نبض المريض • ومرة أخرى حينما احضر شخص يعرف كل شىء عن سكان هذا الشارع بدأ هذا الشخص يردد أسماء الاشخاص القاطنين فى هذا الشارع ، وحينما جاء ذكر عائلة معينة ارتفع نبض المريض • وحينئذ توقف ابن سينا عن التجربة معلنا أنه قد توصل الى سبب المرض ، وهو أن المريض يحب فتاة من عائلة فلان تسكن فى الشارع الفلانى فى الحى الفلانى فى المدينة الفلانية ، وأن رؤيته لوجه هذه الفتاة سوف يشفيه من المرض • وتم الزواج بين المريض والفتاة وشفى من مرضه نهائيا •

هذا مثال آخر للاستجابة العاطفية غير الارادية التى عملت على افشاء سر اراد صاحبه لسبب ما أن يخفيه لنفسه ، وهذه الاستجابة غير الارادية هى احدى العوامل المصاحبة المعروفة للانفعال الشديد • وهذه العلاقة أو الصلة الوثيقة من الانفعالات التى تحسها الكائنات البشرية ، ومن التغيرات الفسيولوجية التى تظهر على اجسامهم ــ هى أساس الوسائل التى تتبع اليوم للكشف عن الكذب.

* * *

ولقد أجرى عدد من علماء الفسيولوجيا وعلم النفس تجارب عن هذا الموضوع ، وقد يكون مناسبا ان نشير هنا الى الجهود التى قام بها « وليام جيمس » مع « لانج » العالم الفسيولوجى ، وخرجا بنظريتهما المعروفة بنظرية « جيمس ــ لانج » ، وهذه النظرية هى التى قلبت ما يمكن أن نعتبره التتابع الطبيعى للاحداث •

فماذا يحدث حينما نحس عاطفة ؟

اننا نحزن فنبكى ، ونخاف فتزداد سرعة دقات قلوبنا ، ونغضب فتفرز الغدد فوق الكليتين مادة الادرينالين فى أوعية الدم · ومعنى هـذا أن الانفعال كما نحسه عن ادراك ووعى يأتى أولا ثم تأتى العوامل الفسيولوجية المصاحبة بعد ذلك ·

ولكن « جيمس ولانج » يعتقدان أن ذلك قلب للاوضاع السليمة ، فيقولان : أن هناك فرقا بين الانفعال وبين الغريزة ويشير جيمس لذلك بقوله : « ان ردود الفعل الغريزية والتعبيرات العاطفية الانفعالية انما تتداخل فى ظلال بعضهـا البعض دون أن تكون محسوسة وكل غرض يثير الغريزة أو يحركها انما يحرك العاطفة بالمثل » · كما قال فى تاريخ لاحق : « يقول المنطق السليم اننا عندما نفقد مستقبلنا فاننا نحزن ونبكى ، وحينما نقابل دبا كاسرا فاننا نشعر بالخوف ونهرب ، وحينما يسبنا خصم نغضب ونسارع الى الاعتداء عليه ، ولكن نظريتى عن هذا كله تناقض كل ما يقال ، فان التغيرات البدنية انما تتبع مباشرة ادراك الحقيقة المثيرة ، فنحن نشعر بالخوف والاسى لاننا نبكى ، ونشعر بالغضب لاننا نضرب من يسبنا ، ونشعر بالخوف أو الغضب لاننا نرتعد تبعا لما تكون عليه حالتنا » ·

ولقد نوقشت هذه النظرية كثيرا وأجريت عليها تجـارب عديدة ، ولكن المناقشات والتجارب لم تلق الا ضوءا خفيفا على هذه المشكلة ، أى مشكلة العلاقة بين الجسم والعقل بصفة عامة ·

وبرغم أنه وجد من الناحية التجريبية أن من الصعب تحديد : هل يسبب الانفعال الاستجابة الفسيولوجية أو أن الاستجابة الفسيولوجية هى التى تحدد الانفعال ، الا أن من المؤكد أن حـدوث أحدهما دليل على حدوث الآخر ، وهذه القاعدة هى الاساس الذى تقوم عليه عملية كشف الكذب ، وليس هناك من شك فى أنها قاعدة علمية سليمة ·

والآن فلنحاول أن نبحث طبيعـة ردود الفعل الفسيولوجية التى تشير الى وجود انفعال · فلو تحدثنا بطريقة عامة فاننا نستطيع أن نقول : ان الكائنات

البشرية لها جهازان عصبيان ، الاول ويطلق عليه الجهاز العصبى المركزى وهو المسئول عن نقل الدوافع IMPULSES الى الجهاز العضلى العظمى المسئول عن تنفيذ الحركات التلقائية • فضرب الكرة بالقدم مثلا أو القفز فى البحر وغيرهما كلها اعمال تلقائية قام بها هيكلنا العظمى الذى تتحرك العظام فيه بواسطة عضلات تتلقى الاوامر من الطبقة الخارجية للمخ عن طريق الجهاز العصبى المركزى •

وبالرغم من ذلك فان هناك جهازا آخر أكثر استقبالا عن الجهاز العصبى المركزى يطلق عليه اسم الجهاز العصبى الذاتى ، وهو يتعامل اساسا مع نشاطات او أعمال لا شعورية تعمل على ابقاء اجسامنا فى حالة طيبة • وهكذا فاننا نتنفس وتدق قلوبنا وتتم عملية الهضم ، وتنصب الهرمونات فى أوعيتنا الدموية ، وتنظم كمية الدم التى تمر بأجزاء الجسم المختلفة بدقة استجابة لدرجة الحرارة ، ويتسع انسان العين أو يضيق استجابة للاختلافات فى درجة الضوء ، وكل هذا يحدث دون أى نوع من « التلاؤم » •

ان هذه الاستجابات الذاتية هى التى تتصل اتصالا وثيقا بالانفعال • وبعض التغيرات الذاتية الاساسية المصاحبة للانفعال مألوفة لدى كل شخص ، ولا تتطلب وسائل للكشف عنها • وهذه التغيرات تتضمن : احمرار الوجه ، أو شحوبه ، وتدفق العرق بغزارة ، وازدياد نبض القلب ، وجفاف الفم ، واحساسات مبهمة أخرى •

كما أصبح من السهل اكتشاف تغيرات فسيولوجية دقيقة أخرى فى المعمل : كارتفاع ضغط الدم ، أو زيادة استهلاك الاكسجين ، أو التمدد فى شعب الرئتين ، او الزيادة فى عدد الخلايا الحمراء فى الدم ، أو اختفاء الادرينالين أو زيادة فى سكر الدم وغير ذلك من الاشياء •

ويبدو ان معظم هذه التغيرات هدفها الملاءمة ، فالانفعالات الرئيسية مثل الخوف والغضب هى عادة دليل سابق او مقدمة لنشاط عنيف ، وهذا النشاط

يتمثل : اما فى قتال ، واما فى هرب ، ذلك لأن كلا من القتــال والهرب يتطلب كمية كبيرة من الدم ، ونتيجة لذلك فان دقات القلب تسرع لسد الاحتياجات المنتظرة ، فتتحرر بعض الطاقة التى اختزنها الجسم فى الدم ، وهذا يجعل الجهاز العضوى أكثر قدرة على تحمل المجهود ٠

ومن جهــة أخرى فان الانفعال الشــديد غالبا ما يعوق التوافق العقلى والعضلى اللازم لاداء عمل ماهر ٠ ويستطيع معظم الناس أن يستقوا الدليل على ذلك من تجاربهم الشخصية ٠ فالانفعال الشديد يضعف القــدرة على الحوار الماهر ، ونحن لا نستطيع أن نفكر تفكيرا سليما منطقيا حينما نحس الضيق ، واذا اشتركنا فى مباراة لكرة القدم ، فان الانفعال الشديد قد يجلعنا أكثر دفعا فى اللعب ، وأقل احساسا بالاصابات ، وأقل خضوعا للارهاق البدنى ، الا انه من جهة اخرى سوف يجعلنا اقل مهارة واقل لجوءا للعقل اثناء المباراة ، فقد نضرب الكرة بقوة ، ولكن على حساب المهارة والدقة فى تسديد الهدف ٠

على أن من الوظائف الاجتماعية المفيدة للانفعال هى أنه يساعد على كشف الكذب ، واستخدام تعبير « الكشف عن الكذب » فى هذا المجال هو استخدام مضلل ، وانما ما نكتشفه حقيقة هــو وجود نوع من الاستجابة الانفعالية ، فخوف المذنب من أن يكتشف مرتبطا باصراره على الكذب يهيىء استجابة انفعالية لا تحدث فى حالة قول الصــدق ٠ ونتيجة لذلك تحولت عمليــة « اكتشاف الانفعال » الى عملية « اكتشاف الكذب » فى ظروف معينة أعدت اعدادا خاصا ٠

ولكن الانتقال الفجائى من اكتشاف الانفعال الى « اكتشاف الكذب » هو انتقال فجائى ، ولذلك يجب أن نحذر ونتأكد أن هــذا الانفعال الفجــائى له ما يبرره كما يجب أن نبتعد عن الاستنتاجات الخاطئة ٠

ولنضرب مثالا لتوضيح بعض المتاعب التى تنتج من ذلك ٠ ولنفرض انه فى حالة محاولة الساحر لاكتشاف المجرم كان الاشخاص الخمسة أبرياء ولكن أحدهم كان يعرف أن الساحر كان يكن له حقدا قديما ، وأنه سوف يدينه فى

جريمة القتل • ففي ظل هذه الظروف نتوقع من هذا الشخص أن تظهر عليه علامات الخوف كما لو كان مذنبا حقيقيا ، ونتيجة لذلك الخوف فانه قد لا يقدر على ابتلاع الارز ، وقد يفسر سلوكه هذا تفسيرا خاطئا على أنه القاتل وعلى أن عدم قدرته على ابتلاع الارز كانت نتيجة خوفه ، وخوفه نتيجة لجرمه • ولكن هناك طرقا مختلفة تفيد في تجنب مواطن الخطأ والزلل من هذا النوع والتي سوف نناقشها فيما بعد •

* * *

ولنعد الآن الى الجهاز الذي يستخدم في الوقت الحاضر لاكتشاف الكذب • ان الفكرة السائدة عن جهاز اكتشاف الكذب هو أنه جهاز يدق جرسا أو يضيء ضوءا لامعا كلما فاه الانسان الموضوع تحت التجربة بأية أكذوبة ، ولكن لسوء الحظ ليس هناك جهاز بهذه الصورة الدقيقة ، فاكتشاف الكذب يعتمد على الاستنباط والبرهان العارض وعلى نسج مجموعة من الحقائق المفككة •

ويحصل الجهاز على معظم المعلومات التي يعتمد عليها من تسجيل مستمر للتغيرات في ضغط الدم والنبض والعرق • وتتم هذه التسجيلات على آلة تسمى « بوليجراف » •

وهي تقدم تسجيلا لهذه الاستجابات الفسيولوجية • وتتكون هذه الآلة من ملف طويل من الورق مشدود على سطح يتحرك بسرعة موحدة ، وعليها يقوم عدد من أقلام التسجيل يتحكم في حركاتها آلات مختلفة متصلة بالشخص الذي يجري عليه التجربة ، وهذه الآلات متصلة بأقلام التسجيل اما بالطريقة الالكترونية ، واما بالآلية •

وعند اجراء حالة بحث حقيقية ، سوف تكون أول مهمة امامنا هي اختيار غرفة خاصة هادئة للفحص ، ثم توصل الاجزاء المختلفة للجهاز بالشخص الذي تجرى عليه التجربة ويعطى فكرة عن الطبيعة العامة للاختبار •

أما الخطوة التالية فهي أن نجعل الشخص يلقي نظرة على الجهاز ، ويقال له : ان هذا الجهاز قادر على أن يحدد ما اذا كان شخص معين يقول الكذب

أو الصدق • ثم يشرح له أن آلة التسجيل تسجل تغيرات بدنية معينة تستطيع أن تكشف الكذب • على أنه من جهة أخرى يجب تهدئة باله بأن يقال له : أنه لن يحس آلاما جسمانية فيما عدا المضايقة اليسيرة المؤقتة الناجمة عن جهاز قياس الضغط ، وبأن الجهاز سوف يبين بأنه يقول الصدق اذا كان صادقا حقا ، ولذلك فليس هنـاك ما يدعوه الى القلق • وبالاضـافة لذلك يجب أن يطمئن الشخص من انه لن توجه اليه أسئلة عن مسائل شخصية او شيء آخر بخلاف الجرم المتهم به • وبعد ذلك يكون كل شيء معدا لاجراء الاختبار • وفي الجزء الاول من الاختبار تجرى محاولات للاشارة الى نجاح الجهاز في الاختبارات السابقة، ويحاول القائم بالتجربة أن يثبت ذلك بقيامه بتوضيح العملية وشرحها • وفيما يلي الطريقة التي تتبع عادة في هذا المجال :

يبدأ القائم بالتجربة بالتقاط سـبع ورقات من أوراق اللعب أو ثمان ، ويطلب من الشخص الذي تجرى عليـه التجربة أن يختار ورقة وينظر اليها ويعيدها الى الكوتشينة ، ثم يقول للشخص الذي تجرى عليه التجربة : انه سوف يريه أوراق الكوتشينة الثمانية الواحدة بعد الاخرى ، وانه يريد منه أن يقول « لا » كلما سأله « هل هذه الورقة التي اخترتها ؟ » ويطلب منه بوجه خاص أن يقول « لا » ايضا عندما يعرض عليه الورقة التي اختارها فعلا ومعنى هذا أنه يطلب منه أن يكذب •

ثم يبدأ في اجراء التجربة ويريه أوراق الكوتشينة ويطلب منه الاجابة على سؤاله كل مرة ، وفي أثناء ذلك يراقب بعناية حركات أقلام التسـجيل على « البوليجراف » • وفي ٩٥ حالة من بين كل مائة حالة يظهر رد فعل مبالغ فيه من الجهاز العصبي الذاتي للشخص الذي تحت التجربة ـ ويظهر رد الفعل هـذا واضحا في التسجيل في كل مرة يقول فيها « لا » حينما تعرض عليه الورقة التي كان قد رآها واختارها •

وللتأكد يعيد القائم بالتجربة الاختبار مرة أخرى ويخبر الشخص الذي تجرى عليه التجربة بالورقة التي كان قد اختارها ، ويبين له التغيرات التي

وقعت فى البوليجراف عندما رد على سؤاله بالكذب • وبهذه الطريقة يثبت القائم بالتجربة للشخص الذى تجرى عليه التجربة أن جهاز اكتشاف الكذب من الممكن ان يكون آلة خطرة على أى شخص يحاول الكذب •

وبعد ذلك يكون الشخص الذى تجرى عليه التجربة فى حالة انطياع ملائمة، فيبدأ القائم بالتجربة بتوجيه أسئلة له لها صلة بالجريمة التى يستجوبه عنها •

• • •

وفى اثناء الاستجواب قد تستخدم وسيلة أو وسيلتان مختلفتان • الوسيلة الاولى هى التى يطلق عليها « تكنيك » الاسئلة ذات الصلة وعديمة الصلة Relevant - irrelevant question technique

وفى هذه الطريقة ـ توجه أسئلة « ليست لها صلة » بالموقف مثل « هل اسمك كذا ؟ » أو « هل ولدت فى مدينة كذا ؟ » ، بالتبادل مع أسئلة لها صلة بالجريمة مثل « هل سرقت الخاتم الماسى ؟ » أو « هل اطلقت الرصاص على فلان ؟ » وهذه الطريقة تشبه الى حد ما الطريقة التى استخدمت فى أوراق الكوتشينة ـ حيث لعبت ورقة الكوتشينة التى اختارها الشخص الذى أجريت عليه التجربة ـ دور « السؤال الذى له صلة ؟ » كما لعبت أوراق الكوتشينة الاخرى دور الاسئلة الاخرى التى لا صلة لها بالموضوع •

أما ما يدل على الكذب فهو الفرق فى رد الفعل الفسيولوجى حينما ننتقل من « الاسئلة التى ليست لها صلة » الى « الاسئلة التى لها صلة » •

ما هى اذن التغيرات الدالة على الخداع ؟ ان العلاقة التى نستطيع الاعتماد عليها أكثر من غيرها هى ظاهرة الكبت اللاشعورى للتنفس ، وارتفاع ضغط الدم فورا بعد أن يرد الشخص الذى تجرى عليه التجربة على السؤال ، وحتى لو ظهر رد فعل واحد من الاثنين السابقين فان ذلك يكون دليلا كافيا للقائم بالتجربة •

وأحيانا يظهر الخداع أو الكذب بانخفاض فى ضغط الدم ، ويظهر ذلك بعد ثوانى قليلة من الرد الكاذب على سؤال المختبر . وأحيانا يكون «التنفس بصعوبة»

الذى يظهر بعـد خمس عشرة دقيقة ، أو عشرين من الرد على سؤال له صلة بالموقف ـ دليلا على الكذب • ولكن من جهة أخرى فان التنفس بصعوبة ظاهرة فسيولوجية مصاحبة للشعور بالامان بعد النجاة من موقف خطير ، وقد تظهر هذه الحالة أيضا فى نهاية فترة الاستجواب عنـدما يقال للشخص الذى تجرى عليه التجربة : انه لن توجه اليه أسئلة أخرى • ودليل آخر على الخداع هو البطء فى نبضات قلب الشخص الذى تجرى عليه التجربة بعد رده على سؤال مباشر •

* * *

ولابد من اتباع قوانين معينة فى تفسير تلك الاستجابات او ردود الافعال ـ ومع ذلك فالقانون الاساسى هو انه لكى تعتبر الاسـتجابة دليلا على الكـذب ، « فان الاستجابة الفسيولوجية لسؤال له صلة بالموقف يجب أن تكون مختلفة عن الاستجابة الفسيولوجية لسؤال لا صلة له بالموقف » •

وبالرغم من براءة عدد من الناس من الجريمة التى يجرى عليها الاستجواب فانهم يعانون من توبيخ الضمير عموما ، وهذا قد يجعلهم فى حالة عصبية شديدة ، ويجعلهم مستجيبين انفعاليا بشكل مبالغ فيه • ومثل هؤلاء النـاس يظهرون استجابة فسيولوجية كبيرة حتى بعد توجيه أسئلة اليهم لا صلة لها بالموقف ، ولذلك فاننا قد نعتبرهم كاذبين اذا لم ناخذ فى الاعتبار هذه الحقيقة •

وهناك ضمانة اخرى يجب أن نراعيها وهى انه يجب الا تؤخذ الاستجابة الواحدة كدليل على الكذب ، فالسؤال نفسه أو السؤال المشابه يجب ان يوجه عدة مرات ، فاذا ظل الشـخص الذى تجرى عليه التجربة يردد نفس الاجابة او يستجيب بنفس الطريقة التى تدل على اقترافه الجرم ، فاننا عندئذ نستطيع اعتبار هذه الاستجابة المستمرة دليلا على كذبه • وهذه ضمانة هامة واحتياط ضرورى •

فالعوامل « العارضة » مثل اصابة الشخص بتقلص فجائى ، أو بالعطس ، أو بسماع صوت عال مفاجىء كلها قد تؤدى الى آثار لا تفترق كثيرا عن المظاهر الانفعالية المصاحبة للكـذب ، وهذه العوامل التى لهـا صلة بالموقف لا يمكن استبعادها الا بتكرار العملية كلها عدة مرات •

وفي ظروف معينة نستطيع اللجوء الى صورة أخرى مختلفة من الاستجواب او توجيـه الاسـئلة . ولقـد اطلق عليهـا اسـم طريقـة « ذروة التوتر » Peak of tension او طريقة « المعرفة الآثمة » Guilty hnowledge وتعتمد هذه الطريقة على حقيقة أن الشخص المذنب قد تكون لديه معرفة لا يملكها أى شخص برىء ، فعند توجيه أى سؤال له صلة بهذه « المعرفة » أو يشير الى هذه المعرفة فان هذا السؤال سوف يؤدى الى ردود أفعال انفعالية من جانب الشخص المذنب وهى ردود أفعال لا تظهر فى سلوك الشخص البرىء .

ويعطى الدكتور « ايسنك » Eysenck أستاذ علم النفس فى جامعة لندن مثالا لذلك يوضح هذه الظاهرة(١) :

فى أحد المستشفيات كانت تجمع مفارش الاسرة مرة كل أسبوع وتوضع فى سـلات الغسـيل فى كل طابق من طوابق المستشفى . واكتشـفت ادارة المستشفى ذات يوم أن المفارش فى احدى السلات كانت ممزقة ، وتكرر تمزيق الملاءات لمدة عدة أسابيع ، ولما كان عسيرا على المرضى أن يصلوا الى مكانها تركزت التهمة على الممرضات اللاتى يعملن فى هذا الطابق بالذات . وروعى ألا يتسرب نبأ هـذا للممرضات ، ولذلك لم يكن يعلم بهـذا الحادث سـوى الممرضة التى ارتكبت هذا الجرم . وكان هـذا الموقف تمهيدا لاجراء التجربة ، وابلغ رؤساء القسم الممرضات أنهن سوف يشتركن فى تجربة سيكولوجية حيث تقرأ عليهن كلمات . وأن عليهن أن يذكرن أول شىء يخطر ببالهن عند سماع كل كلمة . ومن بين المائة كلمة التى استخدمت فى التجربة كانت هناك كلمات قليلة لها صلة بالجريمـة . مثـل « مفـرش سرير » ، تمـزيق » ، سـلة الغسـيل » . وبعد اجراء التجربة وتسـجيل الكلمات التى نطقت بها الممرضات ، وقورنت الكلمات « المذنبـة » بالـكلمات « البريئـة » لـكل من الممرضـات ، أظهرت ممرضة واحدة فقط زيادة ملحوظة جدا فى النشاط الذاتى أو الاستجابة الذاتية

(١) Sense and Nonsense in Psychology: H. J. Eysenck, Richard Clay and Company, Ltd. Bungay, Suffolk, 1958.

للكلمات « المذنبة » ، وفي حالتها ظهر رد الفعل هذا لكل كلمة من الكلمات المذنبة . وعندما واجهوا المرضة بالتسجيل اعترفت بالجرم ، وكشفت عن دوافعها التي دفعتها لارتكاب تلك الجريمة . وكان الدافع الاساسى لها هو رغبتها في الانتقام من رئيستها التي كانت تعاملها معاملة سيئة .

* * *

وقد يبدو لنا أن نتساءل الآن :

الى أى حد يعتبر جهاز الكشف عن الكذب صالحا ؟ والى أى حد نستطيع الاعتماد عليه ؟

يجيب ايسنك عن ذلك بقوله :

« هذه أسئلة صعبة ، وقبل الرد عليها يجب أن نضع في اعتبارنا عوامل معينة . ان احدى الصعوبات الرئيسية في اختبارات من هذا النوع هي الحالة العصبية التي تظهر على شخص برىء أو شخص صادق في جو الاستجواب البوليسي . وتظهر هذه الحالة العصبية على التسجيل ، فيبينها الشكل الشاذ للخطوط التي ترسمها اقلام الجهاز ، وكذا عدم النجاح في الربط بين الاستجابات وبين الاسئلة التي لها صلة بالموقف . ولذلك « فان الاضطرابات الفسيولوجية المرتبطة بالحالة العصبية تظهر على مسجل اكتشاف الكذب بدون أى صلة دائمة باى سؤال أو اسئلة معينة . وقد يحدث أحيانا اضطرابات مماثلة اثناء فترات الراحة عندما لا توجه اسئلة على الاطلاق . والطريقة المثلى لمنع وجود هذه الحالة العصبية في الشخص الذى تجرى عليه التجربة هى عن طريق التأكد والتكرار . وتكرار التجربة كلها خمس مرات أو حتى عشر مرات هو بمثابة مهدىء ، لان الشخص الذى يخشى في الاصل كل هذه الاشياء يصبح معتادا بعد التكرار هذا الاجراء ، ويدرك أنه ليس في التجربة ما يبعث على خوفه ، كما أن التكرار من حين لآخر يمكن المختبر من البحث عن عنصر الاستمرار في الاستجابات المبالغ فيها لنفس السؤال او لاسئلة تعتبر لها صلة بالموقف . على أنه من جهة أخرى نجد ان تشخيص الحالة العصبية امر اسهل نسبيا ، فالامر لا يتطلب عادة فحص مسجل جهاز اكتشاف الكذب لمعرفة ما اذا كان الشخص عصبيا جدا أم لا . والحالة العصبية لا تشكل صعوبة كبيرة فهناك عوامل أخرى يصعب التعامل معها ،

« فالتخلف العقلي » مثلا Mental deficiency يجعل الشخص المجرب عليه لا فائدة منه تقريبا عند اجراء اختبار الكشف عن الكذب ، فالابله أو الغبي بدرجة كبيرة لا يستطيع التمييز بين الصدق والكذب ، ولا يستطيع فهم الواجبات الاجتماعية المرتبطة بقول الصدق • كما أن الفرد الذى لا يخشى مغبة اكتشاف كذبه سوف لا يعطى نتائج مفيدة يمكن تفسيرها بأية صورة • وينطبق هذا أيضا على الاطفال الذين لا يصلحون لان يكونوا موضعا لاجراء اختبارات الكشف عن الكذب •

وتظهر صعوبات ومتاعب أكبر من ذلك من أشخاص معينين لا يستجيبون نسبيا لظروف الاختبار ، فالشخص الذى لا يؤمن بفاعلية الاختبار • والذى لا يحس قلقا كبيرا من أن يكشف عن نفسه لا يظهر انفعالا كبيرا عندما يقول الكذب • ولذلك فان تسجيلات ردود أفعاله على مسجل جهاز « البوليجراف » ، هى تسجيلات يصعب تفسيرها • وبعض الاشخاص يظهرون افتقارا كاملا للانفعال ، ومثل هؤلاء الناس قد نحكم ببراءتهم مع أنهم قد يكونون مذنبين • وهناك بعض الاشخاص الذين يستطيعون التحكم فى ارتباطاتهم العقلية بدرجة تجعلهم يتحاشون ردود الافعال التى تكشف عنهم • ولكن لحسن الحظ وجد ان الناس من هذا النوع الذين يملكون القدرة على « هزم » جهاز الكشف عن الكذب ، هم أناس قليلون جدا ، وهم أولئك الذين يطلق عليهم اصطلاح « المجرمين المحترفين » •

وهناك أشخاص آخرون لهم المام بالأسس السيكولوجية التى يقوم عليها جهاز الكشف عن الكذب ، وهؤلاء يستطيعون اللجوء الى حيل مختلفة تقلل من قيمة أجهزة الكشف عن الكذب ، فكما سبق أن أشرنا فان الكشف عن الكذب يعتمد اعتمادا كبيرا على اجراء مقارنة بين المواقف أو الاسئلة التى لها صلة بالموضوع ، وبين المواقف أو الاسئلة التى لا صلة لها به • فاذا كان الشخص موضوع التجربة قادرا على أظهار ردود أفعال او استجابات فسيولوجية للأسئلة والمواقف التى لا صلة لها بالموضوع فان المقارنة لن تكون مجدية ، ولن يستطيع المسجل أن يكشف عن معلومات هامة •

* * *

ولننتقل الآن لنحاول أن نقيم الفائدة العملية لاختبارات الكشف عن الكذب • وقد يكون من المفيد هنا أن نشير الى آراء « اينبو » Inbau (١) الذى يستند تقديره على خبرة ١٢ عاما فى « المعمل العلمي للكشف عن الجرائم » فى شيكاغو حيث يقول :

« ان لاختبارات الكشف عن الحقيقة فائدتها العملية اذا ما كان المشرفون عليها أشخاصا أكفاء لهم خبراتهم وتجاربهم • فبالاستعانة بجهاز الكشف عن الكذب يمكن كشف الخداع بدرجة من الدقة أكثر من أى شيء آخر ، كما ان الجهاز والاختبارات والاجراءات المصاحبة له ، كلها لها أثرها الفسيولوجي المحدد فى حث الافراد المذنبين على الاعتراف » •

وتقدير أينبو لدقة وسائل الكشف عن الحقيقة هو أكثر التقديرات اقناعا ، ويقول أينبو :

« ان الباحث يستطيع أن يقوم بتشخيص دقيق محدد للكذب أو الخداع فى ٧٠ حالة من كل ١٠٠ حالة ، وفى ٢٠ حالة تكون التسجيلات غير محددة جدا فى دلالاتها لدرجة لا تسمح للباحث الكفء أن يقوم بتشخيص محدد • والشك فى هذه الحالات قد ينسب : اما الى عامل عدم الثبات والاستقرار وطبيعة الاستجابات السريعة فى التسجيل ، واما الى عدم الاستجابة العامة للشخص الذى يجرى عليه الاختبار • أما فى الحالات العشر الباقية فان أكثر الباحثين مرانا وتجربة معرض للقيام بتشخيصات خاطئة ، ومصدر الخطأ الرئيسى فى مثل هذه الحالات يكمن فى عدم توفيق المختبر فى الكشف عن الخداع فى شخص مذنب، اكثر من تفسيره الخاطيء ليسجل ردود أفعال الشخص البريء » •

ويقول ايسنك : « ان تقدير اينبو معقول ، ويجب ان نقول : أن بعض الخبراء أعلنوا ان نسبة دقة الاختبارات بالطرق التى اتبعوها تتراوح بين ٩٧٪ ، ٩٨٪ أو ٩٩٪ وفى حالة من الحالات وصلت الى ١٠٠٪ وهذه التقديرات مبالغ فيها ، وقد

---

(١) Inbau, F. E. and Reid, J. E., Lie Detection and Criminal Interrogation Third Edition, Baltimor, The Williams and Wilkins Co., 1953.

عول الناس عليها الكثير ، ولكن آمالهم خابت حينما أجريت التجارب لتحقيق تلك النتائج . وكان الاحساس بخيبة الامل سببا فى اضعاف ثقة النـاس فى طرق الكشف عن الكذب وهـذا ما يحسه بعض أعضـاء قوة البوليس . ومع ذلك ، فاننا لا نستطيع أن نحول أجهزة الكشف عن الكذب الى أداة عديمة الجدوى » .

* * *

ان أول فائدة لطريقة الكشف عن الكذب هى أنها تساعد فى الحصول على اعتراف فى الحالات التى لم توفق فيها الطرق الاخرى ، وكذا فى الحالات التى تتطلب قدرا كبيرا من العمل . فمواجهة المجرم بدليل موضـوعى عن كذبه مكتوبا على المسجل فى جهاز « البوليجراف » تجربة مقلقة لمعظم المجرمين ، وقد دلت التجربة على أن عددا من المجرمين أدلوا باعترافاتهم فى حالات كثيرة . وهنـاك حالات أخرى عديدة اعترف فيها المجرمون لمجرد استماعهم بأن اختبار الكشف عن الكذب سوف يجرى عليهم . وفى حالات أخرى اعترف المجرمون بجرمهم أثنـاء فترة انتظار اجراء تجربة كشف الكذب عليهم ، واعترف آخرون فى اللحظة التى أتم فيها خبراء جهاز الكشف عن الكذب اعداد الجهاز .

والاعترافات التى يحصـل عليهـا لابد من أن تراجع أو تقـارن بدليل موضوعى ، والاعتراف وحده سواء حصلنا عليـه باستخدام جهاز الكشف عن الكذب أو بدونه ، وهو اعتراف لن تعتبره المحاكم كافيا فى حد ذاته ، ومع ذلك فالاعتراف يتضمن عادة تفصيلات تجعل من الممكن الحصول على تصديق موضوعى لادعاءات الشخص المذنب . ولقد ثبت من التجارب أنه لم يحدث فى حالة حتى الآن أن أدلى شـخص باعترافات زائفـة بسبب الاثر الفسـيولوجى للجهـاز أو التكنيكات التى استخدمت فى تشغيله . وفى هذا الصدد هناك فرق كبير بين طرق الكشف عن الكذب ، وبين استخدام طريقة « الدرجة الثالثة » Third degree وهى الطريقة التى أرغمت المتهمين على الاعتراف بجرائم لم يرتكبونها لا لسبب الا لانهم أرادوا الهرب من موقف لا يطاق ولا يحتمل .

وقدرة أجهزة الكشف عن الكذب على حث الاشخاص المذنبين على الاعتراف هي بالنسبة لعدد كبير من الناس ذات فائدة عملية . وبالرغم من تعرضه للخطا في نسبة صغيرة من الحالات ، لا نستطيع أن نغفل الدور الذى تقوم به اجهزة الكشف عن الكذب حتى فى الحالات التى لا نحصل فيها على الاعترافات ، فان وجود دليل للحقيقة ولو كانت درجة الاعتماد عليه ٩٠٪ افضل على أى حال من عدم وجود هذا الدليل على الاطلاق . وفى حالات عديدة ، تمكن سجلات اختبار الكشف عن الحقيقة رجال البوليس من التخلى عن اجراء طويل من التحريات بسبب البراءة الواضحة للشخص الذى تحوم حوله الشبهات . وفى حالات اخرى تبين أن الاشتباه في جرمه علاوة على ما سجله اختبار الكشف عن الكذب سوف يمكنان البوليس من تركيز الجهود على الاشخاص الذين تحوم حولهم اكبر الشبهات . وفى حالات عديدة ، تساعد بعض تفصيلات الاختبار على الايحاء للبوليس بادلة معينة مثل اسماء أشخاص من المحتمل أن يكون لهم ضلع فى الجريمة ، او الاماكن التى قد يكون المجرمون قد اخفوا فيها المسروقات . على انه يجب أن ندرك ان الادانة لا تقوم اساسا وبطريقة مباشرة على تسجيلات جهاز الكشف عن الكذب ، فهذه التسجيلات عامل مساعد فقط يؤخذ فى الاعتبار للوصول الى قرار او حكم ، ونحن لا نستطيع أن نعتمد على عامل واحد اعتمادا تاما ، ولكن اجتماع هذا العامل بعوامل أخرى تشير الى ذنب الشخص الذى تحوم حوله الشبهات او براءته .

والذين ينتقدون طرق الكشف عن الكذب لانها طرق لا نستطيع الاعتماد عليها اعتمادا كاملا ، هم أناس تغافلوا حقيقة هامة وهى أن كل الطرق الاخرى التى تستخدم فى الوقت الحاضر للكشف عن الصدق أو الكذب هى طرق معرضة للخطا أيضا ، بل أكثر تعرضا للخطا من طريقة الكشف عن الكذب . فالسؤال الذى الذى يجب أن نسأله لا يكون « هل الطريقــة الجديدة التى نلجا اليها هى طريقة دقيقة تماما ؟ » . ولكن السؤال الذى يجب ان نوجهه هو « هل الطريقة الجديدة أكثر دقة من الطرق التى سوف تحل الطريقة الجديدة مكانها ، وهل تعمل الطريقة الجديدة على تحسين درجة النجاح التى نحصل عليها فى الوقت الحاضر» فاذا اتبعنا هذا الاسلوب فى التساؤل وجدنا أن طريقة الكشف عن الكذب هى افضل الطرق .

ونستطيع أن نضيف اعتبارا آخرا للاعتبارات السابقة التي ترجح استخدام اجهزة الكشف عن الكذب ٠ فالطريقة الممكنة الوحيدة التى نستطيع بها أن نطور الطرق غير الكاملة هي طريقـة التجريب والاستعمال ٠ فقولنـا بانه لا يجب استخدام اجهزة الكشف عن الكذب لانها طرق لا يعتمد عليها اعتمادا كاملا ، يعنى تماما ان الطريق الوحيد المؤدى الى تحسين طريقة الكشف عن الكذب هو طريق مسدود ومن الممكن ـ لحد معين ـ أن نجرى التجارب فى المعمل السيكولوجى ، ولكن لكى يتطور تكنيك معين تطويرا عمليا مثل طريقة الكشف عن الكذب ، فان استخدام هذه الطريقة استخداما فعليا فى ممارساتنا أمر لا غنى عنه ٠

* * *

على أنه من جهة اخرى ، فان تكنيكات الكشف عن الكذب المستخدمة الآن تقوم على نمط أو مقياس واحد بدرجة كافية وذلك فيما يتعلق بالاجهزة وبطريقة اجراء الاختبار ، وتفسير أو قراءة التسجيلات ، وتدريب المختبرين الاكفاء ، وفى مثل هذه الظروف قد يقوم أشخاص يفتقرون الى الكفاية والنزاهة بتقديم أنفسهم على أنهم « خبراء فى طريقة الكشف عن الكذب » وبذلك قد يسمح لهم بأن يدلوا بشهادات كاذبة أو غير دقيقة ٠

وغالبا ما يحاول محامو الدفاع الدفع بأن استخدام أجهزة الكشف عن الكذب هو عبارة عن ممارسة « الدرجة الثالثة » وهذا الجدل لم يلق قبولا لدى أكثر المراقبين كفاية أو السلطات القانونية ، فالالم الجسمانى الوحيد الذى ينشأ عن استخدام جهاز الكشف عن الكذب هو ألم طفيف مؤقت ناشىء عن جهاز ضغط الدم ، ثم ان اجراء الاختبار ليس من النوع الذى يشجع أو يجبر الشخص على الاعتراف للهرب من موقف لا يطاق أو لا يحتمل ٠ وجدير بنا أن نذكر فى هذا المجال أن هناك حالات عديدة لم يعترف فيها المتهم تحت ضغط طريقة « الدرجة الثالثة » ، ولكنه اعترف بجريمته فى النهاية بعد جلسة قصيرة مع خبير جهاز الكشف عن الكذب ٠ فاستخدام طريقة « الدرجة الثالثة » يدل على الوحشية والتجرد من الانسانية ، وهى طريقة تفتقر الى الكفاية والفاعلية ٠ ولذلك فان

استبدال هذه الطريقة الوحشية في استجواب البوليس للمجرمين بطريقة « اختبارات الكشف عن الكذب » من شأنه أن يرفع من مستوى كفاءة الكشف عن الجرائم ٠

* * *

أما مسألة اللجوء الى حيل للحصول على اعترافات من المجرمين فهي مسألة تثير مشكلة قانونية شائكة ٠ وليس من المؤكد تماما ان قولنا « يمكنك ان تكذب علينا ، ولا يمكنك أن تكذب على جهاز الكشف عن الكذب » هو مجرد حيلة ، لأن هذه الجملة صحيحة في جوهرها ٠ وبطبيعة الحال ، فانه من الممكن أن يعتبر هذا مراوغة لان الجملة تصير حقيقة لانها قيلت ، ولان المتهم قد صدقها ، وبالرغم من ذلك فان عددا من الناس وخاصة هؤلاء الذين يقدرون النواحي الانسانية ويتمسكون بالمبادىء الدينية والخلقية قد اعترضوا على استخدام أجهزة الكشف عن الكذب لان استخدام الجهاز يجعل الكفة غير متعادلة للمتهم ، وان طريقة الكشف عن الكذب ان لم تكن تلجأ الى الحيلة ، فانها تلجأ الى طريقة قريبة جدا من الحيلة ٠ ومحاولة التأكد من أن المتهم يلقى حماية كاملة من المجتمع، ومن أن الظلم لن يقع عليه لانه لا يستطيع الوقوف بمفرده أمام القوى التي تمثل القانون تعتبر جانبا من أهم جوانب الحياة الديمقراطية ٠ ومع ذلك ، فاذا كان من حق المتهم أن يحظى بالحماية من المجتمع وخاصة في صورته الحديثة ، فان من حق المجتمع أن يحظى بالحماية من المجرم ، ولذلك فانه يجب ألا يقتصر عطف الفرد على المجرم بل على ضحيته الفعلية أو المرتقبة ٠

وعموما فان اختبار جهاز الكشف عن الكذب أسلوب محايد شرعا في حد ذاته ، وكفايته في الوقت الحاضر معروفة بدرجة كبيرة وقيمته في الوصول الى اعترافات صحيحة هي قيمة لاشك فيها ٠ وجهاز الكشف عن الكذب لا يشترك بأية صورة مع وسائل « الدرجة الثالثة » ، فهو لا يتسبب في الالم للمتهم ، واذا لم يوفق فان عدم توفيقه لا يؤدى الى ادانة الشخص البرىء بل يقتصر على عدم

النجاح فى الكشف عن الشخص الذى كذب ، كما أن جهاز الكشف عن الكذب يعتبر درعا للشخص البرىء •

على اننا قبل ان ننتهى من هذا الفصل نود ان نشـير هنا الى استخدام العقاقير فى هذا المجال ، والتى سبق أن تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل الاول من الباب الثالث •

كما نود ان نذكر القارىء بأن هذه العقاقير تشبه الى حد كبير المشروبات الكحولية فى أنها تخفض من نشاط المراكز العليا للمخ ، وبذلك تحرر مراكزه السفلى مؤقتا من الرقابة • وفى هذه اللحظات التى يخدر فيها « الرقيب » الذى يكون متيقظا دائما ، يزلف اللسان بكلمات ما كانت تصدر لو أن الرقيب كان متيقظا •

فاذا ما ازداد تناول الكمية ، فان المراكز السفلى تصاب ايضا بالشلل • ويروح الشخص فى سـبات عميق ، وبعد وقت قصـير تستعيد المراكز العليـا وظائفها كرقيب ، وفى تلك اللحظة يزلف اللسان بكلمات قليلة لها قيمة عادية •

الباب الثاني

الصراع الأيديولوجي





الأيديولوجيات ومعركة المعتقد

تلعب الأيديولوجية[1] دورا كبيرا في معركة المعتقد ، فالخلاف في المعتقدات الذي لا يمس الأسس الرئيسية لا يعتبر أكثر من خلاف في الرأي ، ففي أي مجتمع قد يرى بعض الأفراد أنه لا داعي لفرض رسوم جمركية على سلع معينة ، بينما يرى الآخرون عكس ذلك • وقد يعتقد البعض أن أفضل استخدام للمدخرات الفردية هي استثمارها أو ادخارها لوقت الحاجة ، بينما يرى آخرون أن انفاق مدخراتهم على الاستهلاك أفضل وسيلة لتحقيق رفاهيتهم • ولكن من ناحية أخرى هناك كثير من المسائل العامة لا يختلف فيها الناس ، فالزواج مثلا يعتبر أفضل نظام لاقامة الاسرة ، وليس هناك انسان حر يختلف مع غيره في

---

(١) اختلف الفلاسفة على مر العصور فى تفسير اصطلاح الايديولوجية ، ففى فلسفة القرن التاسع عشر كانت الايديولوجية هى : التأمل النظرى او الفكر المجرد ، وعرف معجم ويبستر الايديولوجية بانها نسق من الأفكار بشأن الظواهر وخاصة الاجتماعية ، وفى تعريف آخر له يقول : انها علم الأفكار أى دراسة اصل الأفكار المستمدة من الاحساس وحده كما جاء فى مذهب كونديالك Condillac ، اما فى النظرية المادية الديالكتيكية فان الايديولوجية لا تشمل نظرية المعرفة والسياسة فحسب بل تشمل أيضا علم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) والأخلاق والدين ، ومع هذه التفسيرات المتعددة يمكن ان نعرف الايديولوجية بانها نظام او نسق لمعتقدات بعيدة الجذور عن المسائل الأساسية فى الحياة او الشئون البشرية •

ضرورة اجراء انتخابات حرة ، او تحقيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص الى غير ذلك من الموضوعات المختلفة التى تؤثر على كيان المجتمع .

فاذا ما وصل الخلاف في الرأى بين الناس الى درجة حادة شاملة ، وأصبحت جماعات المجتمع لا تستطيع ان تتفق على شىء ما فى الميدان السياسى أو الدينى . كان معنى هذا أن الخلافات قد تحولت من مجرد رأى الى أعماق الايديولوجية . وهنا يتاثر هيكل التنظيم ودعامته مما قد يؤدى فى اغلب الاحيان الى صراع عقائدى ، وفى كثير من الاحيان قد يؤدى ذلك الى حرب اهلية او مذهبية .

فالصراع الايديولوجى القديم بين « الاسلام » و « اليهودية » بدأ ببداية الدعوة الى الدين الجديد ، وظهرت صورته عندما ذهب أهل قريش الى اليهود يسألونهم عما اذا كان فى كتبهم ما يشير الى الدعوة التى جاء بها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويسألونهم رأيهم فى الدين الجديد .

ومع أن اليهود « أهل الكتاب » من اهل التوحيد فقد أكدوا لقريش ان عبادتهم خير من هذا الذى جاء به الرسول الكريم ، فكان بهذا أن ناصروا عبادة الاوثان على الدعوة الى وحدانية الله .

وقد اعترف بهذا الخطأ كثير من الكتاب اليهود المحدثين وأشار اليها اسرائيل ولفسن فى كتابه « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » .

وقد حاول اليهود عندما هاجر النبى الكريم الى المدينة ان يوقعوا بين المهاجرين والانصار ، كما حاولوا ان يضعفوا من وحدة المدينة فى مواجهة قريش وخاصة عندما خرجت « الأحزاب » لقتال المسلمين ، مما أدى الى مسارعة الرسول الى تصفية الاحياء اليهودية فى المدينة باخراج بنى قريظ وبنى النضير ، ثم القضاء على احيائهم فى خيبر وغيرها على الطريق الى الشام(١) .

---

(١) راجع سورة الأحزاب « الآية ٦٠ مدنية » .

وفي الدوافع وراء الحروب الصليبية يحاول دائما مؤرخو الفرنجـة أن يصوروا الحروب الصليبية على أنهـا حملات قدسية ، وانهـا كلها قامت تلبية للدعوات الدينية التي يوجهها « بابا » روما ويحمل رسالتها قسس متعصبون • كما يحاولون التبرير بأن الهدف الأول انما كان لانقاذ قبـــر المسيح ومهاد النصرانية من قبضة الاسلام • مع أن الحقيقة أن هـذا الهدف لم يكن الا حجة ظاهرة للسيطرة والتأثير على تفكير المؤمنين من البسطاء وعامة الناس • وكان الغرض الصحيح هو حرص الكنيسة على سيادتهـا الزمنية وعملها على دعم سيادتها باسم الدين بين أمراء النصرانية ، وتحويل هؤلاء الأمراء عن مناهضتها • ثم اغرائهم بالسلطان والثروة في بلاد الشرق •

وتبـدو هذه الصـــورة في سرد « فيل هاردوان » Ville - Hardouin لحوادث الحرب الصليبية الرابعة ، وهي الحرب التي دعا اليها البابا انوصـــان الثالث ، وحمل رسالتها القس الفرنسي المتعصب فلك ده تيي وخرج فيها أمراء في مقدمتهم الكونت تيبو أمير شمبانيا ، وأشرف عليها ومولها فيليب أوجست ملك فرنسا ، وان كان لم يشترك فيها • وبدلا من أن تذهب الحملة الى الشام كالحملات الأولى ، أو الى مصر كما فعل لويس التاسع فقد سارت الحملة من فرنسا الى البندقية ، وعقدوا مع البنادقة معاهدة تلتزم فيها البندقية بتقديم السفن والمؤن نظير اموال وعهود معينة ، وفي البندقية رسم طريق الحملة الى بيت المقدس •

ولكن الصليبيين بدلا من السفر الى مصر او الشام قاتلوا هم وأهل البندقية ضد ملك المجر ، واستولوا لهم على ثغر زارا ، ثم فاوضوا الكسـيوس المطالب بعرش القسطنطينية ، ورحلوا بالســـفن الى القسطنطينية لاستعادة عرشـــه — مقابل تعويض مالي كبير للحلفاء — والعمل على رد الكنيسة اليونانية لحظيرة كنيسة روما •

وفي ربيع سنة ١٢٠٣ ميلادية وصل الصليبيون على سـفن البنادقة الى مياه البوسفور، وهزموا الامبراطور الكسيوس الكبير وأجلسوا حليفهم الكسيوس

الصغير على العرش ، فلما لم يف بعهوده تركوه للثوار والخوارج فخلعوه من عرشه وقتلوه واجلسوا مرزوفليس أحد الخوارج على عرش القياصرة . فوثب الصليبيون على الامبراطور الجديد وخلعوه واستولوا على القسطنطينية وعلى قصورها وقلاعها فى ابريل سنة ١٢٠٤ ، ونادوا باحد امرائهم بلدوين كونت فلاندر امبراطورا على عرش القياصرة ، ونشطوا لاخضاع كل مقاومة ، والى توطيد عرشه الجديد ، وتوزيع أسلابه فيما بينهم ، وبذلك اختفت الفكرة الصليبية نهائيا .

* * *

وفى الامبراطورية الاسبانية لعبت محاكم التفتيش كمظهر من مظاهر « معركة المعتقد » دورا مهما فى تحويل الناس الى المسيحية الكاثوليكية وخدمة التاج .

والواقع انه قد يكون من الضرورى قبل أن نعرض لمحاكم التفتيش التى عرفت باسم « لجان التحقيق الاسبانية » The Spanish Inquistion أن نتعرف الدوافع التى دعت اليها(١) .

فلقد كانت الكنيسة الاسبانية قوية موفورة الثروة بسبب تدين الاسبان الى حد بعيد ، ولأنه كان من المحال أن يحصل أى أجنبى عن البلاد على أية وظيفة من الوظائف الخاضعة للملك . على أنه فى حكم هنرى الرابع ١٤٥٤ ـ ١٤٧٥ م حصل اليهود على قوة ونفوذ ، وكانوا أحيانا يستطيعون بحكم سيطرتهم على المال ونتيجة لتوليهم الاقراض أن يرغموا الناس على أن يتركوا دينهم المسيحى ويرتدوا عنه ، بل أن « المارانو » Marranos وهم يهود متنصرون كانوا يقيمون شعائر اليهودية خفية ، وفى نفس الوقت فان « المرازقة » Mariscos وهم مراكشيون تحولوا للمسيحية ، فازدادت قوتهم ، وأخذوا فى احياء شعائرهم القديمة .

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة The Spanish Inquistion مجلد ١٢ ص ٣٨١ ط . سنة ١٩٦١

واستشار الملوك الكاثوليك البابا سيكستس Sixtis الرابع الذى أصدر فى أول نوفمبر سنة ١٤٧٨ أمرا بابويا يعطى الملك اختيار اثنين او ثلاثة من المحققين المعروفين بالفضيلة والعلم لتولى الامر مع اعطائهم سلطة قضائية •

وقد نفذت هذه المشورة البابوية بالأمر الملكى الذى صدر فى مدينة ديلا كامبو Madina Del Campo فى ١٧ من سبتمبر سنة ١٤٨٢ بانشاء الادارة المقدسة فى القسطل •

والواقع أن من الصعب المبالغة فى استخدام محاكم التحقيق لتقوية الملكية وتوحيد شبه الجزيرة الاسبانية ، كما أن من المبالغة العودة بمغبة الأمر على البابا ، فان موافقة البابا كانت شكلية • وكانت الهيئة العليا التى تسيطر على هذا التحقيق مجلسا ملكيا ، وكان المحققون على اختلاف درجاتهم ماجورين للحكومة يعينون ويطردون من عملهم بأمر الحكومة •

كانت محاكم التحقيق نوعا من الحرب النفسية الداخلية ، وأصبح كل فرد يخشاها ، فلم تهتم سلطات التحقيق باى امتيازات للنبلاء ولا بالحريات ما دامت هذه الحريات تضايق التاج ، والواقع أن التاج استخدم هذه المحاكم لنظر القضايا التى يصعب أن تتولاها المحاكم العادية •

وفيما عدا الفترة من ١٥٠٧ الى ١٥١٧ م كان هناك : محقق واحد ، ومحقق عام للبلاد كلها ، وفى ضوء قيام محكمة التحقيق العليا هذه انتهى عمليا تقسيم البلاد الى « القسطل » و « أرجون » و « فالنسيا » و « قطالونيا » •

واذا كنا لا ننكر أن محاكم التحقيق قد ارتكبت الكثير من القسوة والفظائع فى تاريخها الطويل ، فقد واجه هذه القسوة كثيرون من ذوى العقيدة الراسخة وضحوا بانفسهم فى سبيل مبادئهم ، كما شرحناه سابقا فى الباب الرابع من هذا الجزء •

وجاءت المبالغة فى وصف اعمالها من الدعاية المضادة لاسبانيا فى ذلك العصر، ومن كتابات جوان أنطونيو لوريلتا Juan Antonio Lorenta (١٧٥٦-١٨٢٣) وغيره من كتاب القرن التاسع عشر •

وقد الغى جوزيف بونابرت هذه المحاكم سنة ١٨٠٨ ولكنها عادت من جديد فى حكم فرديناند السابع سنة ١٨١٤ ، ثم الغيت واعيدت ثانية من ١٨٢٠ ـ ١٨٢٣ ، والغتها اخيرا ماريا كريستينا سنة ١٨٣٤ •

* * *

ولم تجعل النظريات الميتافيزيقية كلا من البروتستانت والكاثوليك يحرقون أنصار العقيدة الأخرى على أساس أنهم هرطقيون كفرة ، وقد حدث ذلك فى الحروب الاولى التى قامت بينهم • ففى القرن السابع عشر عرف البروتستانت تماما ماذا كان يحدث لهم لو اصبح للكاثوليك اليد العليا ، وكذلك كان يعلم الكاثوليك حقيقة مصيرهم لو كان البروتستانت قد وصلوا الى السلطة • وفى كل حالة كان الحكام الجدد فى غمرة خوفهم من ضياع السلطة من أيديهم يستخدمون أساليب بعيدة كل البعد عن الانسانية مستهدفين بذلك القضاء على الحكام السابقين عن طريق السجون المظلمة والقوائم التى يشد اليها من يحرقون أحياء ، وما الى ذلك من الوسائل كتدابير وقائية ضد الثورة • وفى هذه الظروف لم يكن مسموحا للأفراد بالحرية خارج نطاق الايديولوجية الغالبة •

وفى الواقع لا يستطيع أى فرد أن يحترم حرية الحديث ، وحرية الممتلكات والأمن الشخصى لشخص لا يحترم حريته وحقوقه • ان الحد الأدنى المطلق لأى أيديولوجية هو التسليم والاعتراف بأن كل فرد يعيش فى منطقة متناسقة أيديولوجيا ـ هذه التى أطلق عليها الجنرال النازى « كارل هوزهوفر » متبعا « رودلف كجلين » اصطلاح المنطقة الجيوفيزائية ـ سيحترم حقوق الأفراد الآخرين الذين يعيشون فى المنطقة نفسها ••

* * *

وفى الحرب النفسية الواقية التى قام بها شوجون[1] توكوجارا بعد سنة ١٦٣٦م مثل رائع يوضح أثر عقيدة الشوجون فى تعبئة عقول اليابانيين عن طريق سيطرة قاسية عنيفة لم يحدث مثلها فى أى مكان آخر بالنسبة لشعب متمدين •

فقد كان نظام الشوجون يعطى سلطة وقوة لطبقة المحاربين ، وكان لهذا اهمية بسبب النفوذ المعنوى والروحى لهذه الطبقة •

ان الاصطلاح بوشى Bushi اى « المحارب » كان معروفا فى اليابان منذ زمن بعيد ، الا أنه استحدثت كلمة جديدة فى هذا العصر هى Boshido اى « طريق او اسلوب المحارب » وقد استحدثت للتعريف بقانون يماثل قانون الفروسية فى الغرب •

ومع انه لم يكن هناك اى وحى أو الهام وراء طابع المحارب اليابانى بالرغم من انه يؤدى الصلاة قبل المعركة استجداء للنصر ثم بعدها لشكر الآلهة ، فان عقيدة الشوجون أوجدت عوامل نفسية مانعة قوية من الولاء والنظام مع الشجاعة والجراة والاقبال على التضحية بالنفس والفداء فى المعركة مع عدم الترفق بالضعفاء ، وفى هذا العصر تطور الاعتقاد المبهم الغامض فى السيف كسلاح ، وكانت الصلوات تقام للتطهير قبل صنع السيوف •

---

(١) تعنى كلمة « شوجون » الجنرال ، وكان الامبراطور يمنح هذا اللقب لفرد او لأسرة عندما تنشا الحال التى توجب اعطاء هذا الفرد او هذه الأسرة قيادة مطلقة لكبح جماح المتبربرين ، وقد منح الامبراطور اللقب اول مرة لأسرة اشيكاجا Ashikaga عام ١٣٣٨ عندما قامت الحرب الاهلية بين اثنين من الاباطرة المتنافسين ، وبقى الشوجون انصارا للامبراطور كوميو امبراطور الشمال ، ومنح الامبراطور اللقب لأسرة توكوجا سنة ١٦٠٣ وبقى هؤلاء يسيطرون على اليابان رسميا حتى سنة ١٨٦٨ عندما الغى نظام اصلاح الحكم هذا التنظيم ، وكان هذا بعد نقل العاصمة الى ييدو التى عرفت فيما بعد باسم طوكيو اى العاصمة الشرقية ، ولكن النظام بقى فى الواقع حتى سنة ١٩٤٥ اى الى ان هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية •

وكان من أثر الشوجون في الشعب أن صارت الأسرة النواة التي تدور عليها حياة الفرد ، وصارت هي الوحدة الاقتصادية والاجتماعية ولا تزال كذلك حتى اليوم في اليابان المعاصرة • وثبت في عقول الناس : الطاعة ، والصبر ، والتضحية ، وعادة احترام كبار السن وأصحاب السلطة مع الكياسة في الحديث وفي التصرف ، وكان لهذا كله دوره الكبير على الحياة الاجتماعية للناس(١) •

* * *

وفي الدعاية ضد ثورات الفلاحين في أوروبا الاقطاعية بوصفها أنهـا حركات القتلة القساة صورة أخرى توضح الى مدى كبير العلاقة بين الايديولوجيات التي كانت سائدة ، وأسلوب الحرب النفسية الذي استخدم في غمار هذا الصراع •

فقد صرح ملك انجلترا في نهاية القرن الثالث عشر بفكرة عقـد جمعيـة عامة تضم كبار الرجال من رعاياه لاستشارتهم والحصول على معاونتهم في أثناء الأزمات ، وسرعان ما خرجت الفكرة الى الوجود وانتشرت في كل غرب أوروبا وعرفت هذه الجمعيـة في انجلترا باسم Parliament وفي فرنسـا Etute وفي المانيا باسم Landtug وفي اسبانيا Cortes وفي دول وسط أوروبا بالاسم اللاتيني Diet ولكن الغرض من هذه الجمعية كان بحث موارد التمويل « الميزانيـة » أو فرض الضرائب على الرعية مما يمكن الملك من تكوين قـوات عسكرية دائمة تخضع له ، ولا سيما في نهاية القرن الخامس عشر عندما برز طابع الدولة الموحدة التي تخضع لحكم ملك واحد يتولى الامر بحكم الوراثة ، وبمعاونة جيش دائم على أن يكون الملك هو الذي يقرر السلم والحرب •

وبدأت في نهاية القرن الخامس عشر حركة للاصلاح الكنسي ، ثم تحولت هذه الحركة في القرن السادس عشر الى ثورة ضد البابا مع المطالبة بتغيير كبير في : النظام الكنسي ، ونظام الرهبنة ، وحقوق الكنيسـة •

---

(١) Sir Ester Dening, Japan, PP. 35 - 37.

ولكن على الرغم من أن الشعب صاحب كل هذه الحركات فان جمهرة الناس شغلوا بمسائل لا تمس حياتهم فى الأوضاع المدنية ، حتى جاءت ثورة سنة ١٦٩٠ فى انجلترا على اساس المبادىء الأساسية للسياسة الفلسفية التى برزت فى القرن الثامن عشر ، والتى كانت دعامة النظام السياسى للقرن العشرين ٠

* * *

وفى سنة ١٧٨٩ جاءت أول ثورة شعبية جارفة هى الثورة الفرنسية ، وسرعان ما وجدت لها أصدقاء فى كل ركن من اوروبا ، ولهذا فان معاهدة فيينا فى ٢٠ من نوفمبر ١٨١٥ لم تقم لضمان الحقوق الاقليمية فى أوروبا بقــدر ما استهدفت القضاء على الروح الثورية التى تهدد نظم الحكم القائمة فى اوروبا ٠

وكان ميترنيخ وزير خارجية النمسا هو الشخصية البارزة وراء هــذه المعاهدة وقد قال فى سنة ١٨١٧ : ان كلمة « دستور » انما هى دعوة الى الفوضى والاخلال بالنظام ، وأن الهدف الذى يهدف اليه المهيجون من : الكتاب ، والمحامين، والمدرسين هو قلب كل شىء يقوم على القانون ، ومن ثم يجب أن يعمل الملوك للمحافظة على بقاء القانون ٠ وقد عرفت مبادىء المحافظة على الوضع القــائم باسم « نظام ميترنيخ » ٠

والواقع أن الحوادث كانت تسبق ميترنيخ فقامت فى أوروبا كلهــا عام ١٨١٤ معارضــة « للســلطات المطلقة » المخولة للملوك ، وقد عرفت هــذه الحركات فى البداية باسم « حركة الأحرار » ثم عرفت فيما بعد باسم « الحركات القوميــة » ٠

وقد بقى ميترنيخ لبعض الوقت يوجه سياسة حكام أوروبا ، واستغل ثورة الطلاب الألمان ، والثورات العسكرية الأربع التى قامت فى أسبانيا سنة ١٨٢٠

ليجمع حكام دول أوروبا كل عام فى أرض النمسا لتقرير اسلوب مشترك للقضاء على هذه الحركات ، ومن ثم قام نظام بوليسى على جامعات الولايات الالمانية وعلى صحفها بأمر المؤتمر .. بل أن المؤتمر قرر سنة ١٨٢٠ التدخل بواسطة الجيش النمسوى ضد الحركات الشعبية فى مملكة نابولى .

* * *

وفى أثناء هذا بدأت الدعاية ضد الحركات الشعبية وخاصة حركات الفلاحين على أنها حركات دموية للمخربين السياسيين الذين يعملون للانتفاع من الفوضى والاضطراب ، ورمى الثوار بأنهم قتلة سفاكون قساة ومن واجب جيوش ملوك أوروبا أن تقضى على هذه الحركات .

ولكن هذا كله لم يقض على الحركات الشعبية التى قامت فى بريطانيا سنة ١٨١٧ ، وفى سويسرا وبلجيكا سنة ١٨٣٠ ، بل فى باريس بعد ذلك بالرغم من أن اغلب هذه الحركات لم تحقق نجاحا .

ولكن سرعان ما تم فى البلاد التى مالت الى القومية والى ازالة الفوارق بين الطبقات نوع من التفاهم . فحدث اتفاق بين النبلاء المجريين ، وبين المحرضين الشعبيين المتحررين أمثال كوزوت ، وحدث مثل ذلك أيضا فى الولايات الالمانية بعد سنة ١٨٤٠ بمعاونة الاحرار الالمان أنفسهم ، وفى بوهيميا تحت زعامة الأستاذ فولاكى ، وفى كرواتيا تحت رياسة الصحفى جاى[١] .

* * *

ومن الأمثلة السابقة نجد ان الحروب التى دارت استخدمت العقائد كقوة دافعة وراء الحرب . ومن هذه الحروب نستطيع أن ندرس النواحى المستحدثة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة Europe ٨ : ٨٥٧ ، ٩٥٩ .

فى استغلال الحرب النفسية للعقائد ، ونعرف الى أى مدى يمكن تطبيق هـذه التجارب أو تطويرها فى ضوء العصر الذى نعيش فيه • والبحث هنا يكون فى استغلال نقاط الضعف فى معتقدات العدو بدرجة تسمح بالتأثير عليه بمعتقدات جديدة • وهنا تبرز نقطة هامة هى أنه فى مثل تلك الحـالة يجب أن نتجنب المسائل الرئيسية التى لا يصح الاعتراض عليها من وجهة نظر العدو • فالمسائل والموضوعات التى يبجلها العدو أو يقدرها يجب عدم التعرض لها فى النشرات أو الاذاعات التى توجه اليه • وفى هذه الحروب العقائدية يلعب الخداع والحيلة دورا فعالا للتشكيك فى المعتقدات ، وذلك كمـا جاء فى الصراع بين اليهود والاسلام ، أو بين البروتستانت والكاثوليك ، كما أن للعنف دور فعال فى هذه الحروب العقائدية ، ولكن من وجهة أخرى لا تكفى القوة وحـدها لتغيير عقول الناس • واذا أجبرت شعوب على تغيير عقيدتها تحت ظروف خارجية قاسية لكى تكيف نفسها مع الظروف الجديدة فليس معنى ذلك ألا يرتد الناس ثانيـة الى عقائدهم القديمة اذا ما زالت هذه الظروف كما يحدث بعد عمليات الغزو •

فاذا ما تطلبت عملية تحويل شاملة مباشرة اجراء عمليات حربية قد تكون قاسية أو قد تكون على نطاق واسع ، فان نفس النتيجة يمكن أن تتم بالتسامح مع العقيدة المعترض عليها ، على أن يقترن هذا بالاعلان عن الامتيازات التى تعطى لمتبعى العقيدة الجديدة ، ويترك أفراد الشعب المغزو والمغلوب على أمره يستمتعون بعقائدهم القديمة واساليب حياتهم المهنية • أما أولئك الذين يسهمون فى الحياة العامة ســواء أكان هذا الاسهام فى النواحى : السياسـية ، أو العقـائدية ، أو الاقتصادية ، فانه يجب ان يكونوا من بين أولئك الذين اتبعوا العقيدة الجديدة ، وفى هذه الحال فان كل الجيل الصاعد فى المجتمع يتجه فى اجيال قليلة نحـو العقيدة الجديدة بفكرة الوصول الى : الثروة ، والقوة ، أو المعرفة ، ولا يـكون ما يبقى من العقيدة القديمة غير خرافة لا حـول لها ولا قوة ، ولا تحظى باجلال واكبار •

* * *

وفى الحرب الأهلية الاسبانية مثل رائع لتأثير الايديولوجيات المختلفة على عقائد الشعب بدرجة اوصلتهم فى النهاية الى فقد الثقة فى بعضهم البعض ، حتى أصبح من الضرورى قيام حرب أهلية استمرت سنوات عديدة قبل أن يشعر أحد الجانبين بالأمن والسلامة ، ومهما كان الشكل الذى اتخذته الدولة بعد انتهاء الحرب ، وبرغم المســاعدات المختلفة الخارجية التى كانت ترسلهــا الفاشية والشيوعية الى كل من المعسكرين ، فان هذا كله تمخض عن وجود حكومة واحدة ، ونظام واحد للسيطرة على الاراضى الاسبانية .

* * *

فاذا ما انتقلنا الى تاريخ أوروبا المعاصر نجد فى النازية مثلا فيما يوضح حقيقة العلاقة بين الحرب النفسية التى شنتها المانيا النازية وأيديولوجية الحزب النــازى .

ولنقف لحظة لنتساءل كيف استطاع هتلر بالحزب النازى أن يخوض غمار حرب شاملة متوليا زمام أمة كانت قبل أقل من ربع قرن ســابق قد تحطمت فى هزيمة ساحقة ؟ هل كان ذلك مرجعه الى كفاءة القوات المســلحة الالمانيــة وصناعاتها الثقيلة ، أو مرجعه الى التعبئة : المعنوية ، والعاطفية ، والسيكولوجية التى غرسها هتلر فى الأمة الالمانية ؟

فى الواقع لا نســتطيع أن ننكر كفاءة القوات المســلحة الألمانية ولا قدرة الدولة على التعبئة الجيدة الشاملة ، ولكن من جهة أخرى فان التعبئة السيكلوجية التى قام بها الحزب النازى للأمة الالمانية تعتبر حجر الزاوية التى ساعدت المانيا فى صراعها المرير بالداخل والخارج ، بل ما كانت لتستطيع المانيا أن تخوض غمار الحرب : الايديولوجية ، والاقتصادية ، والسياسية فى الفترة من عام ١٩٣٣-١٩٣٩

دون رسوخ العقيدة النازية في الشعب الالماني • فقد تمكنت هذه الحرب من أن تمنع بعملياتها السرية ضد المجتمع الدولي من تكوين تحالف دولي ضد المانيا ، كما نشرت التفكك والخيانة بين ضحايا الاعتداء الالماني •

لقد كان هذا المجهود من عمل الحزب النازي الذي أوجده هتلر وسيطر عليه تماما ، ولم يكن من السهل على هتلر أن يحدد أو يحقق طريق العمل ، فبالاضافة الى المشكلات الخارجية التي كانت تواجهه كان عليه أن يوازن بين طبقة الضباط المتحفظين الذين كانوا يرون في تقاليد الجيش الالماني خير مثل للجندية ، وبين متطرفي النازية والجيل الصاعد الذي يتطلع للقوة • كما لم يكن تنسيق الارتباط بين الجيش والحزب مسألة هينة ، فان ذلك لم يتم الا بسفك دماء الكثيرين وذلك في عملية التطهير التي قام بها عام ١٩٣٤ ، ثم بالسيطرة السياسية الكاملة فيما بعد •

وتعتبر سلسلة الانتصارات التي لم تسفك فيها أي دماء منذ بداية احتلال أرض الراين حتى عقد اتفاقية ميونخ هي قمة نجاح هتلر ، بل نستطيع أن نؤكد أن انتصاراته في ميداني : الحرب النفسية ، والحرب السياسية لا يمكن مضارعتها•

كانت استراتيجية هتلر الاولى في غمار هذه الحرب النفسية هي جمع الشعب الالماني كله في كتلة واحدة تثير الرعب والفزع في العالم كله ، وقد تم ذلك جزئيا عن طريق برنامج الحزب النازي الذي عمل لتحطيم : اليهود ، والكنائس ، والجامعات ، واتحادات العمال ، والاشتراكيين ، والشيوعيين ، وغيرهم ممن يشك في مشاعرهم الدولية واتجاهاتهم الى المسالمة •

لقد تحقق له ذلك بحملة دعائية واسعة ، دعمها بتطبيق النظام الصارم الذي يفرضه الحزب ، وكذا الدعوة الى تفاخر الناس بالطابع الالماني ، واثارة روح التفاخر في الأمة كلها •

وليس بغريب ان نجـد الحزب النازى يستغل الجذور العميقة فى كيـان التاريخ الالمانى من حيث : الطابع العسكرى ، وفكرة وحدة الشعب الالمانى كله ، ومعاداة السامية ومبدأ الجنس السائد ، وتقديس الدولة فيضعها بارزة فى مظاهر برنامج الحزب •

ويقول هتلر فى هذا المجال : « ان بعث الشعب الالمانى لا يتم الا عن طريق استعادته لقواته الخارجية ، ولا يحدث هذا عن طريق الاسلحة كما كان ساستنا البورجوازيون يقولون ، بل أن وسيلته قوة الارادة •

« ان أفضل الأسلحة لا قيمة لها ما دامت تنقصها الرغبة والارادة لاستخدام هذه الأسلحة ولهذا ربما لا تكون مسألة استعادة المانيا لقوتها متوقفة على كيف نستطيع أن نصنع الأسلحة ؟ بل تتوقف اساسا على كيف نستطيع ايجاد الروح التى تعاون الشعب على حمل هذه الأسلحة ؟ (١) » •

وفى تعبئة الشعب الالمانى نفسيا نجد أن هتلر يبعث فى الأمة الالمانيـة الرغبة فى القتال متخذا من الاسطورة التى تقول : ان الجيش الالمانى لم يهزم فى الحرب العالمية الاولى ، بل أن الخيانة فى الجبهة الداخلية هى التى اسـهمت فى نتيجـة الحـرب ، وقد حقق باعطائه هذه الاسـطورة الشـعبية نجاحا لا يمكن تحقيقه بغيرها ، ووصل الأمر الى أن صدق الشعب الالمانى أن القاءهم السـلاح فى نوفمبر ١٩١٨ لم يكن الا رغبة منهم فى تلبيه لوعد ويلسون فى الحصول على سلم عادل ، واعتبر الشعب الالمانى تنصل ويلسون من هذا الوعد أعظم خيانة عرفها التاريخ •

---

(١) Mein Kampf PP. 459 ...... Said on the Same Theme Ibid P. 624.

بهذه الأسطورة وغيرها أثار هتلر في قلوب عدد غفير من الالمـــان روح الانتقام ، واحياء النظرية التى كانت تقرر أن المانيا المسالمة طوقت بدول حقود معادية ، كما اوجد روحا اسبارطية وولاء مطلقا للفوهرر الزعيم الذى لا يتوانى عن القيام بكل عمل طيب للسلم العالمى(١) .

وقد استطاع هتلر قبل أن يتولى مركز المستشار للرايخ الثالث أن يخلق الروح العسكرية فى ألمانيا بواسطة قوات الحزب وقوات العاصفة « S. S. » التي تعتبر أعظم جيش خاص في التاريخ الحديث ، وأصبحت صرخة الحرب شـعار ذو القمصان الرمادية ، وكان واجب الدولة على حد قول هـتلر : « توحيـــد الألمان ، وتجمعهم فى وحـدة واحدة ، وقيادتهم تدريجيـا الى موقف السـيادة على العالم (٢) » .

ولم يعتبر هتلر قط أن القوة هي السلاح المؤثر وحده ، فالقوة والتهديد يجب أن يصحبهما : الكلمات ، والشعارات ، والآراء التى تعتبر من بين الأسلحة الحاسمة ، فقد ثبت ذلك في الثورة الفرنســية وأوضحهـا « وودرو ولسن » و « البلاشفة » .

لقد كان هتلر أستاذا عبقريا فى استغلال خلافات الآراء بين الحلفاء ، وقد نجح فى مناقشة موضوعات السياسة الاوروبية لا فى الصورة التى يراها هو بها ، بل فى الصورة التى تسبب أقصى خلاف فى الرأى العام الخارجي .

وقد قال روششنج(٣) : « ان أسلحتنا هى : الارباك العقلى ، وتضـارب المشاعر ، واشاعة الذعر ، واثارة التردد ، وعدم استطاعة خصومنا الخـروج

---

(١) (a) Henri Lichtan Berger, The Third Reich, New York 1937 Book V.
(b) S. Hoberts, The House That Hitler Built, New York, 1938, Part IV. Sec 2.

(٢) Mein Kampf PP. 601.

(٣) Hermann Rauschning, The Voice of Destruction, New York, 1940 P. 9.

بقرار حاسم » ، ولهذا فان التحالف مع اليابان قد أوضح للناس فى العالم خارج المانيا أنه حلف ضد الكومنترن ومن ثم فهو هجوم على الشيوعية •

وقد أدرك هتلر أن الخوف من الشيوعية قد قوى بين صفوف المحافظين فى : بريطانيا ، وفرنسا ، والولايات المتحدة ، اذ رأوا جميعا أن فى هذا الحلف وسيلة لامنهم فى الباسفيك ، وكان المحافظون ينظرون الى هتلر نظرتهم للرجل الذى حل مشكلة العمال لا نظرتهم للرجل الذى جند العمال لصناعة الأسلحة •

وباختصار فان استراتيجية الحزب النازى فى السلم والحرب كانت تقوم على الارهاب ، فهو لكى يصل الى القوة فى المانيا كسب معركة الحرب النفسية الداخلية فى المانيا ، ولكى يبقى فى الحكم : عذب ، وسجن ، وذبح أعداءه ، وليشق طريقه فى أوروبا استخدم نفس الوسائل فيما وراء حدود الرايخ •

* * *

وقبل أن نختتم هذا الفصل نود أن نشير الى أهم سمات هذا العصر الذى نعيش فيه ، حيث يعانى العالم ما يسمى بالقلق النفسى نتيجة النزاع الأيديولوجى الكبير •

صحيح أن العالم قد عرف خلال تاريخه الطويل سلسلة من الحروب والمنافسات ولكن كانت الخطوط المميزة يوم ذاك تختلف تماما عن عصرنا • كانت هناك منافسات اقليمية وحروب « ارستقراطية » وكانت النزاعات محلية ، أما اليوم فان النزاعات عامة والاحداث المحلية تتعلق بالمنافسات العالمية ، وتبدو كل النزاعات وكأنها تتجمع حول نقطة مميزة واحدة هى : « التنافس بين الشرق والغرب أى بين العالم الشرقى وبين العالم الغربى •• أو بمعنى آخر بين الماركسية والرأسمالية •

وفى ضوء هذا يبدو لنا أن التعارض تعارض أيديولوجى تماما .. فالهدف الأول للماركسيين هو نشر ثورة البروليتاريا فى كل مكان من العالم ســـواء بالعنف أو بالوسائل السلمية وفقا لأصلح السبل ، أما البلدان الرأســمالية فهى تحاول أن تحافظ على مصالحها الراسمالية الاستغلالية بكل الوسائل العنيفة والسلمية . وفى غمرة هذا نشأ عالم ينقسم الى ثلاث تكتلات :

الكتلة الشرقية .

الكتلة الغربية .

ثم كتلة ثالثة هى كتلة المحايدين الذين يتارجحون حينا نحـــو الشرق وحينا نحو الغرب ، ولما كانت الحرب الباردة قد سلخت من عمرها ما يزيد على العشرين عاما فاننا نستطيع أن نحصر سماتها المميزة بطريقة موضوعية ، واهم هذه الســـمات :

- تقف فى الصدارة زعيمتان هما : الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتى .
- استمرار الصراع مع انتقال الصراع من منطقة الى أخرى تبعا للاختيار.
- تهدئات متقطعة قصيرة الأمد حتى لا يمكن اخذها مأخذ الجد ، اللهم الا التهدئة الأخيرة بعد سنة ١٩٦٣ عندما اتفقت موســكو وواشنطن على تحديد التجارب النووية .
- يهدف الشرق الى بلوغ مستوى الحياة فى الولايات المتحدة حتى يمكن ابراز تفوق نظامه الاقتصادى .
- تتنافس المجموعتان فى الجهود لاظهار تفوقهما وخاصة فى غزو الفضاء ، وفى الانجازات الذرية .

والواقع أن البحث الدقيق للواقع الاقتصـــادى والاجتمـــاعى للدولتين الكبيرتين : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى ليكشف لنا على أنه توجـد بينهما نقاط كثيرة مشتركة أكثر مما يوجد من خلاف : التنظيم ، التقدم الفنى ، تحسين الظروف المادية بين الناس ، وتحضير المواطنين وتثقيفهم ، مما يجعلنا نستطيع أن نسأل انفسنا عما اذا كان هناك احتمال لتقــارب نسبى يؤدى الى تعايش سلمى •

وهكذا فاننا نستطيع ان نفترض انه اذا استمرت الظروف الاقتصـادية والاجتماعية للدولتين الكبيرتين اللتين تتوليان الصدارة فى الكتلتين المتصارعتين فى التقارب ــ كان من الممكن أن يستقر التعايش بصفة نهائية ، وأن تضعف التعارضات الى حد كبير •

الفصل الثانى

برنامج الإصلاح الأيديولوجي لدى الصينيين

سبق أن أشرنا الى أن برنامج التثقيف الذى كان الصينيون يطبقونه هو عبارة عن الجهود التى كانوا يقومون بها فى عملية ما يطلق عليها « غسيل المخ » ، كما أشرنا الى أن الكتابات التى نشرت عن هذه العملية اعتمدت أساسا على استجواب : الاسرى الامريكيين العائدين لبلادهم بعد الاسر ، أو المدنيين الغربيين، والصينيين المثقفين الذين تعرضوا لعملية « غسيل المخ » •

وعلى الرغم من أن هذه المعلومات قد يعوزها الدليل ، أو فيها من المغالاة ما لا يخفى على أحد ، فاننا سنحاول دراسة هذا البرنامج من زاوية علمية عامة ، كى نتعرف على مدى الاستجابات وردود الفعل التى تحدث للفرد اذا ما تعرض لمثل هذا الموقف • ولما كانت المعلومات التى أخذت من أسرى الحرب الكورية عن برنامج التثقيف أكثر دقة ووضوحا من غيرها فاننا سنعتمد عليها أساسا فى بحثنا كنموذج يمكن الاسترشاد به فى ابراز العناصر الاساسية لهذه العملية •

كانت صور الحياة فى المعسكرات الدائمة لاسرى الحرب الامريكيين تتشابك من الناحية الواقعية داخل برنامج التثقيف ، على أننا يجب ألا ننظر الى هذا البرنامج على أنه مجموعة من الاساليب الفنية الخاصة تطبق بصورة روتينية رتيبة ، بل يجب أن ننظر اليه كنتاج لمجموعة كاملة من الظروف الاجتماعية تعمل داخلها بعض هذه الاساليب الفنية المعينة •

وقبل أن نحاول شرح هـذه الاساليب نرى أنه لكى تكتمل لدينا صـورة واقعية لابد من أن نعطى للقارىء فكرة عما حدث لهؤلاء الاسرى منذ وقوعهم فى الاسر حتى بداية برنامج التثقيف فى المعسكرات الدائمة ٠

الأسر والاقامة فى المعسكرات المؤقتة :

استخدم الصينيون فى المرحلة الاولى للاسر « سياسة الترفق » مع الاسرى، كما استغلوا قسوة معاملة الكوريين الشـماليين للاسرى ، وحـاولوا ان يظهروا صداقتهم وترفقهم بهم ٠

كانوا منذ اللحظة الأولى يحاولون اظهـار ترحيبهم بالأسرى موحين اليهم أنهم حرروهم من الاستغلال البورجوازى ، وأنهم يستطيعون من فورهم الانضمام للذين يقاتلون من اجل السلام » ٠

كما استغلوا العـامل النفسى للتاثير عـلى عقـول الأسرى بأن حاولوا أن يقنعوهم بأن الأمم المتحدة اشتركت فى الحرب بطريقة غير قانونية ، ولذا فان كل جنودها يمكن اعتبارهم من مجرمى الحرب ومن ثم يمكن اعدامهم رميا بالرصاص ، ثم يوحون اليهم أنهم يعرفون أن الجنود العاديين انما ينفذون أوامر قادتهم الذين هم مجرموا الحرب الحقيقيون ، ومن هنـا فان الصينيين يعتبرون الجندى الأسـير « طالبا » وأن من واجبهم أن يعلموه « الحقيقة » ، ومن لا يريد أن يتعاون بالذهاب الى المدرسة والاستذكار طواعية يمكن أن يحول الى « مجرم حرب » ويعدم رميا بالرصاص ، ولا سيما اذا أمكن الحصول منه على اعتراف بجرائمه ٠

وكان الأسير يمر فى السـاعات الاولى من الاسر « من ٦ الى ٢٤ سـاعة » بصدمة أشبه بحالة فقد للوعى مما يجعله غير قادر على القيام بأى عمل متكامل ، او الادلاء بأى معلومات عما كان يحسه فى أثناء تلك الساعات الاولى ٠

وكان يتبع هذه الحالة عادة توقع الموت أو التعذيب من آسريه ، ذلك لان الشائعات كانت تنتشر بين الجنـود فى الخطوط الامامية بأن هـذا ما يجب أن يتوقعوه عند آسرهم ، وكانت هذه الشـائعات تستند الى ما حدث فعلا لبعض الجنود الذين وقعوا فى أيدى الكوريين الشماليين ، ولكن كل هذه المخاوف لا تلبث أن تتبدد نتيجة الشعور الودى الذى يبديه الجنود الصينيون . لقد كان تشديدهم فى الحديث عن السلم أهم الخطوات الاولى التى تجعل الاسير أكثر تقبلا للتثقيف الذى سيواجهه فيما بعد ٠

وكان الاسير فى الاسابيع أو الشهور التالية يتعرض لصعاب بدنية كبيرة ، ولسلسلة من الضغوط السيكولوجية التى تسبب له توترات شديدة ، وانهيارا نفسيا ٠

كان الاسرى يجمعون خلف الخطوط الامامية ، ثم يسـيرون للشـمال فى جماعات تختلف فى عددها ، وكان السير يتم فى أثناء الليل فقط لمسافات تصل الى عشرين ميلا ٠

كانت أحوال السير سيئة جـدا ، وقد قال كثير من الأسرى : انهم لاقوا صعوبة كبيرة فى ازدراد طعام غريب لم يألفوه ، كما أنه كان معدا اعدادا سيئا ٠ ومع هذا فانه كان يذكر لهم دائما سواء عن حق أو باطل لانهم يعطون نفس الطعام الذى يعطى للجنود الصينيين المشـاة وكانت الرعـاية الطبية معدومة بالنسـبة للاسرى ، وكذا للجنود الصينيين وذلك لعدم توافر الامداد بالدواء ، مما نتج عنه اصابة معظم الجنود بالاسهال وبالدوسنطاريا ، كما قاسى الجنود كثـيرا من قلة الملابس الضرورية لوقايتهم من الظروف الجوية الصعبة ٠

وفى عمليـات السـير هذه التى استغرقت من اسبوع الى أسبوعين ازداد تفكك الأسرى ، وازداد تبلد شعورهم ، وانعدم الترابط بين الأسرى من ناحية القيادة ، فلا قادة ولا جنود ، بل أصبح الاتجاه العام « كل رجل لنفسه فقط » ٠

وقد أدى التنافس للحصول على : الغذاء ، والملبس ، والمأوى الى استحالة الاحتفاظ بالروابط داخل الجماعة ، وكان أمل الاسرى الوحيد هو الوصول الى المعسكر حيث كان الجميع يأملون أن تكون الحالة أحسن(١) .

على أن الوصول الى أحد المعسكرات المؤقتة كان دائما بمثابة خيبة أمل قاسية ، فالغذاء لا يزال سيئا كما كان من قبل ، وأماكن الاقامة مزدحمة قذرة ، والرعاية الطبية للمرضى والجرحى معدومة .

وكانت الأنباء التى تقال لهم مليئة بالحديث عن انتصارات الشيوعيين العسكرية ، وكان لهذه الأنباء أثر كبير فى اضعاف معنويات الاسرى ، وصار اغلبهم متبلدى الذهن بدرجة أثرت على صحتهم وأدت ببعضهم الى الوفاة .

وقد استمر الصينيون فى الاسراف فى اعطاء الوعود بتحسين الحالة أو سرعة اعادة الاسرى الى أوطانهم ، وكانوا يعزون عدم التوفيق فى تحقيق هذا الى : العراقيل التى تضعها الامم المتحدة ، والى النشاط الجوى لطائراتها ، والى نقص التعاون من جانب الاسرى . كما كانوا يوضحون دائما وبكل وسيلة أن عددا معينا من الاسرى هم الذين يمكن أن يأملوا فى الانتفاع بهذه الوعود ، وهم أولئك الذين قد قاموا بالتعاون ، والذين تعلموا وعرفوا الحقيقة .

وكان الصينيون يوزعون على الاسرى نشرات شيوعية ويطلبون منهم أن ينشدوا الاناشيد الشيوعية ، وطلب من الحراس أن يتعرفوا على الافراد الذين يمكن جعلهم « متعاونين » وذلك بملاحظة ردود الفعل من جانب الاسرى فى أثناء قيامهم بهذه الالوان من النشاط .

---

(١) فى الواقع لم يتعرض كل الأسرى لهذه الظروف السيئة فاغلب الذين اسروا فى سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٢ قد نقلوا بالسيارات وفى ظروف اقل قسوة ، وقد عنى بالمرضى والجرحى وان كانت العناية لم تصل الى الرعاية الطبية ، على ان الأقاصيص كثيرة بأن الحراس الصينيين كانوا يعاونون الجرحى والمرضى الى حد حملهم كما ان كثيرين من الأهالى المدنيين من كوريا الشمالية كانوا يعاونون الاسرى باعطائهم الغذاء وباخفائهم من مطارديهم .

ولم تبذل اية محاولة لتثقيف الجنود فى أثناء السير ، ولا فى أثناء تجمعهم فى المعسكرات المؤقتة ، ولكن أولئك الذين كانوا يصلون أخيرا الى المعسكرات الدائمة كانوا يصلون فى حالة اعياء جسمانى ونفسى ، وغير مؤهلين بحال ما لضغوط التثقيف التى سيواجهونها •

الحياة فى المعسكرات الدائمة للأسرى :

كانت اغلب المعسكرات الدائمة أجزاء من قرى كورية صغيرة ، وكان يحاط كل معسكر بنطاقات الأسلاك الشائكة أو بالموانع الطبيعية ، أو قد لا يحاط باى شيء على الاطلاق • ومع ان الحراس كانوا يوضعون فى النقاط الرئيسية فانهم لم يكونوا بالقدر الذى يكفى لمنع الهرب ، أو على الأقل لمنع الانتقال من قسم الى آخر •

وكان المعسكر فى العادة عبارة عن عدة أكواخ من الطين يعيش فيها الاسرى يفترشون الأرض ، أو ينامون على حشيات من القش ، كما أعد به مبنى للمدرسة يستخدم : للادارة ، ولقاعة المحاضرات ، ولأعمال الترفيه • وكانت أماكن اعداد الطعام أو الأماكن المخصصة لازالة الضرورة غير كافية الى حد كبير ، ولكنها مع هذا كانت أحسن حالا من نظيرها فى المعسكرات المؤقتة •

وقد قسم الأسرى فى المعسكر تبعا : للجنس ، وتبعا لاوطانهم ، ورتبهم العسكرية ، ثم قسموا بعد هذا الى : سرايا ، وفصائل ، وجماعات • كانت الجماعات عادة تتكون من عشرة الى خمسة عشر أسيرا يشتركون معا فى مكان اقامة واحد ، وكان الصينيون يتولون رياسات الفصائل ، كما كانوا يعينون افرادا من الاسرى لرياسة الجماعات دون تقدير لاى رغبة منهم •

ومع أن النظام الرتيب فى المعسكر كان يختلف من مكان الى آخر فان الاسرى كانوا يستيقظون عند الفجر ، فيمارسون بعض الحركات الرياضية لمدة ساعة ، ثم يوزعون للقيام بعدة أعمال مثل : جمع خشب الحريق ، وحمل المياه ،

وطهى الطعام ، واصلاح الطرق ، ودفن الموتى من الاسرى ثم يقومون بنظافة المعسكر . وفى قرابة الساعة الثامنة صباحا يتناول الاسرى طعام الفطور من حساء البطاطس او غير هذا من ألوان البقول .

وكانت باقى ساعات الصباح والمساء تقضى فى ندوات التثقيف ، أو فى غير ذلك من الاعمال . ويتوقف تقديم وجبة فى منتصف اليوم على : اتجاهات الاسرى وعلى سير الامدادات والتموين ، ثم على الموقف السياسى ، ذلك لان الوجبة الرئيسية كانت تقدم فى الساعة الخامسة مساء وتتكون من : الخضر ، والبقول ، والارز ، مع قطع من دهن الخنزير أو من السمك . ومن الطبيعى أن مثل هذا الغذاء القليل كان لا يكفى العمل العنيف الذى كان يقوم به الأسرى .

وقد اختلف الموقف بالنسبة للترفيه ، ففى السنة الاولى أو ما يقرب منها كان التشديد كبيرا على مطالعة الكتب الشيوعية ، ومشاهدة أفلام الدعاية وتمضية الوقت فى لعب الشطرنج ، ولكن مع تقدم سير المحادثات الخاصة بالهدنة ، ومع اشاعة احتمال عودة الاسرى الى بلادهم تحسن الحال بصفة عامة ، وقل التشديد على مطالعة الكتب الشيوعية ، وافسح المجال للاسرى ليقوموا بالترفيه عن أنفسهم كما يحلو لهم .

وقد سمح للجنود بان يعدوا ميادين للرياضة ، وان يصنعوا ما يحتاجون اليه من أدوات ، وأعد الصينيون برنامجا لمباريات « أوليمبية » بين المعسكرات ، ولكنهم استخدموها كوسيلة للدعاية . وقد أسهم فيها الجنود الذين تتوافر لهم مهارة رياضية بغض النظر عن المظهر السياسى الذى لها .

ولا توجد أى معلومات دقيقة عن الممارسة الجنسية للاسرى ، مع أنه كان من الميسور أن يتصل الجنود بالنساء الكوريات فى القرى ، ولكن من جهة أخرى تفشى بين الاسرى الشذوذ الجنسى .

معالم برنامج التثقيف :

مما لا شك فيه أن السلوك الاجتماعى للناس يتأثر الى حد كبير بالسلوك الفردى ، وفى مسائل الفكر والمعتقدات يميل الناس أساسا الى الاعتماد على آراء الآخرين وأفكارهم ، وهم فى تبادلهم هذه الآراء والافكار يحاولون أن يقرروا اذا كانوا فى جانب الصواب أم الخطأ ٠

هذه الآراء غالبا ما تستقى عن طريق وسائل الاعلام والاتصالات الجماعية ، أو قد تكون مستنبطة بوسائل شخصية بحتة ٠

وفى كل الجماعات المختلفة نجد أنه فى التحولات : الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها التى عرفها الانسان عبر التاريخ ، استخدم دعاتها أسلوبا واحدا سواء فى ازالة المعتقدات القديمة أو فى التبشير والدعوة الى المذهب الجديد ، وان كانت الوسائل التى اتخذت يختلف بعضها عن بعض تبعا للعصور المختلفة التى عاشت فيها تلك الجماعات ٠

ونحن فى بحثنا هنا سنحاول أن نبرز معالم برنامج التثقيف الصينى لاسرى الحرب الكورية كجزء لعملية غسيل المخ ، وقد سبق أن بينا فى البـاب الثانى الاساليب التى اتبعها الانسان فى تحولاته : الدينية، والسياسية، والاجتماعية، حتى نستطيع ان نحدد مدى التشابه او التباين بين هذه الاساليب وتلك ، وبذا يتضح لنا مدى نجاح أو فشل هذه الأساليب فى التأثير على معتقدات الناس وقيمها ٠

ولقد سبق ان اعطينا قبل ذلك صورة لحياة الاسرى داخل المعسكرات المؤقتة والدائمة ، وكان هدفنا من ذلك هو أن نوضح للقـارىء الحالة النفسية لهؤلاء الاسرى نتيجة البيئة والظروف غير العادية التى كانوا يعيشون فيها ٠ وعلينـا الآن أن ننتقل الى المرحلة التالية حيث نتحدث عن أسلوب الصينيين فى محاولاتهم للقضاء على معتقدات الاسرى والدعوة لمذهبهم ٠

تهيئة الجو للتبشير المذهبي :

منع الصينيون كل مصادر المعلومات التي اعتادها الأسرى من قبل لمعرفة الأحداث اليومية في المجال المحلي أو الدولي ، واستبدلوا بذلك صحفهم ومجلاتهم واذاعاتهم • وكانت صحيفة « الديلي ووركر » بمختلف طبعاتها والتي تصدر في عدة مدن متوافرة في مكتبات المعسكر ، بالاضافة الى عدد لا حصر له من المجلات التي تصدر في : الصين ، والاتحاد السوفييتي ، وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا • أما الاذاعات فكانت تعد في الصين وتذاع على الاسرى في المعسكرات بواسطة مكبرات الصوت •

كما حددت الاتصالات الشخصية بالزوار الذين يفدون الى المعسكر من الخارج تحديدا دقيقا ، حتى لا يعلم الاسرى حقيقة ما يجرى في العالم •

وعمل الصينيون باستمرار على تقويض كل روابط العاطفة والصداقة بين الأسرى ، فتغاضوا عن الرتب وحاولوا في كثير من الاحيان أن يولوا على جماعات الاسرى افرادا منهم صغار السن أو لا يصلحون للقيادة ، بهدف تذكيرهم ان الأسس القديمة للتنظيم لم يعد لها مكان ، كما أخذوا يلحون على أن الرتبة العسكرية لم تعد لها اهمية ، اذ أن كل مجموعة عبارة عن اخوة تعمل من أجل السلام يتساوى الكل فيها تبعا لتعاليم الشيوعية •

وقد صاحب ذلك تقسيم الاسرى مجموعات صغيرة على أساس الجنس Race والرتبة ، وكان الهدف من ذلك استخدام الاقليات من الزنوج لاستغلالها في عملية التثقيف ، وكذلك تحطيم الكيان الداخلي للجماعة على اساس ابعاد القادة الطبيعيين لكل جماعة •

أما من الناحية المعنوية والروحية فقد منع الصينيون كل صور العبادات الدينية ، وعذبوا باستهانة كل الاساقفة العسكريين الذين حاولوا تنظيم اقامة صلوات دينية ، كما حطموا الارتباط بالاهل والاقارب في أرض الوطن بتعطيل

البريد ، موحين اليهم أن عدم وصول البريد اليهم معناه أن الأهل والأقارب قد تخلوا عنهم ولم يعودوا يعنون بأمرهم ٠

واستغل الصينيون الاستخدام المنظم للجواسيس من الصينيين ومن الاسرى لمعرفة ما يجرى فى معسكرات الاعتقال ، وقد ادى ذلك الى ايجاد جو من عدم الثقة بين الاسرى ، وكانت الوسيلة الوحيدة للسلامة هى انعزال كل فرد تماما عن باقى زملائه ٠

ولذلك كان الصينيون على دراية تامة بأى تنظيمات تقوم بين الأسرى لغرض المقاومة ، وهذه سرعان ما كانت تحطم منذ البداية ، مما يدل على أن أسلوب الكبح والكبت الاجتماعى كان له أثر كبير على السلوك الانعزالى للاسرى داخل المعسكر ٠

وكانت الجماعات التى تتشكل بين الاسرى تهدف الى ثلاثة أغراض :

- التخطيط للمعاونة على الهرب ٠
- منع الافراد من التعاون مع الصينيين ٠
- أسباب اجتماعية ٠

وتبعا للمعلومات فان الجماعات التى تشكلت لتعاون على تهريب الاسرى قد حطمت بسرعة ٠ ومع انه قد وضع تخطيط لعدة محاولات للهرب فان المنطقة الموحشة المجاورة مع الجهل بالارض ، والطرق ، والخوف من عنف الكوزيين الشماليين قد عاونت على الحد من هذه المحاولات ٠

كما استخدمت المكافآت للتبليغ عن حوادث الهرب ، فاذا هرب اسير مثلا كان من السهل القبض عليه باعلان أن الذى سيجىء به سيعطى جوالا من الأرز ، وقد كانت هذه المكافآت تعتبر من المكافآت السخية للاسرى فى مثل هذه الظروف القاسية التى كانوا يعيشون فيها ٠

أما الجماعات التى نظمت لمنع الاسرى من التعاون أو التهديد بالانتقام منهم اذا ما تعاونوا مع الصينيين ، فقد كانت تتكون من بعض الذين يجيدون النقاش والجدل ، والذين كانوا من أكثر الجنود عنفا فى أعمال المقاومة ·

وقد أطلق الصينيون على احدى هذه الجماعات الاسم « كلوكلوكس كلان » لسياستها الاعتدائية ، وظهر أن هذه الجماعة كانت تتكون من الأفراد الذين تعرضوا أكثر من مرة لسجن الصينيين ، أو الذين اضطهدوا لنقضهم ومخالفتهم قوانين السجن ونظمه ·

أما النوع الثالث من الجماعات فقد كان يتكون من الاسرى الذين يسرهم اجتماعهم معا على مثال الجمعية التى كونها كبار السن من الجنود ، واطلقوا عليها « منزل الجندى العجوز » ·

ولقد عهد الصينيون لعدد كبير من الجنود بتشكيل « لجان السلام » وكانت وظيفتها تعويق اى حركات للمقاومة ومنعها · وكان أفرادها يقومون بالأعمال الدعائية مثل : اعداد النشرات ، والتماسات السلام للأمم المتحدة ، وكتابة بعض الاحاديث للاذاعة ، وكانت جهود هذه الجماعات تختفى تحت ستار أعمال الترفيه ·

كان أعضاء هذه اللجان يختارون بطريقة ديمقراطية ، ولكن الانتخاب كان يجرى المرة بعد الاخرى حتى يتم اختيار من يريدهم الصينيون فعلا · وفى كثير من الأحيان كان الاسرى يوفرون على أنفسهم العناء بأن يختاروا منذ البداية الافراد الذين يريدهم الصينيون ·

وكانت اللجان التى تتولى الاعمال الادارية اليومية الرتيبة فى المعسكرات مسئولة عن : الشئون الصحية ، والغذاء ، والترفيه ، والدراسة ، ويبدو ان اختيار بعض الافراد من « غير المتعاونين » لعضوية هذه اللجان كان يتوقف على مدى رغبة الصينيين فى الابقاء على اتصالاتهم بالاسرى ومعرفة مختلف الاتجاهات ،

وعندما تحسنت الاحوال فى المعسكرات عامى ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، كانت هذه اللجان تمثل مختلف الجماعات فى المعسكرات تمثيلا جيدا ، وفى ذلك الوقت لم تكن الحاجة ماسة الى جماعات السلام اذ كان الصينيون قد استنفذوا منها كل احتياجاتهم لحملات الدعاية •

على أن الظاهرة البارزة فى كل هذه اللجان كانت عدم اتزانها ، وعدم استقرارها من وجهة النظر الداخلية ، ذلك أنه بسبب احتمال وجود جواسيس ومبلغين بين أعضائها أوجد جوا من عدم الثقة المتبادل ولا سيما بين جماعات السلام ، فلم يكن أى عضو يستطيع أن يعرف على التحقيق ما اذا كان أى عضو آخر هو من الموالين فعلا أو ممن يتظاهرون بذلك بقصد متابعة الحياة فى هدوء •

وحتى أعضاء جماعات المقاومة ، وجماعات الخدمة الاجتماعية كانوا يواجهون نفس موقف عدم الثقة ، ذلك لأن أحدا لم يكن يستطيع أن يعرف الجواسيس والمبلغين الذين يدسهم الصينيون فى كل من هذه الجماعات للاخطار بنشاطها ، ثم ان توقع الغاء كل جماعة أو حلها فى أى لحظة جعل كل عضو عازفا عن الاعتماد أو الارتباط بأى عضو آخر •

وهكذا حالت هذه العزلة الاجتماعية عن أن يكشف أى عضو عن معتقداته واتجاهاته عن طريق صلاته بأى فرد آخر فى وقت كانت مختلف المعتقدات عرضة لهجمات عنيفة من مختلف الاتجاهات •

المحاضرات والمناقشات :

كانت الوسيلة الرئيسية للتثقيف المباشر عبارة عن سلسلة من المحاضرات يحضرها كل الاسرى طوال مدة أسرهم ، وكانت هذه المحاضرات تلقى يوميا وتستمر من ساعتين الى ثلاث ساعات •

وكان فى كل معسكر معلم سياسى أو أكثر يلقى محاضرته من أوراق معدة له ، والعادة أن يجلس معلم آخر يراجع ما يقرؤه الأول على نسخة أخرى من المحاضرة ليتحقق من اتباع النص المكتوب •

وكانت المحاضرات سهلة ، دعاية مباشرة واضحة تهاجم الامم المتحدة بصورة عامة ، والولايات المتحدة بصفة خاصة فى مختلف النواحى : السياسية : والاجتماعية ، والاقتصادية ، وفى نفس الوقت تمجد ما حققته الدول الشيوعية وما تتطلع اليه من رفاهية ودعوة « للسلام » ٠

وبرغم عدم دراية الكثير من المعلمين بأمهات الكتب الشيوعية ، فان استمرار الضرب على نقاط معينة ، واقتران ذلك بالاساليب الاخرى المستخدمة وفى موقف لم يتوافر للاسرى فيه أى مصدر آخر للمعلومات ـ جعل الكثير من نقاط الجدل الصينية تنفذ الى أذهان الجنود وتجعلهم يناقشون ببلبلة بعض وجهات نظرهم القديمة من زاوية أخرى ٠

وكانت دعوات السلام تلقى استجابة من الجنود المتعبين الذين اجهدتهم ظروف الحرب لا سيما أن ذلك كان يصاحبه تبرير للأسرى بأنهم انما يخوضون معركة على أرض اجنبية عنهم ، وأنهم يشتركون فى حرب اهلية لا ناقة لهم فيها ولا جمل ٠

وقد شددت المحاضرات والمناقشات التثقيفية على التوقعات التفصيلية لما سوف يحدث للأسير عند عودته الى وطنه ، وقد تحقق بعض ما تنبأ به الصينيون[1] اذ قدروا أن مشكلات معينة من المشكلات العديدة التى سوف تنشأ انما ترجع الى « ضعف » أو عدم عدالة الايديولوجية الرأسمالية ٠

على أن المناقشات الجماعية التى كانت تجرى بعد كل محاضرة زادت قابلية الاسرى فى تقبل وجهات النظر الجديدة ، وحاول الصينيون بكل عزم ودون كلل استغلال ذلك فى عملية التثقيف ٠

---

(١) ناقش هنرى سيجال هذا فى مجلة علم النفس العقل الأمريكية مجلد ١٩٥٤ عدد ١١١ ص ٣٥٨ ـ ٣٦٣ ، كما ناقشه روبرت ليفتون فى العدد ١١٠ من نفس المجلة ، الصفحات ٧٣٢ ـ ٣٧٩ ٠

كانت أغلب المحاضرات تنتهى عـادة بسلسلة من الخلاصـات مثـل « بدأ الكوريون الجنوبيـون الحرب بغزو كوريا الشـمالية » أو « أن غرض الدول الرأسمالية السيادة على العالم » ، ثم يقسم الاسرى بعد ذلك جماعات تذهب الى أماكن اقامتها لتناقش وحدها الخلاصة التى انتهت بها المحاضرة لمدة ساعتين أو أكثر ٠

وكان على كل جماعة اثر انتهاء مناقشتها أن تقـدم اجابات مكتوبة عن أسئلة كانت توزع عليهم أثناء المحاضرة ٠

ولذلك فان مناقشة المحاضرة انما كانت تعنى فى الواقع الاقتناع بالخلاصة التى سبق وانتهت اليها المحاضرة[1] ٠

وقد خصص لكل جماعة « مرشد » لمعاونة الأسرى فى المناقشة ، وكذا للتأكد من أنهم يتبعون الاتجـاه الصحيح السـليم ، ثم عليه أن يجمع منهم الاجابات ويتأكد من أنها تسير فى الاتجاه الصحيح ٠

وفى البداية كان هذا المرشد عادة صينيا يتحدث الانجليزية ، ولكن كلما سنحت الفرصة كان هذا المرشد يكل الامر الى أحد افراد الجمـاعة الذى يبدى تعاونا وعطفا أكثر على وجهة نظر الشيوعية ٠

وكان التكرار أسلوبا أسـاسيا فى المنـاقشة اذ كانت الاجابات لا تتمشى مع ما يطلبه المرشد ، فاذا قال احد افراد الجماعة مثلا : « ان الكوريين الشماليين قد غزوا كوريا الجنوبية كان على الجماعة ان تنصت للمحاضرة ثانية ، وأن تعود لاجراء المناقشة مرة أخرى » ٠

---

(١) فى السنة الأخيرة من الأسر او ما يقرب من هذا اصبح حضور الكثير من هذه المحاضرات اختياريا ، وكان يحضر هذه المحاضرات أو يشترك فى المناقشات الأسرى الذين أرادوا أن يعرفوا مزيدا عن الشيوعية ، وكان هؤلاء الذين يحضرون المحاضرات الاختيارية يعرفون باسم « المتعاونين الذين يريدون الدراسة » وقد منحوا عدة امتيازات لم تكن تمنح لباقى الأسرى ٠

وقد يستمر هذا الاجراء لعدة أيام دون أن يمل الصينيون من هذا التكرار ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون بأن فى المناقشات الجماعية الفرصة الكبرى للنجاح فى تحويل الجنود الى وجهات نظرهم عن محاولة تحقيق ذلك بالتثقيف الفردى ٠

وكان نجاح مثل هذه المناقشات غالبا ما يتوقف على درجة الاشراف ٠ فاذا كان المرشد متهاونا فان من المحتمل أن تقضى الجماعة الوقت فى الحديث عن أى شيء عدا المادة المطلوب مناقشتها ، ولكن المشرف الذى يكون من أسرى الحرب ، أو من الصينيين الذين تتوافر لهم دراية باللغة الانجليزية كان يدير المناقشة بنجاح وبقدر كبير ٠

ولم يكن من الضرورى أن تؤدى المناقشات الموجهة الى أن يعارض الفرد أو يتشكك فى معتقداته نفسه ، ففى كثير من الاحوال سمح لاسرى الحرب بدعم معتقداتهم السابقة باعطائهم فرصة للحصول على ادراك لا شعورى بصلاحية هذه المعتقدات ٠ وكان الهدف من ذلك هو الايحاء للاسرى بأن المناقشات هدفها تعليمى وتعتمد على الاقناع ٠

المكافآت والعقوبات :

قد يبدو من تكنيك الصينيين أنهم ارادوا لاغراض الدعاية أن يجذبوا بعض الاسرى بوسائل معينة دون أن يعنيهم أن يؤمن هؤلاء الافراد بالشيوعية ، وذلك لاستغلالهم فى مواقف كثيرة ٠ وقد استطاع الصينيون اجتذاب هذا النوع من الافراد : بواسطة الحث والمكافآت من ناحية ، أو بواسطة التهديد بالعقاب من ناحية أخرى ٠

ولقد ظهر للاسرى منذ البداية أن التعاون مع الصينيين سوف يحقق لهم حياة هينة فى الاسر ، على حين أن عدم التعاون أو المقاومة سيخلق لهم المتاعب والمضايقات ٠

وقد اختلفت أنواع المكافآت التي كان يمنحها الصينيون للأسرى باختلاف حالاتهم ، وتبعا للظروف التي يعيشون فيها •

ففي اثناء عمليات السير ، وفي اثناء الاقامة في المعسكرات المؤقتة كانت الأحوال تسوء بالقدر الذي يجعل : اعطاء أي كمية اضافية من الغذاء ، أو أي علاج للأسير ، أو منحه أي قطعة من الثياب ، واسكانه في غرفة غير مزدحمة ـ مكافأة كبيرة القيمة ، فلما وصل الاسرى الى المعسكرات الدائمة كان : مجرد الوعد بالاطلاق المبكر ، واعادة الاسير الى وطنه • أو حتى أي تحسين عادي في حـالته يعتبر وسيلة كافية لاجتذابه واستغلال تقبله •

ومع أن الاحوال كانت في المعسكرات الدائمة جيدة نسبيا وبالقدر الذي جعل الاحتياجات الاساسية لاتعتبر حافزا كبير الاثر للتعاون ، فان الوعد بالاعادة المبكرة الى الوطن ظل حافزا قويا على الرغم من أنه تكرر مرارا ولم يتحقق •

وفي هذا الوقت برز حافز قوي جديد هو امكان الاتصال بالعالم خـارج الصين ، مما جعل بعض الاسرى ـ في سـبيل أن يعـرف أهلهم أنهم على قيـد الحياة ـ يتعاونون مع الصينيين: بتسجيل بعض فقرات الدعاية، أو بكتابة الخطابات المليئة بالدعاية ، أو بالتماسات السلام حتى يضمنوا ارسال رسائلهم الى أهليهم •

ومع استمرار تحسن الاحوال صارت الكماليات وسـيلة جيدة لاجتذاب المتعاونين ، وصارت : السجاير ، والامشاط ، والصابون ، والحلوى ، وبعض قطع الثياب ، والفاكهة الطازجة بل حتى كوب ساخن من الشاي ، أو كأس من الشراب ـ وسيلة جيدة لاجتذاب المتعاونين ، وكان بعض الاسرى يبذلون دائما كل جهد للحصول عليها •

على أن الحصول على مثل هذه الكماليات كان يرتبط دائما بمدى رغبة الاسير في التعاون ، وكان أي اتجاه للتعاون سرعان ما يتبع بزيادة المكافآت المـادية ، وبالوعود الخـاصة بالمسـتقبل • وقد ظهر من استجوابات بعض الاسرى بعد

عودتهم الى ارض الوطن أن السوق السوداء قد انتعشت بينهم فى المعسكرات ، اذ كان الاسرى الذين يمنحهم الصينيون هذه الاشياء ولا يرغبون فى استعمالها يبيعونها لزملائهم ٠ وبالاضافة لذلك تداولت السوق السوداء الادوية والعقاقير الطبية التى كان الموالون يحصلون عليها من الصينيين ليبيعونها لمن يحتاج اليها .

ولقد استخدمت هذه المكافآت فى بعض الاحوال بمهارة للربط بينها وبين عمليات التثقيف ، فكانت السجاير والفاكهة الطازجة تعطى فقط فى مقابل كتابة موضوعات عن مسائل معينة فى السياسة الدولية . وكانت الموضوعات التى تفوز بالجوائز تنشر عادة فى الصحيفة أو المجلة التى تصدر فى المعسكر ، وكان الفوز بالجائزة رهينا بتمشى الرأى الذى يبرزه المقال مع وجهة النظر الشيوعية ، ويكون الإسير الذى يفوز بالجائزة غالبا فى طريقه الى التعاون بصورة ما ٠ وقد نجحت هذه المنافسة فى جعل الكثيرين يشتركون فى الكتابة ، كما أتاحت دراسة مختلف وجهات النظر مناقشة الاسرى لوجهات نظرهم القديمة ونقدها ٠

وقد استخدم الصينيون أيضا أسلوب المكافأة أو العقاب لتحطيم أى منظمات جماعية يمكن أن تتشكل بين الاسرى ٠

فعلى سبيل المثال حدث بعد تجمع الاسرى فى المعسكرات الدائمة ان أوحى الى بعض الافراد أنهم لو قاموا باذاعة أحاديث فى الراديو موجهة الى الامم المتحدة ، فان ذلك سيساعد على اطلاق سراحهم فى تاريخ مبكر ٠ ولم تكن محتويات الاذاعة محددة ، ولكن الاسرى وافقوا على القيام بهذه الاذاعات بآمل أن يعرف أهلوهم عن طريق هذه الاذاعات انهم على قيد الحياة ، وقد جمع هؤلاء الافراد علانية أمام باقى الاسرى وسير بهم الى مبنى على مسافة من المعسكر حيث توجد استديوهات الاذاعة ، وفى نفس الوقت أوهم باقى الاسرى بأن هؤلاء سيعطون امتيازات خاصة بسبب تعاونهم فى اقرار السلام فى أرض كوريا ٠

وظهر أن محتويات الاذاعات كانت مجرد التماسات تشتمل بطريقة ملتوية على ادانة الامم المتحدة ، وعلى تقرير أنالاسرىيعاملون معاملة طيبة كريمة ، وعندما

اطلع الأسرى على نصوص الاذاعات رفض البعض اذاعتها بالرغم من التهـديد بتوقيع عقوبة ، ووافق البعض مع محاولتهم ان يضمنوها بعض كلمات تدل على انهم تحت ضغط قهرى ٠

وعندما عاد هؤلاء الى المعسـكر بعد تسـجيل الاذاعات ، وجدوا أنهم قد أثاروا الشك والعداء من جانب زملائهم بخاصة ان الصينيين اظهروا رضاهم بان اسبغوا عليهم بعض التقدير ٠

وقد استمر بعض هؤلاء الافراد فى تعاونهم مع الصينيين معتقدين ان ذلك لا يضر بقضية الامم المتحدة بحال ما ، بل ان بعضهم تصور انهم يقومون بدور عملاء سريين بدافع من انفسهم لمحاولة التغلغل فى اعماق التنظيمـات الصينية للحصول على معلومات وأنباء يمكن بها معاونة قضية الامم المتحدة ٠

وقد كان فى مقدمة المكافآت التى حرص الصـينيون على منحهـا للأسرى المتعاونين معهم امتيازات رمزية مثل : منح الرتب ، والدرجات فى سلم القيادة فى المعسكر ، ولكن كان الاهم من ذلك منح هؤلاء الافراد حرية التحركات ، اذ كانوا يستطيعون دخول مبنى الرياسة الصينية للمعسـكر فى أى وقت ، كمـا كانوا يستطيعون ان يذهبوا الى المدينة فى اى وقت شاءوا ليلا أو نهارا ، بالاضافة الى أنهم كانوا يختصون بالاعمـال المريحة فى المعسكر ، ويجنبون الاعمـال المرهقة التى تسبب الضيق والاعياء للقائمين بها ٠

وكان الصينيون يستشيرونهم فى المسائل السياسية ، واعطوا لهم علامة مميزة يعرفون بها ، وهى عبارة عن رسم صغير لحمامة توضع على الياقة أو يضعون علامة تحمل صورة ماوتسى تونج ٠

وقد منح الصينيون الكثير من الوعود الخاصة بمستقبل الاسرى ، وقيل لهم : انهم يلعبون دورا هاما فى حركة السلام ، وأنهم سوف يستمتعون بمكانة عالية فيها لو استمروا فى العمل لها ٠

ولو سألنا انفسنا : لماذا يسلك الافراد مثل هذا السلوك ؟ ولماذا صدقوا هذه الوعود ؟ للاجابة عن ذلك يجب أن ننظر الى الظروف التى كانت تكتنفهم والتى سبق وصفها ، فان هؤلاء الافراد لم يكن أمامهم بحال ما أى مصدر آخر للمعلومات يعتمدون عليـه ، كما أن هنـاك نقطة هامة هى أن هؤلاء الأفراد اذا ما بدأوا التعـاون مع الصـينيين ولو فى عمل تافه فانهم كانوا يفقدون الثقـة والتعضيد من باقى زملائهم مما كان يدفعهم الى التعاون الى أبعد مدى مع آسريهم سعيا وراء السلامة والطمأنينة ·

وليست هذه كل وسائل المكافآت والعقوبات ، فقد ذكرنا الكثير منها فى الفصل الخاص بالاستجواب واستنطاق الاعترافات ·

والواقع أنه من الناحية الجوهرية يمكننا أن ننظر الى تجربة كل أسير حرب فى معسكرات الاسرى وكأنها سلسلة من المشكلات كان على كل فرد أن يحلهـا حتى يستطيع أن يبقى حيا فى حالة متكاملة ، وكان فى مقدمة هذه المشـكلات : مشكلة « الحرمان البدنى » ومشـكلة « الخوف من عدم الاعادة الى الوطن » أو « التعذيب » أو « القتل للتخلص من الاسير دون أى دليل على وجوده أو أسره » .

على أن المشكلتين اللتين تليان ذلك فى الاهمية هما مشكلة النظر الى الحياة تحت ظروف وأحوال تحطمت واضطربت فى ضوئها القيم والمعتقدات ، ثم مشكلة الاحتفاظ بمكانة صالحة فى مجتمع مع الابقاء على صـلات صـداقة وروابط مع آخرين فى جو يقوم على عدم الثقة المتبادلة بين الافراد ، وتنعدم فيه القيادة ·

استغلال الدعاية :

ولقد استغل الصينيون أساليب الدعاية المعروفة فى أثناء عملية التثقيف ، فقد كانت النشرات توزع ، وتعرض الافلام التى تمجد ما حققه النظام الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى وفى الصين ، وتبين المكاسب والمنافع التى يحققهـا هـذا النظام للعامل والفلاح ، أكثر مما حققه النظام الرأسمالى ·

على أن أشد هجوم تعرضت له المعتقدات والاتجـاهات جاء من شـــهادات الأسرى الذين كانوا يعضدون فى وضوح مشروعات الصينيين ، ولقد تضمنت هذه الشهادات : خطبا ، وأحاديث اذاعية ، والتماسات للسـلام ، واعترافات دعائية •

وكان لاستخدام هذه الشهادات نفع مزدوج ، اذ أنها من ناحية ساهمت فى تحقيق دعاية الشيوعيين ، ومن ناحية أخرى أضعفت الروابط الجمـاعية بين الافراد • وكان نتيجة ذلك أن كل أسير كان يشعر بالانعزال والوحدة ، واصبح فى حيرة وشك لا يمكنه من اتخاذ موقف مشترك متماثل مع باقى الجماعة ، بل يضطر كل فرد نتيجة هذه الظروف التى تحيط به أن يعيد دراسة معتقداته ، ومن ثم فانه يتعرض لان ينقاد الى جانب الرأى الذى يتكرر على مسمعه كل يوم •

* * *

وكانت « حرب الميكروبات » من الموضوعات الحيوية التى استغلها الصينيون فى دعاياتهم ضد الولايات المتحدة بارتكابها جريمة كبرى ضد الانسانية ، وقد اعتمدوا فى ذلك على الاعترافات الخاصة بها ، والتى أخذت من عدد من ضـباط السلاح الجوى وجنوده •

لقـد أصبح موضـوع حرب الميكروبات فى كوريا هو الموضـوع الرئيسى للتصريحات الرسمية وشبه الرسمية ، وكانت الاتهامات تدعم بجميع الادلة التى يتقبلها العقل ، اذ جاءوا بالعمال الزراعيين ليقصوا كيف شاهدوا خزانات الجراثيم وهى تتسـاقط ، وأطلعوا المخبرين الصحفيين على شظايا القنـابل ، وعرضت صحائف زجاجية يستطيع أن يرى كل انسان عليها بالمجهر خلايا البكتريا وهى تسبح ، كما كان هناك بالفعل بعض الذباب والفيران مما يكفى للعرض فى جميع انحاء البلاد •

وحاول الموظفون الصينيون مخاطبة فطنة الناس لأن الرؤية هى المعرفة ، كما دعوا بعض المتخصصين فى علم الاحياء ليؤمنوا على أقوالهم ، ولم يبق سوى اعترافات الجماعات المذنبة حتى يصبح الاتهام ثابتا ، وقد تحقق ذلك باستجواب عدد من الطيارين الذين اعترفوا بجرمهم وأسفهم •

ولقد نجح الصينيون فى الحصول على الاعترافات المطلوبة لاعمال الدعاية ، ففى قصة احد الطيارين الذين استجوبوا وصل به التوتر والانهيار الى حد أنه اعترف وهو محطم الشعور بعقدة الذنب بأنه ارتكب جريمة كبرى فى حق الشعبين : الصينى والكورى ، وأنه يأمل أن يغتفر له ما اقترف من ذنوب واثم ، ثم اخذ يشرح بصراحة مذهلة كيف انه اشترك فى شن الحرب الميكروبية ضد الفلاحين البسطاء • لقد ارتسم على عينيه وهو يدلى بهذه الاقوال الحزن الشديد ، كما ازالت الطلاقة التى اتسمت بها اجاباته كل ريبة وشك •

لقد كانت اقلام المخبرين الصحفيين تتسابق فى الكتابة وهو يدلى باعترافه ، وكان يبدو انه مخلص فيما يقول ، مما يوحى للذين يسمعونه انه فعلا يبدى اقواله دون اى ضغط عليه ، أو ايحاء خارجى •

وقام الصينيون بتصوير افلام سينمائية تبين بعض الأسرى وهم يدلون باعترافاتهم أمام اللجنة الدولية التى شكلها الصينيون لبحث الأمر ، وعرضوا هذه الافلام فى المعسكرات •

وبالاضافة الى ذلك كان يتنقل ضابط أو ضابطان أمريكيان من معسكر لآخر ليوضحا للاسرى كيف أن قوات الامم المتحدة استخدمت القنابل المعبأة بالميكروبات •

وفى الواقع كان لذلك اثر بالغ ، فان التفاصيل التى شرحت للاسرى ، والافاضة فى الشهادات مع الاخلاص الظاهر فى أحاديث الضابط وحرية تحركه من معسكر لآخر أوحت الى الأسرى أنه ليس هناك اى نوع من القسر والارغام ، مما جعل الكثيرين منهم يؤمنون بأن ما حدث لابد من أن يكون حقيقة واقعة •

كما استخدمت الاذاعة والبرقيات لنشر هذه المعلومات على العالم الخارجى لكسب الرأى العام ، ويقول ادوارد هنتر فى ذلك : « رددت الاذاعات الصينية النبأ وارسلت البرقيات الى جميع أنحاء العالم حتى يتسنى وصولها الى أهالى الهند

الشديدى الحساسية ، وسكان الارجنتين الحادى المزاج ، والسفسطائيين من اهل الريف الانجليزى ، وحتى الى الامريكيين المذنبين انفسهم • وفى كل مكان من نيودلهى الى لندن ، ومن جاكرتا الى مكسيكو سيتى ، قال عدد كبير من المحررين الذين ادعوا انهم على يقين مما يقولون : ان مثل هذا الكشف يجب الا يظل فى طى الكتمان • كما عرضت الافلام السينمائية على جماعات منتقاة من الموظفين والمواطنين العاديين فى اثناء الحفلات التى كان يقيمها الدبلوماسيون الصينيون لاقناع المتشككين بالادلة الدامغة » •

وعموما فان هذا الاسلوب وان كان يعوزه الدليل على ان الاعترافات التى استغلت فى الدعاية لم تؤخذ تحت ظروف قهرية ، الا اننا نرى أن هذه الوسيلة قد نجحت الى حد كبير فى اعمال الدعاية ضد الأمم المتحدة عامة ، والولايات المتحدة بصفة خاصة •

* * *

وثمة صورة أخرى من صور الدعاية ، هى ما قام به الصينيون من استخدام الكوريين الشماليين للادلاء بشهادات عن وحشية الأمم المتحدة ، فكانوا يحضرون فى فترات معينة نسوة وأطفالا ليذكروا أمام احدى لجان السلام كيف أن طائرات الأمم المتحدة ألقت على القرى بعض اللعب والدمى الصغيرة التى كانت تنفجر بمجرد أن يلمسها الأطفال •

والحق أنه يصعب تقدير تأثير مثل هذه الدعاية ، ولكن ليس غير محتمل أن الكثيرين من الأسرى وشعوب الدول الأخرى قد اعتقدوا صدق كل هذه القصص وما شابهها ، بل ان هذه الدعاية قد نجحت الى حد كبير لتأليب الكثير من شعوب العالم ضد اعمال الولايات المتحدة •

لقد أصبحت الحرب فى هذا العصر حربا عقلية أكثر منها حربا جسدية ، واصبح من الواضح أن كسب هذه الحرب العقلية يتوقف تماما على غزو الميول والمشاعر ، وفى هذا المجال يمكن ان نطلق كلمة « سلاح » على كل ما يساعد على تحقيق هذا الغرض •

مدى نجاح برنامج التثقيف :

من الصعب تقدير مدى النجاح الذى حققه الصينيون فى تحويل أسرى الحرب الى الايديولوجية الشيوعية ، وذلك لعدم تيسر وسائل التقدير السليم للتحويل الايديولوجى ، وكذا لاستحالة تقدير التأثيرات المستترة لهذا التثقيف .

على أنه فى ضوء المعيار المكشوف الواضح للتحول الايديولوجى فاننا نستطيع أن نقول : ان البرنامج الصينى كان عملا غير موفق اذا ما قورن بالجهد الذى وجه اليه وبذل فيه ، فان عدد الافراد الذين رفضوا العودة الى وطنهم والذين لا يتجاوزون الواحد والعشرين يعتبر صغيرا جدا ، وربما قد فضل هؤلاء البقاء لاسباب غير التحول الايديولوجى(١) ثم ان الرأى الاجماعى بين الاسرى كان ينصب على أن اولئك الذين تعاونوا كانوا من الانتهازيين ومن الضعفاء الواهنين . وعلى أية حال فان كل ما يستطيعه المرء هو أن يقدر على أساس التخمين والحدس كيف عمل هؤلاء الاسرى الذين آمنوا بالشيوعية على اخفاء اتجاههم هذا عن زملائهم ، كما يستطيع أن يقدر الدرجة التى هيىء بها هؤلاء الأفراد لتقبل العقيدة الجديدة .

والحق أنه من الصعب أن نقرر ما اذا كان عدم توفيق البرنامج الصينى النسبى يرجع الى عدم كفاية مبادئهم للتثقيف ، أو الى ضعف أسلوبهم الفنى لتنفيذ هذا البرنامج أو نتيجة هذين العاملين معا .

على أن الممارسة العملية كانت فعلا غير ذات أثر ايجابى نتيجة أن الكثيرين من المدربين كانت تنقصهم الخبرة بالثقافة الغربية ، ولم يكونوا يجيدون التفاهم باللغة الانجليزية ، وكان الكثير من « الحقائق » التى اعطوها للأسرى عن وطنهم تشوبها الدقة ، ومن ثم فانهم لم ينجحوا فى الحصول على مستمعين يستجيبون لما يقولونه ، هذا عدا أن محاولاتهم للتعليم بواسطة المناقشات الجماعية لم تحقق

---

(١) ناقشت فرجينيا باسل فى كتابها « ٢١ بقوا » 21 Stayed طبع نيويورك عام ١٩٥٥ بعض العوامل فى حياة هؤلاء الذين بقوا ولكن كتابها مع الأسف لا يعتبر كاملا لأنها اغفلت العوامل والقوى المؤثرة وراء أولئك الذين قرروا العودة بالرغم من تعاونهم بصورة أو بأخرى

اغراضـــهم لأنهم لم يدركوا ســخرية الأسرى من المصطلحـات الانجليزية التى اصطنعوها للتعبير عن آرائهم ، وذلك نتيجة لضعف تمكنهم من اللغة •

ومع أن وسيلة التعليم عن طريق اقامة علاقات شخصية وثيقة بين المعلمين والطلبة تعتبر وسيلة ناجحة جدا فى نشر البرامج العقـائدية ، فانه لم يتوافر للصينيين فعلا العدد الكافى من المعلمين الصالحين للقيام بهذه التجربة ، ومن ثم لم يوفقوا فى تثقيف أكثر من حفنة من الرجال •

وكان أسلوب الصينيين لتحطيم كل المنظمـات ذات الطـابع الرسمى ، أو المنظمات التى قامت بين الأسرى بدافع من انفسهم ناجحا جدا فى خلق شعور بالعزلة الاجتماعية والعاطفية ، ولـكن هذا الأسلوب لم يكن كافيا قط بالقدر الذى يجعل الأسرى يعتمدون تماما على الصينيين ، ذلك لأن الفرصة لمقاومة هذا التثقيف كانت تظل قائمة ما دام الاسرى يعيشون معا ويتلقون هذه الدراسات فى جماعة واحدة ، وبذلك كان فى استطاعتهم أن يتعرفوا وجهـات نظر بعضهم بعضا مما كان يهيىء لهم طاقة على تبين الحقيقة بقدر يكفى للمقـاومة بشـكل مستتر ، اذ لم يستطع الاسرى تبعـا للسيطرة والرقابة تكوين مقاومة علنيـة منظمة ، أو اقامة علاقات مع الخارج بواسطة تهريب المعلومات سرا خارج البلاد •

وكانت أقوى دعائم الجدل ضـد الشيوعية تدور حول المستوى المنخفض للحياة فى قرى كوريا الشمالية التى عاش فيها الاسرى ، وجادل الكثيرون منهم كيف يمكنهم أن يصدقوا نظاما تبدو قيمه أخاذة جذابة على الورق دون أن تمارس عمليا ، ولم يستطع الكثيرون أن يتقبلوا ما قيل لهم : ان هذه الاحوال ما هى الا لظروف موقوتة •

ويمكن أن يقال اجمالا : أن الصينيين نجحوا فى تقييد بعض أنواع السلوك بين الاسرى ، ولكنهم لم ينجحوا تماما فى تحويل معتقداتهم • ولكن عدم النجاح الكامل قد يرجع الى عدم كفاية برنامج التثقيف ، نتيجـة قلة توافر المعلومات الصحيحة لدى الصينيين ، وكذا النقص الكبير فى المدرسين والمرشدين •

وفى الحروب قد يحدث تعاون مع العدو من جانب الاسرى بدرجة تقل أو تكثر عن ذلك ٠

وفى الحرب العالمية الثانية شــاهدت كل معسكرات الاسرى أنواعا متباينة من التعاون الا انه لم يحدث ان واجه الاسرى جهدا منسقا منظما يهدف الى دفعهم الى التحول ايديولوجيا وجعلهم موالين سياسيا للجانب الآخر ٠

وكانت السابقة الوحيدة فى التاريخ الحديث هى معاملة النازيين للمعتقلين السياسيين على ما وصفها بروتو بيتلهيم بقوله : « لقد استطاع النازيون بواسطة التطرف فى التعذيب البدنى والنفسى ارجاع أسراهم الى « حالة الطفولة » وهى حالة ينظر فيها الاسير الى حارس السجن أو المعتقل برعب ، كما ينظر الطفل الى ابيه الذى يخافه ويخشاه » ٠

وتحت هــذه الظروف والاحوال ، مال المعتقلون الى ممالاة الســلطات التاديبية ، والى ممارسة الكثير من العادات التى الفوها فى حياتهم العامة بالمعسكر لا سيما من ناحية السلوك اللائق داخل المعسكر ٠ وقد يتذللون لينالوا حظوة لدى الحراس لدرجة أنهم كانوا يقلدونهم فى ارتداء الثياب وفى أسلوب الحديث ، ثم يحاولون دفع باقى المعتقلين لاتباع قوانين المعسكر بدقة تامة ٠

ومن المحتمل ان يكون الصينيون قد اتبعوا هذا الاسلوب فى معســكرات الاسرى الا ان النازيين نجحوا فى جعل المعتقلين لينى الشكيمة ، وهبطوا بهم الى مستوى الاطفــال المستسلمين ، كما حولوهم الى عمــال رقيق يعملون فى خنوع وخضوع ، على حين اتخذ الصينيون سياسة اللاينة ومعاملة المعتقلين كرجال فى حاجة الى التثقيف بغية الوصول الى « مهتدين » يعاونون ايجابيا على وجهة النظر الشيوعية ٠

ولم يعــامل معاملة تاديبية الا أولئــك الاسرى الذين حاولوا أن يظهروا بمظهر المتخلفين فى الفهم أو الادراك ، أو « الرجعيين » الذين لم يستطيعوا تبين حقائق الشيوعية وادراكها ٠

وكان لب هذا الاقتراب الجديد يهدف الى سيطرة كاملة على الاسرى جسمانيا واجتماعيا ، اى السيطرة على كل العوامل التى تدعم وتعضد الاتجاهات والمعتقدات والقيم الجديدة ، وتحطم كل الروابط العاطفية التى توطد القيم والمعتقدات القديمة •

واذا كان الاتصال الوحيد الذى كان مسموحا به للفرد هو اتصاله بافراد تسودهم معتقدات تخالف وتباين معتقداته ، فمن المحتمل أنه سيجد فى النهاية بعض المعتقدات المشتركة بينه وبينهم • ومن ثم فانه لا يلبث ان يصير بعد وقت مؤمنا ببعض هذه المعتقدات •

ولنتساءل هل يكفى السلوك المتعاون فى حد ذاته تحقيق عملية التحول الايديولوجى ؟ ••

قد يحتمل أن يقوم المرء بأى أعمال تتفق مع ايديولوجية جديدة ، بل قد يضطر الى اعتناق مبادئها لكى يبرر سلوكه فى المجتمع الذى يعيش فيه •

والانسان تحت ظروف معينة غالبا ما تتشابك آراؤه ومعتقداته مع الجماعة التى يعيش معها ، كما ان هناك من العوامل المتعددة التى قد تجعل الانسان يقتنع بمبررات العقيدة الجديدة •

على أن عوامل التبرير والتسويغ التى تستخدم للتبشير المذهبى الجديد قد لا تتضمن ثبات هذه المعتقدات اللهم الا اذا صحبتها عوامل اجتماعية تعززها ، فقد يؤمن الانسان بمعتقدات جديدة تحت ظروف معينة وبايمان عن تفاؤل من تطور اجتماعى ، ولكنه قد ينفض يديه من هذه المعتقدات اذا تغيرت الظروف وعاد الى عقيدته الاولى ، وحينئذ يجد من المبررات والوسائل ما يجعله يرتد عن العقيدة الجديدة •

وفى برنامج التثقيف الصينى للاسرى نجد أنه علاوة على الصعاب الفنية التى واجهها الصينيون فى اجراء برنامجهم للتثقيف لم يكونوا قادرين على السيطرة على الاتصالات الاجتماعية بالقدر الكافى الذى يمكنهم من تعزيز العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الشيوعى ، والتى يمكن بها تبرير هذا التعاون •

على اننـا عندما ننظر الى الاسـلوب الذى عمـل به الصينيون وأدى الى الانعزالية الفردية ، نجد أنه لا يعتبر عملا جديدا او مخيفا ، كما أنهم لم يخترعوا اى وسائل غامضة للتعامل مع الناس ، وكان اسلوبهم للسيطرة على المعلومات بالرقابة الكاملة على كل وسائل النشر اسلوبا معروفا عن كل الحكومات الطغوانية فى كل مراحل التاريخ • ثم ان أسلوبهم فى الدعاية بواسطة : المحاضرات ، وأفلام السينما ، والنشرات ، والكتب اسلوب معروف له مثيله فى عمليـات التعـليم والاعلان فى النظم الغربية ، كما ان نظام المناقشات الجماعية وغير هذا من الوسائل التى تتطلب اشتراك الافراد معا فى النقاش والجدل لها شبيهها فى التعليم ، وفى علاج الامراض النفسية والعقلية •

لقد كانت مسالة أفضلية المناقشات الجماعية على المحـاضرات للوصول الى قرارات متوازنة من أولئك الذين يشتركون فى المناقشات موضع بحوث ضافية فى مدارس علم النفس الغربية •

وكذلك كانت أساليب الصينيين للاستجواب معروفة وتستخدم على نطاق واسع فى الجيوش الاخرى بل بواسطة : رجـال البوليس ، ومخبرى الصحف ، وكل المهتمين بالحصول على معلومات مستترة مخفية •

وشيء آخر هو أن الاعترافات التى تجيء قسرا وبنقد النفس قد استخدمت بدرجة كبيرة بواسـطة الحركات الدينية كقـاعدة للتحول الدينى ، او كوسيلة لنشر عقيدة دينية معينة كما جاء فيما قبل •

ثم ان تقييد السلوك عن طريق الحث والمكافاة ، أو عن طريق العقـاب لهو اقل وسائل الصينيين جدة واستحداثا ، ذلك لأن الناس قد سيطروا على بعضهم بعضا بالمنح وبالعقاب منذ اقدم عصور التاريخ •

وكان الشيء الجديد الذى استحدثه الصينيون هو أنهم لجئوا الى كل هـذه الوسائل مقترنة معا فى وقت واحد ، وذلك بقصد الحصول على سيطرة على الجزء الأهم من البيئة الجسمانية والاجتماعية لمجموعة من الناس •

الفصل الثالث

توجيه الفكر

تحدثنا في الباب الرابع عن أساليب الاستجواب واستنطاق الاعترافات في المجتمعات المختلفة ، كما بينا في الفصل السابق برنامج الاصلاح الايديولوجي لدى الصينيين بصفة عامة والذى طبق على أسرى الحرب في كوريا ·

وفي هذا الفصل سنحاول أن نبحث بشيء من التفصيل حالتين من الحالات التي واجهت عملية توجيه الفكر في سجون الصين : احداهما لطبيب فرنسي عمل في الصين لمدة عشرين عاما قبل سجنه ، ويدعى الدكتور تشارلس فنسنت ، والاخيرة لقسيس ايطالي يدعى الاب فرنسيس لوقا ·

وعلى الرغم من أن هذه المعلومات قد لاتكون دقيقة تماما ، أو قد يكون فيها مبالغة بخاصة انها جاءت على السنة الذين تعرضوا لها ، فان دراستها من الزاوية العلمية ذات اثر نافع ، فهي تعطينا فكرة واضحة لردود الفعل التي قد تحدث للانسان اذا ما تعرض لمثل تلك التجربة ، كما توضح بعض الأساليب التي تستخدم للتاثير على معتقدات الناس وشل ارادتهم الحرة ·

على اننا سنحاول ان نقوم بتحليل سيكولوجي واف للمشاعر التي كانت تختلج فيمن تعرضوا لها ، حتى نستطيع أن نخرج بدراسة وافية عن هذا الموضوع ·

ونود أن نشير هنا الى ان حالة الدكتور فنسنت تبرز أسـاليب « اعـادة التثقيف » وتوضح حالة الأب لوقا كيف يمكن أن يدلى الانسان باعتراف زائف تحت ظروف وتوترات معينـة حتى يصـل به الامر الى ان يصـدق هو هـذه الاعترافات ٠

كما نود ان نشير ايضا هنا الى احد تعليمات السجن الصينى الشـيوعى التى ترتبط ارتباطا وثيقا بعملية « توجيه الفكر » واننـا نضع ترجمتهـا أمام القارىء لأنهـا تعطى تلخيصـا للأسلوب الذى يستخدم داخل جدران السـجن لتطبيق عملية التثقيف ٠

« تتبع فى معاملة المجرمين اجراءات مطردة منتظمة من : تجنيد جمـاعات للاصلاح ، الى مقابلات أو اجتماعات فردية ، مع دراسة الوثائق المقـدمة منهم ، ثم اجراء مناقشاتمنظمة عامة بقصد تعليمهمالاعتراف بالذنب ، واطاعة القانون ، والانصياع للأحداث السياسية الجارية ، علاوة على العمل الانتـاجى والتثقيف ٠ وبذلك يمكن الـكشف عن طبيعـة جرائمهم التى ارتكبـوها ، وازالة الأفكار الاجرامية ، واقامة شريعة معنوية جديدة يدينون لها بالولاء » ٠

اعادة التثقيف :

كان الدكتور فنسنت أحد الأطباء الأجانب الذين عملوا فى شنغهاى ، وكان بين عملائه عدد كبير من المواطنين الشيوعيين ، وظل يمارس عمله حوالى العشرين عاما فى راحة ويسر ٠

ولكنه بعد ظهر أحد الايام وهو سائر فى احد طرق شـنغهاى اعترضـه خمسة رجال شهروا مسدساتهم نحوه ، وقدموا له امرا باعتقاله واخذوه الى مكان الاعتقال أو الى « مركز اعادة التثقيف » حيث قضى السنوات الثلاث والنصف التالية ٠

وتعرض فنسنت فى الاسابيع الثلاثة الاولى وهو فى سجنه لتلك الصور التى يستخدمهـا الصينيـون فى استجواباتهم والتى سـبق ان شرحناها فى البـاب

الرابع ومن ثم لن نعرض لها خشية الملالة • وبعد ثلاثة أسابيع قضاها في السجن وهو يستجوب تحت تلك الظروف القاسية ، قدم اعترافاته عن جرائمه التي نسجها من خياله نتيجة التوترات الشديدة التي فرضت عليه •

على أنه حين بدأ يتكلم من وجهة نظر الشعب الصيني ـ على حد تعبيرهم ـ شعر فجأة بالتحسن الكبير في أسلوب معاملته ، اذ نزعت عن يديه وساقيه الاغلال والسلاسل ، وسمح له بأن يجلس مستريحا وهو يتحدث الى المحقق ، وقيل له : ان الحكومة تأسف لانه واجه مثل هذه المتاعب وان تكن الحقيقة انها ارادت بهذا كله معاونته ، وتمشيا مع سياسة الملاينة التي أخذت بها نفسها فانها لابد من ان تعامله برفق ، وقد تطلق سراحه بسرعة اذا قدم « اعترافا كاملا » وحاول ان يعمل بجهد وجد لاصلاح نفسه » •

وفي هذه المرحلة وجه توجيها وديا لمعاونته في اعادة كتابة اعترافه ، وقد أعطاه هذا التغيير في حالته دافعا لان يكيف نفسه مع الواجب الذي يطالبونه به • ولكنه سرعان ما وجد ان هذا « التوجيه » لم يكن لين الملمس ، ففي مرات ثلاث حينما بدأ نوعا من المقاومة رافضا الاعتراف بارتكابه أمرا معينا قائلا : « انني لم افعل هذا •• » اعيدت الاغلال الى يديه وعاد الى زملائه في غرفة السجن لمهاجمته بالاقوال المقذعة ، وفي كل مرة كان يظل في اغلاله ليومين أو لثلاثة أيام » •

لكنه على أي حال لم يتعرض ثانية لما تعرض له في الايام الاولى لسجنه ؛ فكان يسمح له بالنوم ثماني ساعات ، وبدأت جلسات التحقيق تاخذ طابعا هادئا وسمح له بالجلوس على مقعد في اثناء التحقيق ، ولم يعد زملاؤه في السجن يثيرون ضجة من حوله • وهكذا قضى الاسبوعين او الاسابيع الثلاثة التالية لا يفعل شيئا عدا زيادة تفاصيل اعترافه • وكان في جلسات التحقيق يتلقى من المحقق مزيدا من التعليمات التي تكشف له عن الطريقة الصحيحة لتطبيق « وجهة نظر الشعب » في كل ما يكتب أو يقول •

وبعد هذه المرحلة التي استغرقت حوالي الشهر اخذ فنسنت يسهم بنصيب في عملية « اعادة التعليم » ، وكان معنى هذا الاسهام النشط في برنامج دراسة الجماعة Hsaeh hsi التي كانت تستمر من عشر الى ست عشرة ساعة يوميا •

وكان الاجراء للدراسة ميسرا كما بينا اذ تجلس الجماعة تحت اشراف رئيس الغرفة « الزنزانة » ، ويقرأ أحد « المسجونين » شيئا ما من : جريدة شيوعية ، أو من كتاب ، أو من نشرة ، فاذا ما انتهى من القراءة كان على كل فرد ان يعبر عن رأيه فيما سمع ، ومن يمتنع عن ابداء رأيه يوجه اليه لوم عنيف من كل الأفراد الآخرين وكان على كل فرد كذلك أن ينتقد وجهات نظر الآخرين ، كما كان من الضرورى أن يعرف كل فرد كيف يعبر عن وجهة النظر الصحيحة فى ضوء ما يرى الشعب ، وأن يطبق هذا لا فى المسائل الشخصية فحسب بل كذلك المسائل : السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية ٠ ومع شعور كل سجين بأن حريته واطلاق سراحه رهينان بما يقول ، فان الاشتراك فى المناقشة كان عنيفا نشطا دائما لان كل فرد يريد أن يتكلم وأن يناقش ٠

ولقد ركزت المناقشات على ما وجهه الغرب للصين فى الماضى من اهانات مثل : التوسع الاقليمى، أو الاعتداء علىالسيادة الصينية، أو طلب امتيازات خاصة للمواطنين الغربيين ، ووجهت اليه وحده تهمة خطيرة هى انه تحت ستار معطف الطبيب لم يكن أكثر من : ممثل « للاستغلال » وعميل « للامبريالية » و « جاسوس » كانت كل أعماله منذ البداية « ضارة بالشعب الصينى » ٠

وكان النقاش الذى يبدأ عادة فى مستوى ثقافى عام يتحول سريعا ليعنى بالتحليل وبالنقد الشخصى ، وعندما كان يبدو أن الدكتور فنسنت تنقصه الخبرة فى مسألة ما ليتعرف على حقيقة وجهة نظر الشعب ، أو عندما تبدو آراؤه خاطئة كان لزاما عليه « أن يفحص نفسه » وأن يتعرف وحده أسباب هذه الاتجاهات « الرجعية » ، كما كان عليه أن يبحث عن المؤثرات « البورجوازيه » و « ألامبريالية » الضارة التى تلطخ ماضيه وذلك للوصول الى اعادة تقييم حاله ، والى « نقد النفس » حتى يصل الى الحقيقة من « وجهة نظر الشعب » ٠

وفى بعض الأوقات كانت غرفة السجن تأخذ طابعا أكاديميا ، اذا عرضت للمسجونين النظرية الماركسية ووسائل تطبيقها على المشكلات الصينية والمشكلات الدولية ٠ وكان يطلق على المسجونين فى هذه المرحلة « زملاء الدراسة » كما كان يشار الى موظفى السجن بأنهم « المعلمون » ٠

وفى عملية اعادة التثقيف كان يفرض على المسجونين الاصغاء الى ما كان يشير اليه المعلمون من تقدم المواطنين ومستقبل الشعب ، وما كانوا يقولونه لهم عن نظريات ماركس في التاريخ التى علمتهم انه يجب القضاء على الامبريالية •

وكانوا يدللون على ذلك باعطاء أمثلة ، فيشيرون الى اعمال الكبت والقمع التى مارسها الامبرياليون فى الصين ، وكذا الى أعمال الهيئات التبشيرية من الارساليات الدينية التى كانت تساعد الامبرياليين ملاك الارض وحزب الكومنتانج « الصين الوطنية » تحت ستار أعمال الخير ، وكل هذه الامور أضرت بالشعب •

ومن ناحية أخرى كان يشـار دائما الى تقـدم الاتحاد السوفييتى فى : التصنيع ، والنهوض بالشعب ، ومد يده بالمعونة الاخوية للصين ، ثم تدرس لهم مشروعات : السنوات الثلاث ، والسنوات الخمس الصينية على اساس أنها تسعى للوصول الى مجتمع اشتراكى ، وتهدف الى تحقيق نهضة كبيرة فى : الزراعة ، والصناعات الثقيلة ، والقوات المسلحة المدافعة عن الشعب •

كما كانوا يركزون كثيرا على ارتفاع مستوى معيشة النـاس فى الاتحاد السـوفييتى ، ويدللون على ذلك بعرض افـلام سينمائية ، واصـدار دوريات اسبوعية ، وصحف يومية •

ثم كانوا يدللون على تحسن احوال الصينيين بعد التحرير مشيرين الى : النهضات الصحية ، والثقافية ، والاقتصادية ، ومنح الحقوق للاقليات ، واعطاء ما للرجل وما للمراة من حقوق ، مع عقـد المقارنات بين « الحرية » فى العـالم الاشتراكى وبين الحرية فى العالم الامبريالى • فهم يحلون كل مشكلة عن طريق المناقشة حتى ولو كانت مشكلة الحرب الكورية ، او الحرب الصينية الهندية ، وهم لا يستخدمون القوة كالامبرياليين بل يرون أن كل مشكلة يجب أن تحل عن طريق النقاش والجدل فى المؤتمرات •

ولقد تعلم الدكتور فنسنت ان يعبر تلقائيا عن كل ردود الفعل ، وعن كل وجهات النظر فى أثناء المناقشات ، كما استطاع ان يبرز « أفكاره الخاطئة » ، ويصف فنسنت حالته هذه بقوله :

« يجب عليك أن تتخلص من كل أفكارك الامبريالية وان تتنكر لها ، كما يجب ان تنتقد كل افكارك بتوجيه من مستخدمى السجن ، فان لم تستطع فستجد هناك الشخص الآخر الذى يحل مشكلاتك ويوجه اليك الانتقاد بدرجة أكبر . انك تشعر بوجود مسألة محيرة أمامك او مشكلة معقدة تبدو لك ، ومن واجبك ان تعلن عن هذه المشكلة المحيرة ، ومن الضرورى أن يعاونك زميل من زملائك فى الدراسة اى من الذين يزاملونك فى غرفتك فى السجن ، ومعاونته لك تعنى ان يجعلك تدرك وجهة النظر الصحيحة .

وهم يقولون لك : انت لديك مشكلة . وأقول انا مثلا : اننى أدهش لماذا لم يصادر الصينيون ممتلكات الرأسماليين كما فعل السوفييت ؟ اننى اظن أنه يكون من الافضل ان يفعل الصينيون ما فعله السوفييت ، وهذه هى مشكلتى التى تحيرنى !

« وهنا يجىء زملاء الدراسة لحل مشكلتى ، وليوضحوا أننى فى جانب الخطأ ، ذلك لان الشيوعيين الصينيين يجب أن يعملوا بأسلوب آخر . ان هدفهم الاصلاح لا القسر . ويوضح لى الزميل أن الثورة السوفييتية تختلف عن الثورة الصينية ، وأن الصينيين قد قاسوا الأمرين من الرأسماليين لأن الرأسماليين لم يمنحوهم الفرصة لتطوير صناعاتهم ، ولكن الرأسماليين الصينيين الآن اتجهوا لنفع الحكومة الصينية ، وهم يمرون بعملية الاصلاح ، ولو ساروا فى طريق الثورة فسيكون مستقبلهم زاهرا .

« كان عليهم أن يوضحوا هذه الحقائق حتى اقتنع بها ، فاذا لم اقتنع وجب ألا أذكر عدم اقتناعى بل اذكر أننى لم أفهم ما قيل لى ، ومن ثم فانهم يعرضون على حقائق جديدة ، فاذا لم أكتف بهذا كان من حقى أن استدعى احد المفتشين ليوضح لى كل شىء .

« وهكذا يمر بك اليوم بطوله وأنت تحت ضغط ضرورة الاعلان عن أفكارك ، وحل مشكلاتك دون أن تستطيع الفكاك ، ذلك لأنهم يستطيعون — على حد ما يقولون — معرفة ما يختلج فى نفسك من انفعالات داخلية ، واذا ما تابعت الاعلان عن آرائك فانت تشعر بسعادة للافصاح عن نفسك ، ولا تستطيع مقاومة

هذا الاصلاح » فهم يحفظون لك سجلا يقيدون فيه كل تصرفاتك ، فاذا مر اسبوع دون ان تذكر شيئا قالوا لك : انك بدأت فى مقاومة اعادة التثقيف ! أما اذا قدمت خمس مشكلات أو ستا فان ذلك يعتبر دليلا على أنك تتقدم لأنك تريد أن تناقش أفكارك الامبريالية ، وهذا الامر ضرورى لأنك لو لم تتخلص من هذه الأفكار فلن تستطيع الحصول على أفكار جديدة ، فالمسألة هى مسألة تفريغ للشحنة القديمة الموجودة لامكان وضع شحنة جديدة مكانها » ٠

وحينما كان فنسنت يلتزم الهدوء ولا يعرض ما يكفى من « الآراء الخاطئة » فان الكثير من الاتهام بعدم اخلاصه كان يوجه اليه ، واذا ما تكشفت وجهات نظره عن أقل انحراف أو تحول عن الاتجاه الشيوعى فانه كان يخطر بأنه صار « موضوعيا الى حد بعيد » أو أنه « انفرادى » أو انه استعاد « اتجاهاته الامبريالية » ، واذ يبدو عليه أنه لا يندمج تماما فى عملية الاصلاح فانه يتهم بأنه : ينشر « سحابة من الدخان » أو « يضع سجفا على النافذة » أو أنه « يبحث عن منفذ ومهرب » أو انه « لم يوفق فى ان يقرن النظرية بالعمل » ٠ وبعد وهلة يجد نفسه متتبعا توجيه الآخرين فى البحث عن هذه الأخطاء فى نفسه عن طريق نقد النفس ، وعن طريق تحليل أسبابها ومغزاها ٠

وقد اشرنا من قبل الى أن جزءا من ساعات الدراسة كان يخصص كل يوم « لنقد الحياة اليومية » : الخلق العام ، الاتجاهات نحو الآخرين ، الرغبة فى القيام بنصيب الفرد من العمل فى غرفة السجن ، عادات الأكل والنوم ٠ فاذا ما خالف فنسنت شيئا من ذلك دون قصد فانهم كانوا يعزون ذلك الى أفكاره الاستغلالية « الامبريالية » أو « البورجوازية » ٠

واذا ما لوحظ تراخ فى عمله انتقد على أساس أنه يفتقر الى وجهة النظر الصحيحة للعمل : فلو أسقط طبقا مثلا على الارض كان هذا اسرافا فى نقود الشعب وتبديدا لها ، واذا ما احتسى كميات كبيرة من الماء كان هذا امتصاصا لدماء الشعب ، واذا ما شغل مساحة كبيرة من أرض الغرفة عند نومه كان هذا « اتساعا امبرياليا » ٠

وظل فنسنت حتى هذه المرحلة يسمع الأحاديث عن الناس الذين أعدموا نتيجة قيامهم بمقاومة لعملية اصلاح أنفسهم ، ولكنه من جانب آخر سمع عن : « المستقبل الزاهر » وعن اطلاق السراح المبكر ، والاقامة السعيدة فى الصين لكل أولئك الذين « تقبلوا عملية اعادة تثقيفهم » •

وبعد مضى عام تقريبا على هذا النحو من اعادة التثقيف تعرض فنسنت من جديد لسلسلة من الاستجوابات تهدف الى اعادة اقامة كيان لاعترافه ، وكانت الحكومة تأمل فى أن تهيىء للفرد الذى يقضى عاما كاملا فى السجن ظروفا تمكنه من أن يفهم جرائمه « على نحو أفضل » •

والآن بعد عام كامل ركز القاضى اهتمامه على عدد قليل من النقاط المختارة من الاعترافات الكثيرة التى حررها فنسنت ، وبذلك انتقل من مرحلة الاعتراف المطلق الذى يهتم بالكم الى مرحلة اعتراف مقصور على نقاط معينة •

وكانت اعترافاته الأولى دلت على أنه ارتكب ثمانى جرائم ، فقد : انضم لمنظمة سياسية فرنسية ، وقام بعمليات « تجسس » ، وحاول الحصـــول على معلومات وتعاون مع أمريكيين وكاثوليك وجماعات رجعية اخرى مماثلة ، وقام أيضا بنشاط معاد للشيوعية ، كما أهان الشعب الصينى بالسب •

على ان فنسنت اصبح الآن ينظر الى الأمر من « وجهة نظر الشعب » ، ومن ثم أصبح للاعتراف طابع أكثر واقعية عما كان من قبل • ويصف ذلك بقوله :

« فى بعض الأحيان يتجمع لك الشعور بأن تنظر الى نفسك من وجهة نظر الشعب ، وتحس أنك مجرم فى حقه ، ولكن هذا الشعور لا يستمر طول الوقت ، وتقول لنفسك : « لقد فعلت هذا واذن فانا مجرم ! وحتى عندما تشك فى هذا فانك تحتفظ بهـذا الشك لنفسك لأنك لو صرحت به فانك تعـود من جديد للمجاهدة على أساس انك فقدت ميزة كل التقدم الذى حققته من قبل • وبهذه الطريقة يوجدون فيك : « عقلية جاسوس » ، ويبنون فى أعماقك شخصا مجرما ،

وحينئذ يصبح كل ما اخترعته انت واصطنعته من اعترافات حقيقة لها كيانها ، وتبدأ تحس جرمك طالما رحت تنظر الى نفسك من وجهة نظر الشعب ، وكلما تعمقت فى وجهة نظر الشعب ازداد ادراكك لجرائمك » ٠

وكان من أهم النقط التى يرتكز عليها الصينيون فى مناقشاتهم الهجوم على الراسمالية ، وتفسيرهم لصور استغلالها ٠ فكان المسجونون يدرسون : مفهوم الاستغلال ، ويوضح لهم حقيقة الفرد الراسمالى ، ومعنى استعباد الشعب واستغلاله ، وكيف يمكن لجماعة صغيرة من الناس أن يستمتع أفرادها بالحياة على حساب الجماهير ، وكيف يحصلون على مالهم من دماء الشعب ، وليس نتيجة عملهم ٠

وتبعت هذه المرحلة مرحلة أخرى امتدت أربعة عشر شهرا استغلت كلها فى اعادة التثقيف ، واستمر فنسنت يحشد كل جهده لتطبيق النظرية الشيوعية على موقفه الشخصى موضحا ادراكا أوسع لجرائمه ٠

ولم تكن اوجه نشاطه اذ ذاك مقصورة على حالته وحده بل أصبح الآن قادرا على نقد الآخرين ، ويعاونهم فى الادلاء باعترافاتهم وفى اصلاح حالهم ٠ لقد صار سجينا مدربا على نظام السجن واخذوا ينظرون اليه على أنه يكشف عن تقدم كبير ٠ والواقع أنه بدأ يصدق الكثير مما يقوله ، وان لم يكن فى أسلوب ميسر عادى ٠

ويصف فنسنت ذلك بقوله :

« قد تبدأ فتصدق كل شيء ولكن فى طابع خاص من التصديق ، فانت لا تعتقد بهذا عن ايمان بل تتقبله لكى تتجنب المتاعب ، ذلك لأنك فى كل مرة تبدى عدم موافقتك تبدأ المتاعب من جديد » ٠

وفى السنة الثالثة من سجنه استدعى من جديد لمراجعة اعترافه ، وكانت وثيقة الاعتراف قد صارت أكثر ايجازا وأكثر اقناعا ، وبدأ يفكر فى الحكم ودرجته مقدرا ذلك من وجهة نظر الشعب على أساس أنها صارت جزءا منه ٠

كان يشعر ان الحكم سيصدر ، وانه سيرسل الى مكان ما غير السجن الذى يقضى فيه فترة انتظار الحكم ، كما كان يفكر فى مدة السجن التى سيحكم بها عليه والتى قد تكون عشرين سنة او خمسا وعشرين ، ثم يتصور أنهم سيرسلونه الى مكان للاصلاح عن طريق العمل ، أو الى مصنع ، أوحقل ٠٠ انهم متسامحون ٠٠ ان الحكومة سخية ، والشعب شعب كريم !

واخطر فنسنت بأن اتجاهه تحسن بدرجة كبيرة ، فنقل الى جناح آخر فى السجن ، واعطى امتيازات لا تقدر بمال ، كالسماح له بقضاء ساعة فى تدريب خارج المبنى مع أوقات اخرى للراحة فى غرفة السجن ٠ ووجد فنسنت نفسه يعيش حياة متناسقة مع آسريه ، وخلال الشهور القليلة الأخيرة من سجنه سمح له : باعطاء دروس فى اللغة الفرنسية للمساجين الآخرين ، والقاء بعض دراسات فى الطب على طلاب يحضرون الى مبنى السجن ، ولم يكن هذا كله دون قصد ، فقد ادرك فنسنت الهدف من ذلك ، اذ ارادوا أن يوضحوا له انهم لا يقفون موقف التضاد من عمله أو من مهنته كطبيب ، وانما هم يقفون موقف التضاد فقط من عقليته الرجعية ، كما كان هدفهم أن يوضحوا له أنهم يوافقون على عمله وانهم يتقبلون نظرياته ٠ لقد كان هدفهم أن يوضحوا له ما معنى أن تعيش بين الشعب كفرد من افراده ، ويثبتوا له أن الحياة بين أفراد الشعب انما هى حياة طيبة دائما ٠

وسرعان ما استدعى ليوقع رسميا على اعترافه بلغته الفرنسية ، وعلى ترجمة للاعتراف باللغة الصينية ، ثم التقطت له عدة صور واخذ له فيلم سينمائى ، وطلب منه بعد ذلك أن يقرأ اعترافه بصوته لتسجيله ، لكى يذاع على نطاق واسع فى ارض الصين ، وفى انحاء كثيرة من العالم ٠

وبعد فترة قصيرة استدعى للمثول امام القاضى ، وتليت عليه الاتهامات التى وجهت اليه ، والتى اعتبر انه قام بها ضد الشعب الصينى ، ثم صدر الحكم بسجنه ثلاث سنوات كانت قد استنفدت كلها ٠ ومن ثم أبعد مباشرة من الصين ، وفى مدى يومين كان فى سفينة انجليزية متجهة الى هونج كونج ٠

ويبدو من قصة الدكتور فنسنت انه كان حصيلة ناجحة « لاصلاح الفكر » ولكنه كان يشعر فى غمرة اضطرابه وخوفه أنه موضع مراقبة مستمرة ، وكانت أعراض « البارونيا » التى ظهرت عليه(١) امتدادا داخليا لما احيط به فى السجن ، ويصف هذه الحالة بقوله :

« اننى اعتقد أن شخصا ما يتجسس على • ان امبرياليا يتجسس على لأننى قادم من العالم الشيوعى ، كما انه يهتم بأن يدرك فيم افكر ؟ وعندما أعمل أى شيء فاننى أحس وكأن شخصا ما يراقبنى بفكره ليعرف ماذا يدور فى قرارة نفسى • لقد دربنا على هذا فى أثناء فترة اعادة تثقيفنا » •

وفى هذه الحالة العقلية يصف فنسنت حالة انفصام الشخصية التى كانت تسود كل تصرفاته :

« عندما تركت الصين كنت أحس هذا الشعور الغريب ، وكنت أهمس لنفسى : اننى ذاهب الى العالم الامبريالى ولن يعنى بأمرى أحد ، سأتعطل عن العمل وسأضيع فى هذا العالم الفسيح ، وسينظر الى كل فرد على أننى مجرم ! على أنه قد خطر لى أيضا أن فى وطنى حزبا شيوعيا وانا قادم من العالم الشيوعى ولا شك ان الحزب يعرف أننى اجتزت مرحلة التثقيف واصلاح الفكر ، ومن ثم فربما يهمه الاحتفاظ بى ، وربمـا يستطيع مساعدتى ومعاونتى ، وبذلك لن أواجه الضياع • سأذهب الى الشيوعيين وآخبرهم من أين جئت وبذلك سيكون لى مستقبل !

ولكن عندما وصلت الى هونج كونج ، تغير الموقف كله ، فقد بعث القنصل رجلا بقارب بخارى لاخذى من السفينة • لقد اهتموا بأمرى وسألونى عن كل ما أحتاج اليه ، وأخبرونى انهم بعثوا برقية الى حكومتى والى أسرتى ، وجاءوا

---

(١) Paranoid وهى مرض عقلى قوامه اعتقـادات خاطئة اما فى هيئـة هذاءات عظيمة واما فى هيئة اضطهاد •• الخ •

بى الى غرفة جيدة الرياش ، واعدوا لى طعاما جيدا ، واعطونى نقودا للانفاق ، لقد أبدى العالم الرأسمالى نحوى أكثر مما كنت أظنه سيفعله » •

وفى كفاح فنسنت للوصول الى جانب من الواقعية كانت ادراكاته الحسية لبيئته الجديدة تتذبذب بين عدة معتقدات ومتأثرة دائما بخوفه وقلقه ، وأخـذ يستعيد وهو فى هذه الحالة الكثير من التعاليم التى تلقاها فى عملية التثقيف الفـكرى •

فمثلا حينما وصل الى هونج كونج قابله أجنبى آخر قادم من الصين ووضعه فى موقف حرج حينما حدثه عن سوء الحال فى شـمالى الصـين حيث يستحيل الحصول على اللحم هناك ، كما أخبره أنهم يستخدمون بطاقات التموين لأن كل شىء يرسل الى الاتحاد السوفييتى ، وقد رد عليه فنسنت بأنه من المحـال أن يكون هـذا صحيحا ، فان الأجنبى يحب دائما المبالغة وهو شخصيا لم يسمع قط عن التموين بالبطاقات فى أثناء وجوده بالسجن ، ثم كيف يحصل الاتحاد السوفييتى على مواد الغذاء من الصين فى الوقت الذى يحقق الاتحاد السوفييتى مثل هذا التقدم ؟ لقد عرضوا عليه فى السجن بيـانات الوجبات الغذائيـة فى الاتحاد السوفييتى من الزبد واللحم ، بل كل ما يشتهيه الانسـان من ألوان الطعام ، وحينما سمع فنسنت أن الغذاء فى الاتحاد السوفييتى ليس كافيـا أصبح فى حيرة وأخذ يسأل نفسه عن الحقيقة •

ومثال آخر وضعه فى موقف مماثل حينما قرأ فى مجلة أمريكية الكثير عن عمليات التطوير التى تجرى فى الولايات المتحدة فى صناعة القطارات الحديدية ، وقد سأل عن هذا مستفسرا فى دهشة لأنهم قالوا له : أن الامبرياليين يعنون فقط بالصناعات الخفيفة لاسـتغلال الشعب ، وأن الصناعات السوفييتية الثقيلة لها مراكز الصدارة فى كل شىء •

على أن فنسنت لم يلبث أن شعر بالقلق وهـو في منتصف الطريق بين سلسلة المقابلات التي تجرى في بيئته الجديدة ، كما بدأ يحس أنه شخص مهمل من المجتمع الذى يعيش فيه • ومن ثم بدأ يقف موقف العداء من كل جديد يراه من حوله ، وهكذا ارتد من جديد الى اتجاهاته السابقة وصار متشككا في الدوافع الخارجية لكل شيء في هذه البيئة الجديدة التي تحيط به ، ويوضح هذا بقوله :

« انني أقرأ كل يوم في صحف هونج كونج أن الأطفال يتلقون اللبن والبيض عن طريق المعونة الامريكية ، ولكنهم قالوا لى في السجن : أن الامبرياليين الأمريكيين يعطون هذه الأشياء للشعوب للتمويه • أنهم يريدون أن يظهروا بمظهر من يهتم بغيره • انني أرى أن هذه في الواقع مسألة سياسية ، ولا شك ان شعورى هذا ليرتبط ارتباطا وثيقا باعادة تثقيفي » •

وصار فنسنت كثير الانتقاد بشكل ملحوظ لكل ما يراه من حوله ، واصبح يتوق دائما الى العودة بكل شيء الى ما قيل له داخل جدران السجن •

اعتراف زائف :

هذه هي الحالة الثانية التي وعدنا بتقديمها على أساس أنها صورة أخرى لعملية توجيه الفكر ، وهي عن الأب فرنسيس لوقا وكان قسا ايطاليا في أواخر الثلاثينيات من عمره ، قضى بين جدران سجن التوجيه في الصين ما يزيد على ثلاث سنوات •

وسنحاول في حالة هذا الأب أن نبرز العوامل : النفسية ، والفسيولوجية التي أدت الى جعله يدلى ببيانات واعترافات زائفة ، وأن نبين الى أى مدى نجحت معه عملية التثقيف •

وسواء أكانت محاولة « اعادة تثقيف » الأب لوقا قد نجحت ام لم تنجح فقد تحول تماما نحو الحياة الصينية ، على الرغم من الآلام والمهانة التي تعرض

لها فى السجن · ولقد كان يحس حسرة حينما ترك أرض الصين بعد السنوات الثلاث التى قضاها فى السجن · وقص على بعض من قابلوه بعد ذلك أنه بكى طويلا حينما غادر أرض الصين ، لأنه أحس أنه لن يجد الفرصة للعودة من جديد اليها ، كما شوهد مرتديا لباسا أسود من تلك التى يرتديها العلماء الصينيون ، وبالرغم من انه كانت تقدم اليه أجود الاطعمة الغربية فى المستشفى الذى كان يعالج به فى هونج كونج بعد ترحيله من الصين فانه ظل يشكو دائما من انه لا يستطيع الحصول على طعام صينى جيد ، وهو الطعام الوحيد الذى يتوق الى تناوله ·

كان الأب لوقا قد عاش فى الصين حوالى عشر سنوات وهو يعمل فى الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يكن اعتقاله بعد حركة التحرير فى الصين مفاجاة له ، فقد سبق أن سمع اتهامات علنية وجهت اليه فى اجتماعات عامة وقيل : أنه يعمل للتخريب ، كما يقوم بنشاط مضاد للشيوعية ·

وكان قد قرر فيما بينه وبين نفسه أنه لو سجن فسيدافع عن كنيسته ولن ينطق بكلمة واحدة غير حقيقية ·

وحينما سأله القاضى عما اذا كان يعرف سبب اعتقاله ؟ أجاب بأنه : اما ان يكون نتيجة سوء فهم ، واما لمسألة لها صلة بالدين ·

وقد اغضبت اجابته هذه قاضى التحقيق الذى أصر على أنه ليس للأمر أى صلة بالدين ، ففى الصين حرية مطلقة للعبادة ، وأعلن أن اعتقاله جاء نتيجة معارضته لمصالح الشعب ·

ولاحظ الأب لوقا من الأسئلة التالية التى راح المحقق يوجهها اليه عن نشاطه فى الصين ، وعن معارفه وأصدقائه فيها ، انه يدور بخاصة حول علاقته بقسيس آخر هو الأب « س » وهو صديق له كان له نشاطه العسكرى والسياسى ضد الشيوعيين موضع نقد الأب لوقا نفسه ·

ومع أن جلسة التحقيق الأولى استمرت ساعة واحدة فقط ، فانها كانت ذات أثر فى تهيئة الأب لوقا لاعترافه فيما بعد ·

« كان يدور فى رأسى سؤال : « بماذا يتهموننى ؟ وكيف سيصوغون هـذا الاتهام ؟ ومع أننى كنت قد بدأت أدرك انهم سيضعون علاقتى بالأب « س » فى مكان الصدارة والأهميـة فاننى لم آكن أعرف كيف سـيوجهون الأمر • وكنت قد سمعت أن الشيوعيين يرغبون الناس فى الاعتراف باتهامات غريبة من وحى الخيال ولا حقيقة لها ، ولكننى اعتزمت ألا أعترف اطلاقا بأى شىء غير حقيقى » •

وبنفس الصـورة كان الأب لـوقا وهو فى سجنه متحديا مناوئا ناقدا لمعتقليه ، ولما وجد رئيس الزنزانة التى نزل بها أنه مستمر فى عناده ، حث زملاءه على « معاونته » وهو اصطلاح يعنى سوء المعاملة •

وفى الليلة التالية من اعتقاله أيقظ من نومه بعنف ، وسئل عن اثنين من مساعدى الأب « س » وقد استطاع أن يذكر الاسم الاول لأحدهما ، ولـكنه قال : انه لا يعرف الثانى ، وهنا أصر القاضى على رأيه بانه من المستحيل أنه لا يعرف اسم المساعد الثانى ومن ثم فهو ليس بأمين ولا بمخلص •

وقد غضب الأب لوقا لهذا التكذيب واصر فى غضب على أنه امين فيمـا يقوله • وانه لا ينطق الا الصدق • واستجاب القاضى بسرعة لغضب الأب لوقا فامر بوضع الاغلال حول ساقيه مع ثقل زنته عشرون رطلا •

ثم عاد فساله نفس السؤال فتلقى نفس الاجابة فصرفه من الغرفة وأمر باعادته الى الزنزانة • وحينما راى رئيس الزنزانة الاغلال حول ساقيه عنفه بقسـوة ، وبعد اقل من ساعة أعادوه الى غرفة التحقيق ، حيث استمر فى اصراره فامر بتقييد يديه بالاغلال •

وفى أثنـاء استجوابه فى الليلة الثالثة شـدد قاضى التحقيق على صلته الوثيقة بالاب « س » وكرر بشدة أنه لابد من أنه كان يعرفه قبـل مجيئـه الى الصين • وحينما أصر لوقا على انه قابله لأول مرة فى بكين ترك القاضى الغرفة •

وكان على الأب لوقا أن يقبع فى ركن الغرفة على الارض وقد مد ساقيه أمامه ، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بجلسته هذه فرجع بظهره الى الوراء وهنا

وقع كل ثقل جسمه على ساعديه المقيدين وراء ظهره ، وعندما وجد أن أغلاله تضغط بقسوة على ساعديه وأحس أن آلامه لا تحتمـل خطرت لأول مرة فكرة الاستسلام والتسليم بكل ما يريدونه منه :

« لقد ذكرت لهم الحقيقة ، ولكنهم لا يريدون الحقيقة ، وخطر لى أن أمامى طريقـة واحـدة للنجـاة وهى أن أخمن ما يريدونه • ومع كل الظروف التى فى حياتى فان الشيء الوحيد الذى يمكن أن يصدقوه هو أن أعود بذاكرتى الى حياتى السابقة فى أوروبا ، ومن الممكن أن أقول : أننى قـابلته هنـاك وهذا شيء غير صحيح ، ولكنه قابل للتصديق » •

وهكذا اجاب الأب لوقا على سؤال القاضى عن التقائه بالأب « س » بأنه قابله فى روما عام ١٩٣٩ •

وسمح له فور هذا أن يقف من جلسته المجهـدة فشعر بتخلص مبـاشر من آلامه وبعد دقائق قليلة أعيد الى غرفة سجنه •

ولكن رئيس غرفة السجن استمر ــ بناء على تعليمات من سلطة أعلى ــ يهجم على لوقا ويتهمه بأنه ليس « مخلصا » وقد أمره بالبقاء واقفا لكى « يتدبر » جرائمـه •

ومر الشهر التالى بالأب لوقا وهو يواجه استجوابا يدور فى حلقة مفرغة كل ليلة ، ويقضى نهاره فى مواجهة كفاح مستمر ضد زملائه فى غرفة السجن الضيقة دون أن يهنأ بلحظة واحدة من الراحة • فقد أبقـاه زملاءه متيقظا : « بالوكز » و « الصفع » و « والقرص » ونظموا هذا الواجب الليلى بينهم حتى يضمنوا يقظته المستمرة ، وقد نتج من وقوفه الدائم تورم قدميه وامتلاء الأورام بسائل مائى • ويذكر لوقا أنه سمح له بالنوم ثلاث مرات فقط ، ويقدر أنه نام لمدة ست عشرة ساعة فقط فى طوال أربعة أسابيع •

وقد تزايد اضطرابه حتى أصبح لا يستطيع أن يفرق بين النهار والليل ، ووجد نفســه تحت ضغط اجهـاد متواصل نتيجة محاولته استخدام ذكائه وحصافته ليدرك ما يتوقعونه منه :

« لقد كانت المسألة في البداية مسألة فضول وحب استطلاع ، ولكن بعد ذلك أصبحت لا أحتمل ذلك ، وكان عقلي مضطربا فخطر لي : لماذا لا أقول تماما كل ما يريدونه مني ؟ صحيح أنه من الصعب أن أتمشى معهم فيما يريدون ، ولكن بعد أسبوعين كان في استطاعتي أن أقول كل ما يريدون ، ولكن هذا بالطبع لم يكن بالأمر الهين السهل » •

وفي هذه الحال النفسية اعترف الأب لوقا بثلاث جرائم رئيسية هي :

- استخدام جهاز لاسلكي نجح في اخفائه ، وأنه كان يرسل منه ويستقبل عليه المعلومات الخاصة « بالجاسوسية » •

- تنظيمه لشبكة من الصبيان الصغار بقصد القيام بأعمال التخريب وتوزيع المنشورات المضادة للشيوعية •

- اشتراكه الايجابي في « شبكة الجاسوسية » التي يقال أنها كانت تحت رئاسة الأب « س » ، بقيامه بأعمال « السكرتارية » لها •

وكانت كل هذه التهم زائفة ومبنية على معلومات مصطنعة في جملتها وفي تفاصيلها • ولكن تطورات الاستجواب له ، والتوترات التي تعرض لها نتيجة التعذيب جعلته يسهب في سرد اعترافات كاذبة ، بل الأدهى من ذلك أنه اقنع نفسه بهذه المزاعم والأكاذيب •

ويصف الأب لوقا كيف بدأ اعترافه عن التهمة الأولى الخاصة بالجهاز اللاسلكي بقوله :

« لقد جاءت الفكرة الاولى عن جهاز اللاسلكي حينما قال المحقق : هناك أشياء أخرى لم تتحدث عنها ، ويجب أن تثق بأن الشعب يعرف الكثير عنها ولا تظننا نجهل ذلك ! فقلت له : أنني أعرف أن هناك بعض الناس يقولون : أن لدى جهاز اذاعة خاص على الموجة القصيرة ، وسمعت بهذه التهمة قبل اعتقالي ، وأخبرته بانه لا حقيقة لهذا كله ــ وحينئذ قال لي : أتقول اذن ما الحقيقة وماذا وضعت في غرفة المخزن بمنزلك اثر التحرير مباشرة ؟

« واجبت بانني لم اضع فيها اى شيء ، وبعد أن فكرت قليلا قلت : قد يكون في الغرفة شيء ما ولكنه ليس راديو • لقد زارني صديق قبل وصول الشيوعيين واستامنني على بعض متعلقاته ، وحاولت أن اذكر اذا ما كنت قد وضعت بعض هذه المتعلقات في غرفة المخزن ، ولكن ذاكرتي لم تكن قوية بالقدر الكافي فقلت : حقا ، هناك بعض اشياء ولكني لا أذكر ! وكنت اعرف كذلك أن صبيا كان يعمل في خدمتي وأنه قد انقلب ضدنا وربما يكون هذا الصبي قد أبلغ عن اشياء وضعت في اثناء غيابي ، ومع انني لم أكن اعتقد انه كان هناك راديو فلم أجرؤ على معارضة ما يقوله القاضي ، وعندئذ سالني :

« هل هو جهاز للاستقبال او للارسال ؟ ولم أكن أعرف الكلمة الصينية للاستقبال او الارسال فاجبت بانه لا هذا ولا ذاك ، ولكن حينما وضح لى المعنى قلت « ربما للاستقبال •• نعم •• وربما كان للارسال ! وفي لحظة واحدة مرت بخاطري الصورة الصحيحة لجهاز الارسال ، ولكني كنت أعرف عن ثقة أن هذا الأمر كله ليس بالأمر الصحيح • كان موقفي موقف الرجل الذي يعيش في حلم وهو في الواقع لا يرى شيئا •

« وبعد ذلك عندما سئلت عن كيفية وصول الجهاز الى يدى ، كان على أن اختلق قصة فقلت : ان صديقي كان قد رحل فتركه لى ، وأن خادما قد عاونني في فكه ، وحينئذ سالني القاضي : لابد من أن يكون قد عاونك في تركيبه أشخاص ممن يفهمون في الأجهزة اللاسلكية ! وهنا ذكرت رجلين احدهما كهربائي يعمل في الكتدرائية ، والآخر صبي صغير كان تواقا الى العمل في مثل هذه الأجهزة • وجاء الجزء الثاني من الاعتراف تابعا منطقيا لكل ما ذكرته من قبل ، اذ فكرت في أنه لو كان لدى شخص ما جهاز لاسلكي فان أسوأ مكان لاخفائه هو أن يضعه في الكتدرائية على اساس أن الشيوعيين يراقبون الكنائس بصفة خاصة ، كما أنهم كانوا دائما يتهمون رجال الكتدرائية باخفاء الرجال الذين يعملون على الأجهزة اللاسلكية في مباني الكتدرائيات • وهكذا قلت : أنني قد وضعته في مكان آخر • ولكنني لا استطيع تذكر اسم الشارع الذي به المنزل المخبأ فيه الجهاز ،

فاصر المحقق على ضرورة ذكر اسم الشارع • فاجبت دون وعى بأن اسمه شارع الجدار الحديدى .Iron Wall St وعندما أخبرنى القاضى فى اليوم التالى أنه لم يجد هذا الاسم على الخريطة • أجبت بأننى ربما لا أذكر اسم الشارع جيدا •

وعند ذلك تصورت أمام عينى منظر طريق ضيق فيه منزل صغير وبه غرفة أمامية تطل على الطريق ووراء هذه الغرفة غرفة أخرى فيها جهاز الارسال •• كانت هذه الصورة الخيالية واضحة لعينى ولكن دون أن اعرف على وجه التحديد ما اذا كان حديثى هذا حقيقيا أم زائفا • لقد كان الأمر بالنسبة لى شبيها بما سمعت عنه من قبل عن كتابة القصص والروايات ، حيث يتخيل الكاتب أشخاصا يقومون بأعمال ويتحركون طبقا لأسلوب معين محكم • وكل هذا بالنسبة لكتاب الروايات يبدو حقيقيا ، ولكنهم يعرفون عن ايمان أن كل ما يتخيلونه لا نصيب له من الحقيقة ولا كيان له فى الوجود الفعلى ، ولكن الامر بالنسبة لى كان بمثابة حقيقة واقعية ، وان كنت فى الواقع لم أنس تماما أن المسألة كلها غير صحيحة » •

ولقد اقترح عليه زملاؤه فى غرفة السجن بعض الاقتراحات التى تساعده فى مسايرة تطور الأمور ، فاوحوا اليه ان يقول : أنه قد ارسل رسائل بواسطة الجهاز اللاسلكى كما استقبل به بعض المعلومات • وهكذا بدأ الامر تدريجيا يضم أشخاصا آخرين بعضهم من رجال الدين ، وبذلك اصبح اولئك الذين اشركهم فى الأمر يمثلون شبكة كاملة متعددة الأطراف ، واستطاع لوقا وهو فى هذه الحالة النفسية أن يتوهم قيام منظمة للجاسوسية ، ومن ثم اخترع أسماء كما اخترع بعض التفاصيل •

اما عن الموضوع الثانى ـ موضوع حلقة الصبيان الذين يقومون بأعمال الهدم والتقويض ـ فقد تضمن الأمر مواجهة شخصية •

فبعد أسبوع سأله القاضى عن صبى صينى معين، فأجابه بصراحة أن اسمه ليس معروفا له وعندئذ جيىء بالصبى فى مواجهته وأصر على عدم معرفته ، ولكن الصبى قال له : أنه يعرفه كما أنه طلب منه أن يكتب نشرات ضد الشيوعية •

وبدأ على لوقا نوع من الحيرة والتردد ، فهو فى الواقع يتولى شئون الف صبى فى الأسقفية • وهو لا يستطيع ان يذكر اسماءهم جميعا •

وهنا قال القاضى له : أنه غير مخلص ، وأعاد القيود الى يديه ثانية ، ثم أمره بالجلوس على الأرض فى هذا الوضع المؤلم ، وتركه حتى أعياه الاجهاد فاعترف بأنه يعرف الصبى •

وفى ضوء مثل هذا الاستجواب وعلى أساس المقترحات التى كان زملاؤه فى غرفة السجن يقدمونها له بين الفينة والفينة • بدأ الاعتراف فى جملته يأخذ طابعا معينا • فقد فهم أنهم يتهمونه بأنه قد حرض صبيا على كتابة عدة شعارات معادية للشيوعية ، كما حرضه على قذف مصابيح الاضاءة بالأحجار •

وجاء المزيد من المقترحات ، وراح رئيس غرفة السجن يقول له : « لقد قلت : انك فعلت ذلك فلا بد من ان تكون قد فعلت أكثر مما قلت ، ولا بد من أن تكون قد حرضت صبيانا آخرين فتذكرهم » • واخيرا امكن ان يأخذ اعترافه طابعا مجسما فأدلى فى اعترافه الجديد بأنه كانت هناك منظمة فيها خمسة وعشرون صبيا بقصد القيام بأعمال التخريب وكتابة نشرات مضادة للشيوعية •

وفى مسألة منظمة الأب « س » واجه لوقا وهو فى غرفة السجن ضغوطا من زملائه ، وقد ادى ذلك الى تطوير النقاط التى كان اعترف بها الأب لوقا فى جلسات التحقيق السابقة • ويصف لوقا ذلك بقوله :

« وفى غرفة السجن قال لى زملائى : حسنا لابد من أن تكون قد فعلت شيئا من أجل الأب « س » ! فاجبت : ان هذا مستحيل فقد جئت لتوى الى الصين وكنت لا اعرف شيئا عن الموقف ، ثم اننى لم أكن اعرف اللغة الصينية ! فيقولون : أنت لا تعرف اللغة الصينية ولكنك تعرف عدة لغات اجنبية ! واعترفت باننى أعرف حقا عدة لغات • وهكذا جاء الاقتراح عن الشيء الذى يمكن أن استطيع القيام به من اجله •• فليكن عملا كتابيا •• وما استطيع ان افعله • يمكن أن أكون قد فعلته فعلا • وتذكرت ان الأب « س » قال مرة أمامى : أن له

عما فى سويسره وأنه تعرف على سيدة عجوز تقيم هناك ، ومن ثم يمكن ان أقول أننى قد كتبت نيابة عنه بعض الرسائل لهذا العم ولهذه السيدة العجــوز ، وهكذا قلت : أننى قد كتبت هذه الرسائل نيابة عنه وأرسلتها الى سويسره •

« وعادوا يقولون : لقد قلت : انك لم تشترك بأى عمل فى منظمته ، والآن تقرر أنك كتبت بضع رسائل نيابة عنه ، وهذا عمل يوجد صــلة بينك وبين منظمته والآن ماذا هو لقبك ؟ الرجل الذى يكتب مثل هذه الخطابات لمنظمة ماذا يقال له ؟ ما لقبــه ؟ ولم يفسروا لى شيئا ، ولــكن المعنى الذى يقصدونه كان واضحا • ان مثل هذا الرجل يقال له « السكرتير » ، ولذا كان من الضرورى ان أتقبل لقب « السكرتير » •

« ولم أكن أصدق قط أننى كنت سكرتيرا للأب « س » ولا لمنظمته ، ولكن كان عقلى قد بدأ يضطرب ، وشعرت بأنه من المستحيل أن انقض أو أفنــد اسلوبهم الجدلى » •

* * *

والواقع أن تصورات الأب لوقا الزائفة اختلفت فى مداها من لحظات عابرة الى فترات اختلفت بين أسابيع قليلة أو شهور ، وتداخلت فى بعضهــا البعض كما يتداخل الحلم •

وبالرغم من حالة الأب لوقا المضطربة ، فانه ظل يكافح ضد أى خيــانة لولائه للكنيسة الكاثوليكية ، فقد قام قاضى التحقيق بالضغط عليه محاولا جعله يعترف بعلاقة الكنيسة بالنشاط الامبريالى للحكومات الغربية ، وحينما رفض أن يقوم بذلك أعيد الى وضعه الأول بالجلوس على الارض ، وقد عقــدت ذراعاه خلف ظهره ، ثم أوضح له قاضى التحقيق ما يريده منه :

« اننى لا أطلب منك أن تندد بالدين ، بل أتوقع منك فقط أن تدرك أن الامبرياليين استخدموا الدين غطاء وستارا لغزوهم للصين » •

وهكذا تحت ضغط التعذيب ، وفى غمرة هذا التوضيح اعترف الأب لوقا بأن الامبرياليين استخدموا الكنيسة الكاثوليكية ستارا لغزوهم للصين •

ولكن فى قرابة نهاية الشهر الاول كانت حالة لوقا البدنية والعقلية قد بدأت تنهار • كان التعفن قد بدأ يظهر فى ساقيه المتورمتين من ضغط السلاسل والأغلال ، وازداد اضطرابه نتيجة صعوبة احتفاظه بتفاصيل اعترافه متمشية مع بعضها البعض ، اذ ان أى جزء مصطنع من هذه الأقوال كان يتطلب المزيد من الاصطناع لدعمه •

وفى يوم ما أصدر القاضى أوامره باطلاقه من اغلاله ونزع السلاسل من ذراعيه ، ثم امره بأن يذهب الى غرفته لينام نوما هادئا لمدة يومين كاملين ، وان كان لم يغفل أن يخطره بانه لا يزال غير راض عن اعترافه ، حاثا اياه على أنه بعد هذه الراحة الطويلة يجب أن يعود بمادة صالحة تدعم كل اقواله السابقة •

وهكذا عاد لوقا الى غرفته ، وبرغم الاجهاد والاعياء الذى كان يعتريه فان مخاوفه حالت دون أن يغمض عينيه الا للحظات قصيرة •

على ان هذا التساهل أو الملاينة لم تعاون لوقا على اضافة اى جديد الى اعترافه ؛ فحينما استدعى بعد عدة ليال قليلة لمقابلة المحقق سأله القاضى « هل تعتزم أن تكون مخلصا ؟ » وأجاب لوقا : « أننى أود أن أكون مخلصا ومطيعا ، ولكننى لا أعرف الوسيلة فهل يمكن أن ترشدنى لها ؟ » وأجابه القاضى بانه سيوضح له السبيل وسيرشده الى الطريقة • واذ ذاك استدعى القاضى بعض الحراس الى الغرفة وتركهم فيها مع الأب لوقا وانصرف بعد أن أغلق الباب وراءه .

وبدأ الحراس ايذاء الأب لوقا ، وحينما تركوه قرابة الفجر كان فى حالة أعياء شديدة ، ومصابا بسحجات فى عموده الفقرى ، وبعد نحو ساعة دخل الغرفة شاب صينى فى مقتبل العمر لم يره لوقا من قبل ، واخذ يحدثه باللغة الايطالية بصوت خفيض وبنبرات هادئة عميقة ، وكانت هذه أول مرة يسمع فيها الأب لوقا كلمات بلغته الايطالية منذ اعتقاله • وعاون الشاب الأب لوقا وجعله يحس الراحة والهدوء مترفقا به ، ثم بدأ يحدثه ويناقشه فى التفاصيل التى جاءت فى اعترافه وخاصة ما جاء عن الأب « س » •

وقد تأثر لوقا بهذا العطف الانسانى ، اذ كانت طريقة الشاب فى توجيه الاسئلة موضوعية ودون تحيز ، ثم أنه يتحدث بلغته ولذا كان من السهل عليه أن يعترف • وهنا قدم لوقا صورة دقيقة نسبيا لكل هـذه الحوادث ، صورة تختلف تماما عما جاء فى اعترافه الاول ، ولكنه لم يضف شيئا مصطنعا بدرجة كبيرة • وبعد قرابة الساعتين بدأ يظهر على لوقا الالم والاعياء فانصرف الزائر •

ولما ظهر ان الأب لوقا لا يستطيع أن يسـير على قدميه حملوه الى غرفة الزنزانة على « نقـالة » وقد عرف فيمـا بعد أنه استجوب بواسـطة « سـجين موظف » أى سجين وصل الى درجة متقدمة من الاصلاح الفكرى ، وتوافرت له الخاصيات التى تمكنه من أن يكون أحد موظفى السجن • وقد تأثر لوقا بهـذا اللقاء حتى أنه فى كل فرصة تالية حينما كان يشعر بأى صعوبة فانه كان يطلب مقابلة هذا السجين الموظف الذى يتحدث اللغة الايطالية •

وفى ذلك الوقت عرض على الطبيب الذى أكد له مخاوفه من أن عموده الفقرى قد كسر ، ولكنه أكد له أيضا أنه سيشفى بعد وقت غير طويل •

* * *

وكانت الشهور التالية مجهدة بصفة خاصة ، فمن الناحية الصحيـة كان خائر القوى يعتمد على زملائه بغرفة السجن فى كل احتياجاته ، وكان كل العلاج الطبى الذى تلقاه حتى ذلك الوقت لا يتعدى بعض التمرينات الرياضية التى يؤديها بساقيه ، ولم يعاونه أحد حينما يشعر بحاجته الى التبول أو التبرز ، وكانت حالته الصحية لا تمكنه من السيطرة على العضلات القابضة مما أدى الى بلل ثيابه ، وتصاعد روائح كريهة فى غرفة السجن فزادت غضب زملائه واخذوا يكيلون له النقد المر •

وبالاضافة الى هذا فان بقاء لوقا طريح الفراش قد أدى الى حدوث أكثر من قرحة فى ظهره وفخذيه وأصابع قدميه ، وقد عولجت هذه فى البداية علاجا أوليا بواسطة الايودين وبعض المطهرات ، ولكن بعد أن أثار هذا العلاج اعتراض زملائه بسبب الروائح التى تنبثق من القرح تلقى علاجا افضل بالضمادات وحقن البنسلين •

وقد بذل لوقا كل جهد لاستعادة طاقته البدنية ، وبعد فترة قصيرة بدا يحرك أصابع قدميه ، وبعد ثلاثة أشهر استطاع الجلوس ، وبعد عام كامل كان يستطيع الوقوف مستندا الى الجدار ولكنه لم يستطع أن يسير الى دورة المياه الا بعد خمسة عشر شهرا من يوم اصابته ٠

ولقد عاونه زملاؤه في أداء التدريبات الرياضية في البداية ، ولكنها كانت معاونة خشنة حتى انه صرخ مرة من الالم صرخة عالية سمعها أحد موظفي السجن وأسرع من فوره لاستكشاف السبب ، ومنذ تلك اللحظة لم يقدم له زملاؤه في الفرقة أي مساعدات ٠

* * *

وفوجىء الاب لوقا بعد ثلاثة أشهر من اصابته وأربعة أشهر من اعتقاله بزائر لم يتوقع مجيئه اليه في غرفة السجن ، وذلك هو قاضي التحقيق الذي جاء ليعلنه باتجاه درامي مضاد لاعترافاته السابقة ٠

لقد قال له القاضي : ان اعترافه يبدو في جملته مضطربا غير دقيق ، وقدم له بعض الأمثلة على ذلك فمثلا بالنسبة الى « ل » ـ وهو رجل صيني زعم لوقا انه رئيس منظمة للجاسوسية ـ تحققت السلطات من انه لا يعرفه ولم يره بتاتا ، وبعد ذلك حث القاضي السجين على ألا يعود لاسلوبه في الانكار ، ثم أردف قائلا : « وفي هذه المرة لا تقل غير الحق وحده » كما أخبره كذلك أنه سينقل الى غرفة أخرى حيث تتوافر له امكانيات أكثر للكتابة ٠

وقد صدم لوقا بهذه السخرية الواضحة في كلمات القاضي ، فمنذ وقت ليس ببعيد أدى تردده في الاعتراف بعلاقة اجرامية مع الصيني « ل » الى تقييده بالاغلال ٠ والآن احس درجة كبيرة من السرور اذ بدا له في الافق فرصة ليوضح الامور ويخلص نفسه من عبء استمراره في سرد أكاذيب ، وزاد أمله حينما رأى الجو الافضل الذي يكتنف الغرفة الجديدة اذ لاحظ أن زملاءه في الغرفة بعض الناس ممن لهم اعتبارهم ٠

ولكن هذا الشعور بالامل لم يلبث أن تبدد عندما بدأ يدلى بانكاره للجرائم الثلاث الرئيسية التى سبق أن اعترف بها ، وأخذ يعطى بيانات أكثر دقة عن نشاطه ٠

وقد حالت صحته وضعف أسلوبه الكتابى باللغة الصينية من كتابة الاعتراف بنفسه ، ولكن رئيس الغرفة الجديدة رفض كتابة هذا الاعتراف الجديد ، كما رفض منه هذا النكوص فى اعترافه ، وصرح له بأن هذا يدل على أنه ليس صالحا من الناحية النفسية لكى يعد مادة اعترافه ٠

وأصبح لوقا فى حيرة أكثر من أى وقت مضى ، وقد أخبره القاضى بأنه يجب ألا يذكر شيئا غير حقيقى ، وحينما بدا يدلى بأقواله الصحيحة اعتبرها غير كافية ، ولم يسمح له بكتابة أقواله ٠ وهكذا انتابت لوقا غمرة ألم نفسانى واضطراب فكرى ٠

وتبع ذلكالعودة معه الى المعاملةالانتقامية من جديد : فمنالهجوم عليه بلاذع القول ، الى وضع الأقلام الرصاص والأصابع والعصى أسفل ذقنه الى الضغط على عنقه ، وشد أذنيه بقوة، وهكذا بدا له ان محاولة ذكر الحقيقة لم تخلصه من محنته .

* * *

وأخيرا بدا للوقا أنه لابد من أن يجد وسيلة ما لحل مشكلته ، فخطرت له فكرة أن يذكر الحقائق فقط مع عرضها فى طابع اجرامى ٠

وأثر هذا مباشرة وفى خضم حركة واسعة النطاق شملت كل من فى السجن من المعتقلين ، وجد لوقا نفسه يستكمل كل نواحى هذا الاتجاه الجديد ٠ وبتراكم الضغوط عليه للاعتراف ، ومع مشاعر التنافس من جانب المسجونين والمعتقلين للاعتراف وجد لوقا نفسه يكافح ، وفى نفس الوقت تجرفه تلك المشاعر الجماعية نحو تجسيم الحقائق ٠

ومنذ ذلك الوقت والى بقية مدة سجنه اخذ لوقا يجسم المسائل الحقيقية ٠ ويجعل من « الحبة قبة » ، فصبغ قصة عن شبكة الجاسوسية

بحوادث مثل المحادثات مع فتيات صغيرات من الجماعة الدينية التى يشرف عليها ، وكذا الاحاديث والتعليقات التى تبادلها مع زملائه عن الموقف العسكرى والسياسى فى الصين ابان الحرب الاهلية . وبهذه الوسيلة استطاع أن يبنى سلسلة اخاذة من الاعترافات ، فمن : « نقل معلومات عسكرية » الى الأب « س » الى نقل « معلومات سياسية واقتصادية » الى « الامبرياليين » فى هونج كونج ، الى الاشتراك فى « نشاط رجعى » عن طريق « لجيون مريم » ، وهى منظمة كاثوليكية سرية كان الشيوعيون الصينيون يعارضونها بقوة . واضاف الى هذا كله الكثير من الجرائم التى لم تكن فى حقيقتها أكثر من تجسيم وتجريم لنشاطه الحقيقى .

وبدا استجابة للضغوط المستمرة يملى اعترافه على زميله فى غرفة السجن ، ثم بدا فيما بعد يكتب بنفسه تقريرا اضافيا طويلا عن مدة اقامته فى السجن يغطى من ناحية عامة « سلوكه » بالصورة التى تجعله « سلوكا سيئا » . وحينئذ أخذ رئيس الغرفة ينظر اليه كرجل يمكن أن يعتمد عليه ، واخذ لوقا يحس الحاجة الى أن يقدم مزيدا من المادة الى اعترافه .

* * *

وقد تضاعف هذا الحس بعد أن مرت السنة الأولى به فى السجن . فقد حدث أن أعيد تنظيم السجن بالقدر الذى جاء معه بسياسة جديدة اكثر اعتدالا[1] .

وعلى الرغم من أن الاساليب التى اتخذت ضد لوقا داخل غرفة السجن كانت صادرة من سلطات رئيسية ، الا أنه وجه لوم عنيف الى رئيس الغرفة لتشجيعه هذا الايذاء البدنى ، ثم نقل هذا الرئيس بعد ذلك وكل من فى الغرفة الى أماكن أخرى وجىء بمسجونين جدد للاقامة مع لوقا فى زنزانة واحدة .

---

(١) حدث هذا التجديد فى سياسة السجن فى سنة ١٩٥٢ و ١٩٥٣ وقد منعت بعض الاجراءات المتطرفة ولا سيما تلك التى كانت تجرى داخل غرف السجن ، وقد حرم فى بعض السجون أن يناقش المسجونون قضاياهم مع زملائهم واحتفظ بالادلاء بالاعترافات لجلسات التحقيق فقط ، ولكن مع هذا استمر اسلوب اعتراف السجين بجرائمه فى غرفة السجن اثناء عملية « اعادة التثقيف الفكرى » .

ولم يتعرض الاب لوقا بعد ذلك للضرب ولا للضغط البدنى من أى نوع ، ولكن الرئيس الجديد بدأ يمارس معه نوعا من الالحاح المصحوب بالمطالب النفسية ويقول الاب لوقا عنه : « وبالرغم من عنايته بجسمى لابرائى من علتى فانه كان مسيئا لى من الناحية المعنوية ، اذ كان هذا الرئيس الجديد يجمع المسجونين من حولى مرتين كل يوم لعقد جلسة لمناقشة « أفكارهم السيئة الرديئة » ثم يلح على لالعن وأجرف نشاطى الكنسى » ٠

وهنا بدأ لوقا يفيض فى الهجوم على تفاصيل كل أوجه نشـاطه الكنسى ونشاط زملائه مبررا هذا النشاط على انه « اعمال رجعية » ٠

ولاسبوعين لم يفعل الاب لوقا أى شيء عدا كتابة مادة عن نفســه وعن الآخرين ، فاعترف لاول مرة بانه نظم هو وآخرون من رجال الدين شـــفرة للتراسل بها واستخدموها بصفة خاصة فى بريدهم لاخطار اصدقائهم واقاربهم فى اوروبا بسلامتهم ، وليعطوا لهم صورة بالحال العامة للكنيسة المسيحية فى الصين ٠ وبالرغم من أنه امتنع عن ذكر هذا ابان فترة اضطرابه الاولى فى الشهر الاول لاعتقاله بل حتى فى حالة الترفق به اثر اصابته ، فانه لدهشته جاء الآن ليعترف بذلك ، ولدهشته أيضا لم يهتم القاضى بهذا الاعتراف الجديد الا قليلا ، ومع هذا فقد اسف فيما بعد عندما اكتشف بعد اطلاق سراحه أن أحد رجال الدين الذين زج بهم فى اعترافه قد اعتقل ٠

وبدأ الأب لوقا يحس ان جهوده تشجع ، فقد جاءه قاضى التحقيق مرة ثانية لزيارته فى غرفة السجن ، وفى هذه المرة كان اكثر توددا وعطفا عندما أكد له أن له كل الحق فى أن ينكر أى اتهام غير عادل ٠ ولكن بالرغم من هذا بقى لوقا يواجه مزيدا من التوتر العاطفى لشهور تالية ، وقد وصلت المشكلة الى ذروتها حينما وجه اليه النقد بالنسبة لعقيدته الدينية ، وقد عارض بقوة ما يقوله رئيس الغرفة من أنه كان يستخدم الدين كمجرد غطاء يخفى نشاطه فى أعمال الجاسوسية ٠

واجاب لوقا بعنف : « ليس الدين بغطاء ولا بمعطف كما تقول فان الغطاء شيء يمكن أن تنزعه ، ولكن بالنسبة لى فانك اذا أردت أن تاخذ منى عقيدتى الدينية فانه يجب أن تنتزع قلبى وأن تقتلنى » •

وهنا قال له رئيس الغرفة : انه وان كان قد تحسن من نواحى كثيرة فان غضبه هذا لهو نوع من السلوك السيىء الذى يجب ان يذكره فى نقده لنفسه •

* * *

وقرابة السنة الثانية من سجنه بدأ يعمل فى وثيقة اعترافه النهائى ، وقد قيل له فى البداية أن يكتب هذا الاعتراف بلغته ثم يلخص النقاط الرئيسية منه ، ثم طلبوا منه بعد ذلك أن يترجمه بنفسه الى اللغة الصينية •

وبعد ذلك جيء به ليمثل أمام قاض جديد على مستوى أعلى من القاضى الاول ، ومر اسبوع قاس فى استجواب عنيف ، وبمعاونة القاضى الأول ، وبمعاونة السجين الموظف الذى يتحدث اللغة الايطالية كتب لوقا اعترافا بحوادث لم تحدث فعلا ، ولكنه تصور أنها حقيقة •

وفى الثمانية عشر شهرا التى قضاها لوقا بعد ذلك فى السجن ركز برنامج الدراسة فى السجن على تحليل نشاط الكنيسة فى الصين ونقده ، وقد قرر لوقا أن أساقفه معينين كانوا منحرفين فى نشاطهم السياسى والعسكرى فى الصين ، كما اعترف أنه قد انتقد هذا العمل من جانب بعض زملائه حتى قبل اعتقاله ، ولكنه فى نفس الوقت أصر على أن الغالبية العظمى من رجال الدين كانوا معنيين فقط بنشاطهم الدينى ، ولقد قيل له : أن اتجاهه هذا ليس تقدميا لانه لا يضع فى الحسبان مبدأ « المسئولية الجماعية » •

وفسروا له مبدأ « المسئولية الجماعية » بقولهم :

« لو أن أحد أفراد اسرة ما ارتكب خطأ فان هذا الخطأ هو خطأ الاسرة كلها ، واذا فعل أحد رجال الدين بعض اخطاء ثم لم تقفه السلطات العليا فى الكنيسة فان الخطأ يعتبر خطأ السلطات العليا للكنيسة » •

وعنـــدما حاول لوقا ان يشير الى الخير الذى تقوم به الكنيسة فى معالجة المرضى ومعاونة الفقراء قيل له :

« ان ذلك ليس الا صورة للمعونة الامبريالية اذ أن هؤلاء المرضى والفقراء وغيرهم من الصينيين انما يوجهون بذلك الى الاعتقــاد بان الخير انما ينبعث من الاجانب ، وبذلك يكون دفع الناس الى هذا الاعتقاد عملا من أعمال الدعاية لخدمة أغراض الامبرياليين » •

وبالمثل عنــدما حاول لوقا تمشيا مع نقده لبعض تصرفات بعض زملائه من رجال الدين الذين كانوا يتعالون فى حيــاتهم متباعدين عن عامة الشعب الصينى ، مشيرا الى أنه كان يتكامل مع الحياة الصينية ويعيش كمــا يعيش الصينيون ، قيل له : أن سلوكه هذا يعتبر أسوأ من سلوك زملائه الذين يوجه اليهم النقد ، اذ انه بهذا السلوك كان يخدع الشعب الصينى •

وقد استمر فى مواجهة الآلام النفسية كلما نوقشت معه المسائل الدينية ، وكان يوصف دائما لاتجاهه غير الصحيح بأنه : « عنيد » أو « ذاتى الاتجاه » وان آراءه متخلفة ، ولكنه بدأ يكبت كل ما يحسه من مشاعر داخلية وأخــذ يعبر عن نفسه بحرص وحذر وبصورة تتمشى مع وجهات النظر الصينية ما أمكن • وفى نفس الوقت أغرق نفسه فى خضم البحث عن « الحقيقة » وعن « منطقية » الحقائق التى يعرض لها فى مناقشــاته حتى التى يغفل فيهــا عن « تجسيم » التفاصيل •

* * *

ولما اعتبر أنه حقق بعض « التقدم » فى قرابة نصف العام الثالث من سجنه نقلوه الى مبنى آخر أكثر نظاما وأكثر تحررا ، وكان يسمح له بقضاء بعض فترات فى الفناء الخارجى ، ومنح حرية الذهاب الى دورات المياه ، وقلت الى حد كبير القيود الخانقة التى كان يعيش فيها فى سجنه الاول • وهنا كان واجبه الرئيسى أن يدلى بافكاره الحقيقية ، وكانوا يوجهون اليه النقد المرة بعد الاخرى لانه لا يذكر آراءه الحقيقية ، ولذا فان هذا الاهتمام كان يزعجه لأنه كان يشعر أن أقواله صحيحة •

وحتى فى فترة « التحسين » هذه ، لم يكن لوقا متحررا تماما من كل علائم الاضطراب النفسى ، وقد قاسى من الاضطراب العصبى العام ومن الارق وعندما اعترف اجابة على سؤال من زملائه فى الغرفة بانه يؤدى الصلاة فى أثناء الليل ، نصحوه بالا يفعل ذلك لان هذا هو الذى يسبب له الارق والسهاد ٠

وقبيل اطلاق سراحه بما يقرب من تسعة شهور واجه ما اعتبره خاتمة المطاف فى خيانته ، فقد أمره القاضى أن يكتب خطابا الى احدى الفتيات الصغيرات اللاتى كن يعملن بجهد ونشاط فى « جماعة مريم » يخبرها فيه بأن هذه الجماعة « منظمة رجعية يتولاها جواسيس » وأنه لا شىء فيها يمت الى الدين بصلة ، وانها يجب أن تعترف للحكومة بكل « نشاطها الرجعى » ، وقد حذروه وبينوا له أن مستقبله يتوقف على الكيفية التى يكتب بها هذا الخطاب ٠

ولقد كتب لوقا هذا الخطاب بعد ضغط وبعد صراع نفسى ، فكتب المشروع الاول للخطاب ، ولما كان قد ذكر فيه بعض ما قامت به « جماعة مريم » من أعمال دينية فقد رفض هذا المشروع ٠ وأخيرا كتب لوقا الخطاب فى صورة ارتضاها القاضى ، فذكر للفتاة : أنه قد خدعها هى وزميلاتها عندما دفعهن للانضمام للجماعة ، وأنه مخطئا عندما طلب منهن « مقاومة الحكومة » ، وأوضح أنه فعل هذا « لصلاته بالامبرياليين » ٠

ولم يكن خطابه هذا يختلف كثيرا عن الطلب الذى طلبوه منه ، ولكنه لم يذكر فى خطابه « أن جماعة مريم لا تمت للدين بصلة » وقد جعله هذا يشعر بنوع من الانتصار ، ولكن الحادثة فى جملتها كانت مصدر ألم كبير له ، وأحس فى قرارة نفسه أن أولئك الفتيات كن أصلب عودا منه ٠

وكانت هناك ظواهر على أن مدة سجن لوقا قد تنتهى فجأة وفى موعد قريب مثل ظهور غرباء آخرين فى غرفة سجنه وبعض رجال الدين الآخرين ، ثم حثه على سرعة اعادة كتابة اعترافه وترجمته وتلخيصه بمعاونة صديقه السجين الموظف ، وكذلك تنبيه الاجانب الى طلب استحضار أمتعتهم الخاصة من الارساليات التى يتبعونها ٠

على أن اعترافه اقتصر في النهاية على مجرد نقطتين اثنتين فقط : علاقته بالأب « س » ونشاطه في « جماعة مريم » ، فبالنسبة للامر الاول كانت مسألة الجاسوسية لا تزال هي المحور الرئيسي ، أما في الاخير فقد ركز على تفاصيل التكوين التنظيمي وعضوية الهيئة • وكان اعتراف لوقا دقيقا الى حد انه لم يشتمل الا على حوادث واقعية ، وان كان قد شوه فقط في التفسير لهذه الحوادث • وعندما انتهى الاعتراف الى صورته النهائية استدعى لوقا الى غرفة خاصة حيث التقطت له عدة صور وسجل الاعتراف وهو يقرأه بصوت مرتفع عال •

وفي الاسابيع الاخيرة لسجنه قام لوقا بما يعتبر أكبر درجة من التعاون مع معتقليه ، اذ علاوة على ما اضافه من تفاصيل جديدة عن المقاومة التى قام بها ضد الحكومة أثناء عمله في جماعة مريم بدأ يساهم بدور ايجابي في معاونة اثنين من المسجونين الجدد للادلاء باعترافهما ، وقد شعر في قرارة نفسه بعدالة ما يقوم به نحو هذين المسجونين •

ومرت جلسات التحقيق الاخيرة في جو من الالفة والمودة ، وهنا قال له القاضي : « ونحن بدورنا نعرف أننا قد ارتكبنا بعض الاخطاء بالنسبة اليك ، ولكن حينما تسافر من هنا يجب أن تظل على اعترافك بما ارتكبت من أخطاء ، ويجب ألا تبالغ فيما يجرى لك ، ويجب أن تدرك أننا في البداية لم تكن نستطيع السيطرة على كل ما يجرى في السجون ، ولقد كان لدينا بعض أناس سيئو التصرف ، ولكن قد توقف الآن كل ايذاء وضرب مما يوضح أن سياستنا الحقيقية ليست سيئة بالقدر الذى يمكن أن تبدو به ، حتى ولو قدرنا فقط ما جرى لك في العام الاول من سجنك » •

وأجاب لوقا بانه لاحظ فعلا هذا التحسين في الاجراءات •

وفي احدى المقابلات بلغ الأب لوقا لاول مرة أنه سينفى من الصين ، وقد جاء التاكيد الرسمي بعد هذا بدقائق قليلة عندما أخذوه لمقابلة قاض ثان قرأ عليه نص الحكم الرسمي في قضيته •

كانت جرائمه قد خفضت الى ثلاث فقط هى :

• تقديم معلومات عسكرية الى الأب « س » •

• نشاطه فى جماعة مريم •

• تقديم المعلومات الى الامبرياليين فى الخطابات التى كان يرسلهـا من الصـين •

واحس لوقا مشاعر متضاربة بالنسبة لنتيجة قضيته ويصف ذلك بقوله :

« والواقع اننى شعرت ببعض الراحة ، فقد رأيت ان كل شىء وصل الى نهايته ، ولم يعد من سبيل الى انفعال جديد ، ولكننى فى نفس الوقت احسست ان هذه الخاتمة ليست طيبة فى جملتها ، فلست اريد أن أترك عملى فى الارسالية ، ولست أرغب فى ان احرم لقاء الكثيرين من الاصدقاء الذين أتركهم ورائى فى أرض الصين او أحرم متابعة اتصـالى بهم ، وأحسست كذلك أن كل هذه الاقوال التى جاءت فى اعترافاتى الاولية قد سحبت واستبعدت ، ولكن القضية فى جملتها لم تصل الى درجة اسقاط الاتهام عنى » •



الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى

تحدثنا فى الفصل الاول من هذا الباب عن دور الأيديولوجيات بصفة عامة فى معركة المعتقد ، حيث اتضح لنا بعض الصراعات التى قامت بين الناس فى الازمنة المختلفة من أجل هذه الايديولوجيات ، كما تبين لنا الى أى مدى كان المعتقد عاملا اساسيا فى هذه الصراعات .

والآن سنحاول ان ننظر الى الموضوع من زاوية أخرى لنرى كيف يمكن أن يحدث تحول فى الافكار داخل أيديولوجية واحدة .

ولقد اخترنا لذلك ، موضوعا شغل العالم اجمع ، ولا يزال يتتبع أحداثه ، وهو الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى .

على اننا نود أن نلفت النظر الى ان الهدف من هذا الفصل لا يرمى الى نقد سياسى ، او تحليل موضوعى شامل ، ولكننا نريد أن يتفهم القارىء الدوافع الكامنة وراء هذا التحول ، ومدى الصراع الذى يحرك هذا التحول .

* * *

لقد تساءل الناس كثيرا عما ذا كانت هذه الثورة : صراعا من اجل السلطة، او صراعا حول من يتولى الخلافة ، أو أنها صراع أيديولوجى يقوم به الزعماء أنفسهم لاعادة تشكيل عقول الشعب ولاشعال حماسة واظهار أهمية الثورة .

كما قال البعض أيضا : أن هذه الثورة الجديدة ما هى الا تعبير بصـورة هائلة لحالة التذمر ضد ماوتسى تونج وحكمه ، وانه اذا كان هناك صراع من أجل السلطة ، فان ذلك الصراع كائن بين ماوتسى تونج وبين هؤلاء الذين يتحـدون مركزه وآراءه ٠

لقد اطلق الصينيون انفسهم على تلك الحركة الجديدة اسم « الثورة الثقافية » اى حركة أيديولوجية : لاعادة تشكيل عقول الشعب، ولاستئصال أولئك المنحرفين والبورجوازيين ، والمناهضين للحزب ، والمعارضين لمبادىء ماوتسى تونج ، وهؤلاء الذين يعملون على اعادة البورجوازية للصين ٠

أما الدارسون الفاحصون لشئون الصين ـ وهم فريق العلماء ورجال الفكر الذين يدرســون الصين بالتلسكوب والميكروســكوب ؛ فانهم قد قدموا تلك التفسيرات وتفسيرات أخرى للتطورات الجارى وقوعها فى الصين ٠

ولو القينا نظرة ثابتة الى الاحداث الجارية فى الصين ونظرنا اليها على أنها كل ، لكان من الصعب على المرء أن يؤيد أية نظرية أو تفســير من التفســيرات الســابقة ٠

والواقع انه كان هناك نقد كثير للزعامة الصينية فى : كتابات المؤرخين الصينيين ، وفى مسرحيات كتاب المسرح ، ومقالات الصحفيين منذ سنة ١٩٦١ ٠

وقد يعجب المرء كيف فات السلطات والباحثين المتخصصين فى دراسة الصين أن يفهموا مغزى تلك الكتابات طيلة هذه السنين ٠

على انه من جهة أخرى فان الانتقادات التى وجهت للزعامة كانت قد أحيطت بسياج كبير من الصمت ، لدرجة أننا لا نستطيع اعتبــار تلك الظاهرة موجة متدفقة من التذمر ٠

اما فيما يتعلق بمركز ماوتسى تونج نفسه ، فليس هناك ظل من الشك فى أن بعض الشخصيات الهامة لابد من أنها اختلفت معه ، ونادت بسياسة مختلفة ، أو طالبت بتأكيد أهمية نواحى معينة فى سياسة الدولة .

ولكن من المبالغة أن نقول : انه كان هناك خطر ما يهدد مركزه وسلطته مما جعله مضطرا الى تنظيم حملات الاصلاح هذه ، وعمليات التطهير حتى يحتفظ بسلطته . ولا يزال ماوتسى تونج ـ بالطبع ـ الرجل الذى يقود الدفة فى الصين ، وهو الذى نظم الحملات والكفاحات الحالية لا للاحتفاظ بسلطته ولكن لكى يضمن لعمله الثورى ولقوة آرائه ومبادئه أن تعيش من بعده ومن بعد الجيل الذى يعاصره .

* * *

والواقع أن ماوتسى تونج كان ولا يزال يحس قلقا ازاء مستقبل الثورة فى الصين ، وازاء الحماس الثورى فى نفوس جيل الشباب .

وهو يأمل فى أن يورث « التناسق الكامل لافكاره » لا للجيل الحاضر والمقبل فحسب ، بل للاجيال اللاحقة لشعب الصين الكبير .

ومن ثم شنت المعركة الايديولوجية الكبرى الاخيرة لصياغة المفاهيم الجديدة، ولكى تضمن اشتعال نار الثورة وتفكير ماوتسى تونج الى الأبد فى عقول الجماهير الصينية .

ولقد نشرت جريدة « الشعب » الصينية مقالة افتتاحية بتاريخ ١ من يوليو ١٩٦٦ بعنوان « تحيا أفكار ماوتسى تونج » ، وذلك بمناسبة العيد السنوى الخامس والاربعين للجنة المركزية للحزب الشيوعي وجاء فى هذه المقالة : « ان الحركة التى قام بها مئات وآلاف من العمال والفلاحين والجنود لدراسة مؤلفات الرئيس ماوتسى تونج لهى دراسة حية . انها حركة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ . انها حركة لنشر المبادىء الماركسية اللينينية بصورة لم يسبق لها مثيل . لقد صارت الصين البلد الواسع الارجاء الذى يضم ربع سكان العالم

مدرسة واسعة لدراسة الماركسية ـ اللينينية ، وأفكار ماوتسي تونج ، فاذا توافر مئات الملايين من الناس المسلحين بافكار ماوتسي تونج ، واذا توافر ملايين من الناس يخلفونه في حمل لواء قضية البروليتاريا الثورية وهم مسلحون بافكار ماوتسي تونج ـ فاننا عندئذ سوف نكون قادرين على تنفيذ الثورة الاشتراكية حتى النهاية ، وسوف نمكن بلدنا من تحقيق الانتقال ـ تدريجيا ـ من الاشتراكية الى الشيوعية ، وسوف نساهم بقسط وافر مع ذلك في انجاح الثورة العالمية » ٠

هذا هو ما يراه الصينيون فيما يحدث في الصين هذه الايام ، وهو تنفيذ برنامج واسع المدى للتلقين في صورة نضـال أيديولوجي ، وهو أيضا تدريب ملايين الافراد الذين يخلفون ماوتسي تونج على مواصلة العمل الذى قام به وهو ضمان الروح الثورية والعظمة القومية للصين ٠

* * *

فاذا قلنا هذا ، فاننا أيضا لا ننكر وجود صراع من أجل السلطة يستعر في الصين هذه الايام وهذا الصراع ملازم لصراع أيديولوجي ضخم ٠ ولقد كتبت جريدة الشعب الصينية في مقال افتتاحي عام ١٩٦٤ بعنوان « خلق ملايين الخلفاء للثورة وتدريبهم » وتقول : « انه لابد من أن تكون نواة الزعامة على كل المستويات في الحزب والدولة من الثوريين الحقيقيين في طبقة البروليتاريا ، وانه لابد من اختبارهم وفحصهم في مجال صراعات طبقية قاسية معقدة » ٠

والثورة الثقافية تفعل هذا تماما من أجل نواة الزعامة ، مختبرة اياهم في حوض المعمودية الذى يلتهب بالنيران ٠ ومن الطبيعي فان أكثر أتبــاع ماوتسي تونج ولاء واخلاصا هم الذين يمرون بالتجربة بسلام ، وهم حتما سوف يكونون نواة الزعامة على كل المستويات بما في ذلك المستويات العليا : في الحزب ، والدولة والقوات المسلحة ٠ ومعنى هذا فان « الثورة الثقافية » ما هي الا كفاح من أجل السلطة ومن أجل الخلافة ٠

* * *

ولكى نقـدر الطبيعة الايديولوجية لتلك التطورات حق قدرها ، علينـا أن نسـترجع عقـائد ماوتسى تونج ومفهومه عن الثورة والصراع الطبقى • ان ما يحاول ماوتسى تونج أن ينفذه فى امسية حياته ليست آراء جديدة ، بل هى آراء طالما كان ينادى بها •

ففى مستهل عام ١٩٤٧ قال ماوتسى تونج : « ان الثورة فى الصين سوف تكون مستمرة مستمرة » طويلة الاجل • وفى عـام ١٩٤٩ وحتى قبل النصر النهائى فى الحرب الاهلية ، كان ماوتسى تونج قد حذر بأن النصر سوف يخلق ميولا وطبائع معينة فى الحزب مثل : الصلف ، والغرور ، والكسل ، وحب اللهو ، وتجنب الحياة الكادحة المتواصلة ، وكان ماوتسى تونج يريد تجنب تلك الاخطاء •

وأكد أن النصر فى الحرب الثورية ما هو الا مقدمة قصيرة لمسرحية طويلة • ان تلك المسرحية الطويلة هى مسرحية « الثورة المستمرة » التى تمثل على مسرح الاحداث فى الصين هذه الايام •

* * *

وهناك علاقة وثيقة بين مفهوم ماوتسى تونج عن « الثورة المستمرة » وبين مفهومه للصراع الطبقى فى المجتمع الاشتراكى • وهذا ايذان بتعديل ــ ان لم يكن تخليا عن المبادىء التى كان قد دعا لها ماركس وانجلز •

كان ماركس وانجلز قد تخيلا أن الصراع الطبقى سوف يختفى عندما تنفذ الثورة وعندما يقوم مجتمع لا طبقى • وكان لينين قد عدل من هذه النظرية الى حد ما عندما تحدث عن « التناقضات » فى المجتمع الاشتراكى •

ولكن ماوتسى تونغ طور النظرية الحالية عن الصراغ الطبقى بطريقة منظمة وجعلها جزءا لا يتجزأ من الماركسية ــ اللينينية •

وقال فى تقرير له عام ١٩٥٧ بعنوان « الطريقة السليمة لمعالجة التناقضات بين الناس » : « ان الصراعات الطبقية الصاخبة التى تشنها الجماهير على نطاق واسع ـ وهى الصراعات التى تميزت بها الفترات الثورية ـ قد انتهت ٠ ولكن الصراع الطبقى لما ينته تماما » ٠ وهو يرى أن تلك الصراعات سوف تستمر بين أربعة أو خمسة أجيال قادمة : بين العمال والفلاحين ، بين المدينة والريف ، بين العامل اليدوى والعامل الذى يعمل بذهنه ، وان هذه الصراعات سوف يطول مداها ، بل سوف تكون معقدة ومرهقة وحادة » ٠

وتحدث ماوتسى تونج أيضا عن طريقة معالجة الصراع الطبقى ، وعن التناقضات بين الناس فقال : « نحن لا نستطيع اجبار الناس على تقبل الماركسية ، كل ما نستطيع عمله هو اقناعهم ٠ من واجبنا أن نعارض طريقة ضرب كل شخص حتى يموت » ٠ فالتعليم والمحاجاة والاقناع والتلقين تلك هى الوسائل المتبعة لاقناع الناس على تقبل الماركسية ٠

* * *

ولكن يبدو ان ماوتسى تونج ـ بجانب معتقداته الايديولوجية الملازمة له ـ قد تأثر تأثرا كبيرا من الدروس التى تلقاها من الثورة المجرية عام ١٩٥٦ ، ومن خلافاته المذهبية مع الاتحاد السوفييتى ٠

فهناك اشارة فى الأدب السياسى الصينى الى المحاولات التى بذلها رجال الفكر فى المجر لاحداث حركة ثورية مناهضة ٠ وفى الواقع أنه بعد قمع التمرد فى المجر ظل الزعماء الصينيون يشيرون بأصبعهم الى الاخطار التى تنجم عن نقص الاتصال الايجابى بين الحزب والجماهير ، ونظروا الى الاتحاد السوفييتى على أنه « مثال سلبى » بالنسبة لجميع الثوار وبناء الاشتراكية ٠

وتذهب انتقادات الصينيين للمثال السوفييتى أبعد من مجرد الاعتراض على « شيوعية خروشوف المنحرفة » بل تؤكد تلك الانتقادات وجود نواحى نقص أساسية معينة فى أسلوب ستالين ، بل فى أسلوب ماركس وانجلز ٠

فمثلا نادى شن يى CHIN - YI برأى يقول : « أن ستالين ساهم فى عملية التدهور وذلك لانه شجع الصناعات والتكنولوجيا من غير ان يحل مشكلة الزراعة ٠ فلم يتخذ اجراءات لازالة الآثار الراسمالية البائدة السيئة فى اذهان رجال الفكر ٠ لقد كان متسرعا عندما أعلن أنه لا يوجد صراع طبقى فى روسيا ولم يدرك ان هناك احتمالا لوقوع تغير تجاه الراسمالية » ٠

واضاف شن يى : « أن ماركس وانجلز لم يتنبأ بهذا التدهور الرأسمالى للاشتراكية » وقال شن يى أيضا : « اننا نحاول ازالة هذه الفوارق : بين العمل اليدوى والعمل الذهنى ، بين المدينة والريف ، وبين الفلاحين والعمال » واضاف الى قوله بصراحة : « سوف نحاول ازالة الطبقة الفكرية » ٠

وبالرغم من ذلك فان المرء يميل الى الشك فى ان ما يدور هذه الايام فى الصين هو عملية « ازالة » رجال الفكر ٠

وفى خطاب مشهور لماوتسى تونج عن عمل الدعاية القاه فى مارس عام ١٩٥٧ ، أشار الى صفة عدم الاستقرار والثبات الكامنة فى رجال الفكر وقال : « لو أن المرء اعتقد أن هؤلاء الذين يعلمون الآخرين لا يحتاجون أنفسهم الى تعليم ، ولا يحتاجون الى مواصلة الدراسة، ولو اعتقد المرء أن الاشتراكية هى مجرد اصلاح الناس الآخرين ـ اصلاح ملاك الاراضى ، والرأسماليين، والمنتخبين الافراد ، وان ليس من واجبها اصلاح رجال الفكر أيضا ـ لو اعتقد المرء هذا لكان مخطئا » ٠

* * *

والحملة الحالية لا تهدف ـ من الجائز ـ الى ازالة الفكر كما قال شن ، ولكن هدفها اصلاحهم وجمعهم على صعيد واحد مع جماهير الشعب ، وضمان صب كل رجال الفكر فى المستقبل فى القالب البروليتارى الثورى السليم ٠

وتجرى حركة اصلاح حاليا فى نظم اللحاق بالجامعة والمدارس ، وفى نظم الامتحانات ، والقوانين الجديدة التى تنص على اجراء اختبار سياسى لكل من يريد

اللحاق بالكليات والجامعات علاوة على التغيير الشامل فى نظم الامتحانات كلها : هذه الحركة تهدف الى منع ظهور طبقة من رجال الفكر منفصلة ـ طبقة معزولة عن تاريخ وقيم الفلاحين والطبقة الكادحة « البروليتاريا » ٠

* * *

ومصـدر آخر للخوف الذى يعتمل فى أذهان الزعماء الصينيين هو تلك التنبؤات التى جاءت على ألسنة ساسة الغرب ٠

وتقول تلك التكهنات : انه لو لم يتيسر الوصـول الى توافق مع الجيلين الاول والثانى من الصينيين فقد يكون من الممكن الوصول الى هذا التوافق مع الجيلين الثالث والرابع ٠

ولقـد رفض الصينيون باحتقار تلك اللفتات الاخيرة من جانب الولايات المتحدة ـ اللفتات التى ترمى الى الرغبة فى التوافق والتفاهم ٠

ويعتقد الصينيون ان التعايش السلمى الذى ينـادى به « المستعمرون » ما هو الا استراتيجية تستهدف افساد المجتمعات الاشتراكية ويريد ماوتسى تونج أن يتأكد ان انهيار الثورة ـ الامر الذى يتوقعه وينتظره الغرب ـ لن يحـدث فى الصين ٠

ومنذ عـام ١٩٦٢ مرت بالصين موجات من حملات الاصـلاح الموجة تلو الموجة ٠ والسبب فى تلك الحملات هى الاحداث التى وقعت فى الفترة ما بين عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢ ـ وهى الكوارث الطبيعية التى أصابت البلاد ، ونواحى الفشل الاقتصادى والنزاع الصينى ـ السوفييتى ٠

ولابد من أن هذا الفشل قد ترك آثاره فى الداخل فقد نشأ عنه حركة تذمر داخلية ، وحركة معارضة لزعامة الحزب ٠

وفى الدورة العاشرة الكاملة للجنة المركزية للحزب الشيوعى سنة ١٩٦٢ فكر ماوتسى تونج فى اتخاذ اجراءات بعيدة المدى لمواجهة الميول البورجوازية المناهضة للحزب ٠

وشنت حملة تعليمية اجتماعية فى الفترة ما بين سنة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ وكان الهدف من الحملة هو تلقين جماعى لجميع الاشخاص الكبار البالغين ٠ وكانت الحملة تتضمن : الغـاء الرتب فى الجيش ، والتعلم من حملة جيش التحرير ، والحملة الاولى فى السياسة ، والحملة من أجل دراسة مؤلفات ماوتسى تونج ، وحركة الجمع بين العمل والدراسة ، والحملات لتدريب خلفاء الثورة ٠

كل هـذا مهد الجو « للثورة الثقافيـة » التى جمعت أطراف كل الحملات السابقة وأدمجتها فى حركة واحدة شاملة واسعة المدى ٠

* * *

ولكى نفهم هذه الحركات فهما جيدا يجب أن ندرس الحملة التى قامت من اجل خلق الملايين وتدريبهم على أن يكونوا خلفاء للثورة ٠ لقـد نشرت جريدة « الشعب » الصينية فى مقال افتتاحى فى ٣ من اغسطس عام ١٩٦٤ « أن العمل العاجل أمام الصين هو أن تورث الثورة من جيل الى جيل ، وأن تقوى نواة الزعامة على كل المستويات » ٠

وجاء فى المقال الافتتاحى : « ان نواة الزعامة هى التى تحدد الاتجاه أمام تقدم القضية الثورية ، وأن نجاح القضية الثورية كلها يعتمد كلية على حقيقة هى : « هل تحتوى تلك النواة على عناصر بروليتاريا ثورية حقة أم لا » ٠

وجاء فى المقال أيضا : « اننا عندما نختار الخلفاء وتدربهم يجب أن نركز الاضواء على أفراد من عائلات اصلها من العمال والفلاحين الفقراء ، والفلاحين من الطبقة المتوسطة او الدنيا ، وانه يجب أن نظهر اهتماما كبيرا باختبارهم وفحصهم فى صراعات طبقية عنيفة معقدة ، وانه يجب أن ينظم الموظفون على جميع المستويات والشباب الثورى حتى يساهموا بدور وبطريقة مخطط لها فى الحركات الثورية

الجماهيرية ، وأن يتحمل الزعماء العبء الاكبر فى توجيه الصراعات الثورية فى كل الجبهات علاوة على تحمل مسئولية خلق الخلفاء وتدريبهم » •

هذا هو ما تحاول الثورة الثقافية أن تحققه فهى تحاول توجيه صراع طبقى بازالة : العناصر المناهضة للحزب ، والعناصر البورجوازية ، والعناصر المنحرفه . وفى نفس الوقت اختيار نواة الزعامة ـ النواة التى تعتمد عليها جميع المستويات فى الحزب وفى الدولة •

والفكرة الرئيسية التى تغذى الحركة الحالية فى الصين هى أعطاء الاسبقية والاهمية للنواحي السياسية على المهنية ، وللايديولوجية على الخبرة والخلق •

وهـذا لا ينطبق على الحزب والقوات المسلحة فحسب ، بل ينطبق على : المزارع ، والمصانع ، والجامعات والكليات ، والمدارس فلا يكفى الآن أن يكون المرء « مطلعا وعقائديا وخبيرا » ، ولكن من واجب المرء أن يكون عقائديا اكثر منه خبيرا •

* * *

وألقيت الاضواء على تلك النقطة بالذات عندما شنت الحملة التى هدفت الى أن تؤكد : أولوية السياسة ، وزعامة الحزب فى القوات المسلحة •

فقد هاجم « هسياو هوا[1] » HSIAO HUA فى خطابه المشهور فى المؤتمر السياسى العام لجيش التحرير فى يناير عام ١٩٦٥ ، تلك الفكرة التى دعا اليها البعض وهى أن للمسائل العسكرية والمسائل السياسية تتساويان فى الاهمية ، وانه من الواجب اعطاء الاولوية لكل منهما بالدور طبقا للظروف • • •

---

(١) « هسياو هوا » هو مدير الادارة السياسية العـامة لجيش التحرير • ويحتمل ان يكون من ضمن من طهروا اخيرا ، ولكن هذا لا يقلل من قيمة تلك الاقتباسات التى اقتبست من خطابه وهى تمثل آراء « لين بياو » LIN PIAO وقالت جريدة « جيش التحرير اليومية » فى مقال افتتاحى يكشف عن اعمال التطهير الأخيرة فى الجيش : ان الذين كانوا قد وافقوا صراحة ولكنهم عارضوا سرا تعليمات الرفيق لين بياو التى تضع السياسة فى المقدمة ، وانهم تحدثوا عن اعطاء الأولوية للسياسة ، ولكنهم فى حيز الممـارسة اعطوا الاعتبارات الاولى للشئون العسكرية وللاعمال الفنية والمتخصصة ، ولا بد من أن هسياو كان فى حديثه مؤيدا لين بياو ، ولكنه لم يكن كذلك فى حيز التنفيذ •

وعارض « هسياو » هـذا الرای وقال : « أن الشئون العسكرية ما هی الا جزء ، ولكن الشئون السياسية هی كل ، وأن الصلة بين الشئون السياسية والعسكرية هی الصلة بين القائد وبين من يقودهم » .

واضاف هسياو : « اننا لا نخشى العـدو مهما كانت قوته ، ولا نخشى الاسلحة مهما كانت شدتها ـ هذا فيما يتعلق بالجيش الثورى ـ ولكن ما نخشاه حقا هو : التدهور السياسى ، والانفصال عن الشعب ، ونزع السلاح الفكرى ، وبدرجة أقل روح القتال عن طريق التخاذل .

« ولهذا السبب يجب أن نعطى الاولوية للسياسة ، وأن نعزز عملية الفكر السياسى ، وأن نسلح عقول القادة والرجال بافكار ماوتسى تونج ، وبهذا نضمن ان تكون الزعامة للحزب وأن تكون له السيطرة على القوات المسلحة أكثر الاجهزة التنفيذية اخلاصا لتنفيذ سياسة الحزب ، وأفضل أداة مدربة فى يد الحزب » .

وليس من الضرورى أن يعنى هذا أن الكفاية العسكرية ليست أمرا هاما ، ولكن يعنى أن قوة الجيش الصينى تقوم اساسا على طابعه الثورى لا على تفوق الاسـلحة ، وهـذا له صـلة بالصراع الايديولوجى من ناحيـة ، اذ أن دعاة « الاحتراف » فى القوات المسلحة لابد من أنهم كانوا يؤيدون الاسلحة والمعدات المتفوقة التى لا تستطيع الصين الحصول عليها الا بالتخلى عن سياستها فى النزاع المذهبى مع الاتحاد السوفييتى .

ويدل اختفاء لو جوى شنج LO JUI CHING (١) رئيس هيئة أركان حرب الجيش من المسرح السياسى على أنه كان واحدا من هؤلاء الذين أكدوا أهمية « الاحتراف » ومن الجائز أيضا أنه كان له دور فى الصراع من أجل السلطة فى الصـين .

---

(١) نائب وزير الدفاع ورئيس اركان حرب الجيش الذى اصبح اهم قائد عسكرى فى الصين منذ يناير ١٩٦٥ ـ عضو سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى وكان احد نواب رئيس الجمهورية .

وتشير الدلائل الى ان « لين بياو » وزير الدفاع الصينى نجح فى فرض زعامته على الجيش ، بل فرض زعامة ماوتسى تونج بافكاره على الجيش أيضا ٠

ولقد ظهر لين بياو أيضا لا كمترجم لماوتسى تونج وافكاره فى القوات المسلحة بل كمترجم لتلك الافكار للشعب كله ، وفى هذا الصدد تدل دعوة هسياو بان من واجب الجيش : « ان يكون أكثر الاجهزة المنفذة اخلاصا لسياسة الحزب ، والاداة المدربة فى يد الحزب » و « أكثر الاداة مسئولية فى الحزب » تدل هذه الدعوة على أن ما يفعله لين بياو لا يهدف فحسب الى اخضاع جيش التحرير للحزب بل الى ابرازه على انه طليعة الحزب ، وافضل أداة فى يد الحزب ، بل اقوى بوق ينطق بافكار ماوتسى تونج ٠

ولذلك فانه يبدو أنه فى الوقت الذى خضعت فيه المسائل العسكرية من الوجهة الرسمية للحزب فان الجيش تحت قيادة لين بياو صار قوة سياسية فى الصين لا عن طريق ابراز تفكيره العسكرى بل عن طريق اضطلاعه بدور « أكثر الادارة مسئولية » للحزب اى لماوتسى تونج ٠

وصار هذا أكثر وضوحا بعد صدور المقال الافتتاحى فى أول اغسطس عام ١٩٦٦ فى جريدة « الشعب » بمناسبة العيد السنوى التاسع والثلاثين لجيش التحرير ٠

لقد جاء فى المقال : انه نظرا لظروف جديدة فقد القى ماوتسى تونج على عاتق جيش التحرير مهام جسيمة ، وأنه طالبه بأن يكون مدرسة كبيرة للثورة ، وأن البلاد كلها ـ المصانع والكوميونات والمدارس والمنظمات الحكومية الخ ـ يجب أن تكون مدارس ثورية مثله ٠ وكل هذا له مغزى هام بالنسبة للصراع من أجل السلطة فى بكين ٠

* * *

وهناك خلافات فى اعطاء تفسير دقيق لمفهوم سيطرة السياسة ، واتضحت تلك الخلافات فى التعليقات التى ابداها فريق من جيش التحرير فى مقال افتتاحى فى جريدة « الشعب » بعنوان « السياسة لها الاسبقية » والذى نشر فى ١٤ من أبريل عام ١٩٦٦ ٠

فبينما أكدت جريدة « الشعب » ضرورة البدء بالناحية السياسية فى ادارة الشئون : العسكرية ، والزراعية ، والصناعية ، والمالية ، والتجارة ، والثقافة ٠ والتعليم ، والعلم ، والتكنولوجيا ، وكل أنواع العمل ، فانها أبدت رأيها فى ان من واجب الثوار أن يكونوا « على وعى سياسى » و « خبراء محترفين » فى نفس الوقت ، وأن السياسة يجب أن تعبر عن نفسها فى العمل ، وانه « لا توجد حياة سياسية ليست على صلة بالعمل » وأن « اتقان العمل من شانه اعلاء مركز السياسة ، ووضعها فى الصف الاول » ٠

* * *

ولقد أجرت بعض الكادرات القيادية فى السلاح الجوى بجيش التحرير الشعبى مناقشة حول هذا الموضوع ، وظهر تقرير عن هذا فى الجريدة اليومية لجيش التحرير فى ١٧ من مايو عام ١٩٦٦ تحت عنوان : « ان وضع السياسة فى المقدمة مسألة يجب أن تنفذ فى الثورة الايديولوجية » ٠

وكانت النتيجة التى انتهت بها المناقشة فى جيش التحرير السياسى : « هى ان الآراء التى عبرت عنها جريدة الحزب آراء حمقاء » ٠

وقالت : « ان وضع السياسة فى المرتبة الاولى ليس من اجل تنفيذ العمل بصورة سليمة فحسب ، ولكن من اجل غرض أهم هو ـ بناء جيشنا حتى يصبح جيشا بروليتاريا على جانب كبير من القدرة على القتال ، حاملا لواء الثورة البروليتارية حتى النهاية ، ولتحقيق الشيوعية فى أنحاء العالم أجمع » ٠

وقال التقرير أيضا : « انه خلال الربع الاول من هذا العام لم ينفذ التدريب العسكرى الا نادرا ، ولكن اهتمام السلاح الجوى كان مركزا على التعليم السياسى» •

واضاف التقرير ـ الذى يرى أن الانســان أكثر أهمية من التكنيكات ـ قوله : ـ انه فى حالة رجل الطيران ، فانه لا يستطيع فهم تكنيكات الطيران فهما جيدا اذا لم تكن لديه صلاحية من الناحية الايديولوجية • وحتى ولو استطاع التحليق فى السماء فانه لن يتجاسر على مقاتلة العدو ، وسوف ينتهى به الامر الى الهزيمة » •

وانتهت المناقشة الى نتيجة هامة هى : « ان ما يمجد الآن فى الحملة الحالية ليس العمل مهما كان متسما بالخبرة الفائقة ، ولكن ما يمجد هو روح الشعب ، لان هذه الروح تدفع الشخص الى تجاوز عمله العادى وبذل التضحية الفردية والجماعية » •

وهذا توضيح لمفهوم ماوتسى عن « القنبلة الذرية الروحية » للصين ـ أى طاقة الملايين الملهمة أيديولوجيا والمنظمــة سياسيا ، تلك الطاقة التى تواجه التحــديات التى تجابه الامة ، والتى تحقق انجازات عظمى فى وجه المصــاعب والاخطار •

ومن الطبيعى أن يكون المثقفون ورجال الفكر هم اول الضحايا فى هذه الثورة الثقافية البروليتارية ، فلقد تعرض : الكتاب ، والصحفيون ، واساتذة الجامعة وفوق كل هذا جميع الموظفين فى ادارة الدعاية فى الحزب لحملة التطهير التى شنت على نطاق واسع فى بكين نفسها ، وفى الاقاليم •

ولقد عزل لوتنج يى LU TUNG - YI مدير ادارة الدعاية فى الحزب ونائبه شويانج CHOU YANG من منصبيهما ، وكانا عضــوين فى اللجنــة المركزية وعزل من منصبه كذلك نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة •

وكان سبب الهجوم على شويانج موقفه المضاد لآراء ماوتسي تونج عن الأدب والفنون في الثلاثينيات ، ولانه اتبع منذ ذلك الحين ما أطلق عليها « السياسة السوداء » في الفنون .

وفي جيش التحرير تاثر بحركة التطهير لوجوى شنج LO JUI CHING وبعض نوابه في هيئة اركان الحرب ، وأحد نواب وزير الدفاع ، وعدد من كبار المسئولين في الادارة السياسية العامة .

* * *

وتتجاوز الاتهامات الموجهة الى رجال الفكر مسائل تتعلق بالنقاء العقائدي . فقد تحدثت جريدة « الشعب » في مقالها الافتتاحي في اول يوليو عام ١٩٦٦ عن جماعة مناهضة للثورة هاجمت الحزب والاشتراكية وآراء ماوتسي تونج ، ثم تسللت الى الحزب والحكومة والجيش والادارات الثقافية ، ويقال ان هذه الجماعة حاولت سلب السلطة في الحزب والجيش والحكومة ، وانها كانت تنوى تدبير انقلاب مناهض للثورة ، وانها بذلت جهودا للوصول الى مراكز مرموقة لاعداد العدة لاستعادة الراسمالية ، ولانجاز انقلاب مناهض للثورة .

* * *

والواقع أن الحملة الحالية عملية تطهير وازالة للعناصر الخطيرة ، وهي في نفس الوقت علاج اجتماعي وقائي على نطاق واسع . وتعلق على تلك النقطة آنا لويز سترونج ـ اخصائية الدعاية الامريكية للشيوعية الصينية ـ في أحد خطاباتها الاخيرة من الصين بقولها : « ان الصينيين لاحظوا أن جميع الثورات في الماضي كان لها ردود افعال ـ بعد ذلك ـ ردود أفعال سلبتها كثيرا من مكاسبها .

« فقد حدث هذا مع الثورات : البريطانية البيوريتانية ، والفرنسية ، والامريكية ، والروسية ، ومن الممكن ان تحدث للصين أيضا .

« ان ما يحاوله ماوتسي تونج الآن هو محاولة تجنب انعكاس الثورة في الصين ، وهذه الحملة الجماعية التي تصل في قوتها الى قوة البركان المتفجر هي حملة يقودها ماوتسي تونج شخصيا كهدية منه للثورة التي قادها لمدة تزيد على ٤٠ عاما ٠

« ان في كفاح ماوتسي تونج طابع البطولة وكذا صورة تستحق الرثاء ، فكفاحه يهدف : الى ربط الاجيال المتعاقبة بتفكيره ومبادئه ، والى جعل التاريخ يسير على الطريق الذي شقه وخططه بيديه » ٠

* * *

وبينما نرى ان تغيرا أيديولوجيا في طريقه الى الوقوع في الصين ، وأنه امر لا يقبل الشك ، فان الصراع من أجل السلطة ومن أجل الخلافة هو أيضا جزء متضمن حتما في هذا التغيير الايديولوجي ٠ وعلى اى حال ، ففي دولة تحكمها دكتاتورية البرولبتاريا طبقا لمبدأ المركزية الديمقراطية ، فان مستقبل الحزب ، والثورة ، والبلاد مسائل غير منفصلة عن مسالة الزعامة ٠

وفي أثناء هـذا فان عمل ماوتسي تونج لن يقتصر على تعليم الجماهير ، أو تطهير صفوف الحزب ورجال الفكر ، ولكنه سوف يفكر في اختيار من يخلفه ، أو من يخلفونه ٠

* * *

وعملية الاختيار تلك ، لابد من أن تتضمن صراعا على السلطة في القمة ـ وطرد بنج شن Peng Chen (١) ، لوجوى شنج ، هذه كلها دلالات على المناورات

---

(١) عمدة بكين وعضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب ٠

والصراع من أجل السلطة ، تلك المناورات التى تجريها جماعة أرادت التخلص من منافسين خطرين ، ولكن كل تلك المنـاورات تحـدث داخل اطار « الثورة الثقافية » ٠

فقد ذكرت جريدة « الشعب » فى مقالها الافتتاحى الصادر فى اول يوليو تحت عنوان « تحيـا أفكار ماوتسى » ذكرت لاول مرة منذ شهور أسماء زعماء الصين بهذا الترتيب : ليو ـ شاو ـ شى ، شوين ـ لاى ، لين بياو ، تونج ـ هسياو ـ بنج ٠ ولكنها أشارت اليهم على أنهم زعماء يعترفون بآراء ماوتسى تونج وبتفكيره على أنه مساهمة خلاقة أصيلة لليلينية والماركسية ٠

وهذا يدل على أن الولاء لافكار ماوتسى تونج هو المسـألة الرئيسية فى مسألة الخلافة وأن الجولة الاولى فى الصراع من أجل السلطة قد تكون انتهت ، وانه قد تم اقامة توازن ـ قد يكون غير ثابت الاركان ـ بين زعماء القمة الاربعة ٠

ومن بين هؤلاء الاربعة ، سافر شواين لاى فى زيارة ايديولوجية هامة الى البانيا ، وقد أولت الصحافة الصينية تلك الزيارة أهمية كبرى على صفحاتها ، وبهذا أكدت مركزه فى قمة السلطة . أما ليو ـ شاو ـ شى الذى التزم الصمت فقد القى خطابا هاما عن فيتنام فى ٢٢ من يوليو اكد به أيضا أنه لا يزال فى مصاف القادة الكبار الذين يسوسون البلاد ، بالرغم مما تردد عن تعرضه للهجوم والنقد، ولقد وردت اخيرا أنباء تفيد بأنه قام بعمل منشور يعلن فيه ولاءه لماوتسى تونج ولين بياو ، ويعتذر عما بدر منه ، ويتردد أنه قد يبعد عن مناصبه فى القريب ٠

أما لين بياو فقد اتسم عمله بالنشاط وهناك أدلة كثيرة على أهميته ٠ أما تنج هسياو بنج فقد وجهت اليه اخيرا اتهامات بالانحراف ومحاولة استغلال منصبه فى الحزب ٠

أما فيما يتعلق بشواين لاى فان دائرة الصراع تبدو مقصورة على محاولته الاحتفاظ بمنصبه الحالى أكثر منها محاولة سلب السلطة العليا •

ولقد تكهن البعض بأن أول خليفة لماوتسى تونج سوف يكون ليو ـ شاو ـ شى ولكنه سوف يكون زعيما « لسد الفراغ يشارك السلطة مع آخرين يتولون السلطة الحقيقية » •

وهناك نقطة نستطيع بها أن نعارض مثل هذا الترتيب ، وهى انه اذا كان ماوتسى تونج يقود ويوجه الحملة الحالية لضمان المستقبل البعيد المدى للثورة ، فانه لا يمكن أن يوفق ـ فى نفس الوقت ـ على ترتيب مؤقت « زعيم لسد الفراغ » على مستوى القيادة العليا •

وعلاوة على ذلك فان ماوتسى تونج يرى أن زعيم الحزب الشيوعى يجب أن يكون هو الشخص الذى يتولى السلطات الحقيقية ، لا أن يكون رئيسا رمزيا تحركه شخصيات أخرى من وراء الستار ، هذا الا اذا كان الاختيار قد وقع على اقرار نظام القيادة الجماعية بعد ماوتسى تونج •

ومن بين الرجال الاربعة ، تتركز الاضواء على لين بياو فى الصين هذه الايام • وتشير كل الدلائل الى انه زعيم الحزب فى المستقبل • ولكن هناك احتمال يستبعد تولى لين بياو السلطة • ذلك ـ انه جندى محترف ـ والتقليد الشيوعى السائد هو أن الزعامة تكون من المدنيين ، وبالرغم من ذلك فقد حدث فى الصين تداخل الى حد ما بين الادوار العسكرية والمدنية نتيجة للمسيرة الطويلة والحرب الاهلية الطويلة مع تأكيد دور حرب العصابات • وقد حدث أن تولى بعض قواد الجيش مناصب هامة فى الحزب •

وخلال العامين الأخيرين ظهر لين بياو كالمفسر والمترجم لأفكار ماوتسي تونج وكان هو صاحب الفكرة التى دعت الى سيطرة الحزب على القوات المسلحة والى دراسة جميع مؤلفات ماوتسي تونج ، وهى حملة نموذجية موضع التقدير فى كل الصين •

وأوضح لين بياو أيضا بالتفصيل مفهوم ماوتسي تونج عن «الثورة العالمية» فقال : ان أمريكا الشمالية واوروبا تمثلان المدن فى حين ان افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية تمثل الريف ، وعلى ذلك فالثورة العالمية يجب أن تبدأ من القارات الريفية الثلاث ثم تنتقل الى المناطق الاكثر تقدما •

وكان أول من عرض هذه النظرية هو زعيم الحزب الشيوعى فى أندونيسيا « ايديت » ثم أيده فى رأيه بنج شن ، ولكن لين بياو كان اول من شرح النظرية بالتفصيل ، وحولها الى بيان نظرى رئيسى يشبه بيان ماوتسي تونج عن الثورة فى المنطقة المتوسطة •

واصدر لين بياو بيانا هاما آخر فى ١١ من مارس عام ١٩٦٦ عندما كتب خطابا الى الادارات الصناعية والتجارية فى الحكومة يطالب فيه : « بتفكير موحد ، وتفكير ثورى ، وتفكير سليم » حتى تتقدم الصين ، وكان هذا تدخلا له مغزاه من وزير الدفاع فى المجالات المدنية فى الحكومة • ومع ذلك فهناك تطور هام آخر وهو دور القيادة الاول الذى قامت به جريدة جيش التحرير اليومية فى « الثورة الثقافية » بينما قامت جريدة الحزب الرسمية « الشعب » بالدور الثانى •

ويشهد المراقب للاحداث التى تقع فى الصين والصراع من أجل السلطة ، بزوغ نجوم جديدة فى الافق ، وهذا له دلالة لا تقل عن مغزى اختفاء اسماء لامعة من الحياة العامة وفى التعيينات الجديدة •

وهناك ميل الى تعيين رجال الجيش فى ادارات الدعاية فى الحزب • من هؤلاء : تاوشو TAO CHOU الذى حل مكان لوتنج كمدير لادارة الدعاية ــ وهو معروف بانه من أنصار لين بياو وأنه من المتزمتين في سياسة الحزب ، ويقال أنه قال فى فبراير عام ١٩٦٤ : « كل ممتلكات الفلاحين ملك للكوميون فيما عدا فرش الاسنان الخاصة بهم » •

وهنــاك شــخصية أخرى ألقيت عليهــا الاضــواء وهى ييه شــين ينج YEH CHIEN - YING وهو أحد الماريشالات السابقين فى جيش التحرير كما أنه عضو فى اللجنة المركزية ، ونائب رئيس مجلس الدفاع الوطنى ، وعضو اللجنة العسكرية فى اللجنة المركزية للحزب برئاسة لين بياو •

وهناك شخصية هامة أخرى وهى أيضا من أتباع لين بياو وهى شخصية يانج شويو YANG CHOU YU وهو أحد نائبى رئيس هيئة أركان الحرب ، ومحارب قديم فى الحرب الكورية ، وقد خلف لوجوى شنج كرئيس هيئة أركان الحرب •

كل هذه التطورات تبدو وكأنها تضع لين بياو فى مركز متفوق فى الصراع من أجل السلطة ، ولكننا لا نستطيع التكهن بشىء لان المعلومات المتوافرة ليست كافية • ان كل ما حاولنا ان نوضحه هو الاشارة الى الاتجاهات والاحتمالات •

* * *

على ان اكثر الاعتبارات اهمية الناجمة عن التطورات الحالية فى الصين هو اثر تلك التطورات على السياسة الداخلية والخارجية للصين • فهل من المحتمل ان تتغير ، او هل من المحتمل أن تشتد صلابة ، أو تصير أكثر ليونة نتيجة لهذا التغير ؟

وهل من المقدر ان تكون الزعامة الجديدة ثورية وعدوانية أو أكثر لينا ؟ وهل هذه التغيرات مقدمة لقفزة جديدة فى مجال الاقتصاد ؟

وهل سوف تعني هذه التغيرات استمرارا فى سياسة المواجهة الحالية مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي أو هل تخفف من حدة موقفها ؟

هذه أسئلة أساسية لا نستطيع أن نجزم بالاجابة عنها ، وبالرغم من ذلك فلا يسع المرء الا أن يحاول التكهن بقدر محدود .

والملاحظة التى يستطيع المرء أن يبديها فورا هى أن الهدف كله من الثورة الثقافيــة هو المحافظــة على الثورة ، ولذلك فانه لا يمكن أن تكون التطورات او التغييرات تمهيدا لتخفيف سياسة الشدة التى تتبعها الصين ، فان القومية الصينية ــ أيضا ــ عامل لضمان استمرار سياسة الشدة .

لقد صار تفكير ماوتسى تونج بمثابة دعامة تحافظ على تماسك الدولة الصينية الهائلة ، وعلى عظمة الصين ومجده كشعب ، وكقوة عالمية .

* * *

وفى المجال الداخلى هل تؤدى تلك الحملات وحركات التطهير الى اعداد الجو « لقفزة كبرى جديدة للامام فى المجال الاقتصادى ؟ » . لقد استخدم الصينيون فى الآونة الاخيرة تلك العبارة مرارا .

ويقال : ان شاوشو ــ رئيس ادارة الدعاية الجديد ــ قد صرح فى يونيو عام ١٩٦٥ بقوله :« لو قلنا : ان القفزة العليا الاولى فى الريف وقعت عندما قاد حزبنا الفلاحين على الطريق نحو التجميع الزراعى ، فاننا اذن وبعد أن بدأ الحزب فى أن يقود الفلاحين نحو الاشراف على عملية التعليم الاشتراكى بنجاح ، كاشفا عن الصراع بين طريقين ومندفعا نحو الامام بخطى سريعة للعمل على بناء التفكير

والتنظيم والانتاج بما فى ذلك الاصلاح الفنى للزراعة ، نستطيع ان نقول : ان هذا سوف يؤدى الى قفزة ثورية عالية فى الريف » ·

ويبدو ان الصينيين أيضا قد احيو « مشروع الاثنى عشر عاما الزراعى » لاعوام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، وهو المشروع الذى وضع هدفا طموحا لتحقيق انتاج من الحبوب[١] قدره ٤٥٠ مليون طن بحلول عام ١٩٦٧ ·

وبالرغم من نواحى التقدم الاخيرة فى الزراعة والصناعة ، فانه لم يصل الانتاج الصينى فى الزراعة والصناعة الى مستويات سنة ١٩٥٨ ·

وبالرغم من ذلك حقق الاقتصاد تقدما وثباتا واستقرارا وقد يكون فى رأى ماوتسى تونج أن هذا قد يكون قاعدة او أساسا « لقفزة جديدة نحو الامام » ·

ومن الممكن أن الخلافات فى الرأى قد تكون قد ظهرت بين الزعامة حول هذه المسألة كما حدث عام ١٩٥٩ ·

وكان من بين الاتهامات التى وجهت الى رجال الفكر هو أنهم وجهوا النقد للكوميونات و « للقفزة الكبرى نحو الامام » ، والصدام فى الآراء حول هذا الموضوع سوف يتضمن بصورة غير مباشرة تغيرا فى الاتجاه ازاء الاتحاد السوفييتى كواحد من مظاهر الجدل او الخلاف ·

والحل البديل « لقفزة جديدة » قد يكون : اما تحمل نسب النمو البطيئة الحالية واما اللجوء الى الاتحاد السوفييتى من أجل المعونة · ولكن يبدو أن ماوتسى تونج رفض كلا الحلين ·

---

(١) كان الانتاج الفعلى فى سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٠ مليون طن ·

وعلى اى حال فليس هنــاك ما يدل على تخفيف فى الضغوط الايديولوجية او التنظيمية على الشعب ، بل بالعكس قد يشتد الضغط على جماهير الشعب •

* * *

وفى مجال السياسة الخارجية ، لا يلمح المرء أية تغييرات جذرية، فسوف تواصل الصين سياستها القائمة على مناهضتها للاستعمار ، ولن تبذل محــاولة جادة للصلح مع الولايات المتحدة على الاقل خــلال السنوات الاربع أو الخمس القبلة ، وحتى لو وجدت تسوية لأزمة فيتنام ومسالة فرموزا ، فان النتيجــة لن تتعدى اكثر من عودة العلاقات الطبيعية خلال هذه الفترة ، وبطبيعة الحال فان عودة العلاقات الطبيعية مع الولايات المتحدة سوف يكون حدثا له أهميته الهائلة .

على أنه من جهــة أخرى قد اعلنت الولايات المتحــدة أخيرا أنهــا قوة فى آسيا ، وانها تنوى ان تظل كذلك ، وهو أمر لا يقبله الصينيون كما أن الصينيين يخشون تلك التلميحــات التى تبدو من واشنجطون والتى تدل على الرغبــة فى الصلح ، وهم يخشون تلك التلميحــات اكثر من خوفهم من التهــديدات التى تصدرها واشنجطون ، فهم يخشون من أفكار « التعايش السلمى » والتدفق الحر للأفكار والسلع وهى الأفكار التى يدعو اليهــا « المستعمرون » ويرون فى هذه الأفكار حيلة استراتيجية يقصد بها افساد روح الثورة •

لذلك فان سياسة الصين ازاء الولايات المتحدة من المنتظر أن تظل سياسة متسمة بالعداء والكراهية ولو على الأقل فى المستقبل القريب ، الا اذا حدث ووقع تدهور فجائى جذرى للعلاقات الصينية ـ السوفييتية •

اما عن الاتحاد السوفييتى فانه من الواضح ألا تتحسن علاقاته مع الصين ، ذلك لان الثورة الثقافية التى تقع الآن فى الصين موجهة ضد ظهور « الشيوعية المنحرفة من النمط السوفييتى » فى الصين •

والسؤال هو : هل سوف ينعكس الصراع الايديولوجي أكثر فأكثر على العلاقات مع الدول ، وخاصة فى الموقف المتفجر الخاص بالنزاعات حول الحدود . وفى الوقت الذى تسوء فيه العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ، والصين يبدو أن الصين ليست مستعدة لصراع رئيسى مع الاتحاد السوفييتى، وليست هى أيضا على استعداد للدخول فى صراع كبير مع الولايات المتحدة بشرط ألا يتسع نطاق الحرب بشكل جنونى فى حرب فيتنام .

الباب السادس
أسطورة العنصر

الفصل الأول
أسطورة زائفة

الفصل الثاني
بين ماض بغيض ومستقبل باسم





أسطورة زائفة

يقول فيليب ماسون[1] :

« لو أن مخلوقا من كوكب آخر ـ غير الأرض ـ قدر له ان ينزل اليهـا ـ وليس له من الوعى السياسى الا قدر يسير ـ لبدا له أن دول هذا العالم الذى نعيش فيه ـ فى عصرنا الحديث ـ قدتقاسمتها ألوان شتى من الأفكار المتعارضة فخلقت منها زوجين من المجتمعات المختلفة ٠

اما الزوج الأول فان كلا من عنصريه يدعى أنه انما يعمل من أجل تحقيق الديمقراطية وباسمها ـ وقد أخذ أولهما تفسيره لهذه الديمقراطية عن فلاسفة القرن الثامن عشر ، بينما اتبع الآخرون تعاليم هيجل وماركس وأعطوا للدولة القيمة الكبرى ٠

والعنصر الأول يضم مجموعة الدول الغربيـة ، أما العنصر الآخر فيشمل الكتلة الشيوعية ٠

ولكن مجموعة الدول الغربية ـ التى تبدو فى نظر أنفسها أنهـا تقوم من أجل حرية الفرد يضايقها ما قد يبدو للآخرين منأن مجتمعاتها ليست على تناسق أو توافق بين طبقاتها » ٠

---

(١) Philip Mason, An Essay on Racial Tension, Royal Institute of International Affairs, London.

لقد حدث أن دفعت القوى المغامرة النشطة للدول الغربية القديمة الى التوسع فيما وراء البحار لتغزو وتحكم أناسا آخرين ٠

وهكذا ظهرت مجموعتان من الناس : مجموعة جاءت لتملك امبراطوريات واسعة ـ ومن ثم تحكم أناسا آخرين ـ ومجموعة أخرى يمثلها السوفييت وتدعى أنهـا قد منحت الحكم الذاتى لولاياتهـا ، ومن ثم وقفت فى الميدان كبطل يرمز للقوة لمساعدة هؤلاء المغلوبين على أمرهم ٠

ويبدو الموقف فى الواقع غاية فى التعقيد ، فكلا المجموعتين تحاول أن توسع دائرة نفوذها ، ولكن أبرز ما تتعرض له المجموعة الغربية فى سياستها هو النقد المرير لسياستها العنصرية أو الاستعمارية ٠

وفى خضم الصراع بين الغرب والشرق ، يقف الزوج الآخر من الشعوب التى تحررت من قبضة الاستعمار ، أو التى لاتزال تناضل من أجل استقلالهـا كقوة لها تأثيرها فى المجال الدولى ٠

ولكن هل هو فى الواقع ذلك الحكم الاستعمارى ـ ولا شىء أكثر منه ـ هو ما تناهضه هذه الدول ؟ ٠٠ ربما يكون من المستحسن أن نقول : ان الدائرة أكثر اتساعا ـ وأن الغالبية العظمى من هذه الدول كانت تعانى من التفرقة العنصرية التى لاقتها من المجموعة الغربية ـ وكثيرا ما يتحدث قادتها فى شعارات وطنيـة عما تلاقيه العناصر غير الاوروبية من هؤلاء الذين يسمون عادة بالبيض ٠

ونتج عن ذلك مشكلات حادة فى حاجة الى حل ٠٠ مشكلات تغذيها الحرب الباردة وتجد فيها ميدانا لاثارتها ، ولكن من الخطأ البين أن نفترض أن هـذه المشكلات تستقى كل خطورتها من الحرب الباردة ذلك لأنه لو انتهت هذه الحرب ، فان هذه المشكلات قد تستمر لانها أمر يخص الانسانية ذاتها ٠

والآن دعنا نفكر قليلا فيما تعنيه المشكلة بالنسبة لبنى البشر ٠٠ قد يكون من الصعب أن نعود قليلا الى نصف قرن مضى ـ أو أن نتذكر ما وصل اليه سكان

أوروبا الغربية من تقدم صناعي جعلهم يشعرون بالتفوق الكامل على بني البشر •• ومن الناحية السياسية أداروا أو حكموا : جزءا كبيرا من آسـيا ، والغالبية العظمى من مساحة القارات الأخرى •

وكان لهذا الغرور والترفع واحتقار الآخرين •• الذى استمر طويلا حتى في قارة آسـيا أثر كبير على التوتر العنصرى الذى سـاد العـالم فترة طويلة ، ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم •

* * *

ومن ثم كان لابد لنا من أن نتفهم جذور هذه المشكلة ، تلك المشكلة التى كانت تحمل الاعتقاد بأن البشرة الشقراء أو البيضاء أكثر احتراما وتبجيلا عن البشرة السوداء أو الملونة •

فى هذا الفصل سنحاول أن نتعرف طبيعـة مشكلة اللون ، وكيف كان اختلاف لون الانسان نكبة كبرى على معتقدات البشر ، وكيف بنيت هذه العقيدة على وجود فكرة تفوق جنس على آخر نتيجة سلالته أو لونه ، أما فى الفصل التالى فاننا سنحاول أن نوضح كيف كان للاستعمار ارتباط كبير بهذه المشكلة ، والى أى مدى استغل الانسان أخاه الانسان أسوأ استغلال ، واستعبده على أبشع الصور معتمدا على تلك الفكرة الزائفة بتفوق جنس على آخر •

والواقع أن اللون يعتبر نكبة قاسية تفصل بين شعوب العـالم ، بل انه ليعتبر أشد النكبات قسوة لأنه لا معنى له ، ولأنه يقيم فجوة بين هذه الشعوب . انه نكبة يزيدها تعقيدا أساطير الاجناس ، ويجسمها سوء فهم الفروق الاقتصادية والسياسية والروحية بين الشعوب . انها تقيم جدارا حول الناس وحول الشعوب، وتنشأ خلف هذا الجدار أساطير تفوق بعض الشعوب على البعض الآخر • ولـمـا كانت هذه الأساطير من النوع النفاذ فانها سرعان ما تختلط بالحقيقة •

ولا تعتبر الأساطير الخاصة بالتفوق العنصرى شيئا جـديدا ، فقد فرض المانشو على الصينيين العزلة العنصرية القاسية ، ومنعوا كل زواج مختلط ، كما نشأ نظام الطوائف فى الهند نتيجة غزوات عنصرية ، أما الاضطرابات التى ثارت بعد ذلك فكان ينسج خيوطها الطوائف الواحدة ضد الاخرى ، فيشعر المسلمون فى الهند باضطهاد الهندوس لهم ، بينما يعيش الهندوس فى قلق جنبا الى جنب مع المسلمين فى باكستان • ولقد ظل المسلمون فى الاراضى الشـمالية الغربيـة من الهند يقومون بالثـورات من آن لآخر حتى أخمدهم الصينيون بلا رحمة فى القرن التاسع عشر •

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية فاق المسـتعمرون اليابانيون المسـتعمرين الغربيين عندما حلوا محلهم لفترة قصيرة • وفى نفس الوقت بينما كان الناس فى أمريكا الشمالية ينظرون الى اليـابانيين على أنهم شعب تقدمى ذكى نشـط الا انهم كانوا ينظرون اليهم تحت وطأة الحرب العالمية الثانية على أنهم شعب ماكر خائن • ثم دارت الايام وأصبحوا ينظرون الى اليابانيين فىالوقت الحاضر بالاعجاب بسبب مهارتهم ، وبسبب أجهزة الراديو الترانزستور التى يصنعونها •

وفى الهند كان الجنود الأمريكيون ينظرون الى الوطنيين على أنهم شىء قذر غـير متحضر ، وفى نفس الوقت كان المفكرون الهنـود ينظرون الى الامريكيين باحتقار على انهم أجلاف وماديون يعوزهم الفكر والحضارة •

ويعلق توماس باتريك ميالیدى(١) على هذه العادة بقوله :

« ان هذه العادة القديمة ليست عادة تنتقل من مكان الى مكان فحسب ، ولكنها قد تنشأ فى نفس المكان • ففى جزر الانتيلالكبرى بعد أن اكتشفت أمريكا بسنوات قليلة كان المستكشفون الاسبان يوفدون الجماعات ليتأكدوا ما اذا كان

---

(١) Thomas Patrick Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc, New York, 1965, P. 23.

للوطنيين ارواح ، بينما كان الوطنيون يقومون باغراق الاسرى البيض ليتاكدوا ما اذا كان العفن سيصيب جثثهم أم لا • ان هذا العجز عن تقبل هذا التنوع الانســانى وتقديره هو علامة على الوحشــية والبدائيــة ، فكان الانسان القبلى المحصور فى جماعة تتشابه معه ينظرون الى أعضاء القبيلة المجاورة على أنهم : أقل منه ، وأقل من البشر ، وعلى انهم متوحشــون » •

* * *

ولقد نشأتالاساطير العنصرية عن مثل هذا التفكير الموروث الذى هو خليط من سوء الفهم ، ومن الخيال ، ومن الخطأ ، وقد أوجزه لنا عالم الاجناس البشرية جوان كوماس[١] بقوله :

« ان فكرة تقسيم البشرية الى أقسام عنصرية منفصلة عن بعضها البعض اتصالا تاما فكرة غير دقيقة • انها مستندة الى مقدمات منطقية زائفة ، وخاصة نظرية الدم الخاصة بالوراثة ، والتى لا يقل زيفها عن زيف النظرية العنصرية نفسها • ان انتماء شخص الى دم معين هو عبــارة لا معنى لها ، حيث ثبت أنه ليست هناك علاقة مطلقا بين عوامل الوراثة وبين الدم ، بل ان هذه العناصر مستقلة ، وهى لا تتحد فحسب ، ولكنها تميل الى أن تتميز • وليست الوراثة عبارة عن سائل يسير مع الدم ، وليس صحيحا ما يقال من أن دم الابوين يتحد فى المولود » •

ان التقسيمات العنصرية العلمية التى يضعها علماء الاجناس البشرية تهدم الافكار الخاطئة السائدة التى تقسم الناس الى : اجناس عليا ، وأجناس دنيا ، ولقد اثبت علماء الاجتماع دون اى شك أن تقسيم الأجناس بمقياس تفوق نسبى لا يستند الى اى اساس علمى •

---

(١) Juan Comas, «Racial Myths» UNESCO Series on The Race Question in Modern Science, Paris, 1958, P. 17.

لقد دار حوار نابه فى مجموعة الكتيبات التى كانت تصدرها اليونسكو تحت اسم « موضوع الاجناس البشرية فى العلوم الحديثة » • وان قراءة دقيقة لهذه التقارير وهذه البحوث التى توصل اليهـا علماء الاجناس البشرية لتؤكد تعقيد فكرة الجنس البشرى وتهدم التعميمات السهلة التى هى نتيجة السـعى لتحقيق مأرب ، أو التحيز اكثر منها نتيجة لعلم سليم •

ولا يتفق علماء الاجناس البشرية على عدد الاجناس على وجه التحديد ، وان كانوا قد ابتكروا لذلك مقياسا • ان مفهوم « الجنس » فى رأيهم هو عبارة عن عدد من السكان معزولين جغرافيا أو اجتماعيا ويختلف عن غيرهم من السكان . وتقاس الفروق : بواسطة بعض الخصائص والمميزات الجسمانية ، ومدى تردد « الجينات » (Genes) التى تنتجها •

ومهما كانت هذه التعميمات فهناك تعميم ينطبق عليها كلها : فكل الناس لها نفس نظام المخ المعقد ، ونفس الجهاز العصبى المركزى. وهذا يؤيد الفكرة التى تقول بعدم وجود : أجناس عليا ، وأجناس دنيا ، وان كانت هناك فروق داخل الاجناس ، وفروق بين الاجناس بعضها وبعض •

وحتى الآن توصلت البيانات العلمية الى وجود فروق جسمانية كثـيرة ، وفروق عقلية محدودة جدا • والنتيجة النهائية ــ كما يقول ج•م• مورانت ــ هى : توازن بين القوة والضعف مما يجعل الاجناس البشرية فى حكم المتساوية • وبعد أن يلاحظ بروفسور مورانت أن الفروق بين الجماعات تؤدى الى المساواة بينها فى النهاية نجد انه يقول بلهجة علمية كلها تفاؤل :

« ان التنوع بين السكان هو نعمة للانسانية لو أعطى الجميع فرصة تنمية طاقاتهم(١) » •

---

(١) G. M. Morant « The Significance of Racial Differences » UNESCO Series on The Race Question in Modern Science, Paris, 1958, P. 47.

هذه هي اللغة الدقيقة التي يستخدمها العالم عندما يعالج موضوع الأجناس البشرية ، وهي لغة تختلف عن لغة العنصري الذي يخلط بين الحقيقة وبين الخيال ، بين الظاهر وبين الحقائق • ان العنصري يؤمن بعدم المساواة ايمانا مطلقا غير مشروط ، يؤمن بوجود جنس متفوق ، وجنس متخلف بغض النظر عن الظروف : المادية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية •

* * *

واذا نحن طبقنا هذا على الموقف العالمي في الوقت الحاضر لوجدنا أن تقسيم الاجناس يمكن ان يهبط الى جنسين فقط : البيض ، وغير البيض • ان هذا هو الأساس الذي يقوم عليه التوتر العنصري • ويمكن أيضا أن نعبر عنه بأنه عبارة عن مواجهة بين : الغرب ، وغير الغرب • وطبقا لهذا التقسيم أيضا تنشأ المشكلة : بين العالم المتقدم ، وبين العالم المتخلف • وعن هذه المعادلات الغرب والتقدم ، غير الغرب والتخلف ينشأ أساس سوء الفهم الذي يسير في موازاة أحداث اللون القاسية •

ويفسر ميليدي ذلك بقوله(١) :

« ان للهوة التي تفصل الغرب عن غير الغرب أو البيض عن غير البيض جذورا ليست ذات صبغة تاريخية ودبلوماسية ولغوية فحسب بل ان لها صبغة اقتصادية وسياسية وروحية • وبلغة الاقتصاد نقول : ان هناك قلقا من جهة المعونة الاقتصادية ، فهناك احساس بأن المعونة الامريكية الممنوحة الى دول الشرق لا تقارن بمعونة مشروع مارشال الضخمة • وهنا يرد الغرب ويقول : ان البلاد

---

(١) Thomas Patrick Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc. Publishers, New York, 1958, P. 26.

المتقدمة يمكن أن تمتص المعونة بوعى اكثر من البلاد المتخلفة • وفضلا عن ذلك فهناك اختلاف فى المقاييس التى تستخدم فى توزيع المعونة ، فهى تعطى لدول الغرب على اساس الكفاية ، أما مع غير الغرب فانها تقاس على أساس فقد جزء من الكرامة القومية » •

* * *

وبينما ينكر الغرب نواياه للسيطرة على العالم غير الغربى الا أن ذكرى الاستعمار لتترك تراثا من القلق ، وتجعل الدول التى عانت من ذلك تنظر الى نوايا الغرب بعين الشك •

ومن ثم نجد أنه فى المجال السياسى ــ كما هو الحال فى المجال الاقتصادى ــ يظل : سوء الفهم وعدم الثقة هما العلاقة بين الغرب وغير الغرب •

وفى عالم الروح أجبر ظهور غير البيض على المسرح العالمى العالم الغربى ، الى أن يعيد دراسة قيمه الرئيسية ومعتقداته ، وأن يواجه بفهم وحذر نظام القيم الخاص بغير البيض • أما الاجناس الملونة فلديها ثقة فى قيمها الروحية وفى تصميمها على الاحتفاظ بها •

ان تقبل فكرة الاله العلوى هو عامل يتغلغل فى كل المعتقدات الاساسية الخاصة بالشعوب الملونة • ان ثقافات الشعوب الافرو اسيوية لتستند الى اساس روحى • ففى طريقة حياتهم نرى معظم سكان أفريقيا وآسيا الأصليين قد اظهروا طيلة قرون طويلة ــ وما زالوا يظهرون ــ قبول القيم الروحية ، القيم غير المادية . وبعبارة موجزة أنهم يؤمنون باله أعلى بالرغم من الاختلاف فى تسميته خالق للحياة يجزى ويعاقب • ويعتبر هذا عاملا أساسيا فى قيمهم •

ان القيم المتشابكة هى اعتراف ثابت بالمسئوليات الاولية • واذا نحن بدأنا بالمسئولية الاولى نحو الوالدين نجد ان معظم الاديان تركز على واجب الفرد نحو الاسرة ، وفضلا عن ذلك فان ضغوط الفقر والجهل والمرض التاريخية قد زادت روابط الاسرة وثوقا ، وقوت ارتباطاتهـا بين الشـعوب الملونة • فنجـد أنهم يتعاونون فى مجتمعاتهم التقليدية بالمشاركة فى تحمل الأعبـاء • انهم يشتركون عن طريق الاحتفالات القبلية والاسرية المختلفة فى مناسبات : الميلاد ، والزواج ، والوفاة ، والمحصول ، والمطر ، والجفاف •

وكما هو الحال فى كل المجتمعات التقليدية نجد أن للأجناس الملونة عقلية احتفالية أو طقوسية • انهم يرون فيها افضل تعبير لهم عن فرحتهم بالحيـاة ، وفرحتهم بالانشـطة الانسـانية من : جنس ، الى نوم ، الى لهو ، الى طعـام ، ويواجهون الحياة فى أبسط صورهـا ، بروح من الفرحة والبهجة • ولا ينقص حلاوة الحياة بالنسبة لهم الا انها قصيرة أو قاسية •

وهناك كل الدلائل التى تشـير الى أن معظم الدول التى نالت استقلالهـا حديثا فى أفريقيا وآسيا تشعر بالرغبة فى أن تصفح ، وأن تنسى استعلاء البيض عليهم فى الماضى •

ولكن هذا الأسلوب الخاص « بالصفح والنسيان » لينطبق فقط على الماضى . ولا يمكن أن نتوقع ان تصفح هذه الشعوب وتنسى الاسـاءات المستمرة التى تجرح كرامتهم كآدميين •

وكلما أحرز الانسان تقدما تكنولوجيا كبيرا ـ أحرز : قدرة على التقـدم الانسـانى ، وقدرة على التـدمير ، ومن ثم فان ظهـور الأجنـاس الملونة كقوة مؤثرة فى الشئون العالمية يزيد الامل فى مسـتقبل البشرية • ومن جهـة اخرى فان العنصرية والاساطير الخاصة بالتفوق العنصرى ، لتنـكر القيـم العامة لغـير

البيض كما تنكر المثل العليا للبشرية . ان هذه الافكار لتنبع من العقول المتعصبة المتأثرة : بالجهل ، او الكره ، أو الخوف فى تحديها للواقع والمعقول . ولكن اهم من هذا كله هو أن الشعوب الملونة أصبح لها نفوذ فى الشئون العالمية ، واصبحت تسهم بنصيب فى تحقيق الاسرة العالمية . والامل معقود فى أن تستفيد البشرية من هذه القيم العالمية ، وتنظر الى اللون على أنه فرق عرضى لا اهمية له ، وتواجه تحدى المعايشة فى القرن الواحد والعشرين .



بين ماض بغيض ومستقبل باسم

الاستعمار والتفرقة العنصرية :

عبر رابندرانات طاغور(1) عن فكرة السيادة الوطنية بقوله : « لقد شاهدنا فى بلادنا نوعا من الطعام المعلب يعلنون عنه انه تم صنعه وتم تغليفه دون ان تمسه يد . ونفس هذا الوصف ينطبق على الهند وحكمها . ان هذا الحكم لم تمسسه يد بشرية . فلا الحكام يعرفون لغتنا ولا يلتقون بنا لقاء شخصيا الا كرؤساء .. ولكننا ـ نحن المحكومين ـ لسنا شيئا مجردا . اننا من جانبنا افراد لهم احساساتهم » .

وفى غينيا صرح الرئيس سيكوتورى للرئيس شارل ديجول عندما خير الشعب فى سبتمبر ١٩٥٨ م عما اذا كان يريد الاحتفاظ برباطه مع فرنسا أم لا ؟ فقال : « نحن نفضل الفقر فى ظل الحرية على الغنى فى ظل العبودية » .

والواقع ان الوطنيين فى آسيا وأفريقيا واجهوا هذا الموقف ـ وهو واضح بالنسبة لمن يرفضون الاستعمار ولا يرتضونه ـ فقالوا مؤكدين : « افضل لنا أن نحكم بأنفسنا كما لو كنا فى الجحيم ، من أن يحكمنا حكامنا المستعمرون حكما عادلا » .

---

(1) Rabindranath Tagore, Nationalism, The Macmillan Coy, New York 1917, PP. 24.

وقد عبر التصريح الذى أصدرته الامم المتحدة عن هذه الفكرة بلغة تتسم باللباقة الدبلوماسية ٠

« الجمعية العمومية ٠٠٠

اقتناعا منها بأن استمرار وجود الاستعمار يمنع اطراد التعاون الاقتصادى للدول ، ويقف حجر عثرة فى سبيل التنمية : الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية فى البلاد الخاضعة للاستعمار ، ويقلل من فرص تحقيق مثل الامم المتحدة فى السلام العالمى ٠٠

لذلك فانها تعلن :

أولا : ان فرض : الاستعباد ، والسيطرة ، والاستغلال على الشعوب هو حرمان لهذه الشعوب من حقوقها الانسانية الاولية ٠ وهو يتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة ، كما أنه عقبة فى سبيل تحقيق السلام العالمى ، والتعاون ٠

ثانيا : لكل الشعوب الحق فى تقرير مصيرها » ٠

والواقع أن الاستعمار يفترض تفوق الغرب الابيض على العالم غير الابيض ، وقد عبر عن ذلك فى مدى واسع للسيطرة يمتد من الاستعمار الامبريالى الى الاستعمار الجديد ٠ وهى نفس الفكرة التى تقول بتفوق الدخيل الابيض على الوطنى الملون ٠ ولهذا لم يكن عجيبا ما تختاره الشعوب الملونة بعد ذلك ٠

وقد خربت تجارة الرقيق ــ وهى اسوأ الوان الاستغلال والاستعباد ــ القارة الافريقية من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، وكانت مقدمة للاستغلال والاستعمار اللذين اعقبا ذلك ٠

وقد تضمنت تجارة الرقيق الاطلنطية من ٣٠ الى ٤٠ مليونا من العبيد فى الفترة من عام ١٥١٨ الى عام ١٨٦٥ م ٠ وعبر المحيط الاطلنطى ما لا يقل عن ١٥ مليونا من الافريقيين ٠

ويقول كاولى فى مقدمة كتابه « شحنة سوداء » أن الصفة المميزة لتجارة الرقيق هى :

« لا أخطارها ، ولا عدد الأرواح التى تفقد أثناءها ، ولا حتى ألوان القسوة التى كانت تصيب الملايين ، ولكن كانت قسوة التجار وانعدام العطف الانسانى . ومن بداية هذه التجارة حتى نهايتها كانت تنكر كل المستويات فيما عدا مستويات الربح والخسارة . لقد كانت قيمة الرجل الاسود تقدر طبعا لما يحمله من لحم وثمن ذلك فى السوق . فاذا لم يكن للحمه قيمة فكانوا يلقون به الى البحر كما لو كان حصانا كسرت ساقه(١) » .

وكانت النتائج الوحشية لتجارة الرقيق تضرب فى كل اتجاه . لقد أصابت البحارة البيض كما أصابت شحنة السود . ولما كانت أهمية البحارة تقل عن أهمية العبيد ـ كانوا يعطون مقدارا من الطعام اقل ، وكانوا يعاملون بقسوة أكثر . ولذلك كانت نسبة الوفيات بينهم أكبر من نسبة وفيات العبيد المشحونين على المركب . وفى أيام تجارة الرقيق كان هناك مثل برازيلى يقول : « ان هذه التجارة كانت : مطهرا للرجل الابيض ، وجحيما للزنجى ، ونعيما للتاجر » .

وفضلا عن ذلك كان العبيد الافريقيون المسروقون يشترون من التجار الوطنيين بعد مساومات مستفيضة . وكان الثمن يدفع على شكل بضائع استهلاكية وعلى شكل بنادق . وكانت الأخيرة تستخدم بدورها بغية الاستيلاء على مزيد من العبيد ، فكانت القبيلة الافريقية تشن الهجوم على القبيلة الافريقية الاخرى لتحصل على العبيد . وكانت النتيجة حالة حرب دائمة فى غرب افريقيا ، وكان تجار الرقيق يستغلون هذه الحالة من التوتر الشديد ومن العداوات .

وفى نفس الوقت كان أساس الاستعمار فى آسيا ، النشاط الجم الذى كان يبذله التجار الاوروبيون الذين كانت تمثلهم شركة الهند الشرقية الانجليزية

---

(١) Daniel P. Mannix in Collaboration With Malcoln Cowley. Black Cargoes, The Viking Press, 1962.

وشركة الهند الشرقية الهولندية التى تاسست فى أوائل القرن السابع عشر • وقد ركز الهولنديون من التجار على جاوه وجزر البهار ، كما ركز البريطانيون على الهند • وكانوا قد قفوا على أثر البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون فعلا على تجارة المحيط الهندى عن طريق خلجان الشواطىء الصغيرة • وقد اشترك الفرنسيون فى المنافسة عن طريق شركة جزر الهند •

ووصلت العملية الى ذروتها عام ١٨١٨ م عندما أحرزت الشركة الانجليزية تفوقها على الشركات الاخرى ، وكما حدث فى افريقيا تحت سيطرة الاوروبيين بمعاونة الحكام الوطنيين ومساعدتهم ، وتم للانجليز هزيمة الفرنسيين فى هذا الميدان • وأصبحت الشركة الانجليزية حكومة تسيطر علىالهند . وفى عام ١٨٥٨م ألغى البرلمان الانجليزى حكومة الشركة فى الهند . ووضعت محلها البلاد تحت حكم التاج البريطانى • وأصبح سكرتير الدولة فى الهند عضوا فى الوزارة البريطانية .

وقد بدأ سباق الاستعمار فى افريقيا يأخذ صورة جدية فى السنوات التى تبدأ من ١٨٧٠ م واستقر فعلا فى عام ١٨٩٨ م • وفى هذه الفترة القصيرة تغلغل النفوذ الاوروبى السياسى عن طريق التغلغل الاقتصادى • وجاء مؤتمر برلين عام ١٨٨٤/١٨٨٥م ليضع القواعد الاساسية لاستغلال الاوروبيين لافريقيا وتقسيمها بينهم • وكانت المنافسة تدور بين بريطانيا وفرنسا من أجل السودان ، كما كانت المنافسة تدور بين بريطانيا وألمانيا على الكمرون • وكانت افريقيا جميعها هى الغنيمة التى تم توزيعها فى بداية القرن على الدول الآتية : بريطانيا ، وفرنسا ، وبلجيكا ، وايطاليا ، والبرتغال ، واسبانيا ، وألمانيا •

واستمرت السيطرة حتى منتصف القرن العشرين . وان حجم هذه السيطرة ومداها ليبدو غير معقول فى هذه الفترة القصيرة • فلم يحدث أن أصبح مثل هذا العدد الكبير ومثل هذه المساحات الكبيرةفى يد مثل هذه القلة . ففى السنوات الخمسينية كانت جملة السكان البيض فى افريقيا خمسة ملايين ، بينما كانت جملة السكان الافريقين ١٩٣ مليونا • واذا استبعدنا المليونين ونصف المليون من

الأوروبيين فى جنوب أفريقيا ، والمليون وستمائة الف فى شمال أفريقيا الفرنسية ـ لقلنا ان افريقيا كانت فى قبضة مليون من الاوروبيين البيض ٠

وكانت الدول الاوروبية تتبع سياسات مختلفة للاحتفاظ بوجودها فى المستعمرات ٠ فكانت لكل دولة أوروبية أسلوبها الاستعمارى المميز الذى كان يختلف من مكان الى مكان ٠ كان البريطانيون يستخدمون نظام الحكم غير المباشر ، فكانوا يديرون البلاد عن طريق الزعماء الوطنيين، وكانوا يعملون بسياسة هدفها اعداد السكان المحليين للحكم الذاتى فى داخل الكومنولث ٠ ففى الفترة السابقة على الاستقلال كان البريطانيون يعدون السكان ـ على مراحل ـ لتولى الحكم الذاتى ، وان كانت الشكوى تقول : ان هذه المراحل كانت بطيئة ٠

وفى داخل امبراطورية الاستعمار البريطانية كان هناك تنوع فى السياسة ٠ ففى شرق أفريقيا كان حاجز اللون ملحوظا وخاصة فى روديسيا ٠ وفى نيجيريا كان الاستيطان ممنوعا بينما أعطى المستوطنون البيض فى كينيا افضل الاراضى ٠ ولكن كان هناك دائما شكل من اشكال الحكم غير المباشر ٠

وكان الهدف من وراء ذلك ليس مصلحة الوطنيين ولا تهيئتهم للحكم الذاتى ، ولكن الاستعمار البريطانى كان يهدف من وراء تلك السياسة ، أن يهيىء جيلا يتعاون معه فى المستقبل بشكل جديد ، ولا يمكنه أن يبتعد عنه ، وهذا بالطبع يعبر عما نراه اليوم فى شكل الاستعمار الجديد ٠

أما هدف الاستعمار الفرنسى فهو أن يتناول الافريقيين ويحيلهم الى فرنسيين سود . لم يدرب الفرنسيون الوطنيين على الحكم الذاتى ، ولكنهم كانوا يستخدمون الحكم المباشر وهذا يعلل كثرة عدد الاداريين الفرنسيين فى افريقيا ٠ ففى فترة ما قبل الحرب فى أفريقيا الغربية كان الفرنسيون يحكمون عددا من السكان يبلغون خمسة أثمان العدد الذى كان يحكمه البريطانيون ، ومع ذلك كان عدد ادارييهم ثلاثة أضعاف عدد اداريى البريطانيين (٣١٠٠٠ فرنسيون، و ١١٠٠٠ بريطانيون) ٠ وكان الفرنسيون يسعون الى القضاء على سخط الوطنيين بتثقيفهم

وتعريفهم بثقافتهم ومدنيتهم ، بل كانوا يوفدونهم للدراسة فى باريس • ومن الناحية النظرية كان الافريقيون السود مواطنين فرنسيين - فكانوا ينتخبون أعضاء فى البرلمان الفرنسى ، وفى السنوات الخمسينية كان هناك ٥٢ أفريقيا من بين أعضاء الجمعية الوطنية البالغ عددهم ٦٢٦ عضوا • كما كان هناك ٣٨ أفريقيا من بين أعضاء مجلس الشيوخ البالغ عددهم ٣٢٠ عضوا • وكانت النتيجة أن كثيرا من هؤلاء الافريقيين كانوا يشعرون أنهم أحسن حالا وهم فى باريس عنهم اذا كانوا فى : باماكو ، أو داكار ، أو بورتونوفو •

وعلى النقيض من ذلك كان البلجيكيون يؤكدون المنفعة الاقتصادية فى حكمهم ويؤثرونها عن الفرص السياسية • فلم يكن يسمح لاحد - حتى ولا للبلجيكيين - ان يصوت فى الكونغو • وبدلا من الحقوق المدنية كانت هناك فرص اقتصادية • وقد ظل البلجيكيون الذين كانوا يحكمون الكونغو من بروكسل متناسين نار الوطنية والقومية •

أما البرتغاليون فقد كانوا يتجاهلون الناحيتين السياسية والاقتصادية ، وكانوا أكثر استغلالا لافريقيا من كل من انجلترا وفرنسا • وامعانا منهم فى الاحتفاظ بالحالة الراهنة - التى أصبحت مستحيلة - عمل البرتغاليون على أن يجعلوا الافريقيون يعيشون فى حالة من الجهل والعزلة • وكجزء من حكمهم الاستبدادى ادخلوا تجديدا واحدا • فاصدروا قانونا بأن الافريقى الذى يمر فى عدة اختبارات معينة بنجاح يصبح رجلا أبيض من حيث الادارة البرتغالية • ولكن كان من العسير على الافريقى ان يمر فى هذه الاختبارات اذ أنه بعد فترة طويلة يقول احصاء عام ١٩٥٠م أن عدد الافريقيين الذين مروا فى هذه الاختبارات فى أنجولا هو ٣٠٫٠٣٩ من جملة عدد السكان ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة • وفى موزمبيق حيث يبلغ عدد السكان ٥٫٧٠٠٫٠٠٠ نسمة بلغ عدد المؤهلين لهذا الوضع ٤٫٣٥٣ أفريقيا •

وبعد نشوب ثورة أنجولا فى عام ١٩٦١ م أعلن البرتغاليون عن عدد من الاصلاحات : المواطنة لكل السكان الوطنيين ، حق الانتخاب بشرط تسديد الضرائب ومعرفة القراءة والكتابة • وكانت هناك مساومات جماعية • ولكن لم

تغير هذه الاصلاحات من الحقيقة التي يعرفهـا الجميع والتي تقول : « ان هؤلاء الناس يريدون أن يحكموا انفسهم بأنفسهم ، وأنهم سوف يحصلون على هـذا الحق عنوة اذا لم يعط لهم بطريقة سليمة •

أما اسـبانيا والمانيـا فكانتا نسبيا عوامل صـغيرة في تجـربة اسـتعمار افريقيا • فبعد ان خرج الالمان من أفريقيا الشرقية في أثناء الحرب العالمية الأولى خلفوا وراءهم ذكريات عن الحكم العنيف •

وتردد مارجرى بيرهام ـ الخبيرة البريطانية في الشئون الافريقية سطرين من قصيدة سير فرانسيس دريك التي يمتدح فيهـا عملية التوسع الاستعماري لبني وطنه فيقول :

« سيغنمون منا معرفة الدين الذي نؤمن به •

وسنغنم منهم الثروات التي تحتوى عليها بلادهم » •

وبينما كانت أفريقيـا تقاسي من تجـارة الرقيـق ، كانت أوروبا تجني المكاسب الاقتصـادية الطائلة • واستفادت شركات المـلاحة في : فرنسـا ، وانجلترا ، وهولندا من تجارة الرقيق ، وأمكن قيام صناعات وأسواق جديدة • كان الرق يوفر راس المال الذي يستخدم في المناجم والسكك الحديدية ، ومصانع القطن • وفي نصف الكرة الغربي كانت السلع الآدمية تساهم بنصيب كبير في استقرار القارتين •

وكان التوسع الاستعماري عاملا اقتصاديا كبيرا في تقدم الغرب ، وكان من نتيجة قيام الامبراطورية ان جاءت : القوة ، والهيبة ، والأمان للعالم الابيض • كانت المستعمرات تمد البلاد الاوروبية المصنعة بالمواد الخام كما كانت بدورها سوقا للسلع المصنعة • وفي نفس الوقت كانت تنميتها تخدم السلطة المستعمرة وتنفعها • وكان نتيجة ذلك أن ازدادت البلاد الغنية غنى ، كما ازدادت البـلاد الفقيرة فقرا ـ وهذا اتجـاه وحشي وخطر وما زال مسـتمرا حتى اليوم • ان سيطرة البيض على غير البيض في آسيا وافريقيا ـ من جريمة الرق المعنوية الى جريمة الاسـتعمار السياسية والاقتصادية ـ هي محل دراسة لأسوأ صور الاستغلال •

انطلاقة التحرر :

وجاءت الحرب العالمية الثانية مصحوبة بنكبات قاسية لدول أوروبا ، واضطرت هذه الدول الى الاستنجاد بشعوب افريقيا وآسيا ، ومن ثم ذوت فكرة تفوق الجنس الابيض المطلقة ، وانتشرت العقيدة الوطنية بين كثير من شعوب آسيا وافريقيا •

وكان من نتيجة قيام العقيدة الوطنية وانتشارها بعد الحرب العالمية الثانية ان تحركت سلسلة من الاحداث كان لها أبلغ الاثر على العلاقات الدولية • وكان أقواها أثرا ما حدث في افريقيا وآسيا مما كان له تأثير ثورى على البناء : الاجتماعى، والسياسى ، والاقتصادى • فذبلت وذوت الامبراطوريات القديمة • وبعد أجيال من السكوت والسلبية تلقفت الشعوب الملونة القوة ، وانطلقت نحو عصر جديد .

اما دول الغرب فكانت تجابه شيئا من التناقض • لقد خاضت غمار حربين عالميتين من أجل تحقيق الحرية والديمقراطية ، ولكنها لم تقم بتطبيقها على الشعوب المستعمرة • وكان لابد لهذه الدول الغربية بعد أن ساهمت المستعمرات فيها من أن تفكر فى اصلاحات تؤدى الى الحكم الذاتى اذا لم يكن الى تقرير المصير •

وفى نفس الوقت كانت ضريبة الحرب العالمية : فى الأرواح ، وفى المدن ، وفى الصناعات فى أوروبا غاية فى الثقل • كانت فى حاجة الى كل نشاط لاعادة بناء الحياة الجديدة على الانقاض القديمة • لقد باتت أوروبا وقد استنفدت مواردها أو رغبتها فى مواصلة النظام الاستعمارى •

ولكن حق تقرير المصير كان ولا يزال يفسر على شكل جداول ومراجعات دستورية زاد فى تعقيدها استثمارات الغرب : البشرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية • وأصبحت الأمم المتحدة منبرا لمناقشة هذه المشكلات مناقشة مفتوحة • وبينما كان مجلس الوصاية يسيطر على جزء يسير من البلاد الافريقية التى لم تحصل بعد على حكم ذاتى ، كان هو أيضا منبرا للتحدث عن حق تقرير

المصير • كان هذا المجلس يقدم الى الامم المتحدة تقريرا عن ادارة الوصاية ، وكان يناقش تقدم كل بلد نحو الوصول الى تقرير المصير • وكان الاتحاد السوفييتي والدول الشيوعية الاخرى مصدر مزيد من الضغط على مقاومة الاستعمار •

ومن بين دول الاستعمار القديمة ظلت البرتغـال وحدها تتحـدى هـذه الاستجابات التحررية ، لعجزها عن أن ترى نفسها منفصلة عن مجدها القـديم كقوة عالمية • ان هيبـة البرتغـال الوطنية مرتبطة باعتمادها الاقتصـادى على مستعمراتها فيما وراء البحار ، وباهتمامها بانشاء مجتمع من المستوطنين قوامه مواطنون برتغاليون •

ولكن كانت بذور الثورة قد بذرت • لقد بينت أن فى مقدور الأفريقيين والآسـيويين أن يديروا شـئونهم وبذلك قضوا على أسطورة تفوق البيض • ومما لا شك فيه أن الشكوك كانت قد أثيرت حول الاسطورة قبل الحرب العالمية الثانية • ولكن بقيام هذه الحرب رأى الافريقيون والآسيويون للمرة الثانية كيف قام الرجل الابيض ضد الرجل الابيض فى جبهة عالمية •

وساعد على القضاء على أسطورة تفوق الرجل الابيض بحوث علماء الاجناس البشرية وعلماء الحفريات وأخذ العالم بكشوفهم • لقد تعاون فى ذلك اكتشاف المدن المدفونة فى الصحراء الكبرى مع دراسات المجتمعات التقليدية الحفرية • وقد ساعد علماء الاجناس البشرية الذين كانوا مهتمين باكتشاف أوجه الشبه وأوجه الخلاف فى حياة الاجناس بتوضيح العلاقة العالمية بين البشرية جمعاء بينما كشفوا عن مقدار تنوعها • لقد ساعدت دراسـاتهم غير البيض على أن يروا مجتمعاتهم التقليدية فى ضوء جديد ، وبذلك قضوا على الاقليمية الثقافية للرجل الابيض •

وأخيرا لقد قوت روح الوطنية فى المستعمرات الهجرة نحو المدينة • فكان أن اجتذبت المدن الافريقيين والآسيويين فوفدوا اليها فى أعداد متزايدة بحثا عن الفرص وعن الاثارة • حتى اذا ما وصلوا الى المدينة تغيروا • فحلت رغبات جديدة وعلاقات جديدة محل القيود التقليدية ومحل القيم التقليدية • فبدلا من حياتهم

التى كانت لا تخرج عن القبيلة عملت المدن الجديدة الى امتزاج الناس المختلفين فى الشارب بعضهم ببعض وعلمتهم مهارات حديثة • فبدأت الارتباطات تتشكل على أساس المصالح أكثر من أساس المولد • وخاصة فى اتحادات العمال والحركات السياسية • كان ساكن المدينة الجديد يحصى ثروته طبقا لما كان يملكه من : نقود ، ودراجات ، وملابس ، بدلا من ماشية وأرض • كان يهدف الى أن يسير قدما ، الى أن يحسن مستواه الاجتماعى والاقتصادى ، ولم يعد يقنع بأن يستمد رضاه فقط من نجاح القبيلة • وبعد ذلك أصبح أساس مركزه مقدار تعليمه والعمل الذى يزاوله • لقد أصبح ساكن المدينة الافريقى يهتم بانجازاته وتحصيله •

ولكن كثيرا ما كان يحدث أن تتعطل هذه الأهداف ، وتتعثر هذه الامانى نتيجة لعدم توافر فرص العمل أو التعليم • وكان الســاخطون يجدون أن من السهل أن ينسبوا عدم توفيقهم الى دولة الاستعمار وخاصة الى ادارة الاستعمار المحلية • كذلك كانت المدن فى مناطق الاستيطان تشكل مصدرا من مصــادر الشكوى والاثارة لانها كانت مقسمة الى مناطق للاوروبيين ومناطق للوطنيين ، وكانت الهوة فى مستوى المعيشة بين كل من الاتساع بحيث لا يمكن أن تغفل • كان الافريقيــون والآسيويون يربطون البيض بالغنى ، وغير البيض بالفقر ، يربطون البيض بالسيطرة والسيادة ، وغير البيض بالخضوع والاستعباد • وكان هذا مصدرا للاستياء •

وكان الاستياء والسخط سهل الانتقال • وكذلك كان الحال مع الافكار والاســاليب الجديدة الخــاصة بالتنظيم والاثارة • كانت الصحف والكتيبــات الافرو آسيوية تنشر القصص والتصريحات المثيرة • وكان الزعمــاء الوطنيون يثيرون الجموع عن طريق الشعارات الملتهبة • وكانوا يزرعون البلاد طولا وعرضا ينظمون المظاهرات والاجتماعات • ولم تكد تمضى عشر سنوات على الحرب العالمية الثانية حتى كانت الشــعوب الملونة قد أدركت وعرفت قوتهــا وامكانياتهــا ، واستطاعت أن تترجم هذه القوة وهذه الامكانيات الى عمل سياسى •

وهناك درس غربى قديم تم تطبيقه على عالم غير البيض ٠ لم يعد الرجل جزيرة ٠ فالانسان اصبح يواجه الآخر بشكل لم يحدث من قبل ٠ وأصبحت المدنية تواجه المدنية الاخرى ٠ وأصبحت الثقافات تتغلغل الواحدة فى الاخرى ، كما أصبحت المجتمعات تتـداخل الواحدة فى الاخرى ، والافكار تتوزع بسرعة متناهية لدرجة ان أصبح العالم وكانه مكون من جيران ٠

وبالرغم من ذلك وبالرغم من اختفـاء الحواجز المـادية أصبحت المشكلات السيكولوجية تهدد بالفصل بين الناس ، اذ أن عمليـة التكيف أصبحت تواجه البشرية وخاصة الرجل الابيض ٠ ان النفوذ والقوة تتنقل بسرعة فى هذه الايام ٠

فهناك اولا الجماعة الغربية التقليدية التى تضم أوروبا الغربية ، وأمريكا الشمالية ، وتزيد قوتهـا نتيجة علاقات جانبية بينهـا وبين أمريكا الجنوبية ، واستراليا ، ونيوزيلنده ٠ هذه المجموعة يتسيدها البيض وان كان يوجد بينهـا فوارق دبلوماسية واستراتيجية وسياسية ٠ لم يعد العالم الغربى يتكلم بلسان واحد فى هذا الخضم من السياسات المتغيرة فى : واشنطون ، وباريس ، ولندن ، وبون ٠

وهناك الـكتلة الصينية السوفييتية وهى موجودة فى مجموعة الاتحـــاد السوفييتى وتتضمن : دول حلف وارسو ، والصين الشيوعية ٠ وفضلا عن ان الانقسامات داخل الكتلة اصبحت أكثر شدة من مثيلاتها داخل جماعة دول الغرب فانه يوجد بينها تماسك نتيجة أنها دول تؤمن بعقيدة واحدة ٠

واذا نحن رسمنا دائرتين حول هاتين الكتلتين فى خريطة العــالم نجد أن هنــاك مناطق أخرى تظل خــارج اى الدائرتين ٠ هذه المنــاطق هى : القــارة الافريقية ، والقارة الآسيوية ، وأمريكا اللاتينية ٠

وقبل ان تبدأ حركات الاستقلال كانت الدول الغربية هى التى تسيطر على دول الدائرة الثالثة ٠ ولقد حدث استقلال شعوب غير البيض فى نفس الوقت الذى قامت فيه المجموعة الصينية السوفييتية تتحدى تفوق الغرب ٠ ولقد أضاف

تهديد الابادة المشتركة ـ اذا قامت حرب نووية ـ عنصرا جديدا الى بنيان القوة فى العالم ، وأصبحت الحرب الشاملة شيئا غير معقول • أصبح من الضرورى أن تستخدم طرقا أخرى للقتال فى عصر الصواريخ •

ولكن ما زال الغرب والكتلة الشرقية فى نضال ، وكان من أثر ظهور المناطق التى تسكنها الاجناس الملونة أن ظهرت قوة ثالثة فى هذا النضـــال • ان بروز الشعوب غير البيضاء كقوة لهو أكثر من اعادة تجمع بناء قوة العالم • لقد نمت الثورة نموا مفاجئا بين الامم النامية • وبينما كان الغرب يواجه الشرق بغية ان يدمر الواحد منهما الآخر ، بدأت القوة الثالثة تواجه العالم بالبديل الوحيـــد للدمار ـ انه مدنية عالمية جديدة • وهذا مما يربك المتفائلين والمتشائمين البيض . وينظر بعضهم الى تدهور قوة الغرب الابيض على أنها ماساة مروعة . ويرى البعض الآخر أنه ليس هناك بديل سوى حرب بين الشرق والغرب كفيل بأن يدمر العالم .

ان التغييرات التى طرأت على ميزان القوى لها دلالة ضخمة بالنسبة للغرب الابيض • لم تعد لهم السيادة المطلقة على العالم • لقد أصبح البيض أقليـــة • انهم يواجهون الآن عالما يختلف اختلافا بينا عن عالم أجدادهم • عالم تتساوى فيه الاجناس من ناحية تقرير مصيرها ، وابراز كيانها •

فاذا رفض الرجل الابيض ـ الذى ظل متعاليا فترة طويلة ـ نظرة المساواة والعدالة الى رجل المجتمع الجديد ، فان ذلك سيؤدى الى كارثة من حمامات دم تتضاءل بالنسبة لها كل فظائع الحروب السابقة •

الباب السابع

السحر وسطوته على العقل

الفصل الاول

السحر وسطوته على العقل



الفصل الأول

السحر وسطوته على العقل

السحر فن من الفنون التى توارثها الانسان عبر التاريخ عن الحضارات القديمة ، وبرغم التقدم الحضارى الحديث فان العالم لم يخل تماما من المعتقدات والطقوس الوثيقة الصلة بالسحر • على أن السحر بكل صوره وألوانه لا يزال قائما ، ولا يزال حقيقة قائمة فى الثقافات الفطرية وبين الشعوب التى لا تزال تعيش على فطرتها الاولى ، ويعتبر وسيلة عملية لها قدرها فى تحقيق نجاح أى عمل بشرى قاطع حاسم •

وبالرغم من تعدد ما كتبه الكثير من العلماء عن السحر ومعتقداته مستندين الى خبراتهم التى اكتسبوها من المناطق التى أجروا بحوثهم فيها ، فانه لا يزال هناك كثير من المناطق يقوم كل ما كتب عنها على أساس القياس أو الحدس والتخمين ، وذلك بالنسبة للدوافع وراء السحر أو القوى الخفية التى تفتعل فى عوامله • ويرجع النقص هنا الى قلة توافر الدراية الاصيلة باللغة عند محاولة البحث فى الميدان الوصفى للمسائل الخاصة بالايديولوجية فى نطاق ما هو خارج للطبيعة ، وبخاصة ما يمس الارواح •

ولقد سبق أن أشرنا الى ان الوسائل الميتافيزيقية والسيكولوجية قد استخدمت فى الماضى للتاثير على معتقدات الناس وسلوكهم ، ومن ثم لن يغيب

عن بالنا فى مناقشتنـا موضوع السحر انه احدى الوسـائل التى استغلت فى المجتمعات المختلفة للتاثير على تفكير الناس وعقولهم ٠

ولما كانت المجتمعـات تختلف من مجتمع الى آخر من ناحية : الجنس ، واللغة ، والدين ، والبيئة ، والثقافة ، وغيرها من العوامل التى تحـدد سلوك الانسان ، فاننا سنحاول أن نحدد سمات هذا الموضوع فى مجتمعات مختلفة ، حتى يمكننا أن نخرج فى النهـاية بصورة عن العوامل : البيئية ، والثقـافية ، والسيكولوجية الكامنة وراء السحر ٠

السحر الفطرى :

أثارت اهمية السحر فى الثقافة البدائية مناقشات أسهم فيهـا كتاب من الثقات امثال : تيلور Taylor وفريزر Frazer وويستر مارك Wester Marck وماريت Marett وليمـان Lehmann ومالينوسكى Malinowski وكان لهـؤلاء بصفة خاصة الدور البارز فى هذا النقاش الذى استغرق بعض الوقت ٠

ولقد قدم السير جيمس فريزر فى كتابه المشهور « الغصن الذهبى » (١) The Golden Bough نظرية منسـقة مترابطة عن السحر كانت أساسا لغالبية ما كتبه الآخرون بعد ذلك فى الموضوع ٠

ولقـد عرضت الدراسـات المختلفة فى كتـابات : هـ٠ هوبرت Hubert ومارسل موس Marcel Mauss و ر . ر . ماريت R. R. Marett ، وقد يكون من الأهمية بمكان ان نشير هنـا الى التفرقة الهـامة التى فصـل بها فريزر السحر عن الدين ، ولب هـذه التفرقة فى تقدير فريزر أن السـحر يكون بالسـيطرة المباشرة للانسان على قوى الطبيعة ، على حين يعتمـد الدين على « اسـتعطاف » و « استرضاء » قوى أعلى وأسمى من قوى البشر والطبيعة ٠

---

(١) J. G. Frazer, The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Macmillan, London, 1956.

الطابع الاجتماعي للسحر :

والسحر على ما أوضح فريزر ليس مجرد طابع من طوابع الاعتقاد ، ولا هو جانب من الجهاز الثقافى للانسان ، بل هو فن « يترجم » النظرية والمعتقد Dogma فى كل خطوة الى عمل ، وهو دائما مسالة عملية بحيث يستخدم : لاستمطار المزروعات ، وايقاع الصيد فى الشباك المعدة لاقتناصه ، ولايجاد الاستقرار داخل المنزل ، واعطاء القارب قوة على مواجهة الامواج ، كما يستخدم : لجلب المرض وابعاده ، أو احداث الموت وكذا لاكتساب قلب « المحبوب » والظفر فى الحرب ، وقد يكون : لتحقيق السرعة فى السفر ، أو وضع الشخص موضع القبول والتقدير فى حفل أو فى الرقص ٠

وهكذا نرى السحر فنا يمارسه الانسان بوسائل خاصة بقصد الحصول على ما يهدف اليه من نفع ، وكلمة الانسان هنا تعنى المعنى المطلق للفرد وللجماعة ، ويتضمن هذا فى نفس الوقت اعترافا بما فوق الطبيعة أى الاعتراف بقوة السحر التى يمكن الانسان بواسطتها السيطرة على قوى الطبيعة ٠

وتمتد جذور السحر الى مختلف ألوان النشاط البشرى : فالسحر أسلوب أو طريقة لاخضاع قوى الطبيعة لارادة الانسان ومشيئته ، لتأمين رفاهيته ، ولتشكيل مستقبله ومصيره ٠

ويمد السحر أولئك الذين يمارسونه بقوة أو بسلطة اجتماعية ، ففى كل المجتمعات تقريبا يعتبر « الساحر » الشخص الذى يضارع الزعيم من ناحية : النفوذ ، او المكانة ، أو السلطة ، ومن ثم يكون السحر بمثابة قوة للرقابة الاجتماعية ٠

وفى الغالبية لا يقوم بالاعمال الهامة الا الاخصائيون الثقات الذين يكونون فيما بينهم طبقة مختلفة متميزة عن باقى المجتمع ٠ وأولئك الذين يريدون منهم أن يضمنوا استمرار بقاء هذه المعرفة والانتفاع بها يحصرون أعمالهم فى نطاق محدود ، ويورثون هذه المعرفة أبناءهم وأحفادهم جيلا بعد جيل ٠

وبذلك نستطيع أن ندرك أن السحر عمل له طابع التخصص ، وهو دعامة امتيازات خاصة لأفراد معينين • انه مهنة أو عمل يمارسه الافراد داخل نطاق أسر وعشائر معينة محددة ، وهم وحدهم الذين يتملكون المعرفة التي يستطيعون بها ممارسة طقوس هذا العمل •

وفي السحر مصلحة اقتصادية على أساس أن أولئك الذين يقومون به انما يكافئون بواسطة أولئك الذين يتلمسون منهم المعونة ، وحتى الذين يعطون المعرفة(١) يعوضون بجزاء له قيمته المادية على أساس أن من يعطي هذه المعلومات سينتفع بها في ممارسة السحر ويتكسب منها •

ويرتبط السحر في جانبه التقليدي القديم عن طريق الاساطير بهذا الماضي المبهم الطابع لعصر الآلهة والابطال • كما تربطه الاساطير أيضا بأصل الانسان ، وببدايات الثقافة القبلية في مطلع التكوين الاجتماعي للانسان •

وكل الأساطير المليئة بمعجزات الاعمال التي كان يقوم بها الاسلاف القدامى تحتوي على الادلة للقوة التي للطقوس ، على حين تذكر أسماء هؤلاء القدامى دائما في « التعاويذ » وفيما يكتب من « تمائم » •

مبادىء السحر أو أسسه :

وكما اوضح الدكتور برونسلاف مالينوسكي فان كل عمل من أعمال السحر يتميز أو يتحدد بواسطة أشياء معينة تقال ، وأشياء معينة تعمل •

ومن هنا أصبح للتعويذة والطقوس أو الشعائر وشخصية الساحر الذي يقوم بالدور أهمية أساسية في العملية كلها •

---

(١) يلاحظ أنه في المجتمعات الافريقية الفطرية يفرقون بين من يمارس السحر خلفا لأبيه وجده ، وبين من يمارسه نتيجة حصوله على المعرفة بطريق الشراء • ويرون ان للاول مكانة تفوق مكانة الآخر وتجعله موضعا لثقتهم •

التعويذة The Spell :

عبارة عن تلاوة بعض الكلمات أو العبارات فى ترتيب منسق معين ، وهى الجزء الظاهر البارز من عملية السحر •

وتستند قوة السحر على العبارة التى تلقى والتى توارثها القائمون بالسحر منذ عصور قديمة جدا ، وكذا على الايمان بأن أى اضطراب فى العبــارة حتى بالتقديم أو التأخير فى الفاظها يسبب عدم توفيقها فى أداء وظيفتها •

على أن المجتمعات تختلف فى تقدير أهمية تلاوة عبارات « التعويذة » بالنص الاصلى ، فعند البولينزيين : أن أى خطأ فى الكلمات ، أو أى اغفال عن ذكر بعضها يفسد عملية السحر ، واذا كان الخطأ فى الطقوس نجم عنه موت القائم بالسحر بواسطة قوى عالية أكبر من قوة البشر •

ومع هذا فثمة بعض مجتمعات تتسامح فى احداث تغيير فى بعض الكلمات داخل الاطار العام للتعويذة ، ولما كانت التعويذة هى العمود الفقرى أو الدعامة الاساسية لعملية السحر كانت لغتها من الاهمية بمكان •

وفيها دائما اشارة الى « الغرض » أو الى « العمل » الذى يظن بانه له تأثيره على ما هو مطلوب تحقيقه • فالتعويذة أو التعزيمة عند « الماورى » التى تلقى لاكساب القارب سرعة وقوة على الامواج تتحــدث عن : خفة الطائر على الريح ، وخفة « النورس » الذى يطفو على ســطح الماء ، كما تتضمن ذكر بعض أنواع الاخشاب التى تشتهر بالخفة والقابلية للطفو •

كما تستخدم كل ألوان الاستعارة والتشبيه المعروفة فى اللغة فى صياغة كلمات التعويذة ، فلا تذكر على سبيل المثال أسماء الطيور بل تقلد أصواتها كما تقلد ولولة البحر • ومن العادة أن تتضمن « التعويذة » ايضا أسماء الاسلاف ، وبعض حوادث الاساطير القديمة ، ويصحب هــذا تلاوة التعويذة باللغة القديمة

المهجورة مشتملة على كلمات ذات المعنى أو المغزى الخفى ، مما يجعلها مبهمة وغير مفهومة الا لاولئك الذين يمارسون عملية السحر •

وفى ضوء ذلك يبدو الارتباط القوى الذى بين السحر وبين التاريخ القديم الاسطورى للشعب •

الطقوس أو الشعائر :

وتصحب « التعويذة » السحرية مجموعة من الاعمال هى « الطقوس » أو « الشعائر » والتى تكون وظيفتها الرئيسية نقل « التعويذة » الى الغرض الذى يسعى لتحقيقه •

ولهذا فانه عندما يريد « الماوى » ــ من سكان نيوزيلند الاصليين ــ أن يصيب سهمه أو رمحه « الهدف » يبصق على المقذوف الذى يستخدمه ثم يتلو « تعويذة » تبدأ بكلمات « فلتطر يا سهمى للامام كما يطير النيزك فى السماء » •

وعلى مثال ما قلنا عن « التعويذة » يجب أن تتبع الطقوس اسلوبا محددا يتمشى مع الكلمات التى تلقى فى التعويذة ، فالحركة التى يجىء ذكرها فى التعويذة تقلد أو تمثل ، كما أن الامور التى يراد تحقيقها يمثل شبيها لها ، ومن هنا كان من الضرورى عند القيام بالسحر لاسقاط المطر عند الجفاف أن ترش على الارض بعض قطرات الماء بواسطة الساحر ، وعندما يراد أن يقاسى عدو آلام الحريق يحرق « مثال » يصنع له على شكله ، وعند اجراء السحر لاكتساب قلب «الحبيب» تطلق روائح ذكية تجتذب الافئدة ، واذا ما أريد اعماء المطاردين فى البحر اطلق الملاحون ذرات من الجير لتمثيل الضباب الذى يخفيهم عن العدو •

وهكذا تكون هذه الطقوس هى « الوسيلة » التى تنقل التعويذة أو الكلمات وتحولها الى عمل •

حالة السحر :

ولما كانت للسحر هذه الاهمية فانه يجب ان يجرى ويمارس بعناية وحرص، على أن « الســاحر » فى كل المجتمعــات يقيــد بمجموعة من المحرمات Taboo اذ يمتنع عن تناول اصناف معينة من الطعام ، كما يجب الا يمارس أى اتصالات جنسية عارضة ، اى لا تكون له علاقة جنسية بأى امرأة غير زوجته ، اما اذا كانت من تمارس السحر امرأة كما فى بعض المجتمعات الافريقية فانه محرم عليهــا الاتصال بغير الزوج •

واذا لم يتبع هذا بكل دقة بطلت قوة تأثير الساحر ، فالعادة أن ارتكاب المحظورات يسبب دائما عدم توفيق عملية السحر •

وللحالة الانفعالية أهميتهــا ، ففى السحر الاسود وهو الذى يقصــد به الاضرار بشخص ما كقذفه بسهم ، أو اصابته بطعنة ، يمثل الساحر عملية قذف السهم أو توجيه الطعنة بنفس الانفعال الذى يكون فيه كما لو كان يفعل ذلك فعلا والضحية أمامه وفى متناول يده •

ويشدد الدكتور مالينوسكى على اهمية هذا المظهر الانفعالى ويراه القاعدة الاساسية للسحر فيقول : « ان السحر هو التعبير الطقوسى لحالة انفعالية متصلة بالغرض المراد تحقيقه ، ففى الثوران التلقائى الانبعاثى للكلمات والفعل توجد نطقة التعويذة والطقوس ، وعلى توهم وتخيل الممارسة الموضوعية أى فكرة أن هذه الاعمال لها تأثيرها ـ يقوم الاعتقاد بالقدرة أو الطاقة التى للسحر » •

لب قوة السحر أو جوهره :

يعزى الدكتور ماريت الفكرة الاساسية للسحر الى اعتقاد الوطنيين فى قوة مبهمة خفية فوق الطبيعة ، وهى قوة لا مادية تحيى وتنعش كل شىء ، أو لو شئنا دقة التعبير الذى قدمه ماريت نقول : هى قوة تبعث الحيــاة فى كل شىء •

وقد وصل « هوبرت » وموس والاستاذ ك٠ برويس الى مثل هذا الرأى القائل بأن مانا Mana (١) هى الفكرة الاساسية اى « الفكرة الام » للسحر ٠

ويؤمن كثير من الشعوب التى تعيش على الفطرة بقوة غامضة لا تجسيد بشريا لها ، فيطلق عليها أهل الملجاش اى سكان جزيرة مدغشقر كلمة «Hasina» كما يطلق عليها هنود أمريكا الشمالية بعض مسميات تختلف باختلاف القبائل مثل : « واكان » Wakan و « بوكونت » Pukont و « مانيتو » Manito واورندا Orenda ، ولكن ما يعنى به النـــاس من هذه المسميات المختلفة شىء واحد هو « مانا » ٠

على أن قوة السحر شىء آخر غير « مانا » وليست هى ـ مثل مانا ـ قوة خفية كامنة فى كل الاشياء استخدمها الانسان لتحقيق أغراضه ، بل أن التأثير الحقيقى للسحر يقوم أصلا على أساس « التعويذة التى يتلوها الساحر ، كما يقوم ـ الى حد ما ـ على الطقوس التى تجريها » ٠

وليس السحر هو الاستخدام الثابت المقرر لفكرة مطلقة عامة بل أنه ليتولد من التوتر الانفعالى لمواقف معينة ٠

ان الفكرة وراء « مانا » تشتبك دون شك مع عملية « ممارسة السحر » ، ولكن الاثنتين مع هذا بمثابة ساقى شجرتين متشابكتين وملتفتين على بعضهما البعض ولكن كل من الساقين يخرج من جذور غير تلك التى يخرج منها ساق الشجرة الاخرى ٠

وترجع قيمة ما أسهم به « ماريت » فى نظرية الســحر الى تشديده على « المظهر الانفعــالى » Emotional aspect للعملية الســحرية ، وذلك فى تحليله

---

(١) الاصطلاح « مانا » هو فى الأصل اصطلاح بوليليزى « مجموعة من الجزر المبعثرة فى الباسفيك ومنها هوايى وسيمو وغيرهما » ، ويعنى القوة غير الطبيعية التى لا تمثيل جسديا لها : اى انها ليست من البشر وتنسب اليها كل الشعوب التى على الفطرة القدرة على السحر ، والقدرة على جعل المستقبل سعيدا ٠

لعقلية الشخص البدائي الذى يعيش على الفطرة فى اثناء ممارساته السحرية ، ولقد استطاع ماريت بهذه المعالجة السيكولوجية للموضوع ان يحول دون الاتجاه الى الافراط والمبالغة فى الدراسة الثقافية للمعتقدات البدائية ٠

أزمات الحياة :

فى حياة كل شخص فى المجتمع البدائي ازمات ، منها : ازمة مرحلة البلوغ ، وازمة الاعداد للحياة الجنسية والزواج ٠ وثمة ازمات اخرى : كمواجهة معركة وقتال ضد عدو مغير ، او ضد خصم يقف منه ومن الجماعة موقف المخاصمة لسبب او لآخر ، او مثل الخروج للصيد طلبا للغذاء ٠ وفى كل هذه الازمات يحـاول الشخص ان يكتسب من مانا « القلب القوى » اى الجراة على مواجهة الازمة ، وعلى « الحكمة » للوصول الى حل لهذه الازمة ٠

وتجمع تقاليد الناس فى كل مجتمع ـ وهى تلك التى تضم كل تجارب الماضى البعيد ـ الوسائل الصالحة للتكيف مع الازمة ومع علاج الموقف الناشيء عنها سواء اكانت الازمة : « عضوية » كالمرض ، او ظرفية كالصيد او القتال ، وذلك بتلاوة « تعزيمة » او اجراء طقوس تعاون النفس على الاستقرار والراحة ٠

مانا والطقوس :

ولقد كان الدين فى العالم القديم قبل بروز الاديان السماوية غير واضح اللفظ ، او بمعنى أدق لم تكن له الالفاظ الواضحة المعبرة ، ولذا كان يمارس بالفاظ مبهمة على مثال ما ينطق به البكم ، فكانت « مانا » تهب لنصرة القوة الدافعة التى توجدها الطقوس ـ هذه الطقوس التى كان الناس الذين يعيشون على الفطرة يخافونها ويخشونها باكثر مما ان يدركوها او يفهموها ٠

وحينما تكون الطقوس ذات طابع عام ، وتجرى علانية بمشهد من الجميع ، وتكون متفقة مع العادات والتقاليد ، فان الجميع يحسون ان « مانا » هنا ، « مانا » خيرة تهدف الى الخير ، ويحس الجميع ان هـذا الحفل الطقوسى يجرى فى المناسبة الصحيحة ، ويثق كل فرد بان المجتمع سيحقق منه خيرا ٠

ولكن من ناحية أخرى لو ان شخصا ما راح بطريقة سحرية خفية يتصل بالقوة الخفية الغامضة ، فان كل فرد يحس أن « مانا » هنا شريرة ، وأن ضررا سيلحق المجتمع أو على الاقل بعض الناس ٠

وفى بعض الاحيان يكون من الصعب معرفة الطريقة التى سيستخدم بها الشخص قوته ، ذلك لانه اذا كان الساحر يستطيع ان يعالج جرحا أو أن يشفى مريضا فانه يستطيع فى نفس الوقت أن يبعث المرض فى صحيح البدن ، او قد يستطيع شخص من أصحاب السلطان أن يستخدم قوة « مانا » التى تتوافر له فى تحطيم عدو عام للجماعة كلها ، أو يكبح جماح ثائر خارج على سلطانه ، والى هذا الحد يكون استخدامه لهذه القوة الخفية استخداما قانونيا مشروعا ٠

السحر والعلم البدائى :

اعتبر أدوارد تيلور من رواد علم الانسان أن « السحر » عبارة عن تطور لعمليات تفكيرية للانسان الفطرى نتيجة للخطأ فى الربط بين الافكار ، وقد انتهى هذا التطور بأن صار فى النهاية علما كاذبا، وان كان فى نفس الوقت علما منسقا .

على أن جيمس فريزر وضح هذا بدرجة اكبر ، اذ قدم وجهة نظر تقول : ان السحر يمثل فى الحقيقة محاولة من جانب الانسان ليصوغ مجموعة من المبادىء يمكن بها أن يتقرر اى تسلسل للحوادث ، ويقول فريزر : أن السحر نظام زائف للقانون الطبيعى ، كما أنه مرشد خداع للسلوك ٠ انه علم كاذب مخادع وفن عقيم بلا نتيجة !

ولقـد دمغ فريزر السـحر بكلمات « علم مغشـوش زائف » Bastard Science ، واثار هـذا الكثير من البـاحثين الذين عاصروا فريزر أو خلفوه ٠ فاشار هوبرت وموس الى أنه يوجـد فرق واضح بين وجهة النظر السـحرية للانسان تجاه البيئة التى يعيش فيها ، وبين تفكيره العلمى فى السحر ازاء هذه البيئة نفسها ، وقد خرج الدكتور ماريت من دراساته عن الناحية السيكولوجية بفكرة مماثلة محددا العلاقة بين الدين والسحر ٠

يقول ماريت :« ان السحر والدين يتبعان دائرة واحدة من التجربة البشرية، وأن هذه الدائرة احدى الدائرتين العظيمتين اللتين تتبعان العالم الخارق للعادة ٠ واعتقد ان السـحر يشتمل على كل الاجراءات السيئة ، وان الدين يشمل كل الاجراءات الطيبة للتعامل مع العالم الخارق للعادة ، ولكن كلمتى سيئة وطيبة ليستا بالطبيعة الكلمتين الصحيحتين اللتين يمكن أن نحكم بهما على أى الامرين » .

وينتقد مالينوسكى نظريات فريزر بقوله(١) : « الواقع ان فريزر يمثل حقبة من حقبات علم الانتروبولوجيا ـ علم الانسان ـ انتهت بموته ، او انه قد عنى عناية مباشرة « بالبدائية » سواء اكانت : وصفا للجنس البشرى ، أم وصفا لمعتقدات خاصة، أم لعادات، أم لخبرات . ان الناس سواسية يتماثلون فى الجوهر. وهم يتطورون تدريجيا من المستوى البدائى مارين بمراحل مختلفة من التطور ٠ ويمكن اكتشـاف القيـاس المشـترك لاعمالهم وافكارهم بواسـطة الاسـتقراء أو الاستنتاج الذى يقوم على مسح واسع المدى للمعلومات التى يتم جمعها ٠ على اننا فى مسيرنا للوراء فى مختلف مستويات التطور فان أكثر المستويات بداية هى « الاصل » أى القاعدة الاساسية للافكار والعادات ٠ ولكن فريزر لم يبين حقيقة اسس التطور ، ولا نجد فى كل أعماله تصنيفا للمادة على أساس استخدام مصطلحات « أصل » أو « تحويل » أو « تطوير » ومن ثم فاننا لا نستطيع أن ندرك كيف يتصور فريزر سير عملية التطور ، او طبيعة القوى الدافعة للتقدم » ٠

---

(١) Bronislaw Malinowski, A Scientific Theory of Culture, New York, 1961, PP. 187 - 190.

ثم يعود فيقول : ان فريزر قد انهمك فى التفسير السيكولوجى للاعتقاد البشرى والخبرة ، فقد كانت نظرياته عن السحر نتيجة ربطه بين كل الافكار • ولا شك فى أن نظرياته الثلاث المتتابعة عن اصول « الطوطمية » Totetemism اى فكرة اختيار طوطم كشعار فى ضوء الاعتقاد بروح خارجية ، وعن « الاقتناع السحرى بالاخصاب » و « تجسد الحيوان » قد جاءت بالضرورة فى اعطاف التغيرات السيكولوجية الفردية •

وينقد مالينوسكى اغفال فريزر لمشكلة السيكولوجية الاجتماعية بقوله : « ان فحصنا أسلوب معالجة فريزر لموضوع (المحرمات) » Taboo ولمختلف اوجه ومظاهر الطوطمية ، ولتطور السحر والدين والعلم ، يمكننا أن ندرك أنه اغفل المشكلة السيكولوجية الاجتماعية ، كما يكشف لنا أنه كان يعادى نظرية التحليل النفسى ، كما أن « النظرية السلوكية » Behaviorism لم تدخل نطاق تفكيره •

والواقع أن فريزر كان ميالا : الى أن ينسب المحرمات والمحظورات الى اطماع الرؤساء والكهنة وشغفهم بجمع المال ، والى أنهم استخدموا معتقدات التحريم ركيزة وسندا لسلطانهم وزيادة ثرواتهم • ولم يوضح فريزر تماما ما اذا كانت المحرمات جزءا صغيرا من القانون الفطرى ، أو العادة البدائية ، وهذه بدورها لا يمكن أن توضع على أنها خرافة ، أو أنها خداع سياسى أو دينى » •

على أن الدكتور مالينوسكى يوضح فى تحليلاته لعملية السحر التى يستخدمها مواطنو « ميلانزيا » Melanesia (١) فى زراعة الحدائق ومقارنتها بما يستخدم فى عمليات الزراعة الفعلية ، ويبين أن وجهات نظر المواطنين تختلف بين هذه العمليات وتلك ، فان المعرفة وليدة التجربة والملاحظة ، وخواص التربة، ونمو النبات ، ومواقيت الرياح والعوامل الجوية تستخدم كلها لتتمشى مع ما هو معروف من الاحتياجات الخاصة بالزراعة ، والتى يمكن تقديرها وقياسها •

---

(١) مجموعة الجزر شرقى استراليا فى الباسفيك الجنوبى وتشمل جزر ادميرال ـ سولومون ـ نيوكاليدونيا ونيوهيبريد او يفصلها بحر الكورال عن استراليا •

فكل مواطن يعرف : ان العناية بحرث الارض ، وتنقية الاعشاب الضارة التى تنبت وسط المزروعات ، واصلاح الجسور وقنوات الرى والصرف ، وما الى هذا من العمليات انما هى عمليات ضرورية للوصول الى محصول جيد ، ولكن من ناحية أخرى : فان الحصول على القدر الكافى من المطر ومن اشعة الشمس ، وامكان ابعاد الحشرات ، وسد الطريق أمام أى فشل غير مقدر للمحصول ، بل كذلك لابعاد سوء الحظ الذى يكون أحيانا ملازما للفرد ومتعقبا خطاه فى كل عمل يقوم به ، يجعله يحاول دائما أن يلتجىء الى السحر أو يستعين به •

وكذلك فان الرجل الفطرى يعرف انه : عند بناء قاربه ، أو عند قيامه بصيد السمك أو القتال ، او عند مضاجعته لزوجته ، أو حينما تضع هذه الزوجة مولودها ، وكذا فى مسائله الخاصة بالحياة والموت أن هناك مجموعتين من الشروط والظروف : احداهما عادية طبيعية : والاخرى غير عادية واسمى من الطبيعية • وهو يستطيع أن يواجه المجموعة الاولى بالخبرة والتجربة والمعرفة حتى لو بقوانين ونظريات فطرية ، ولكنه لا يستطيع مواجهة المجموعة الاخيرة غير العادية والأسمى من الطبيعية الا بواسطة السحر •

ونجد هذا الازدواج واضحا فى الحياة الاقتصادية للماورى ، ومن ثم قد يبدو لنا ذلك مسألة عالمية عامة فى كل المجتمعات الفطرية على الاقل •

على ان الرجل الذى يعيش على الفطرة لا يفتقر الى المعرفة التى تسير جنبا الى جنب مع السحر ، ويرتبط كلا الاثنين ارتباطا وثيقا فى الجانب العملى من نشاطه ، فيستخدم المعرفة المعقولة المنطقية اى المعرفة العلمية الاصيلة بالقدر المتوافر له لممارسة الجانب الآلى ، على حين يستخدم الجانب الطقوسى للسحر فى العوامل التى لا يمكن تقديرها أو قياسها : اى عوامل « الصدفة » و « الحظ » والتى يتوقف عليها النجاح فى العمل •

وهنا قد نستطيع ان نتسامح فيما قاله جيمس فريزر من السحر « علم زائف مضلل » لو استطعنا ان نضع نصب اعيننا التحديدات التى يمكن أن توضع على هذا الاصطلاح •

فالسحر في الواقع مشابه ومماثل للعلم البدائي من حيث هو قائم لخدمة اهداف مماثلة لتلك التي يخدمها العلم ، كما أن له نظرياته ومبادئه واصوله التي تحدد الطريقة أو الاسلوب الذي تقوم به معالم الطقوس .

وكذلك فان السحر كالعلم قد طور من « تكنيك » خاص ، وانتقل من جيل الى آخر ، ولكن الواقع أن التشابه او التماثل بين السحر و «العلم البدائي» أكثر قليلا من أن نعتبره نافلة لا اهمية له ولا ضرورة للاشارة اليه ، فالعلم حتى ولو مثلناه بالمعرفة البدائية التي تقوم على للممارسة والتجربة والخبرة المستقاة من الممارسة أو الملاحظة يتطور نتيجة لهذه الممارسة ، كما أنه يتضمن الرغبة للاستزادة دائما من المعرفة ، ومحاولة القيام دائما بتصنيف صحيح للمعلومات .

اما السحر من الناحية الاخرى فتحكمه التقاليد ، وهو لا يتأثر بالدروس المستقاة من الملاحظة ، كما أنه لا يكشف عن اى رغبة في الانتفاع من الممارسة والتجربة للوصول الى معرفة أساليب جديدة يستخدمها .

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن الجذور الصحيحة للعلم انما توجد : فيما هو مختزن لدى الفرد من معرفة فطرية ، وفيما يقوم به من محاولات للبحث والتقصي نتيجة للاحتياجات العملية ، والتعمق بهذا البحث في أعماق طبيعة البيئة التي تحيط به ، ومعنى هذا أن هذه الجذور لا يمكن أن توجد فيما يمارسه هذا الرجل الفطرى من السحر .

استمرار الاعتقاد بقوة السحر :

ويقول ريموند وليم فيرث Raymond William Firth أستاذ علم الانثروبولوجيا بجامعة لندن : « ليس من الصعب أن ندرك أن تلك المزاعم التي تعزى القوة عن طريقها للسحر ما هي الا مزاعم جوفاء لا حقيقة لها ، فان السماء لا ترعد وتسقط المطر استجابة لطقوس تضرعية ، كما أن الحيوانات لا تذهب طواعية واختيارا لتقع في الشباك التي أعدها الصياد تلبية للكلمات التي ينطق

بها الساحر ، ولا يمكن أن نتصور أن امرأة ما يمكن أن تستلين أستجابة للعصا التى يحركها الساحر ، فلماذا اذن لم يعتبر هذا الخلط المهول الشاذ عميقا باطلا عديم النفع ؟ » ٠

ويعزى فيرث ذلك الى أن الطقوس الكاذبة للسحر لا تقوم وحدها مستندة الى قوتها الخاصة ، بل تشترك معها : « مهارة طبية » أو « دراية سياسية » أو غير هذا من العوامل التى يستطيع أن يستغلها وينتفع بها من يمارس « المهنة » ، وتكون هذه العوامل هى التى تدعم عملية السحر وتعضده عندما تكون فى حاجة الى هذا الدعم أو التعضيد ٠

هذا عدا أن « النجاح » لابد من أن يتحقق ذات مرة طبقا لقانون الصدفة ، وان كان من الضرورى أن نضع أيضا فى الحسبان مهارة الســاحر فى اختيار اللحظة المناسبة لممارسة فنه ٠ وهنا تبرز لنا الوسيلة المعاونة ، وهى عدم قدرة العقل البشرى على تقبل « الدليل السلبى » حينما تقف كل القوى المؤدية الى الايمان والتصديق الى جانب مسألة ما ، فان نجاحا واحدا يرسخ دائما فى الاذهان بأكثر مما قد يحدث نتيجة لاثنتى عشرة محاولة غير موفقة ٠

ومسألة أخرى يجب أن نضعها فى الحسبان أشار اليها الدكتور مالينوسكى وأطلق عليها اسم « الاساطير الجارية عن السحر » ، فان كل ساحر تنتشر حوله عادة سلسلة من الاقاصيص تتحــدث كلها عن أعمال ناجحة قام بها فى الماضى من : معالجة مرضى ، أو اسقاط المطر ، أو الاكثار من الصيد أو الجمع بين الاحبة ، وقد تعزى هذه الى سحرة قدامى لم يعد لهم وجود فى العالم ٠ ومن الطبيعى أن هذا كله ينصرف من الماضى الى الحاضر ، فيتحول من تمجيد للسحرة الى الاعتراف بحقيقة السحر ، والى توقع النجاح دائما من محاولاته ٠

وهكذا فان هذه الصفة الاســطورية التى للمعجزة الســحرية هى القوة الدافعة للاعتقاد فى السحر ، وهى كذلك درعه الواقى ضد اى هجماتمعادية له ، ولذا فان الاسس الحقيقية لاستمرار السحر وبقائه أعمق بكثير من النفع الثقافى الذى له ٠

قيمة السحر للانسان :

والسحر ليس مجرد صورة باطلة لعلم أو بمعنى أكثر وضوحا ليس مجرد علم كاذب مضلل ، فبالرغم مما فيه من مغالطة وأباطيل ، وبالرغم من طبيعته الوهمية ـ فان فيه صلاحية حقيقية للحياة البشرية . فانالطقوس السحرية التى تستخدم فى الزراعة توجد الكفاية والمهارة فى المواطن الفطرى ، لان العملية فى أثناء ممارستها تتبع فعلا مراحل الزراعة الصحيحة التى تنتظم تبعا للفصول الزمنية ، كما أنها بتحديدها المحظورات والمحرمات تمنع اهمال اى موسم من هذه المواسم الزمنية ، فتخلق فى المزارع البدائى عادة النظام والترتيب ، والاخصائى الزراعى لا يحتاج الى أكثر من الترتيب والتنظيم لعملية الزراعة كى تأتى ثمارها كاملة .

وكذلك فان طقوس السحر التى تبرز الى المسرح تتعطل عند النقطة التى تبدأ المعرفة المتوافرة للفرد وما يصحبها من بعد النظر ، أى عندما يكون التكنيك التقليدى قد بلغ نهايته .

وهنا يكون امداد الفرد باعتقاد قوى فى انه يملك قوة أكبر من الطبيعة عن طريق السحر معاونا له بما هو فى حاجة اليه من ثقة بنفسه ، ومن ايمانه بقدرته على ادراك ما يهدف اليه وما يعمل لتحقيقه .

السحر فى مصر القديمة :

جاء فى نقوش المعابد وفى أوراق البردى أحاديث عن السحر ، على أن أكثر ما ورد عبارة عن كلمات تلقى فتشفى الحروق التى تسببها النيران على مثل ما فعلت ايزيس عند حرق ابنها حورس ، وكانت معرفة ايزيس باسم آلهة الشمس هى التى أعطتها قوة سحرية عليا .

وجاء أيضا حديث السحر فيما يقال : أنه من الممكن أن يحدث الفرد بعض الآلام لعدوه اذا ما أذاب له على النار تمثالا مصنوعا من الشمع . كما جاء فى حديث عن الاساور الواقية التى نالت أهمية كبيرة بين الاحياء ، وفيما عثر عليه بجانب جثث الموتى .

ولكن برغم ذلك لم توجد طبقة من السحرة المحترفين فى مصر القديمة ، ولم توجد كلمة تعنى « الســاحر » حتى تاريخ متاخر ، فقــد كان الكهنة هم الذين يمارسون السحر ويكتسبونه من مطالعة الكتب المقدسة ودراستها •

ولقــد اســتخدم ما فى هذه الكتب : للفكاك من الموت ، وازالة المرض ، وابعــاد العين الشريرة ، ابراء عضة الافعى ، بل لابعــاد الفئران من صوامع الحبوب ، وكذا لمنع اقتراب العاصفة •

ولقد صرف الكهنة كل همهم الى بيع الرقى وتمتمة العزائم ، وأداء المراسم والطقوس السحرية ، وفى كتاب قصة الموتى نجد أن الرقى التى باركها الكهنة تتغلب على جميع ما عساه ان يعترض روح الميت من صعاب فى طريقها الى دار الخلود • واهم ما يؤكده هذا الكتاب هو قيمة تلاوة الادعية ، فقد جاء فى أحد هذه الملفات : « اذا ما عرف الميت هذا خرج فى النهار اى حيى الحياة الخالدة • ولقد وضعت صيغة التمائم والرقى وبيعت للناس للتخلص من كثير من الذنوب بل لتضمن للشيطان نفسه دخول الجنة • وكان من واجب المصرى الطاهر ان يتلو فى كل خطوة من خطواته صيغا عجيبة يتقى بها الشر ويستنزل بها الخير •

ولنستمع مثلا الى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد الشيطان عن طفلها :

« اخرج يا من تاتى فى الظلام ، وتدخل خلسة •• هل آتيت لتقبل هذا الطفل ؟ لن أسمح لك بتقبيله •• هل آتيت لتاخذه ؟ لن أسمح لك باخذه منى • لقد حصنته منك بعشب « أفيت » الذى يؤلمك ، وبالبصل الذى يؤذيك ، وبالشهد الذى هو حلو المذاق للاحياء ومر فى فم الاموات ، وبالاجزاء الخبيثة من سمك الابد وبالسلسلة الفقرية من سمك النهر » •

وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذى بعضها بعضا ، وادب مصر القديم نفسه يفيض بقوة السحر التى تستطيع تجفيف البحيرات ، او تجعل الاطراف المقطوعة تقفز الى أماكنها ، أو تحيى الموتى •

وكان الاعتقاد أن للملك أيضا قوة سحرية ينزل بها المطر ، أو يرفع بها الماء في النهر ، كما كانت الحياة المصرية القديمة مملوءة بالطلاسم وعمليات الرجم بالغيب ، كما كان يسود الاعتقاد أنه لابد لكل باب من اله يخيف الارواح الخبيثة، أو يطرد ما عساه أن يقترب منه من أسباب الشؤم ، وكانوا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الاطفال الذين يولدون في الثالث والعشرين من شهر توت سيموتون لا محالة وهم صغار ، وان الذين يولدون في العشرين من شهر شرباخ سيفقدون أبصارهم في مستقبل أيامهم ٠

البيئة السحرية في المسيحية :

كان أبسط أنواع السحر الذى استخدمته الكنيسة في عصور الظلام هو تلاوة « الرقية[1] » وهي عبارة عن مناشدة توجه الى الارواح الشريرة لارغامها على أن تهجر شيئا ما ، سواء كان هذا الشيء شخصا أم مكانا تسيطر عليه هذه الارواح الشريرة وتتحكم فيه ٠

وكان الاعتقاد السائد بين الناس انه بتلاوة الرقية عدة مرات ، يمكن : اتقاء شر ، أو شفاء مرض ، أو ابعاد عدو من الطريق ٠ وأكبر الظن أن معظم المسيحيين كانوا يعدون : علامة الصليب ، والصلاة الربانية ، واستخدام الماء المقدس ٠ والعشاء الرباني من الطقوس السحرية ذات الآثار المعجزة ٠

واستمرت الكنيسة في أول عهدها تتبع ما أجراه السيد المسيح ـ عليه السلام ـ بنفسه لطرد الارواح الشريرة عن الناس الذين سقطوا تحت سيطرتها[2] ٠

---

(١) Encyclopaedia Britanniaca, 1961. Vo 18, Exoticism, PP. 972 - 973.

(٢) راجع أعمال الرسل الاصحاح السادس عشر (١٦ ـ ١٨) ٠

وفى القرنين الاول والثانى من العصر المسيحى اعتبرت القدرة فى طرد الارواح الشريرة هبة يمكن ان تتوافر لاى شخص سواء آكان من رجال الدين او من غيرهم على ما أشـار اليـه « تيرتوليـان » Tertullian (١) فى كتابة « De Idolotaria II »

على أننا اذا رجعنا الى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد نرى طبقة خاصة من صغار رجال الدين وكل اليهم هذا العمل واطلق عليهم «طاردو الارواح الشريرة» Exorcists وفى قرابة ذلك الوقت صارت الرقية طقسا من الطقوس المهدة لتعميد الحديثى التنصير Neophytes وقد تضمنت الرقية انكار الشـيطان واعماله وابهته وفخفخته مع صدور الامر الى الروح الشريرة بالابتعاد عن الشخص الذى يجرى تعميده ، ويصحب هذا بعض اعمال مثل رسم علامة الصليب ، والمسح بالزيت •

وقد بقيت « الرقية » جزءا مكملا من طقوس التعميد عند الكاثوليك على أن هذا لم يكن يعنى أن الكنيسة تعتبر الذين يعمدون هم ضحايا للارواح الشريرة ، بل أنها كانت تعتبر هذه الرقية وسيلة لازالة كل الموانع والعوائق التى تمنع من السير فى الطريق المستقيم نتيجـة للخطايا والسيطرة التى للشيطان على النفوس التى تخطىء •

وكذلك فان كل ما يستخدم فى أداء الطقوس المقدسة مثل : الماء ، والملح ، والزيت يجب أن تتلى عليه الرقية لاكسابه طابع القدسية •

وفيما بعد نظمت عملية الرقية لابعاد الارواح الشريرة عن الواقعين تحت سيطرتها طبقـا لقانون الكنيسـة الرومانية الكاثوليكية « ١١٥١/١١٥٢ » ، فلا يقوم قسيس بهذه الرقيـة الا اذا كان قد حصـل على اذن خاص بذلك من الاسقف ، ولا يعطى هذا الاذن الا لقسيس يكون قد عرف بالصلاح والتقوى •

---

(١) تيرتوليـان ـ سبتيموس فلورنس تيرتوليـانوس Septimins Florens Tertullianus اب الكنيسة اللاتينية (١٦٠ ـ ٢٣٠) بعد الميلاد « معجم ويبستر ١٩٥٦ ص ١٥٠٥ » •

وفي القرن التاسع الميلادى انتقل كثير من علوم اليونان الى بلاد العرب عن طريق الشام ، فقامت بها نهضة ثقافية من اعظم النهضات ، بينما كانت تجاهد أوروبا المسيحية للتخلص من ظلمات الخرافات والهمجية ٠

وكان لابد للعلوم والفلسفة أن تنمو خلال العصور الوسطى بأوروبا في جو من : الاساطير ، والخرافات ، والمعجزات ، والفال ، والعفاريت ، والسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، وهي العقائد التي لا تنتشر الا في ظروف الفوضى والخوف ٠

والواقع أن هذه العقائد انتقلت من العالم الوثني الى العالم المسيحي ابتداء من عصور الظلام ، واصبح لها سلطان كبير على عقول الناس وخاصة بعد أيام ابن رشد ، وابن ميمون حيث حطمت فيما بين القرن السادس والقرن الحادى عشر أسوار الثقافة في غرب أوروبا ، وغرقت عقول الناس في بحر زاخر من الخرافات . حتى أولئك الذين أوتوا الحكمة آمنوا بها ، فمثلا كان أوغسطين يعتقد بأن آلهة الوثنيين لا تزال موجودة في صورة عفاريت ، كما كان أبلار يظن أن الشياطين تستطيع أن تقوم باعمال السحر لمعرفتها بأسرار الطبيعة ٠ وكان الفونس الحكيم يؤمن بالسحر ويقبل التنبؤات عن طريق النجوم ٠

وعلى الرغم من أن القرن الرابع عشر كان عصر النهضة فقد وسم بانتشار أعمال السحر في أوروبا ، وكاد الاعتقاد بوجود النساء الساحرات يصبح عاما في ذلك الوقت ، ففي كتاب التوبة للاسقف « آكستر » Exter يندد بالنساء اللاتى يدعين القدرة على تبديل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حبا ، والحب كرها ، أو سحر بضائع الناس وسرقتها ، او الادعاء بقدرتهن على الركوب في بعض الليالى على ظهور بعض الدواب مع حشد من العفاريت في صورة النساء ٠

كما كان من ضروب سحر النساء السهلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وتخريمها بالابر ، وتلاوة صيغ من اللعنات عليها ٠

ومن الطرائف الغريبة أن وزيرا من وزراء فيليب الرابع اتهم بأنه استأجر ساحرة لتفعل هذا بصورة الملك • وكان من المعتقدات المنتشرة أن بعض النساء يستطعن أن يؤذين أو يقتلن بنظرة من عيونهن الحاسدة •

وكانت الكنيسة فى بادىء الامر تتساهل مع أصحاب هذه العقائد حيث ترى فيها بقايا وثنية لن تلبث أن تزول ، ولكن ما حدث كان عكس ذلك ، فقد أخذت هذه الظاهرة تزداد وتنتشر ، حتى جاء عام ١٢٩٨ م فشنت محكمة التفتيش حملة قوية عليها بغية القضاء على السحر فحرقت الكثير من الساحرات علنـا •

ولقد كان الكثير من رجال الدين يعتقدون أن كثيرا من النساء كن على صلة بالعفاريت ، وأن من الواجب أن يحمى المؤمنون من رقاهن السحرية •

ويؤكد قيصريوس الهستريا فى أن كثيرين من الرجال فى أيامه يتحالفون مع الشياطين ، وانهم بذلك يحتقرون الكنيسة ويسخرون من شعائرها بعبادة الشيطان بقداس أسود •

ولقد سبق أن أشرنا الى حركة « السحر الاسود » التى ظهرت فى خاتمة القرون الوسطى ، واجتاحت كل المجتمعات الاوروبية ، وظهرت فى الافق كثورة منظمة ضد سلطة الكنيسة وتعـاليم النصرانية واعتمدت هذه الحركة على فكرة التدنيس ، فلا تتم شعائر التوسل بالشيطان الا بتدنيس شعائر الدين ، وسحق أقدس رموزه ، وتحطيم التعاليم والتقاليد الدينية والكنسية • وقامت الكنيسة بمحاربة ذلك بانشاء الجمعيات الدينية الرجعية وبتشكيل محاكم التفتيش التى سبقت الاشارة اليها •

وفى ذلك الوقت ظهر الماريشال جيل رتز كامام للمذهب الجديد المناهض للكنيسة ، وكان رتز فارسا فرنسيا شهيرا خاض غمار المعارك الداخلية التى كانت تضطرم حينئذ بين الامراء الاقطاعيين ، ثم تولى القيادة فى جيش جان دارك ، ورفع الى رتبة الماريشال •

وبعد هزيمة جان دارك وحرقها ارتد الى ضياعه الشاسعة فى بريتانيا ، واطلق العنان لأهوائه وبذخه حتى بدد معظم ثروته وهو فى شرخ شبابه ، ففكر فى التماس المال عن طريق السيمياء ، واستقدم السحرة والمشعوذين من ألمانيا وايطاليا حيث كان للسيمياء شأن كبير ، واصبح قصره معهدا للسيمياء والشعوذة •

وقد أدى التجاؤه الى السحرة الى أن يخوض غمار حياة غريبة من التماس الوصول الى عالم الغيب والتوسل بالشيطان • وكان الماريشال نصرانيا مخلصا غير أنه ارتد عن دينه بتأثير حياته الجديدة التى تفرغ اليها بجسمه وروحه، وأقنعه السحرة بأن يلتمس محالفه الشيطان بالمراسلة، فوجه اليه نداء وقعه بدمه يلتمس فيه منه : العلم ، والقوة ، والمال ، متعهدا فى نظير ذلك أن يقوم بكل ما يطلبه منه سوى الحياة والروح ، ولكن الشيطان لم يظهر له ، ولم يجب هذا النداء برغم التضرعات التى سيقت اليه ، والصلوات التى أقيمت لذكره •

وحينئذ ارتد جيل الى حياة آثمة ، وعكف على استعطاف الشيطان والتوسل اليه بأشنع ضروب الجريمة ، فاسرف فى اقامة الرسوم والشعائر السوداء ، وامعن فى العشق الدنس وغيره من صنوف الاباحية والرذيلة ، وتدرج من ذلك الى احياء الشعائر الوثنية وأراقة الدماء البشرية • فبث أعوانه فى جميع انحاء البلاد ، يخطفون ويسرقون الاطفال ، وكان يتولى بنفسه تعذيب الفريسة وازهاق روحها بأبشع الاساليب ، وظل يعيش تلك الحياة الاجرامية حتى صدر عليه الحكم بشنقه واحراقه •

ويبدو ان طائفة سرية منظمة لعبادة الشيطان ومزاولة السحر قد انشئت فى ذلك العصر حوالى عام ١٤٦٠ م ، حيث اندس السحرة والمشعوذون فى جميع المجتمعات الاوروبية ، وعهد فى معظم الدول الى القضاء المدنى بمحاكمة أعضاء هذه الطائفة حيث استفحل أمرها وازداد خطرها •

ومنذ فاتحة القرن السادس عشر هبت على جميع المجتمعات الاوروبية ريح عاتية شاملة من دعوة الخفاء ، وظهر السحرة فى كل مكان ، ونشطوا الى بث

تعاليمهم ومعتقداتهم بين العامة والخاصة ، فنشطت السلطات المدنية والدينية فى مختلف الدول الى مطاردتهم ومحاكمتهم ، حتى وصل عدد من أحرق من السحرة عام ١٥١٥ م الى الالفين ونيف •

كانت فكرة السحر الجوهرية فى هذه العصور هى محالفة الشيطان ، وهذا التحالف : اما صريح ، واما ضمنى ، وكان كل من قام بأعمال شيطانية يعتبر كمن قبل سيادة الشيطان • وكان على من يقبل هذا التحالف : أن يشهد الشعائر الرسمية ، والقداس الاسود ، وان يشترك فى جرائم التدنيس والقربان الدموى بسفك الدماء البشرية ، وغيرها من صنوف الفجور والاباحية •

والواقع انه انتشرت فيالعصور الوسطى معظم الوسائلالوثنية التى كانت تتبع للتنبؤ بالغيباو رؤية الغائبين، ويقالانتوماس ابكت Thomas A Becket أراد أن يسدى النصح الى هنرى الثانى فى مشروعه لغـزو بريطانى فاستشار لذلك : عرافا يزجر الطير ، وقارىء كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده•

وكان قارئو الكف يدعون أن عملهم مؤيد من عند الله ، ويستدلون عـلى صدق السحر بآية(١) من سفر الخروج التى تقول : « لا تدع ساحرة تعيش » •

وخلاصة القول أن السحر استغل فى أوروبا خلال العصور الوسطى للتاثير على معتقدات الناس ، الذين عاشوا فى بيئة من الخرافات تحت سيطرة قلة من الناس ، كانوا يهدفون من ورائها الى تحطيم معتقدات الناس لتحقيق اطماع مادية ، وسياسية خاصة •

مدرسة الكابالا اليهودية :

سبق أن أشرنا الى أثر التعاليم اليهودية عـلى الحركات السرية التى قامت لتقويض الاسلام والمسيحية ، وفى الواقع لعبتالتعاليم اليهودية الفلسفية السرية دورا كبيرا فى معظم الحركات الثورية والسرية منذ أقدم العصور •

---

(١) الآية الثامنة عشرة من الاصحاح الثانى والعشرين •

ولقد آثرنا ان نعود الى بحث هذا الموضوع بشيء أكبر من التفصيل لارتباط هذه التعاليم بأعمال السحر والخفاء ، حتى يتضح لنا الدور الفعال الذى كان للسحر على معتقدات الناس وسلوكهم •

والحق أن التقاليد اليهودية السرية تعتمد على فلسفة الكابالا ، وهى عبارة عن مزيج من الفلسفة والتعاليم الروحية ، والشعوذة والسحر متعارف عليهمـا عند اليهود منذ أقدم العصور •

وخلاصة هذه التعاليم هى أن الله كائن مطلق ، ولما كان هذا الكائن يشعر بوجوده فهو ينفث روحه فى عالم الارواح النقية والملائكة من طرق مختلفة ، كما أن روح الانسان تنتقل من جسم الى جسم حتى تعود فى النهاية الى الله وتفنى فيـه •

وكان دعاة « الكابالا » يعلقون أهمية كبرى على السحر والشعوذة واسرار الطلاسم والرموز والارقام ، وقد أدمجت تعاليم الكابالا وأسرارها ورموزها فى وثيقتين عبريتين هما « السفر جزيرا » و « السفر هازوهار » (١) •

ولقد كانت أساطير الكابالا وتعاليمها ورموزها ، مرجعا لمعظم الجمعيـات السرية الغربية فى وضع نظمها ورموزها ، كما كانت فى الغالب مبعث الوحى لكثير من الجمعيات الهدامة : كأخوة الشيطان ، وأصحاب القداس الاسـود ، وطوائف السحرة ، وجمعيات الخفاء التى انتشرت فى اوروبا فى العصور الوسطى •

والواقع أن الدور الذى لعبه اليهود فى الثورات الحديثة ظاهر لا جدال فيه وقد استند هذا الدور الى المال وأعمال الخفاء معا ، وهى الاشياء التى عرف بها اليهود منذ القدم •

---

(١) « السفر جزيرا » معناه كتاب الخلق وهو عبارة عن مجموعة من الأحاديث والخطب رويت على لسان ابراهيم ، أما « السفر هازوهار » فمعناه كتاب الضوء المعروف عادة « بزوهار » ، وقد كتب بخط آرامى يحمل على الاعتقاد بانه قد وضع فى القرن الثانى عشر او الثالث عشر ، ويرى بعض الباحثين انه من تصنيف موسى الليونى الاسبانى •

وجثم اليهود خلف اى ثورة اجتماعية أو سياسية لينتظروا الجانب الغالب ليأخذوا منه الغنيمة والاسلاب ، وبرغم أنهم كانوا لا يظهرون على المسرح فانهم عرفوا كيف يسيرون هذه الحركات لتحقيق مطامعهم وأهدافهم ٠

ففى منتصف القرن السابع عشر كانت التعاليم الروحية اليهودية قد نفذت الى جميع أنحاء أوروبا ، والمعتقد أن تيار هذه التعاليم قد تسرب الى أوروبا الغربية من شرق أوروبا ، فمنذ القرن السادس عشر اجتمع اليهود واستقروا فى بولندا ، وظهر هنالك جماعة من السحرة والمشعوذين اليهود تعرف « بالزاركيم » أوجماعة « بعل شم » ٠

وبعل شم كلمة عبرية معناها « سيد الاسم » ومصدرها نظرية كابالاية تزعم أن بعض اليهود الذين تتوافر فيهم شروط معينة من القدسية يستطيعون ان يستخدموا الاسم الأعظم دون وازع ٠ و « البعل شم » هو شخص يملك هذه القوة ويستخدمها فى : كتابة الطلاسم ، ومخاطبة الارواح ، ومعالجة الامراض ، وغير ذلك ٠

على انه فى عام ١٦٦٦ م اضطرب العالم اليهودى بشكل شامل ، لظهور داعية يسمى « شابيتاى تسيبى » وهو ابن تاجر ازميرى يدعى مردكاى ، زعم أنه المسيح المنتظر ٠

وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة فى ذاك الوقت فى المجتمع اليهودى ، وكانت الاوساط اليهودية الرجعية تؤمن بقرب ظهـور هذا المسيح ، ولذلك صادفت دعوة شابيتاى تأييدا كبيرا بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا ، بل أيدها كثير من اليهود المنبوذين وأصحاب الاموال لاغراض سياسية واقتصادية ٠

كان شابيتاى متمكنا من تعاليم الكابالا ، عليمـا بأسرارها ونظرياتهـا الروحية ٠ بارعا فى ضروب الشعوذة ٠ وروى عنه أنه كان يأتى الخوارق ، وكان جلده ينضح المسك كما كان يعيش فى حالة ذهول مستمر !

ولقد انقسم اليهود ازاء مزاعم شابيتاى ما بين مناصر ومعاد ٠ فاما الخصوم فقد كانوا من الاحبار الذين ناصبوه العداء خوفا على تعاليم اليهودية من دعوته ،

وأما المناصرين فقد كانوا أولئك الذين استهوتهم دعوته وآمنوا بمزاعمه وتعاليمه بالرغم أن الكثيرين انقلبوا عليه حينما سخر منه سلطان تركيا وطلب اليه أن يثبت دعواه بأن يستقبل السهام المسمومة بصدره ، وقد انتهت قصة الداعية باعتقاله وسجنه في احدى قلاع بلغراد حتى توفى بها عام ١٦٧٦ ٠

على أن تحطيم المسيح المنتظر لم يخمد من حماسة انصاره ، بل استمرت دعوة شابيتاى في القرن الثامن عشر ، واسفر نشاط المدرسة الكابالاية عن فورة جديدة في بولندا ، فظهر كثير من دعاة « الزاركيم » و « بعل شم » ٠ وكان أشهر أولئك الدعاة اسرائيل البدولى الذى اسس طائفة « الحسديم » عام ١٧٤٠ ٠

وكان اسرائيل يخاصم اليهودية الرجعية ، ويرجع تعاليمه الى « الزوهار » برغم انه لم يسلم تسليما مطلقا بنظرية الكابالا التى تنادى بأن الكون صورة من صور الله ، بل زعم أن الكون كله هو الله ، وان الشر عنصر من عناصر الله اذ ليس الشر خبيثا في ذاته ، ولكن في علاقته بالانسان ، وعلى ذلك فليس للخطيئة وجود مادى ٠

وكان اسرائيل بارعا في ضروب السحر والشعوذة ، فالتف حول دعوته كثير من اليهود الذين خرجوا على تعاليم التلمود ٠ وبعد اسرائيل ظهر داعية آخر يسمى هايلبرين فعكف على مزاولة الشعوذة والاعمال الخارقة باسم الله وجمع حوله نفرا من الانصار ، استمروا بعد وفاته يستغلون سذاجة العامة فترة من الزمان ٠

وكانت أشهر الجمعيات الكابالاية التى ظهرت طائفة الفرنكيين الذين عرفوا أيضا « بالزوهاريين » أو اخوان الشعلة لانتمائهم الى الزوهار « كتاب الضوء ». وقد أسس هذه الجمعية يعقوب فرنك ، وهو داعية من أمهر دعاة الكابالا واعلمهم بأسرارها وتعاليمها ، فجمع حوله في منتصف القرن الثامن عشر جمهورا كبيرا من الدعاة والانصار ، وعاش في بذخ هائل لم يهتد احد الى حقيقة مصدره ، واستمر يبث بطائفته نظريات الالحاد والهدم بطريقة سرية ، ولما قاومه الاحبار اليهود اعلن خروجه على اليهودية ، واعتنق المسيحية ثم اذاع بواسطة اتباعه في تركيا انه

اعتنق الاسلام لجذب أنصار اليه • واستقر في النهاية في أوفنباخ بالقرب من فرانكفـورت وتسمى بالبارون فون أوفنباخ ويصف مالمان في كتابه « تاريخ اليهود » أسراف فرنك وحياته البذخة بقوله :

« كانت له حاشية من بضع مئات من الفتيان والفتيات اليهود ذوى الحسن الرائع ، وكان يذاع أن صناديق الاموال تنهمر عليه في كل يوم ولا سيما من بولندا • وكان يخرج كل يوم في موكب حافل ليقيم شعائره في العراء في عربة تجرها جياد مطهمة ، ويحرسه عشرة فرسان او اثنان عشر فارسا يرتدون الثياب الموشاه بالذهب ، وقد رفعوا الرماح ، ووضعوا في قبعاتهم أهلة أو شموسا أو أقمارا • وكان أنصاره يعتقدون فيه الخلود ، بيد أنه توفي عام ١٧٩١ ، ودفن في بذخ يعادل بذخ حياته » •

ونشـير أيضا هنا الى اثنين آخرين من اقطاب السحرة ظهرا في القرن الثامن عشر ، وهما : الكونت سان جرمان ، والكونت كاجليو سترو وقد أدعيـا قدرتهما على القيام بالخوارق ، وتمكنهما من اسرار الكابالا ، وعاشا في رفاهية مستغلين سذاجة الناس بما يقومون به من اعمال •

كما ظهر في هذا القرن أيضا داعية يهودى يدعى حايم صمويل يعقـوب فوك وكان معروفا باسم الدكتور فوك ، وقد اتصل بالزوهاريين ، ولبث حينا يزاول ضروب السحر والشعوذة في المانيا ، وكان يزعم أن له قدرة خفية ، وأنه يستطيع اكتشاف الكنوز الدفينة •

ويروى المؤرخ أرشنهولتس أنه شهد فوك ياتى باعمال خارقة في برنزفيك وينسبها الى تبحره في الكيمياء ، وقد اضطهد فوك وطورد من وستفاليا وحكم عليه بالحرق لاتهامه بالسحر ففر الى انجلترا ، حيث استقبل بالترحاب وذاع صيته •

وتقد أذيع عن قدرته أغرب الروايات ، من ذلك ما قيل أنه يستطيع ان يبقى شمعة صغيرة تضيء مدة اسابيع ، وانه يستطيع بتلاوة تعزيمه أن يملأ قبوا من الفحم ، وان أية حلية يرهنها لدى المرابى تنسل ثانية الى منزله ، كما قيل أيضا

انه كان يركب عربة ذات يوم فانفصلت احدى عجلاتها وارتاع السائق ، ولكن فوك أمره أن يسوق مطمئنا واستمرت العربة فى سيرها والعجلة المنفصلة تتبعها حتى وصل الى غايته •

والروايات عن خوارق فوك وقدراته العجيبة كثيرة لا نهـاية لها ، وكان المجتمع اليهودى وأحباره يبجلونه الا أن شهرته أثارت نقمة يهودى يدعى أمدن هجاه واتهمه بأنه من أنصار المسيح الكاذب ، وأنه يستغل سذاجة المؤمنين فأخذ يؤلبعليه يهود بولندا متهما اياه : بالنصب ، والاحتيال ، وابتزاز أموال الناس•

واخيرا نقول : أندعاة مدرسة الكابالا الذيناستغلوا أعمالالسحر والشعوذة للاثراء والعيش فى البذخ كان يكمن وراء أعمالهم حركات سرية هدامة تهدف الى تقويض المجتمعات المختلفة بالتأثير على عقول الناس ، وتوجيههم الى غاية يهدفون لها ، وقد سبق أن اشرنا الى كثير من هذه الجمعيات فى أكثر من مناسبة •

والواقع أن مدرســة الكابالا ما هى الا نوع من الاســاليب الميتافيزيقية والسيكولوجية التى استخدمتعبر التاريخ لشل ارادة الناس بالتأثير على عقولهم وجعلهم يتخلون عن معتقداتهم القديمة والايمان بما يوحى به اليهم وهى لاتختلف بتاتا عما يسمى اليوم عملية غسيل المخ •

السحر عند ابن خلدون :

تعتبر مقدمة ابن خلدون من أهم الكتب ذات الاصالة ، ذلك لانه أوضح بعمق عوامل قيام الامم والجماعات البشرية واضمحلالها على أساس قوانين معينة يمكن ادراكها والكشف عليها •

ويبدو ــ تبعا لتحليلات ابن خلدون ــ ان دعامة المجتمع هى « شعــور الجماعة » الموحد تجاه المسائل العامة ، والكثير مما يراه ابن خلدون يمكن أن يطبق عــلى مشكلات العصر الحديث •

واذا كانت « المقدمة » خاصة بكتاب عن تاريخ الناس والبلاد ، فان ابن خلدون فى الواقع جمع فيها فاوعى ، اذ تحدث عن صفات الناس وطباعهم كما

تحدث عن علم السياسة واصول الحكم وما تفتقر اليه بعض الأمم عندما تتولى الملك والسيادة ، وان كان فى هذا الجانب من الحديث قد حمل على العرب حملات قاسية فى الفصلين الثانى والثالث •

كما اشتمل الكتاب على أحاديث فى الصناعات بمختلف الوانهـا من : الفلاحة ، الى الطب ، وقدم دراسة طيبة لعلوم القرآن ، واشار الى علم الهندسة والمساحة ، وانتقل من الأرض الى السماء يتحدث عن الكواكب ، وقد اردف حديثه فى علم الالاهيات باحاديث فى علم السحر والطلسمات ، وعلم أسرار الحروف ، وعلم السيمياء • وهذا ما يعنينا فى هذه الدراسة ، وفيما يلى مجمل ما قدمه ابن خلدون فى مقدمته[1] عن علم السحر •

يقول ابن خلدون فى علم السحر والطلسمات :

« علم السحر والطلسمات علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات فى عالم العناصر ، اما بغير معين ، واما بمعين منالامور السماوية ، والأول هو السحر والأخير هو الطلسمات ، ولما كانت هذه العلوم مهجورة عنـد الشرائع لما فيها من الضرر ، ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب او غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس الا ما وجد فى كتب الأمم الاقدمين فيما قبل نبوة موسى ــ عليه السلام ــ مثل النبط والكلدانيين •

« وكانت هذه العلوم فى أهل بابل من الربانيين والكلدانيين ، وفى أهل مصر من القبط وغيرهم ، وكان لهم فيها التاليف والاثارة ، ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل مثل « الفلاحة النبطية » ، من أوضاع أهل بابل ، فاخذ النـاس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع مثل « مصاحف الكواكب السبعة » وكتاب « طمطم الهندى » فى صور البروج والكواكب ، ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة فىهذه الملة « الاسلام » فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة ، وغاص على زبدتها واستخرجها ، أو وضع فيها غيرها منالتاليف وأكثر

---

(1) طبع القاهرة سنة ١٩١١ وبهامشها كتاب « سراج الملوك » للعلامة أبى بكر محمد بن محمد ابن الوليد •

فيها وفى صناعة « السيمياء » لانها من توابعها اذ أن حالة الاجسام النوعية من صورة الى اخرى انما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية » ٠

ولكن ما حقيقة السحر ؟

يجيب ابن خلدون عن ذلك بأن حقيقة السحر ترجع الى أن النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهى مختلفة بالخواص ، وهى أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع ، ولا توجد فى الصنف الآخر ، أما تاثير الانبياء فمدد الهى وخاصية ربانية ، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية ، وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد فى الآخر ٠

مراتب النفوس الساحرة :

ويضيف بأن النفوس الساحرة على مراتب ثلاث: فاولها المؤثرة بالهمة فقط من غير اله ولا معين وهذا هو الذى يسميه الفلاسفة « السحر » والثانية تؤثر بمعين من مزاج الافلاك أو العناصر او خواص الاعداد ويسمونه « الطلسمات » وهو اضعف رتبة من الاول ، وثالثها تاثير فى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعا من الخيالات والمحاكات وصورا مما يقصده منذلك ثم ينزلها الى الحس من الرائين كان يجعلهم يرون البساتين والانهار والاشجار ، وليس هناك شيء من ذلك ويسمى هذا عند الفلاسفة «الشعوذة» أو «الشعيزة» ٠

ويرى ابن خلدون ان السحر كفر لا يقره الدين فيقول :

« ولما كان السحر يوجه الى : الأفلاك ، والكواكب ، والعوالم العلوية ، والشياطين بانواع التعظيم والعبادة والخضوع - كان السحر كفرا أو الكفر من مواده وأسبابه ، ولهذا اختلف الفقهاء فى قتل الساحر هل لكفره السابق على فعله ، أو لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد ٠

واختلف العلماء كذلك فى السحر هل هو حقيقة او انما هو تخيل ، فمن قالوا : انه حقيقة نظروا الى المرتبتين الاوليين ، ومن قالوا : انه لا حقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة ٠

ويؤكد ابن خلدون ان « الغاية » كتاب مسلمة بن احمد المجريطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاؤها وكمال مسائلها ، ويشير الى أنه جاء بهذا الكتاب : ان بالمغرب صنفا من هؤلاء المنتحلين لهذه الاعمال السحرية يعرفون بالبعاجين ، وهم الذين اذا اشار أحدهم الى بطون الغنم وهي في مراعيها سقطت أمعاؤها من بطونها الى الارض ، ولهذا كان يسمى الواحد منهم باسم « البعـاج » لان أكثر ما ينتحله من السحر كان يجريه في الانعام ويرهب اهلها فيعطونه من فضلها .

الفرق بين السحر والطلسمات :

ويفرق ابن خلدون بين السحر والطلسمات فيقول : « ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين ، وصاحب الطلســمات يستعين : بروحانيات الكواكب ، واسرار الاعداد ، وخواص الموجودات ، وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يقوله المنجمون ، ثم يشير الى أنهم يقولون : ان السحر اتصال روح بروح ، والطلسم اتحاد روح بجسم ، ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية الســماوية بالطبائع السفلية ، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ، ولذلك يستعين صاحبه في غالب الامر بالنجامة .

ولقد استدل الفلاسفة على ان للسحر وللطلسمات أثرا في النفس الانسانية من جهة التصورات النفسانية كالذى يقع من قبيل التوهم ، فان الماشي على حرف حائط أو على حبل منتصب اذا ازداد عنده توهم السقوط سقط بلا شك ، ولهذا تجد كثيرا من الناس يعودون انفسهم بذلك حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والحبل المنتصب ولا يخافون السقوط .

الفرق بين المعجزة والسحر :

ويوضح ابن خلدون الفرق بين المعجزة والسحر عند الفـلاسفة والحكماء بقوله :

« اما الفرق عند الفلاسفة بين المعجزة والسحر فالذى ذكره المتكلمون انه راجع الى التحدى ، وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه ، ووقوع المعجزة على وفق

دعوى الكاذب غير مقدور ، لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق ، فلو وقعت مع الكذب لاستحال الصادق كاذبا وهو محال ، فاذا لا تقع المعجزة مع الكاذب اطلاقا •

« وأما الفرق بينهما عند الحكماء فهو الفرق ما بين الخير والشر فى نهاية الطرفين ، فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل فى أسباب الخير ، وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل فى أسباب الشر ، وكأنهما على طرفى النقيض فى أصل فطرتهما » •

السحر فى القرآن :

تقوم نظرة القرآن الى السحر على عالم الارواح الخاص بالجن والشياطين الكفار الاشرار ، واهم آية قرآنية بالنسبة لهذا الموضوع هى الآية ١٠٢ « مدنية » من سورة البقرة « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا : انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » صدق الله العظيم •

هذه الآية الكريمة جاءت ردا على ماقاله اليهود بأن سليمان ـ عليه السلام ـ لم يكن نبيا وانما كان ساحرا ، وتقرر أن الشياطين ـ على قول أصحاب التفاسير مثل الطبرى والرازى ـ هى الأصل فى السحر لانهم كانوا يتسمعون لدى أبواب السماء ، ويزيدون على ما يسمعون أكاذيب من عندهم ويبلغون ذلك الى الكهان فيصنعون منه كتبا يعلمونها للناس ويتلونها ، وكان هذا العمل منتشرا فى زمن سليمان انتشارا عظيما •

والحق أن القرآن لم يغفل ظاهرة من ظواهر الحياة ، وكان لها وثيق الصلة بعقيدة الانسان ، بل ربما كانت الظاهرة مثار للجدل والنقاش بين فريقين

يختصمان حول الحق والباطل كما اختصموا حول الدعوة الدينيـة فى ازمنة النبوة .

على أن القرآن عرض للسحر من جانب الوعظة والهداية ، وحث المؤمنين عن الابتعاد عن الغواية والاثم ، أما : تاريخ السحر ، ووسائله ، وتطوراته ، وأنواعه ، وتفصيل آثاره ـ فهى تبعد كل البعد عن مقصوده فى التربية والعظة ، كما انها غير محدودة تختلف باختلاف الازمنة ، وتتفاوت فى تقدير العقول .

وحديث القرآن عن السحر يتصل بموسى ، وكل من له صلة بالقرآن يعرف ما شجر من خلاف صاخب بين فرعون وسحرته وبين موسى ـ عليه السلام ـ الى أن تمكن موسى من الغلبة وبطل السحر ، « وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين » .

كما يتصل حديث القرآن عن السحر بسليمان ، عليه السلام ـ وبهاروت وماروت ، فقد الصق السحرة بسليمان من الاباطيل مالا يجعله نبيا ولكن يجعله ساحرا ، فبادرت الآيات الى تبرئة سليمان مما نسب اليه « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

على ان ادعاء ان الجن يعلم الغيب افتراء باطل فقد استأثر الله به ، لا يطلع احدا عليه الا اذا أراد ان يبلغ من ارتضاه من رسله ما يريد ابلاغه للناس .

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحـدا ، الا من ارتضى من رسـول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » (١) .

كما أن من تدبير الله فى ملكه أن يفضى الى الملائكة بما كان غيبـا ثم حان وقته فلم يعد غيبا ، وللملائكة فيما بينهم مناجاة بما القى اليهم من شئون كونية .

---

(١) سورة الجن آية « ٢٦ ـ ٢٧ » .

وكانت للشياطين جولات علوية تمكنهم من أن يسترقوا السمع بما يدور بين الملائكة ، ثم تهبط الشياطين بما تلقفته ، وتضيف الى ما سمعت كثيرا من الاكاذيب الشيطانية ، وينتهون بذلك كله الى أناس من الاشرار نصبوا انفسهم للضلال ، واتخذوا الشياطين أولياء لهم ، فاصبح شـياطين الجن والانس أعوان فتنة ، ودعاة افساد ٠

وفي عهد ادريس ـ عليه السلام ـ تفشى السحر بين الناس بدرجة كبيرة ، واستطاع السحرة أن يستعينوا بما يأخذون عن الشياطين « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » . وراجت أباطيل السحر في ذاك الوقت بارض بابل ، فجرف الناس تيار السحر ، وافتتنوا به حتى التبس عليهم الحق بالباطل ، وتزعزعت عقيدتهم في كثـير من الحقائق الدينية وظنوا أن السحرة يعلمون الغيب ، ويخبرون بالمستقبل ، وان مقام السحرة أشبه بمقام الانبياء ٠

وكان من رحمة الله بخلقه من أهل تلك الديار ، أن بعث اليهم من ملائكة السماء هاروت وماروت ـ ليعلما الناس أن الشائع بينهم ما هو الا سحر وليس علما سماويا ، وأن صناعته تكتسب بالتعليم ، كما أن محاولات السحر وهي من فعل الانسان قد تصح أو لا تصح ، وليس هذا من علم السماء بشيء » ٠

ومع تحذير الملكين لمن ينصحانه لم تكن النفوس كلهـا خيرة ، فهناك من اهتدى وهناك من ضل « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخـذوا الشياطين أولياء من دون الله » ٠

واصبح السحر لديهم مفسدة مستباحة ، يلحقون به الاذى بمن شاءوا ، يفرقون به بين الانسان وأصحابه ، بل بين المرء وزوجه ٠ وبقي السحر ظاهرة متفشية يتوارثها الناس جيلا بعد جيل، الى أن جاء عهد سليمان ـ عليه السلام ـ وقد منحه الله كثيرا من المعجزات التي وصفها الكافرون بانها سحر من أعمـال الشيطان ٠ فقد كانت من معجزات سليمان : أن يركب الريح ، ويتحكم في الجن

ويستخدمها في الاعمال على اختلافها ، ويجمع الطير اذا شاء ويرسلها اذا ما اراد .
ولقد حدثتنـا عنه الآيات في قوله تعـالى : « قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب • فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب • والشياطين كل بناء وغواص • وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن ، او امسك بغير حساب » (١) •

وفى قوله تعالى « وحشر لسليمـان جنوده من الجن والانس والطـير فهم يوزعون » (٢) وكذا فى قوله « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد ام كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا او لأذبحنه ، او ليأتينى بسلطان مبين » (٣) •

وفى ضوء هذه المعجزات نشط السحر ، وكثرت اباطيله ، ودأب الساحرون على غيهم ليقاوموا هذه المعجزات ويكذبوها ويسموها بالسحر ، حتى تأثر بذلك كثير من البسطاء واعتقدوا ان معجزات سليمان لا فرق بينها وبين ما يقوم به السحرة من اعمـال • وادعى السحرة ان اعمالهم التى يعتمدون عليهـا فى : التعاويذ ، والرقى ، والابخرة ، واستخدام الجن هى نفسها من كتب سليمان •

اما بالنسبة لليهود فالنقاش معهم فيما يختص بالسحر كثير ومعقد ، فبرغم أن التوراة جاءتهم بالحق من عند الله ، وكشفت لهم من أمور الغيب ما يجب الايمان به من احداث وأحكام ونبوءات متجددة ـ بل ان فيها تبشيرا بأنبياء منتظرين من غير بنى اسرائيل ـ فان أنانيتهم تدخلت الى اقصى حد فى تدليس المعتقدات •

فكان من شأنهم مع المســيح ما تعرفه البشرية جمعاء ، واتهموه باعمال السحر • وقد اشـار القرآن الى هذا مكذبا الكافرين بقوله تعالى « اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم

---

(١) سورة ص « الآيات من ٣٥ الى ٣٩ » •

(٢) سورة النمل « آية ١٧ » •

(٣) سورة النمل « آية ٢٠ ، ٢١ » •

الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الاكمه والابرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم : ان هذا الا سحر مبين (١) » « صدق الله العظيم » ٠

ولما جاء محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ ووجدوا كتابه مصدقا لأنباء التوراة عن نبى العرب ورسالتهم ازدادوا حنقا والتواء ، حتى أنكروا ما عرفوا ، وتنكروا للتوراة فيما حدثتهم عنه ، ونبذوا الاخذ بها فيما تطابق عليه القرآن والتوراة ٠

واتخذ المارقون من التوراة السحر علما وعملا وشعارا ، اذ وجدوا فيه مشتهاهم : من السيطرة على الأوهام ، ومن جمع الأموال ، وافساد العلاقات ، وكل ما تبتغيه النفوس الضعيفة لتحقيق غايتها ٠

ومن ثم فان اليهود هم الآخذون بالسحر من عهد سليمان ، وعن الملكين هاروت وماروت من قبل ٠ وقد ظل السحر الى يومنا هذا بابا من أبواب الشر ، ووسيلة من وسائل الضلال ، يتخذه الكثير من المضللين والمشعوذين وسيلة لعيش غير شريف ، وسبيلا الى مخادعة الناس عن الدين وتعاليمه الحقة ٠

وازداد افتتان الجهلة من الناس بالسحر فى هذا العصر ، فساعد المشعوذون على ازدياد تبذلهم وسفههم ، فموهوا على الناس بانه عمل مشروع مؤيد من القرآن ، وقد يتصادف ان يتحقق شيء مما يعملونه فتتاصل الفتنة ويتركز الضلال ٠

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٢) ٠

---

(١) سورة المائدة « آية ١١٠ » ٠

(٢) سورة النمل آية ٨١ ، وسورة الروم آية ٥٣ ٠

الباب الثامن

ألوان زائفة من المعتقدات والعادات

الفصل الأول :

ألوان زائفة من المعتقدات والعادات



الفصل الأول

ألوان زائفة
من المعتقدات والعادات

مما لا شك فيه أن الثقافة تلعب دورا كبيرا فى سلوك الانسان ، كما أن لها تأثيرا كبيرا على السلوك الجماعى للمجتمع ، وتعتمد ثقافة المجتمع الى درجة كبيرة على ما يسود هذا المجتمع من : معتقدات ، وتقاليد ، وعادات توارثها جيلا بعد جيل •

وقد تكون هذه المعتقدات والتقاليد : أصيلة أملتها حاجتهم، وقدرت بعضها غيبيات الدين فى سبيل تقدمهم ورفاهيتهم ، وقد تكون بدعا زائفة دخيلة عليهم لتقويض حياتهم واهدار كرامتهم •

وليس بغريب أن نرى الامم التى ازدهرت حضارتها عبر التاريخ الا وكان لتقاليدها الثقافية الدور الكبير فى هذه الحضارات ، وبالعكس نجد ان تاخر الشعوب يرجع الى كثير من المعتقدات الزائفة والخرافات البالية مما يجعلها غالبا لقمة سائغة لكل طامع •

ومن الثابت أن المستعمرين والدخلاء يستغلون هذه الظواهر للسيطرة على عقول الشعوب ، فيشجعون على استمرارها وبقائها ، بل كثيرا ما كان المستغل يبتدع من الوسائل والاساليب الخبيثة ما يفت فى عضد الجماعة ويشل عقلهـا ليلهيها عن أمور الحياة الجدية • ففى كثير من دول افريقيا مثلا استغل المستعمر :

الخمر ، وأسباب الرذيلة ، والمعتقدات الزائفة للسيطرة على العقول ، وشل الارادة ، ومن ثم تتحقق الاطماع الاستعمارية • وفى الصين لا تزال قصة الافيون عالقة فى أذهاننا ، وفى كل الدول العربية لا تزال ثقافتها مقترنة بكثير من الخرافات والأوهام •

ومما يدعو الى الاسف أنه برغم ما وصلنا اليه نحن من درجات الرقى والتقدم الفكرى والعلمى ، فانه لا يزال بعضنا أسير كثير من : المعتقدات ، والتقاليد ، والعادات البالية ، وثمة من لا يعرف فعلا خطورة ما أدخله علينا المستعمر من عادات استهدف هو بها شغلنا ـ زمنا طويلا ـ عن قضايا التحرر واخماد جذوة العمل الوطنى فينا ، هذا بالاضافة الى خرافات ابتدعها قوم أفاقون عملوا على تقويض دعائم الايمان وبلبلة أفكار الناس لتحقيق سيطرة سياسية ، أو ابتزاز أموال السذج الذين يجرون وراء التفاهات •

فالشعوذة ، وقراءة الطالع ، والزار ، والتوسل الى الأولياء ، والموالد ، والذكر ، والادمان على المخدرات ، ورقصات التويست ليست ـ فى واقع الامر ـ الا بعض الصور التى لا تزال نقطة سوداء تلطخ جبين ثقافتنا •

وهنا نستطيع أن نؤكد أن واجبنا القومى يحتم على كل مواطن شريف أن يعمل جاهدا للمساهمة فى القضاء على أمثال هذه الخرافات • وعلى الاتحاد الاشتراكى بصفته السلطة الشعبية أن يبذل قصارى جهده فى توعية الناس مقرنا ذلك بالعمل السياسى اذ لا يمكن لشعب أن ينجح ويتقدم وفى اذهان أبنائه من رواسب الماضى بخزعبلاته ما يشده الى الوراء •

وفى هذا الفصل اخترنا ثلاث صور من هذه المعتقدات والعادات المتفشية فينا ، وهى الاعتقاد فى : الولاية ، وفى الزار ، وفى الادمان على المخدرات ، لتكون كلها نماذج تنسحب على غيرها مما لم نذكره خشية الاطالة والتكرار •

الولاية والاعتقاد فى الأولياء :

بالرغم مما وصل اليه مجتمعنا من تقدم فكرى وعلمى ، وبالرغم من أن شريعة الاسلام واضحة فى تحديد العلاقة بين الله وعباده بحيث حرمت الوساطة بين الناس والخالق ـ فانه لا يزال يسودنا كثير من المعتقدات التى تعتبر خروجا عن الدين ، وظاهرة من مظاهر التأخر الفكرى والثقافى .

واذا كنا عرفنا من الوسائل السيكولوجية والميتافيزيقية ما استخدم قديما للتأثير على عقول الناس مستغلة جهل السذج منهم لتحقيق مآرب خاصة ، فمن أبرز هذه الوسائل السيطرة على العقول عن طريق غرس معتقدات بوجود طبقة من الافراد يطلق عليها الاولياء : تقام لهم الموالد بين حين وآخر ، ويتوسل الناس اليهم لقضاء حاجاتهم ، ويقوم اتباعهم باقامة طقوس وشعائر تبعد كل البعد عن شعائر الدين الحنيف .

ولكى نستطيع أن نوضح أثر هذه المعتقدات سنحاول فى هذا الحيز المحدود أن نعطى للقارىء صورة مبسطة لها عن طريقها نتبين أوجه الشبه بينها وبين تلك الاساليب التى استخدمت عبر التاريخ للتأثير على عقول البشر من قبل .

وقد جاء الاعتقاد فى الاولياء نتيجة لهذه المعتقدات التى تقول : ان هنـاك طبقة من الافراد يتميزون عن باقى البشر ، فاذا سألنا بم يوصف هؤلاء الافراد ؟ قيل لنا : « انهم افراد وهبوا أنفسهم لله وبهم ايمـان غير عادى ، وهم على قدر ايمانهم يمنحون القدرة على القيام بما هو فى مرتبة المعجزات ، وان أكبرهم درجة هو « القطب » وان كان البعض يقولون : انه لا وجود لمن له هذه الدرجة ، على حين يقول آخرون بوجود أقطاب أربعة ، وأن هؤلاء الاقطاب الاربعة هم مؤسسو طرق : الرفاعية ، والقدرية ، والاحمدية ، والبرهامية ، ويعتقد الناس أن كلا منهم كان « قطبا » فى عصره .

* * *

والقطب أسطورة خرافية تنزع الى تجريد الله من الربوبية ، وخلعها على وهم باطل سمى فى الفلسفة « العقل الأول » وفى المسيحية « الكلمة » وفى الصوفية « القطب » والقطب هو أكمل انسان متمكن فى مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الارض فى كل زمان ، وعليه تدور أحوال الخلق ، وهو يسرى فى الكون ، وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الاعلى والاسفل ، وقد يسمى « الغوث » باعتبار التجاء الملهوف اليه •

ويقول « تيجانى » مؤسس التجانية عن حقيقة القطبانية : « ان حقيقة القطبانية ، هى الخلافة العظمى عن الحق مطلقا فى جميع الوجود جملة وتفصيلا حينما كان الرب الها ، كان هو خليفة فى تصريف الحكم وتنفيذه فى كل ما له عليه الوهية لله تعالى ، فلا يصل الى الخلق اى شىء كائنا ما كان من الحق الا بحكم القطب ، ثم قيامه فى الوجود بروحانيته فى كل ذرة من ذرات الوجود ، فترى الكون كله اشباحا لا حركة لها ، وانما هو الروح القائم فيها جلة وتفصيلا ، ثم تصرفه فى مراتب الاولياء ، فلا تكون مرتبة فى الوجود للعارفين والاولياء خارجة عن ذوقه ، فهو المتصرف فى جميعها ، والمد لاربابها ، به يرحم الوجود ، وبه يبقى الوجود وفى بقاء الوجود رحمة لكل العباد ، وجوده فى الوجود حياة لروحه الكلية ، وتنفس نفسه يمد الله به العلوية والسفلية ، ذاته مرآة مجردة ، يشهد فيها كل قاصد مقصده » •

ثم يتحدث عن علم القطب بقوله : « ومما أكرم الله به قطب الاقطاب ، ان يعلمه علم ما قبل وجود الكون ، وما وراءه ، وما لا نهاية له ، وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة مع جميع الموجودات ، وأن يخصصه بأسرار دائرة الاحاطة ، وجميع فيوضه ، وما احتوى عليها •

وللقطب أعوان فهناك : « الامامان » وهما بمنزلة الوزيرين له ، أحدهما لعلم الملك ، والآخر لعلم الملكوت ، ثم « الاوتاد » الاربعة ، وقيل : انهم ثلاثة ،

كلما مات قطب العصر اقيم مكانه واحد منهم ، وعلمهم فيض من قطب الاقطاب ، وان ماتوا فسدت الارض • كما ان هناك « الابدال » ، والبدل حقيقة روحانية تجتمع اليها ارواح أهل ذلك الموطن الذى رحل عنه وليه ، وعددهم أربعون ، اثنان وعشرون منهم بالشام ، وثمانية عشر بالعراق ، ثم هناك ايضا من الاعوان « النجباء » وهم دون الابدال ومسكنهم مصر !.وعملهم أن يحملوا عن الخلق اثقالهم وعددهم سبعون ! ثم يجيء في النهـاية « النقبـاء » وعددهم ثلثمائة ، ويقـال خمسمائة ، وهم الذين يستخرجون خبايا الارض » •

ومن ثم فليست هذه المعتقدات الا نوعا من الخرافات التى نجدها فى كثير من الاساطير ، ابتدعها الانسان بتخيلات مخبولة ، ولأهداف رذيلة ، ليستعبد اخاه الانسان لما يشتهيه من رغبات ، وفي الواقع أن هذه الخرافات ابتدعتها اوهام الصوفية ازاء ملكوت الله ، ليسيطروا بها على عقول السذج من الناس ، ويسيرونهم في متاهة من الضلال وهم مسلوبو الارادة والعقل ، ليغتصبوا من الناس اقواتهم وايمانهم •

ومع أن القطب غير معروف للناس ؛ فان الأماكن المحببة الى نفسه معروفة جيدا ، وان كان من النادر رؤيته حتى في تلك الاماكن ، ويؤكد كثير من الناس انه موجود فى مكة فوق سقف الكعبة ، ومع انه لم يره احد هنـاك فالنـاس يسمعون صوته مرتين عند منتصف الليل وهو يصيح « يا أرحم الراحمين » وهى الصيحة التى تردد من كل مئذنة فى كل مسجد •

ويقال : ان من الاماكن المحببة للقطب في القاهرة باب زويلة ، وهو الذى يعرفه الناس باسم « المتولى » ذلك الباب الذى لا يغلق أبدا ، والذى يثنى فيه احد الواح الباب الكبير للداخل نحو الجانب الشرقى للمدخل فيخفى فراغا صغيرا يقال : انه مكان القطب ، وكل من يمر بالباب يقرأ فاتحة الكتاب ويلقى ببعض الاحسان الى متسول يجلس دائما في جوار البـاب ، ويعتقد الكثيرون أنه أحد

خدم القطب ، والذى يمر بهذا المكان يمكنه ان يرى كثيرين ممن يصابون بالصداع يدقون مسمارا فى الباب للتخلص من هذا الداء ، كما يرى أولئك الذين يشكون من ألم فى أسنانهم ينزعون احدى اسنانهم ويدسونها فى شق الباب لازالة الآلام ٠

ومن الاماكن المحببة الى القطب قبر السيد أحمد البدوى فى طنطا ٠

ويعتقد الناس : أن القطب ينتقل من مكان الى آخر فى لمح البصر ، وانه يتجول فى العالم الفسيح ، ويتخذ لنفسه من الصور ما يشاء باى لون ، وفى اى ثياب ، ويتكلم باى لغة ٠

وكما سبق أن أشرنا فان القطب يليه أولياء من درجات مختلفة مثل : الأبدال ، والنجباء ، والنقباء ، وغالبا ما يرفض هؤلاء مباهج الحياة ، ولا يحبون معاشرة الناس ، ويفضلون الاقامة فى مكان صحراوى للانصراف الى العبادة والصلاة ٠

كما ان هناك بعض الاولياء يؤلمون أنفسهم على مثال ما يفعل فقراء الهنود ، وقد كان فى القاهرة فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر احد الاولياء يحيط عنقه بدائرة من الحديد ، ويقيد نفسه بالاغلال الى جدار الغرفة ، ويقال انه بقى بهذه الحالة ثلاثين سنة ، ويقول البعض : انه كان يجلس على الارض ثم يغطى ببطانية على أساس أنه سينام ، وعندما يرفع الناس البطانية مباشرة لا يجدون أحدا أسفلها ٠

ويؤمن الكثيرون بمثل هذه القصص ، أو على الاقل لا يعلقون عليها لان الضحك منها أو السخرية بها تعتبر اثما كبيرا قد يعرضهم للهلاك ٠

ومن القصص الطريفة الغريبة التى تروى ، قصة احد الاولياء قطعت عنقه لجناية لم يرتكبها ، وكان الرأس يتكلم بعد أن بتر مؤكدا براءته (١) ٠

---

(١) جاءت قصة مماثلة عن الحكيم « دوبان » Dooban فى كتاب الف ليلة وليلة ٠

وتروى قصة اخرى أن وليا قطع راسه فجرى الدم على الارض ليخط بكتابة عربية ظاهرة مقروءة « أنا ولى الله وقد مت شهيدا » ٠

* * *

ويمجد كثير من المسلمين الأولياء الموتى ، فيشيد على قبر كل ولى مسجد ، ويقام على القبر تركيبة من الخشب أو الحجر تغطى عادة بالحرير ، وتنقش فوقه آيات من القرآن ، ويحيط بهذه التركيبة سور أو سجف من الخشب أو البرونز يسمى « المقصورة » ٠

وفى كل قرية من قرى مصر تقريبا قبر أحد الأولياء أو أحد الشيوخ الذين اشتهروا فى حياتهم بالتقوى والصلاح ، ويزور الناس فى الأقاليم ولا سيما النساء قبر كل من هؤلاء الاولياء فى يوم معين من أيام الاسبوع ٠ ويختلف السبب وراء هذه الزيارة ، فقد تكون التماس انجاب الولد أو استعادة الصحة ، وقد تكون لمجرد ضمان تقبل حسن للصلوات او الدعوات التى يقومون بها فى هذه الاماكن ٠

ويعتقد كثير من المسلمين السذج أن هؤلاء الاولياء وسطاء بينهم وبين الله ، فيبدا الزائر بالقاء التحية ، ثم يدور حول المقصورة من اليسار الى اليمين ، ويقرأ فاتحة الكتاب عند باب المقصورة وعند كل ركن من أركانها ، ويدعو ويتجه الى القبر وظهره الى القبلة وهو يدعو الله ويستغيث به مستعينا بالنبى وبصاحب هذا « المقام » ، وكثيرون يقبلون الجدار والمقصورة ٠

ويوزع ميسورو الحال النقود أو الخبز والفول على الفقراء عندما يزورون هذه المزارات ، ويعطون النقود خاصة لأولئك الذين يحملون قرب المياه ليسقو من يحس الظمأ ، أو من يريد بركة الولى صاحب المزار ، وقد يفرض الزائر على نفسه وعدا « النذر » بان يوزع النقود ، او الطعـام ، أو ان يضحى بذبيحـة لو تحقق أمر ما ٠

ومن العادات الغريبـة المضـحكة انه اذ ما نذر شخص ما بالقرية عجلا صغيرا لأحد الاولياء ليذبحه حينما يشب ويكتمل نموه ؛ فانه يطلق هذا العجل

بموافقة كل الجيران يرعى كيفما شاء حتى ولو هبط على حقول القمح ، فاذا ما اكتمل نموه ذبح واعد الطعام من لحمه للجميع ، ثم تقام الاذكار في ليلة الاحتفال بوفاء النذر .

ومن السهل أن نرى بعد ذلك أن هذه « التقاليد » لا يمكن أن يقبلها الا كل ساذج سريع الاستهواء بغض النظر عن عمله ومدى ثقافته . وكثير منا يعلم أنها ربما عادت كلها أو بعضها الى عهود الوثنية الاولى ، غير انه يظل ياخذ بها بدعوى انها لا يمكن أن تكون شركا بالله ولا تضر بقدر ما تنفع .

ويتحدث الجبرتي عن جانب من هذه التقاليد ، هو حق الشفاعة الذى نرى أنه بدعة فاطمية سخر منها أبو العلاء المعرى الشاعر الفيلسوف في « رسالة الغفران » المعروفة ، بقوله :

« اذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الامور التي أعظمها : الاشراك بالله ، والتوجه الى الموتى ، وسؤالهم النصر على الاعداء ، وقضاء الحاجات ، وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها الا رب الارض والسموات .. وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان ، والاستغاثة بهم في كشف الشدائد ، وجلب الفوائد .. الى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح الا لله . وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها ، لانه سبحانه وتعالى أغنى الاغنياء عن الشرك ، ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصا . كما قال تعالى « فاعبد الله مخلصا له الدين ، الا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار(١) » . فاخبر سبحانه انه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصا لوجهه ، وأخبر أن المشركين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين ليقربوهم الى الله زلفى ، ويشفعوا لهم عنده . وأخبر انه لا يهدى من هو كاذب كفار » .

---

(١) سورة الزمر آية : ٢ ، ٣ .

وقال تعالى « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبؤن الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض ، سبحانه وتعالى عما يشركون»(١) . فاخبر انه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة ، فقد عبدهم وأشرك به . وذلك أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه »(٢). وقال تعالى « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم »(٣) . وقال تعالى « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا »(٤) . وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد ، كما قال تعالى « ولا يشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون »(٥) .

« فالشفاعة حق ، ولا تطلب فى دار الدنيا الا من الله كما قال تعالى « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا »(٦) . وقال تعالى « ولا تدع من دون الله ما لاينفعك ولا يضرك .. فان فعلت ، فانك اذا من الظالمين » (٧) .

« فاذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو سيد الشفعاء ، وصاحب المقام المحمود ، وآدم فمن دونه تحت لوائه ـ لا يشفع الا باذن الله .. لا يشفع ابتداء بل ياتى فيخر لله ساجدا ، فيحمده بمحامد يعلمه اياها ، ثم يقال « ارفع رأسك ، وسل .. تعط ، واشفع .. تشفع . ثم يحد له حدا فيدخلهم الجنة فكيف بغيره من الانبياء والاولياء ؟

---

(١) سورة يونس « آية ١٨ » .

(٢) سورة البقرة « آية ٢٥٥ » .

(٣) سورة الروم « آية ٥٧ » .

(٤) سورة طه « آية ١٠٩ » .

(٥) سورة الأنبياء « آية ٢٨ » .

(٦) سورة الجن « آية ١٨ » .

(٧) سورة يونس « آية ١٠٦ » .

وهذا الذى ذكرناه ٠٠ لا يختلف فيه أحد من علماء المسلمين ، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأئمة الأربعة وغيرهم ٠٠ ممن سلك سبيلهم ، ودرج على منهاجهم » ٠

« وأما ما حدث من سؤال الأنبياء والأولياء من الشفاعة بعد موتهم ، وتعظيم قبورهم ببناء القباب عليها ، واسراجها ، والصلاة عندها ، واتخاذها أعيادا وجعل السدنة والنذور لها .. فكل ذلك من حوادث الأمور التى اخبر بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته ، وحذر منها ٠٠ كما فى الحديث عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال « لا تقوم الساعة حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين ، وحتى تعبد فئات من أمتى الاوثان » ٠

الموالد :

ولكل من الأولياء حفل يقام بمناسبة يوم مولده ، فيقوم الناس بزيارة الضريح لاداء واجب الزيارة ولاكتساب البركة ، وكل الذين يقطنون المنازل المجاورة للضريح يوقدون المصابيح على أبواب دورهم ، ويقضى الناس تلك الليلة فى سماع قصص الرواة والانصات لترتيل القرآن للقيام بالذكر ، وغالبا ما يستمر المولد أسبوعا ! ٠

والذين يقومون بالذكر فى المولد مثل مولد السيد أحمد البدوى فى طنطا ، أو مولد السيد ابراهيم الدسوقى فى دسوق جلهم من « الدراويش » أتباع الطرق المختلفة ٠

وفى مصر كثير من « الدراويش » وبعض هؤلاء يقصرون كل نشاط لهم فى الحياة على الطقوس الدينية ، ويحصلون على رزقهم من الهبات ٠ على أن رجال الطرق يستأجرون أحيانا بعض الافراد للسير فى الزفة تحت الاعلام حتى يظن أن لهم الاتباع الكثيرين ٠

ومن الصعب التعرف على كل طوائف وجماعات الطرق لان هذه لا تذكر لغير المنضمين للطريقة والذين ياخذون « عهدا » على الشيخ ، ويتم اجراء العهد بان يضع المريد يده فى يد الشيخ مكررا كلمات يلقيها عليه الشيخ واعدا باتباع عقيدته وهدايته وتوجيهه ، وأنه لا ينفصل عنه ولا يتغير عن الطريقة مشهدا الله على هذا ، ثم يقرأ هو والشيخ فاتحة الكتاب وينتهى الحفل بأن يقبل المريد يد الشيخ .

والموالد بدعة أيضا أدخلت على الاسلام ، ابتدعها قوم ضالون لتحقيق مآرب شخصية ، واشغال الناس عن أمور الحياة الجدية . وساعد الدخيل الاجنبى على نشر هذه المعتقدات والخرافات لتسهل له السيطرة على الجماهير ، وتشغلها عن حقوقها القومية .

وفى وصف الجبرتى للمولد الحسينى عام ١٧٩٩ م حينما كانت مصر محتلة من الفرنسيين ما يؤيد هذا القول ، بل فيه شرح لما يحدث فى مثل تلك المناسبات من مساخر ورذائل .

يقول الجبرتى :

« نادى القبطان الفرنساوى الساكن بالمشهد الحسينى على أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والاسواق لأجل مولد الحسين ، وشدد فى ذلك ، واوعد من اغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريالات فرنسية مكافأة له على ذلك ؛

« وكان السبب فى ذلك ، والأصل فيه ، أن هذا المولد ابتدعه السيد بدوى ابن فتيح مباشر وقف المشهد .. فكان قد اعتراه مرض الحب الافرنجى ، فنذر على نفسه هذا المولد ان شفاه الله تعالى . فحصلت له بعض افاقة ، فابتدأ به ، وأوقد فى المسجد والقبة قناديل ، وبعض شموع ، ورتب فقهاء يقرأون القرآن

بالنهار مدارسة ، وآخرين بالمسجد يقرأون بالليل دلائل الخيرات للجزولي • ثم زاد الحال وانضم اليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفي ، والسمان ، والعربي ، والعيسوية : فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها ، وينشد له المنشدون القصائد والموالات • ومنهم من يقول أبياتا من بردة المديح للبوصيري ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) •

« وأما العيسوية فهم جماعة من المغاربة ومن دخل فيهم من أهل الاهواء ، ينسبون الى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى • وطريقتهم : انهم يجلسون قبالة بعضهم البعض صفين ، ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها ، وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ، ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم • وتقف جماعة أخرى ، قبالة الذين يضربون الدفوف فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض ، لا يخرج واحد عن الآخر ، ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ، ويضربون الارض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة ، والقوة الزائدة ، بحيث لا يقوم هذا المقام الا كل من عرف بالقوة • وهذه الحركات والايقاعات على نمط الضرب بالدفوف ، فيقع بالمسجد دوى عظيم ، وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء •• كل احد له طريقة وكيفية تباين الاخرى •

« هذا مع ما ينضم الى ذلك من جمع العوام ، وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والاضاحيك ، والتلفت الى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج ، والسعي خلفهم والافتتان بهم ، ورمي قشور اللب والمسكرات والمأكولات في المسجد ، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاء الماء ، فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ، ملتحقا بالاسواق المتهنة •

« ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ••

« ثم زاد الحال على ذلك بقدوم جماعة الاشاير من الحارات البعيدة والقريبة ، وبين أيديهم مناور القناديل والجوامع العظيمة التى تحملها الرجال ، والشموع ، والطبول والزمور • ويتكلمون بكلام محرف ، يظنون انه ذكر وتوسلات يثابون عليها ، وينسبون من يلومهم او يعترضهم الى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة ، ومن لا يملك قوت ليلته فتجد احدهم يجتهد بقوة سعيه ، ويبيع متاعه ، أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها فى وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة وكل يجتمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته تلك سهران ، ويصبح دائخا كسلان ، ويظن انه بات يتعبد ويذكر ويتجهد ••

« واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين • ولم يزد الناذر لذلك الا مرضا ومقتا واستجلب خدمة الضريح ما لاح لهم من خساف العقول ، مثل الشمع والدراهم ، واتخذوا ذلك حبالة لاكل أموال الناس بالباطل •

« فلما حصلت هذه الحادثة بمصر ، ترك هذا المولد فى جملة المتروكات ثم حصلت الفتنة التى حصلت ، وسكن الفرنساوى فى خط المشهد الحسينى ، لضبط تلك الجهة — وفيه مسايرة ومداهنة — فصار يظهر المحبة للمسلمين ويلاطفهم ويدخل بيوت الجيران ، ويقبل شفاعة المتشفعين ، ويجل الفقهاء ، ويعظمهم ويكرمهم وابطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم فى غير هذه الجهة • وكذلك منع ما يفعله القلقات من أنواع التشديد على الناس فى مثل القناديل •

« فاطمان به أهل الخطة ، وتراجعوا للبكور الى الصلاة فى المساجد بعد تخوفهم من العسكر الذى رتب معهم وتركهم التبكير • فلما انسوا به وعرفوا اخلاقه ، رجعوا الى عادتهم ، ومشوا بالليل ايضا بدون فزع وخوف •

« وترجمانه على مثل طريقته . وهو رجل شريف من أهل حلب ، كان أسيرا بمالطة فاستخلصه الفرنسيس فى جملة من استخلصوهم من أسرى مالطة ، وقدم معهم مصر • فلما اجلس هذا لضبط الخط ، كان ترجمانه يهوديا ، فاحتال بعض

اعيان الجهة ، ورتب هذا الشريف المذكور ، ليكون فيه راحة للنـاس • ففتح له قهوة بالخط بالقرب من دار مخدومه ، وجمع الناس للجلوس فيها ، والسـهر حصة من الليل ، وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقدارا من الليل كعادتهم القديمة • فاستأنسوا بالاجتماعات والتسلى والخـلاعات • وعم ذلك جهـات تلك الخطة ، ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخـلاعة •• وتلك هى طبيعة الفرنساوية • فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث ، واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط ومعه زوجته ، وهى من أولاد البلد المخلوعين أيضا » •

الممارسة الدينية للمريد :

والممارسة الدينية للمريد ـ فيما عدا أداء الصلوات طبقا لتقاليد الطريقة ـ هى القيام « بالذكر » احيانا وقوفا فى دائرة أو فى صفين طويلين متواجهين بل احيانا وهم قعود وينشدون معا « لا اله الا الله •• الله •• الله •• » ويكررون الدعـاء مع تحريك رءوسـهم أو أذرعتهم أو بتطويح الجسم كله الى ان يصيبهم الاعيـاء أو الاجهاد الذى يصل بهم الى حالة من الانهيـار ، الا أنهم بالممـارسة يستطيعون القيام بالذكر لفترات طويلة دون توقف •

وغالبا ما يصحب هذه الاناشيد واحد او اكثر من العازفين على « الناى » أو « الارغول » ، ويستخدم بعض الدراويش طبلة صغيرة أو دفا فى أثناء الذكر كما يقوم البعض برقصات معينة •

ومن الأمور المضحكة المبكية ما يجرى فى طقوس الطريقة السـعدية ، اذ يقوم شيخ الطريقة بالسير بجواده على أجساد اتباعه ويطلق على هذا «الدوسة» .

ويصف عبد الرحمن الوكيل الذكر الصوفى فى كتـابه « هذه الصوفية » بقوله :

« فى أعياد الوثنية التى يسمونها موالد ، وفى معـابد الاضرحة وفى كهوف الدراويش ، وقد اتخموا بطون الطواغيت بالسحت فى تلك الحمات يقيم الصوفية

حانات الرقص ، أو ما يسمونه الذكر ، فيجلس الشيخ بين صفين من دراويش تعشقهم الرذيلة ، ودرويشات نفرت منهن الفضيلة ، ثم يصفق بيديه اللامعتين من دسم الحرام ايذانا ببدء الذكر ، ثم يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله ملحدا في حرفه وفي النطق به !! وغضون جبينه تهمز الحياة وتلمز التقوى ، ومنشد القوم يطربهم بالغزل الداعر في ليل وسعاد ، أو بالدفوف يدق عليها الشيطان . وبالنايات تصفر فيها الشهوة ، ثم يهب الشيخ ويهب معه المريدون، وثمة من يميلون يمنة ويسرة ، متأودة أعطافهم تأود الراقصات يلمحن في أيدي الرواد دنان الخمر وفتنة الذهب، وما هي الا لحظة، حتى تجن هذه الأجساد بما فيها من رغبات مكبوتة، مفصحة عن غليلها المحترق بالتأوة المخنث ، والتمايل الخليع ، وبالاصوات المنكرة المبحوحة من عويل الخطيئة والاستغاثة بزينب أو نفيسة . لا يريدون زينب الطاهرة ، ولا نفيسة العابدة ، وانما يريدون بها شيئا آخر !! فكل يغني على انثاه !! وهكذا يظلون في اقتراف هذا الزور الملحد ساعة أو ساعتين ، كل يريد أن يثبت للعيون الرانية في لهفة ، والزغاريد المغازلة في توجع مشوق ، انه حيوان قوي الجسد !! وبعد هذا يزعمون أنها كانت من ساعات التجلي !! » .

ويعلق على ذلك بقوله : ما هكذا ذكر الرسول ربه ، وما هكذا ذكر الصحابة من بعده ربهم ، ما ذكروه بقيادة واحد منهم ينطق بالاسم مصفقا ، وينطقون به وراءه . ما ذكروه ، ولهم منشد يغازل ليل !! ما ذكروه واصواتهم من ضجيجها تفزع الليل ، وتفضحك جنباته ، ما ذكروه جزاء مضغة لحم ، أو نفثة شيشة !! ما ذكروه بالنايات والطبول والدفوف، ولكنهم ذكروه، كما علمهم رسوله . أما عن ذكر الله ذكر الصوفية فهم : مشركو الجاهلية ، وكفرة اليهودية ، والمسيحية » .

والواقع ان ذكر الصوفية بدعة يهودية ، فقد جاء في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة : « ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص ، بدف ، وعود ، ليرنموا ... هللوا ، سبحوا الله في قدسه ، سبحوه برباب وعود ، سبحوه بدف ورقص ، سبحوه بأوتار ومزمار ، سبحوه بصنوج الهتاف » .

ضرب الزار [1]

الزار أحد مظاهر رواسب الماضي الاجتماعية العقيمة التي لا تزال تسود مجتمعنا برغم أنه يرنو نحو الرقي والرفاهية ، وبرغم ما حققه من أسباب التقدم العلمي والثقافي ، ولا يزال كثير منا يعتقد في هذه الخرافة الزائفة ولا يعلم أنها دخلت مجتمعنا من الخارج ٠

واحتفالات الزار قريبة الشبه جدا بتلك الاحتفالات الدينية التي تقام في القبائل البدائية لطرد الارواح الشريرة التي سبق أن أشرنا اليها ٠

وتنتشر بين أولئك الذين يؤمنون بهذه الخرافة أوهام بأن عقد الزار يجرى لتهدئة الارواح التي تعرف بعدة اسماء مثل « الزار » أو « الدستور » أو « الريح الاحمر » كما يعتقدون بأن من تتملكه هذه الارواح تسيطر عليه ويخضع لها ، ويفعل كل ما تأمره به ٠

ويساعد على استمرار هذه المعتقدات بين الناس ما ينشره المشعوذون أو من ينتفعون من وراء عقد الزار من شائعات وأساطير خرافية تجعل الجهلة وضعاف النفوس في حالة من البلبلة والاضطراب ٠ ولذا سنحاول قبل أن نحلل هذه الظاهرة سرد بعض القصص حتى يتسنى للقارىء أن يدرك مدى الاثر السيكلوجي الذى قد تتركه هذه القصص في نفوس الكثير من الناس تبعا لاختلاف أمزجتهم ٠

على أننا نبغي من وراء سرد هذه القصص التي سيتبعها وصف لطقوس احتفالات الزار أن نوضح الاثر الفسيولوجي لهذه الطقوس ، وأن نربط بين هذه الاساليب وتلك المستخدمة في عمليات التحويل الديني والسياسي ٠

---

(١) كلمة الزار مشتقة من اللغة الأمهرية ومعناها : الروح الشريرة ، وقد بدأ الزار في اثيوبيا ، ومنها الى السودان ، ثم جاء الى مصر من هناك ٠

ففى احدى القصص يقال : انه كان هناك عامل مسه « الريح الاحمر » لعدة سنوات مما جعله ينفق نقوده على الشموذين ولكن حالته الصحية ازدادت سوءا ، واخيرا بدات حماته تجزع لحالته الصحية وقررت ان تضرب له الزار بأى ثمن ومهما بلغت التكاليف . فاقترضت بعض النقود كما رهنت زوجته حليها واتصلتا « بالشيخة » او « الكودية » لتقوم بطقوس التهدئة أى « ضرب الزار » . وقد اجرى الحفل واستعاد الرجل صحته بسرعة ، واستطاع أن يقوم بالمزيد من العمل، وأن يستعيد حلى زوجته من المرابى الذى رهنتها عنده ، وأن يسدد لحماته ما هو مدين به لها .

وقرر العامل بعد ذلك أن يرحل الى مدينة اخرى حيث وجد فيهـا عملا افضل ، وتصادف فى اليوم السابق للرحيل ان جاءت الشيخة الى منزله وعرضت أن تحرق بعض البخور الذى يطلبه الـ « دستور » ولكن الرجل رفض هـذا العرض فى عنف غير مهذب وأخذ يسب اسم الـ « دستور » .

وبعد أن ذهب الى مقره الجديد عاوده المرض ثانية ولم يستطع القيام بعمله ، وذات يوم ذهبت الشيخة الى منزل حماته وهى جازعة وقالت : أنهـا فى الليلة السابقة جاءها الـ « دستور » وأخبرها بأن زوج ابنتها سيموت لأنه سبه ورفض ان يحرق « البخور » ، وفى اليوم التالى جاءت برقية تنعى الرجل لاسرته .

والقصة الثانية تختص بفتاة تقدم للبناء بها رجل دفع مهرها واشترى أبوها الأثاث والثياب واعد كل شىء لاتمام الزواج ، وفى اليوم السابق للزواج بدات الفتاة التى كان من المعروف أن بها مسا من « الريح الاحمر » تقوم بحركات تدل على الخبل والهوس ، اذ أن الـ « دستور » يعارض هذا الزواج ، وتعرضت الفتاة للاجهاد والتعذيب من السادسة مساء حتى منتصف الليل .

وحار الأبوان فى هذا الموقف ، وحاولا عبثا التفاهم مع « دستور » فالفتاة يجب الا تتزوج من هذا الرجل والا فانهـا ستموت ، واخيرا وافق الابوان على ما يطلبه على شريطة أن يتولى هو اخطار الزوج بأنه لا يرضى عن زواج الفتاة منه .

ووافق الـ « دستور » مباشرة على هذا الحل ، وفى الصباح الباكر سمع الابوان طرقا عنيفا على الباب ، وعندما فتح الاب الباب دخل الزوج مذعورا وهو يقول : أنه لا يستطيع أن يتزوج الفتاة لان الـ « دستور » الذى يتملكها عذبه طوال الليل آمرا اياه بأن يمتنع عن زواجها .

كما أن هناك قصة فتاة أخرى اصابها مس وتملكها « دستور » لمدة ثلاث سنوات ، ولم يكن يضايقها كثيرا ، وكانت بين حين وآخر تشترى بعض الثياب الجديدة والحلى التى يطالبها بشرائها وبارتدائها ، وكان ابوها على درجة من الثقافة، فرفض أن يضرب لها الزار . وتصادف ان تقدم للفتاة رجل للزواج منها ، فوعد امها بأن يهيىء لها فرصة لعقد الزار بعد اتمام الزفاف وذلك لانه بعد أن يتم زواجه سيرحل الى عمل للحكومة فى مكان بعيد .

وبعد أن تمت الاتفاقات الأولية على الزواج أصيبت الفتاة فجأة فى منتصف الشهر العربى اذ كان القمر بدرا بلوثة وراحت تعدو فى فناء المنزل وهى تصرخ كحيوان متوحش ، وأخذت تلقى بنفسها على الارض وتضرب رأسها بجدار الحائط .

وكانت الفتاة طويلة القامة نحيلة الجسم ومع هذا فان أربعة رجال لم يستطيعوا أن يحولوا بينها وبين ثورتها ، واضطروا الى غلق الباب لانها كانت تريد أن تجرى الى الطريق لتلقى بنفسها فى النهر .

وظن بعض الذين اجتمعوا على هذا المشهد انهم يستطيعون تهدئتها بسكب المياه فوق رأسها فاقتادوها الى صنبور المياه وغمروها من قمة رأسها الى اخمص قدميها بالماء ولكن دون جدوى ، وكانت الفتاة تصرخ فى البداية صرخات عالية غير مفهومه ، ولكنها بعد وقت بدأت تنطق بصوت غريب متهجمة على امها وعلى أبيها لرفضهما « ضرب الزار » .

وتجمع الجيران الذين جاءوا لرؤية هذه الضجة وحاولوا تهدئة « الريح » وسألوه عما يطلبه فقال على لسان الفتاة : « أريد أن يعرفوا أنني غاضب لأنهم رفضوا ضرب الزار لى هذه السنوات الثلاثة » .

وكان الناس قد استطاعوا أن يرغموا الفتاة على الجلوس ، فجلست على ركام من الاتربة والقاذورات وكانت كل ثيابها مبتلة بالماء فازدادت قذارة . وكانت تدور برأسها يمنة ويسرة كالحيوان الجريح محاولة انتهاز فرصة لتسرع الى النهر .

وعندما بلغ الاضطراب ذروته جاءت الشيخة التى كانت تسكن فى منزل قريب وقد اقبلت فى هدوء تسير الهوينى متدثرة فى ثياب بيض ، وتتحدث بصوت خفيض ، وامسكت بيد الفتاة وهى تقول بصوتها الخافت الهادى :

« لماذا هذا كله الا تعرفينى أنا « حبوبتك » جدتك ، ان هـذا يضرك ثم ما هذه القذارة يحسن أن تغيرى ثيابك وأن ترقدى فى فراش نظيف » .

وهزت الفتـاة راسها يمنة ويسرة فى خجل وهى تهمس « معلهش .. معلهش اننى آسفة ! » .

وتركت الفتاة الشيخة تقودها الى داخل المنزل ثم رحلت الشيخة الى منزلها بعد أن أبدلت للفتاة ثيابها وارقدتها فى فراشها .

ووافقت الاسرة على ضرب الزار ، وفى الصباح استيقظت الفتاة من نومها مجهـدة وفى وجهها وجسمهـا بعض الكدمات ولكنهـا لم تكن تذكر أى شىء مما مر بها .

* * *

والواقع أن للزار ارتباطا وثيقا بعملية غسيل المخ ، اذ ان الطقوس التى تقام فيه كما سيأتى فيما بعد تصل بالمريض الى درجـة من الانهيار العصبى الكامل بحيث يكون متقبلا لاى ايحاءات توحى به اليه .

على أنه لكى نستطيع أن نوضح الاثر السيكلوجي والفسيولوجى لاحتفالات « ضرب الزار » نرى أنه من المناسب أن نصف طقوس هذه الاحتفالات ٠

والعادة أنه حينما تريد امراة التاكد من ان بها مسا فانها تذهب الى الشيخة وتعطيها قطعة من ثيابها تكون قد ارتدتها كثيرا « الأثر » فاذا ما جاء الليل رقدت الشيخة بعد أن تضع قطعة الثياب تحت رأسها مع بعض الحلوى والسكر ، وتجىء السيدة المريضة الى الشيخة فى المنام لتخبرها عن متاعبها وتكشف عن « الأسياد » وعما يطلبونه منهـا ، وفى الصباح تذهب الشيخة الى منزل المريضة وتحرق البخور ويحل أحد « الأسياد » فى المريضة نيابة عن الباقين ، ثم يتحدث بلسان المريضة ليخبر الشيخة بما يريده الأسياد ٠

وعندما تذهب الشيخة الى أى منزل لضرب الزار تصطحب « فتياتها » معها لمعاونتها ، وبرغم أن أجر الشيخة ليس كثيرا ، فان التكاليف الكثيرة للزار ترجع الى أثمان الماشية والطيور التى تذبح فى أثنـاء الحفل ، وكذا الى اثمان الحلوى والمشروبات ، ونفقات الطعام للشيخة ولاتباعها ٠

ولما كان « الزار » يقام لمجموعة من الاسياد فان كلا منهم له مطالبه الخاصة من : الثيـاب ، والحلى ، وأغطيـة الوجه والرأس ، والعصى ، وملابس الرجال والنساء ، والحراب وما اليها وكل هذه الاشياء تتكلف الكثير ٠ وقد تستجدى بعض هذه الاشياء أو قد تمنح ، ولكنها لا تعار ولا تقترض ، وكل ما تشتريه امرأة من أجل الزار لا تبيعه ولا يهدى ولا يوهب حتى تموت هذه المرأة ، بل انها تحتفظ بكل الاشياء معزولة عن باقى حاجاتها حتى ترتديهـا بأمر الشيخة ، والمرأة التى تهمل احضار الاشياء اللازمة لاسترضاء « الريح » تعنفها الشيخة ، ثم انها لا تعرف الراحة والهدوء نتيجة لما يقوم به « الأسياد » ٠

* * *

وتبدأ احتفالات ضرب الزار بصورة متماثلة ، فعندما تصل الشيخة الى المنزل يبدأ اعداد الغرفة التى اختيرت للحفل ، فينقل كل ما فيها من اثاث ، ثم تمسح بالماء وتفرش بالحصير أو السجاد من الجدار الى الجدار ٠ وتوضع فى جوار

الجدار « مرتبة » أو شـلته تجلس عليهـا المريضة يحيط بها بعض صديقاتها المختارات اللاتى « ذبحن » من قبل وهو اصطلاح يطلق على النساء اللاتى عقـد لهن الزار من قبل ٠

وتجلس الشيخة أمام المريضة تحيط بها معاوناتها والضاربات على الآلات الموسيقية ٠ وفى تلك الليلة « تتحنى » المريضة وكأنها فى ليلة زفافها ، وتعطى كل الحاضرات النقود للشيخة داعيات للمريضة بالشفاء ٠

وفى اليوم التـالى يبـدأ الحفل « بفتح العلبة » وهى عبـارة عن صندوق البخور[1] الذى جاءت به الشيخة معها ، فتضع بعضا منه على النار ٠

وتأتى بالآلات الموسيقية التى تستخدم وهى عادة : طبل كبير مستدير ، والطار ، وطشت يقرع عليه بالعصى ٠

ولكل من « الأسياد » ضربات مخصوصة على الطبل ، فتضبط الشيخة النغم والايقاع بادئة بالاسياد الكبار ، ثم تهبط تدريجيا الى الصغار ، ثم تتوسل الى كل من هؤلاء الأسياد لارتداء ثياب خاصة وتدخين السجاير ، وعند التوسل الى كل من هؤلاء الاسياد تقوم النساء اللاتى أجرين عقد الزار من قبل بالرقص وهو عبـارة عن اهتزازات وحشـية عنيفـة مع تحريك أذرعتهن حركات تشـنجية ارتجاجية ، أما اللاتى لم يعقدن الزار لانفسهن من قبل فانهن يبقين جالسـات ولا يسمح لهن بالرقص ويكتفين بان يحركن اجسـامهن يمنة ويسرة ، كمـا لا يسمح لهن بالجلوس على المراتب الموضوعة فى جوار الجدار والتى أعدت فقط للصفوة من المختارات اللاتى لهن سابق تجربة فى الزار ٠

وعادة لا يبدأ الرقص الذى تقوم به سيدة واحـدة بمفردها الا بعـد أن يسـتمر دق الطبول لوقت طويل ، ويتوقف ذلك على الصـورة التى نزل بها « الدستور » عليها أى كيف تملكتها الارواح ٠

---

(١) يتكون بخور الزار من : المصطكاه ، والعود ، والجاوى ، والرحجير ، والكافور الطيار ٠

وقد تبقى بعض النساء جالسات هادئات وسط هذا الهرج الذى يجرى من حولهن ، ولكن أغلبهن يصبن بنوع من الغيبوبة فى أثناء الرقص فتلمع اعينهن وهى ثابتة فى محاجرها نحو اتجاه واحد ، فاذا ما وصلت دقات الطبول الخاصة « بالسيد » الذى ينزل فى أجسادهن الى نهايتها فانه يبدو على وجوههن نظرات حيرة وارتباك وتضع كل منهن يديها على وجهها وكأنها تريد أن تنزع شيئا منه ، وقد تتكرر هذه الحركة أكثر من مرة أثناء الرقص ، وأحيانا تحول أعينهن الى أعلى حتى تكون حدقتها البيضاء هى وحدها المرئية الواضحة .

وفى بعض الاحيان عندما تنتهى الغيبوبة التى سببتها دقات الطبول تلقى الشيخة أو مساعدتها الخاصة بعض الرماد المتخلف فى مجمرة البخور على رءوسهن وظهورهن .

والعادة أنه عندما يبدأ دق الطبول فى أول الحفل تحمل مساعدة الشيخة مجمرة البخور فى احدى يديها بينما تحمل صندوق البخور باليد الاخرى ، ثم تنتقل بين النساء فتقدم المجمرة لكل سيدة لتمرر ذراعيها وسط الدخان المتصاعد من المجمرة وتضع المجمرة اسفل ملابسها كما تضع قدميها على التتابع فوق رماد المجمرة وتضع كل من النساء شيئا من النقود فى صندوق البخور .

ويستمر دق الطبول فى كل مرة من عشر الى خمس عشرة دقيقة يتخللها فترات للراحة ، وقد يقدم للمريضة الطعام أثناء فترات الراحة .

ويجب ألا يتخلل حفل الزار أى شجار تشترك فيه المريضة والا انتقم « الدستور » لنفسه من المريضة وربما يقتلها .

ولكل « سيد » من هذه الاسياد « اسم » ، كما أن له دقات الطبول الخاصة به وكذا الثياب التى ترتدى لتمثيل شخصيته .

وفى اليوم الثانى يذبح الحيوان المقدم للضحية ، ويكون قد سبق أن دثر بثوب أبيض وأطلق فى فناء الدار . وتبدأ الشيخة بدق الطبل وترقص النسوة

حول الحيوان الذى يصاب هو نفسه بخبل ويحرك راسه يمنة ويسرة. ومما يضحك ان تشترط الاسياد صفات خاصة في الذبيحة كخروف ابيض على راسه علامة حمراء ، أو ديك أحمر برأس أسود ، وفي نهاية الرقص تمسك الشيخة بطبق تضعه أسفل عنق الحيوان، ثم تمسك النسوة بأرجله، ويقوم الرجل بذبحه، ويجمع الدم ويرش فوق يدى المريضة وقدميها وراسها ، وبعد ان تلوث المريضة بالدم تستطيع أن تقوم لترقص مع الراقصات عندما تدق الطبول ، كما تستطيع كذلك كل من الصفوة المختارات من النساء ان تضع قطرات من دم الحيوان الذبيح على جباههن ، وفى مقابل هذا فانها تضع فى الطبق الذى به الدم بعض النقود للشيخة.

ويوضع لحم الحيوان في قدر كبير يغلى على النار ليوم كامل • وفي اليوم الثالث توضع الراس والأطراف الأربعة فى طبق كبير يحمل الى الغرفة التى بها الزار ، وتقطع الشيخة الرأس وتعطى المريضة قطعة صغيرة من اللسان والمخ والاذن والرقبة ، وبعد ذلك يقدم اللحم لكل النساء اللاتى حضرن الزار ، ولكن يجب الاحتفاظ بكل قطع العظم لتاخذها الشيخة للاحتفاظ بها لفرصة اخرى بعد انتهاء « ضرب الزار » •

وقرب انتهاء الحفل تستدعى الشيخة كل النساء اللاتى سبق أن عقدن حفلات للزار ، فيتجمعن قرب جدار الغرفة مواجهات لبابها وتقف المريضة في مقدمتهن ، وعندئذ تقف كل النسوة اللاتي يحضرن الحفل ويصطففن بجوار الجدران ، وتقف واحدة او اثنتان من مساعدات الشيخة وقد حملتا الطبلة الصغيرة المسطحة والطار ، وهنا تلتمس الشيخة حضور الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ محمد لحضور الذكر وهنا تنحنى كل النسوة وكانهن يقمن بالذكر •

وفى النهاية تعطى المساعدة التى فى المقدمة اشارة بيدها الى المريضة التى تسرع بالخروج من الغرفة وتتبعها كل النسوة الباقيات وهن يقذفن بايديهن الى اعلى رءوسهن ، وبعد ذلك تعود المريضة الى غرفتها •

وتبقى المريضة بعد ذلك في منزلها لا تتركه لمدة سبعة ايام أو عشرة ، ويجب الا تتعرض لاى انفعالات محزنة كأن تذهب مثلا الى عزاء ، وان كانت تستطيع أن تحضر زارا آخر أو تحضر حفلة زفاف ٠

على أن اجابة مطالب « الريح » أو « الدستور » من أهم مطالب الاحتفال ، والا فانه حسب قواعد الزار يصبح عديم الفائدة ، بل قد تسوء حالة المريضة لعدم اطاعتها أوامر الريح ٠

* * *

والواقع أن الذين يعتقدون في الزار ، مصابون باعراض نفسية أو عقليه وتحت تأثير عاثلاتهم أو جهلة يؤمنون بالخرافات ٠ فالزار ليس الا وسيلة من الوسائل التى تساعد على التفريغ الانفعالى للمريض ، حيث تساعد : أصوات الطبول الصاخبة ، ورقصات المرضى العنيفة ، ورائحة البخور الاخاذة ــ وشكل دم الذبيحة ــ على احداث حالة من الانهيار تعقبها غيبوبة للمريض وهى شبيهة بتلك التى تحدثها الصدمات الكهربية فى علاج مرضى الطب النفسانى ٠

وقد سبق أن بينا أنه بزيادة طول فترات التوتر على الانسان تحدث له فى النهاية حالة من الانهيار العصبى وتوقف كامل لوظائف المخ حيث يصبح الانسان لا يستطيع أن يتحكم فى تفكيره وتزداد قابلية الايحاء عنده ، والطقوس التى تقام فى احتفالات الزار التى سبق أن شرحناها تصل بالمريض فى النهاية الى تلك الحالة ٠

على أن علاج المرضى الذين أصابهم مس عن طريق اشاعة الفوضى فى الوظائف الطبيعية فى المخ بواسطة الهجوم عليه بانغام صوتية متوافقة قوية تليها أخرى بتوقيت مختلف معروفة فى جهات كثيرة من العالم وخاصة فى القبائل البدائية ٠

وتصف « ماديادرين » فى كتاب Livine Horsemen تفصيليا الآثار الفسيولوجية والسيكولوجية لدقات الطبول على عقلها ، فكانت قد سافرت

الى جزيرة تاهيتى بمنحة دراسية ولتصوير الرقص التاهيتى فى فيلم سينمائى ، فانتهى بها الامر الى سيطرة « ارزولى » Erzulie اله الحب عليها ، وهى تقول ان الطبول أحدثت فيها تدريجيا حركات بدنية لا يمكن السيطرة عليها ، وفى النهاية شعرت بان شيئا يسيطر عليها ويتحكم فيها · وفى شرحها لهذه الحالة تقول :

« ان جمجمتى كالطبلة ، وفى كل دقة كبيرة احس شيئا مثل سن العصا يدق ساقى الى الارض ، وملأ الغناء سامعى داخل راسى ·· سميزقنى هذا الصوت لماذا لا يتوقفون ؟ اننى لا استطيع تحريك ساقى بحرية ·· لقد وقعت فى الفخ ولم يعد لى مخرج منه · ان قوة غريبة تسرى فى عروق ساقى كالمد العاتى ولا أستطيع أن أتحملها ، ومن المؤكد أنها ستجعل جلدى ينفجر · واصرخ من اعماق نفسى ·· الرحمة فاسمع صدى كلمة Erzulie يتردد من اصواتهم وصراخهم فتميد بى الارض ، وأتهاوى وهذا هو كل شىء » ·

ثم تحاول أن تنقل بعض المشاعر والانطباعات الغريبة التى استولت عليها اثناء رقصتها وهى فى غيبوبة حول أعمدة دار اجتماعات طائفة الفودو فتقول :

« اذا كانت الارض سماء فان الهاوية تحت الارض تكون لها سماواتها بالمثل ، ان الفرق بينهما لا يزيد على فرق زمنى وهو الزمن الذى تدور فيه الارض دورتها » ·

وحينما افاقت مايادرين من غيبوبتها استمتعت بمشاعر البعث الروحى وتصف هذه الحالة بقولها :

« كم تبدو الدنيا صافية عند اول ضوء شامل ، وكم تبدو فى شكلها هى خلوا من أى ظل من ظلال المعانى ·· فى هذه اللحظة وكما فعلت أرواح الموتى فعلت أنا بالمثل اذ عدت الى نفسى » ·

وقد استخدم اليونانيون القدامى أيضا الرقص الدينى كعلاج شاف للأمراض العصبية ، وكانت طقوسهم المحبوبة تتكون من الرقص بشكل مبالغ فيه على نغمات الزار ودقات الطبول حتى ينهار الراقصون والراقصات من الاعياء .

ويبدو أن الكثيرين ممن يستخدمون نفس هذا الاسلوب لشفاء المرضى الذين مستهم الارواح يحاولون أن يفسروا ذلك مع اضفاء شروح وتفسيرات علمية مختلفة •

فيصف دى براجنو فى كتابه «A Cure for Serpant» علاج فتاة أوروبية في طرابلس كانت تعانى من الاكتئاب بقوله :

« قيل ان ضفدعة ضخمة ارجلها مخضبة بالحناء تحتوى على الجنى أو الروح الشريرة هى التى منحت شافى الامراض القدرة على الشفاء دون دواء أو بواسطة اثارة التشنجات العضلية فى المرضى • ولقد تطلبت الطريقة أن ترقص الفتاة المنقبضة حتى تصاب بلوثة ، وتستمر فى ذلك لساعات طويلة تصاحبها الدفوف والاناشيد المتوافقة النغم ، واستثارة متزايدة حتى ينساب فيض من الزبد والعرق من جانبى فمها ، وفى النهاية تطلق المريضة صرخة مدوية وتسقط على الارض فتخلع ملابسها ، ويقذف بها فى الماء لعدة مرات •

« وبدت الفتاة فى عريها كما لو كانت قد قدت من العاج ، وهى معلقة بين سواعد الزنجيات اللاتى كن يحملنها الى الحوض ، وعندما شاهدت الفتاة ثانية كانت متدثرة ببطانية وقد تغيرت تماما ، اذ ابتسمت فى وداعة واتجهت بعينيها الى السماء ، وتلقت تهانى صديقاتها وهى باسمة ، ثم صحبها أصدقاؤها الى أقدام الساحر الذى كان يقف صامتا كالتمثال طوال هذه العملية لا يحرك ساكنا الا حينما تحرك ليأخذ الضفدعة المخضبة بالحناء ليضعها فى حجره » •

ويقارن دى براجنو بين هذا الاسلوب وبين استخدام الصدمات الكهربية لاحداث تشنجات وهزات فى المرضى بقوله :

« يبدو أن العلاج باستخدام الصدمات الكهربية لاحداث تشنجات وهزات فى المرضى المصابين بالاكتئاب ينتمى هو الآخر الى هذا النوع من العلاج الفسيولوجى ؛ فالمخ يستثار هنا كهربيا للحد الذى يحدث تشنجا ويستمر هذا التشنج حتى يصير المخ فى حالة توقف كامل ينتهى به الى غيبوبة مؤقتة ؛ ولذا فليس من المستغرب بعد ذلك أن نرى تلك الآثار الهائلة فى علاج مرضى الاكتئاب

بالصدمات الكهربية ثم لا نشبهها بتلك التي تحدث بالاساليب الدينية على الرغم من جميع النظريات الفلسفية والميتافيزيقية المعقدة التي تبررها » •

ولكن هناك ظاهرة رئيسية في مرضى الاكتئاب وهي عدم استجاباتهم بالمرة للجدل العقلي أو العزاء الروحي ؛ لان انفعالات المريض تكون مستمرة سواء كان ما يحيط به سارا أو محزنا ، فتستمر حالته النفسية حتى تزول عنه غمة الكآبة ، وأحيانا تكون النوبات على فترات يفصل بينها لحظات من السلوك الطبيعي والسلوك الشاذ ، أو قد تكون الحالة مزمنة فتستمر لسنوات •

ولذا يرى سارجنت أن استخدام وسيلة فسيولوجية يسيرة للعلاج بالصدمة الكهربية هي الوسيلة الفعالة لعلاج هذه الحالات •• ويقول في ذلك :

« ان استخدام وسيلة فسيولوجية عادية عن طريق العلاج بالصدمة الكهربية تشفى كثيرا من المرضى الذين يعجز أكثر رجال الدين قداسة عن عمل أى شيء من أجلهم ، ويتم شفاء هؤلاء المرضى في فترة ثلاثة أو أربعة اسابيع بدلا من أن يموتوا كما كان يحدث أحيانا نتيجة الانهاك الناجم عن العذاب الدائم من الندم والاحساس بالذنب •

وقد لا يحتاج الامر اطلاقا الى علاج نفسى للقضاء على النوبة ، ويبدو العلاج ناجحا فعالا ، ويحدث هذا بالمثل بالنسبة للمصاب بالامراض العقلية تحت تأثير المخدر وهو فاقد الوعى تماما لا يحس شيئا على الرغم من أنه لا يزال من الضرورى أن يمر بنوبة عصبية لكى يصل الى نتيجة طيبة • ومن المهم أيضا ان نلاحظ في الانواع الاخرى للامراض العصبية كما في حالة القلق والنورستانيا الحادة أن هذا العلاج القوى قد يصل بالمريض الى حالة أسوأ ، وهذا يقودنا الى أن الانماط المختلفة بسلوك العقل الشاذ كثيرا ما تحتاج الى أساليب مختلفة في علاجها » •

ومن ثم فنحن نرى أن معتقدات الزار كلها أوهام باطلة ، وهي تشبه الى حد كبير تلك الاحتفالات الدينية التي تقام في المجتمعات البدائية الوثنية ، كما انها نوع من أساليب غسيل المخ التي تؤثر تأثيرا بالغا في حياة الانسان الاجتماعية •

هذا وبالاضافة الى ما تتكلفه تلك الاحتفالات التى ترهق المريض وأسرته ، فان هذه الطقوس قد تنهك المريض وتزيد حالته سوءا وقد تؤدى بحياته نتيجة الانهيار الذى يحدث له من عنف جو الاحتفال •

ولقد اشرنا من قبل الى كيف كان يتساقط المرضى المحمومون فى حلقات الرقص التى كانت تقام فى أوروبا فى القرنين الرابع عشر والسابع عشر للوقاية من مرض الطاعون ، كما سبق أن أشرنا الى أن علاج الامراض العقلية والنفسية يختلف من شخص لآخر تبعا : لدرجة مرضهم ، وانماط سلوكهم ، وامزجتهم •

ولذا فان الأساليب الطبية هى الوسيلة الوحيدة الناجحة لشفاء مرضى العقول والامراض النفسية • وان كانت هذه الطقوس التى تجرى فى احتفالات الزار توهم المريض بانه شفى ، الا ان حقيقة ما يحدث أنه حدث له تفريغ انفعالى مؤقت نتيجة جو الاحتفال ، ولكن سرعان ما يعاوده المرض ثانية بل قد يكون أكثر قسوة •

على انه من جهة اخرى فان الزار أحد المظاهر التى تدل على تاخر المجتمع : فمعتقداته الخرافية التى يؤمن بها جمع من الناس بعيدة كل البعد عما تنادى به الرسالات السماوية ، وتتنافى كلية مع ما يهديه العلم الحديث للبشرية من وسائل تعمل على اسعاده ، وتبعده عن خرافات الماضى السقيمة •

وخلاصة القول ان احتفالات الزار ما هى الا معركة ضد العقل البشرى ، وهجوم على وظائف مخ الانسان ، وهى فى الواقع لا تختلف قط عن وسائل عمليات غسيل المخ التى تستخدم فى الدين والسياسة •

الادمان على المخدرات :

عرف الانسان منذ أقدم الحضارات سر تاثير انواع كثيرة من المخدرات على عقلية البشر وسلوكهم ، فيقال أن نساء طيبة استخدمن نوعا من العقار كان يبعث فيهن النشوة والسرور ويبعد عنهن الهم والقلق • كما استخدم الحشيش فى

الهند قديما فى الطقوس الدينية ضمن الاناشيد والصلوات التى كانت توجه للآلهة ، وتروى بعض الاساطير الهندية أن الحشيش كان أحب شراب لكبير الآلهة الذى أسبغ شفقته ورحمته على مخلوقاته فبعث بالحشيش الى أهل الارض ليبعد عنهم الهموم والاحزان ، ويمتعهم بمباهج الحياة ، ويقيهم شر القلق والخوف .

والواقع أن السحرة وكهنة المعابد استخدموا عبر التاريخ أنواعا من المخدرات للتأثير بها على معتقدات الناس وغرس أنماط معينة من السلوك تتمشى مع رغباتهم ، وحافظوا على أسرار هذا الصنيع وأخذوا يتوارثونه جيلا بعد جيل حتى شاعت بين جميع الطبقات والامم المتمدينة منها والهمجية .

ولقد سبق ان اشرنا فى الفصل الرابع الى ان طائفة الاسماعيلية استخدمت الحشيش كوسيلة من وسائل التاثير على معتقدات الناس ، كما اوضحنا كيف نجحت هذه الوسيلة فى تحويل كثير من الناس نحو الايمان بعقيدة هذه الطائفة مستغلة الأثر الفسيولوجى الذى كان يحدثه الحشيش فى امخاخهم ، كما رأينا كيف نجحت هذه الوسيلة فى تحويل كثير من الفتيان النجباء الى قتلة سفاكين يحركون كآلة لتحقيق مآرب سياسية .

وهذه الوسيلة لا تختلف كثيرا عما قامت به أسرة حميد الدين فى اليمن بتشجيع زراعة القات ونشر استخدامه بين الناس لتخمد فيهم جذوة التحرر ، ولتهدر انسانيتهم بغية تحقيق السيطرة السياسية .

ومن ثم فان المخدرات تعتبر من الاسلحة الفتاكة التى توجه ضد العقل البشرى لشل ارادته الحرة ، والتاثير على معتقداته فهى تنقض على مخ الانسان وتشل وظائفه فيصبح الانسان أكثر تقبلا لأى ايحاءات جديدة تغرس فيه (١) .

---

(١) يوجد فارق بين العادة والادمان ، فالادمان يعنى حالة من الاعتماد الجسمى والنفسى على المخدر ، وفى حالة توقف المخدر تحدث اعراض جسمية مؤلمة ، كذلك زيادة الجرعة تدريجيا مع تدهور بطىء فى السلوك والشخصية ، اما العادة فهى اخذ نفس الجرعة دون ظهور اى اعراض عند توقف المخدر .

ان استخدام المخدرات والادمان عليها لا يختلف كثيرا عن تلك الاساليب التى تستخدم فى القضاء على انماط سلوك الانسان التى تعودها والايحاء اليه بمعتقدات جديدة ، وبمعنى أوسع نوع من عمليات غسيل المخ ٠

على انه مما يزيد خطورة هذه المشكلة فى مجتمعنا ان الاستعمار وربيبته اسرائيل قد فطنا الى الآثار الفتاكة التى تسببها المخدرات فعملا على ترويجها ، وساعدا على تهريبها داخل البلاد لتقضى على معنويات الشعب ، وتبث فيه عوامل الانحلال الخلقى والاجتماعى ، وتغرس فيه الضعف والاستسلام ، وتلهيه عن الجد والانتاج ٠

فلقد شجع الانجليز أيام احتلالهم لمصر زراعة الخشخاش ، وكل منا يذكر « ابو النوم » الذى كانت الامهات تعطيه لاطفالها حينما يبكون فلا يلبث الطفل أن يسكت بل يضحك ثم ينام ، ولم تكن كل أم تدرى أنها تعطى ولدها الافيون ٠

وعاش الفلاحون فى ظل الرجعية والاقطاع والاستعمار يعانون القلق واليأس ، فلجأوا الى الحشيش يجدون فيه مفرا من الواقع الاليم ، ووجد الاستعمار والاقطاع الفرصة فى الحشيش لتخدير الفلاح المسكين وابعاده عن التفكير فى حقوقه الشخصية والقومية ، فتعاونا على نشره بين الناس ٠

وحينما منعت مصر زراعة المخدرات بعد ذلك ، ظهرت طبقة من المولين الاقطاعيين الذين تجرى فى أيديهم النقود بلا حساب ، ولا تحمل ضمائرهم أى وازع وطنى ، فتعاونت مع أعداء الوطن على تهريبها ونشرها داخل أرض الوطن ٠

ولذا فان دراسة هذه المشكلة تعتبر من اهم الموضوعات الحيوية التى تجذب انتباه كل مجتمع متقدم حتى يستطيع أن يقى أبناءه آفة هذه السموم الفتاكة ٠

* * *

وفى هذا الجزء من الدراسة لن نتعرض لمسائل كثيرة من هذه المشكلة وغيرها مثل النواحى التاريخية او التشريعية او آثارها العلاجية وغيرها او طرق المكافحة اذ أنها ليست موضوع دراستنا ، كما أن الكثيرين قد عالجوها فى كتب

كثيرة • ولكن ما يهمنا فى الواقع أن نتبين الآثار الفسيولوجية التى تحدثها المخدرات فى مخ الانسان ، وكذا الآثار المترتبة على ذلك من ناحية التغيير فى أنماط السلوك ، والاستعداد لتقبل أى ايحاءات جديدة قد تفرض عليه •

والحق أن تأثير المخدرات على الانسان يمكن أن نشبهه بتلك المثيرات التى تنقض على المخ فتحدث اضطرابا فى وظائفه ، وكلما ازدادت شدة الاستثارة بزيادة الكمية التى يتعاطاها الانسان فان المخ يصل الى تلك الدرجة من « التوقف الكامل » التى سبق أن أشرنا اليها ، ويصبح الفرد فى تلك الحالة سهل التقبل لأى ايحاءات تفرض عليه •

وعلى الرغم من أن الآثار العرضية التى تتركها أنواع المخدرات فى نفسية من يتعاطاها تختلف حسب نوع المخدر ، وطبيعة الفرد ، فان جميعها اذا ما أدمن عليها الفرد فانها تصل به فى النهاية الى حالة من الانهيار الكامل وتقف وظائف المخ •

وقبل أن نحاول الربط بين تلك الآثار الفسيولوجية وميكانيكية التحول المذهبى سوف نحاول أن نعطى للقارىء فكرة مبسطة عن التغيير الفسيولوجى الذى تحدثه بعض المخدرات التى تعرف فى مجتمعنا فى جسم الانسان •

فتعاطى الحشيش سواء بالتدخين أو عن طريق الفم يؤثر تأثيرا مباشرا على مخ الانسان ، اذ ينقض على الجهاز العصبى المركزى ويحدث اضطرابا فى وظائف المخ وخاصة تلك المتعلقة بالاحساس والعاطفة •

وقد سبق أن بينا أن الناس تختلف فى تكوينها الجسمانى وأمزجتها المختلفة ، ولذا فان تأثير الحشيش يختلف اختلافا كبيرا باختلاف حالة الشخص الجسمانية والنفسية • فبينما يشعر بعض الأشخاص باحساسات سطحية محدودة عند تعاطيه نرى الآخرين ينتابهم مجموعة من الأعراض الانفعالية والنفسية يمكن أن نلخص أهمها فى الآتى : •

- النشوة التى تتفاوت بين الغم والفرح وذلك تبعا لطبيعة الشخص .
- تخدير أعصاب الحس والحركة التى تتطور بازدياد الجرعة الى نوبات تشنجية وتقلصات عضلية .
- ازدياد سرعة النبض ، وانخفاض ضغط الدم قليلا ، وانتهاء النشوة عادة بالنعاس والراحة .
- ارهاف الاحساس مما قد يجعل الفرد يتوهم تضخم المحسوسات .
- نقصان السكر فى الدم ، وذرف الدموع نتيجة تخدير مراكز الجهاز العصبى العليـا .

وبازدياد شدة هذه الأعراض نتيجة استمرار التعاطى ، فان المخ يتعرض لتوترات تفـوق قدرته على التحمل ، وينشأ عن ذلك مؤقتـا حالة توقف كامل بحيث يصبح الانسان مستعدا لتقبل اى ايحاءات .

واذا ما وصل متعاطى الحشيش الى تلك الدرجة ، فانه يفقد قدرته على تمييز الأشخاص أو الأشياء القريبة ، وكذا على تقدير الزمن والمسافات ، وتبدأ رغباته التى سبق أن كبتت فى الظهور ، وهذه الأعراض هامة جدا لأن أثرها الفسيولوجى له علاقة وثيقة بعمليات التحول الدينى والسياسى ، اذ تجعل الانسان وهو فى هذه الحالة ينقض سلوكه السابق ولو مؤقتا ، ويتقبل انماطا جديدة من السلوك .

ونظرا لأن المتعاطى يتوقع الشعور بعـدم المبالاة ، فان هذا يفسر أنواع السلوك غير العادية التى يسلكها الفرد أثناء تعاطيه الحشيش ، ويزداد اضطراب وظائف المخ كلما ازدادت الكمية المتعاطاة ، وينتج عن ذلك ان يزداد التشويش العقلى للفرد تدريجيا ، ويميل الى الهدوء ، ويشعر شعورا سـارا بالاسترخاء العقلى والجسمانى . ويرغب فى جو هادىء يخلو من أى ازعاج .

كما تستولى عليه حالة من الركود والهدوء التام . فيترك لأفكاره العنان فتتلاحق الأحلام التى لا تنتهى ، وتدور الرؤيا حول المسائل والمغامرات الجنسية،

وقد يتغير شكل المرئيات فى ناظريه فيتخيلها اجمل وأكثر بهاء مما هى عليه • ويعقب هـذا نوم عميق يتراوح بين سـاعة وست ساعات أو أكثر ، وحينمـا يستيقظ تتلاشى كل المشاعر التى كان يحسها •

ومهما يكن من شيء فان الادمان على الحشيش يؤثر تأثيرا بالغا على سلوك الانسان ، وغالبا ما يؤدى به الى حالة من حالات الجنون ، ولقد قسم الدكتور وارتوك جنون الحشيش عدة اقسام اهمها الآتي :

- الهذيان المصحوب باوهام •
- انسطال وقتي وأعراضه الترنح كما هو الحال فى الكحول ، واحـلام لطيفة كما فى حالة الأفيون •
- الجنون الحاد ويصحبه الشعور بالعظمة •
- العته المزمن ويصحبه فقدان الذاكرة وسوء الخلق ، وفى هذه الحـالة يكون المدمن قد حدث له انهيار عقلى نتيجة تلف الياف المخ •

* * *

أما الآثار الفسيولوجية التى يسببها الادمان على الأفيون فهى النحـافة والضعف الجسماني الظاهر والاضمحلال ، كما يفقد المدمن ارادته ويصبح سريع التأثر قريب الغضب ، شديد الحساسية للألم ، وتتدهور اعصابه حتى أنه غالبا ما يصل فى النهاية الى مرحلة الانتحار •

واذا حاول المدمن الاقلاع عن تعاطى الأفيـون فانه يصاب بضعف وآلام شديدة فى كل أعضائه ، وبرودة الأطراف مما يجعله يحاول أن يسعى الى جرعة اخرى من الأفيون •

ويمكن القول ان الأثر المترتب على ادمان الأفيون هو اضعاف الشعور بالقيم، وهذا النكوص الاخلاقي والاجتماعي يعزى الى الأثر المباشر للمخدر ، اذ يصبح المدمن بعيدا كلية عن الحقيقة ، حاد الطبع ، كما تضطرب وظائف المخ وتقل قدرته العقلية ، ويصبح المدمن منطويا منعزلا عزوفا عن الاختلاط ، غير مستقر انفعاليا .

وغالبا ما نجد المدمن يلجأ لأى وسيلة للحصول على المخدر لتفادى الآلام الشديدة ، وهنا يكمن وجه الخطورة ، لأنه يكون فى هذه الحالة مستعدا لأن يسلك أى مسلك اجرامى ، أو يتقبل أى ايحاءات تفرض عليه •

ونود ان نشير هنا الى قصة الأفيون بالصين التى لا تزال عالقة فى أذهان هذا الجيل ، فقد استطاع الاستعمار أن يسيطر على أبناء الصين بنشر الأفيون بين ربوع البلاد ، وكلنا نعرف كيف كانت حالة الصين فى تلك الأيام من تأخر وتدهور وانحلال • ولكن ما أن قامت الثورة الشيوعية بالصين حتى استطاعت أن تقضى على هذا الوباء الفتاك ، فقد أيقنت مبكرا بأن هذه السموم كانت معولا من معاول الهدم الفكرى والانتاجى • أن الفرق بين الصين قبل الثورة وبعدها يؤكد هذا الرأى ، وان تجربة الصين فى حرب الافيون لهى فى الواقع تجربة ناجحة جديرة بالدراسة والبحث •

* * *

أما المورفين وهو من مشتقات الأفيون ، فان مدمنيه غالبا من الاشخاص الذين تتملكهم الرغبة فى حب الظهور ، والذين يميلون الى جذب انتباه الآخرين - وهذا الطراز مهيأ للأمراض الهستيرية ، فغالبا ما يكونون غير مستقرين ، ولا يستطيعون التكيف مع البيئة ، فاذا كانوا من أصحاب المزاج «الشديد الاثارة» فانهم يعملون الى موازنة نقص كفايتهم بالبحث عن مثير فى المورفين ، وهم يجدون فى الادمان على المورفين تغييرا للجو والبيئة المحيطين بهم فيما يصاحبهم من أحلام اليقظة والمشاعر السارة •

أما اذا كان المدمن من أصحاب الأمزجة الاخرى التى سبق أن اشرنا اليها فى الفصل الثانى ؛ فان الادمان فى هذه الحالة قد يكون معبرا عن الهرب من المشكلة التى غالبا ما تكمن فى عدم التكافؤ الجنسى الصحيح ، أو الشذوذ الجنسى •

والهيروين أحد مستحضرات المورفين التى تؤخذ بطريق الحقن تحت الجلد ، الا أن تأثيره أكثر شدة من المورفين ، فهو يؤثر تأثيرا بالغا على المخ ومجموع الجهاز العصبى ، ويؤدى الادمان عليه الى اضمحلال جسمانى وعقلى كبير ، بل يسبب خللا وظيفيا فى جميع أعضاء الجسم •

ومن أهم هذه الآثار الضارة اضطراب وظائف الكبد ، اذ يصـــاب بتلف الخلايا وتحللها ، كما أن للهيروين تأثيرا مهيجا على عضلات الامعاء ، ممـــا ينتج عنه الامساك المستعصى ، وغالبا ما يحتقن الطحال ، ويقل البول ، ويصاب القلب بالتشحيم والتضخم •

ومدمنو الهيروين أكثر المرضى قابلية للأمراض الصدرية، واختلال التوازن الطبيعى لافرازات الغدد التى يكون لها تأثير كبير على تغيير شخصية المدمن •

* * *

ومتعاطى الكوكايين يحدث له نوع من الاستثارة التى تحدث اضطرابا فى وظائف مخه ، فيتوهم أنه يحس الارتياح ، ويتخيل بعض التصورات السعيدة ، ولكن يعقب ذلك نتيجة ازدياد الجرعة أن يزداد اضطراب وظائف المـخ فيحس تأثيرات عكسية ، اذ يشعر باسترخاء واكتئاب وخمول • ويصحب ذلك اتساع الحدقة مع رجفة يسيرة ، فاذا ما ازدادت الكمية فانها قد تصل بمخ الانسان الى أن يتوقف توقفا كاملا ويحدث له حالة من الانهيار التام •

وفى حالة الادمان المزمن يظهر على المدمن كثير من التغييرات التى تحدث حينما يتعرض المـخ لتوترات وصراعات تزيد على قدرته ، اذ تضعف الذاكرة ، وتنتاب المدمن نوبات من القلق غالبا ما تؤدى به الى حالة من حالات النورستانيا ، ويكون فى شبه حلم مصحوب بتخيلات أقرب الى الرسوم السينمائية المتحركة •

ويستعمل الكوكايين عادة للاستثارة الجنسية ، فيحدث فى الرجال زيادة مؤقتة فى القوة الحيوية مع ضعف فى الانتصاب ، أما فى النساء فهو يستثيرهن بدنيا وذهنيا •

ويلجأ متعاطوه الى اتباع وسائل جنسية شاذة حتى يحصلوا على الاشباع الكافى ، وحينما يتعاطى المدمنون الكوكايين يعملون على استثارة بعضهم البعض برواية قصص مختلقة عن الخرافات ، أو الممارسة الجنسية ، ولا سيما الشذوذ الجنسى •

وغالبا ما يجتلب الكوكايين الاشخاص ذوى السمعة السيئة مثل : رؤساء العصابات ، والمجرمين ، والعاهرات ، ونسبة كبيرة من الذين يتعاطونه من الشباب فى سن بين السادسة عشرة والثانية والعشرين ، وهؤلاء يسهل التغرير بهم ، ويدفعهم الفضول وحب المغامرة والدافع الجنسى فى مرحلة المراهقة المتاخرة الى الانضمام الى مثل هذه الجماعات ٠

ويستغل رؤساء العصابات الأثر الفسيولوجي الذى يسببه الكوكايين للسيطرة على أفراد العصابة لتحقيق أساليبهم الاجرامية ، اذ يقومون باغراء الأفراد التابعين لهم بالتعود على الكوكايين حتى يصل الى درجة الادمان التى تجعله فى النهاية آلة تتحرك فى اى اتجاه يريده رئيس العصابة ٠

ويمكننا الآن أن نقول : ان الفرد فى حالة الادمان على المخدرات لا تنمو فيه فقط الرغبة فى تعاطى المخدر ، بل يتولد فيه نوع من الاشتهاء الجنونى له نتيجة التغييرات الفسيولوجية التى يحدثها المخدر فى جسم المدمن لاستخدامه لمدة طويلة ، اذ أن المدمن يحاول دائما أن يزيد تدريجيا من الكمية المتعاطاة حتى يصل على الاشباع الكامل ٠

واذا منع المدمن فجأة من تعاطى المخدر ، فان ذلك يؤدى الى أعراض فسيولوجية ملحوظة مثل : القلق ، او الاكتئاب ، أو الانفعال ، ويتوقف ذلك على طبيعة المدمن ٠

وقد اختلف الباحثون فى تفسير ظهور الأعراض المرضية على المدمن اذا حرم من المخدر ، فبعضهم يرى أن استمرار تعاطى المخدر يكون فى الجسم مادة لها وظيفتها الخاصة لتعادل المادة المخدرة التى يتناولها المدمن ، وهذه المادة سامة جدا فاذا لم يتعاط المدمن جرعة من المخدر ظهر أثر هذه المادة السامة فى شكل أعراض الحرمان التى تزول بتعاطى الجرعة ٠ ولكن البعض يعارض هذا الراى اذ يرى أن أعراض الحرمان ترجع الى أن الخلايا العصبية بعد التخدير الطويل تصبح حساسة جدا عند يقظتها ثانية ، ولهذا تكون الجرعة التالية ضرورية لكى تهدأ هذه الحالة ، كما ان هناك رأيا ثالثا وهو احتمال حدوث تغييرات من النوع الانحلالى فى خلايا أعصاب المخ تنتج تاثيرات عقلية وجسمانية خاصة ٠

نتائج ختامية

ان جعل مخ الشخص العادى ينهار تحت وطأة التوترات التى تفوق حد التحمل ، ومحو الأفكار القديمة ، والأنماط السلوكية ، وزرع أفكار جديدة فى مخ الانسان يعتبر أمرا واحدا ، ولكن الأمر المختلف عليه هو جعل هذه الآراء الجديدة تتخذ لها جذورا ثابتة راسخة .

فكل مدرب من مدربى الحيوانات ، وكل مدرس من مدرسى المدارس يعرف هذا جيدا ، فهو يعرف كيف ينفر من آثار اجازة صيفية طويلة على تلاميذه النجباء ، الا أنه من الجائز أن ينسى : رجال الدين ، أو رجال المنظمات السياسية هذه الأمور .

ولقد كان من بين المكتشفات البارزة التى وصل اليها فى السنوات الأخيرة علماء علم النفس وطب الأمراض العقلية أنه من الأسهل تغيير اتجاهات مجموعة صغيرة من الناس وميولهم ـ ما لم تكن هذه الاتجاهات والميول على درجة كبيرة من الشذوذ ـ بأكثر مما يتيسر تغيير اتجاهات شخص واحد وميوله .

ولقد استطاع عالم النفس الاجتماعي الامريكي ثراشر Thrasher في دراسته لعصابات المنحرفين أن يوضح بأن مثل هذه العصابات تعطي : للفتى المراهق ، أو للفتاة المراهقة ـ ارتباطا اجتماعيا هاما ، كما أنها تمنح كلا منهما وضعا معينا يتردد في النزول عنه ، ولهذا فان افضل طريقة للتعامل معهم ليست بأن يعالج كل فرد منهم وحده على حدة ، بل جعل رؤساء هذه العصابات وقادتها يحولون انتباههم الى وسائل أكثر تقبلا اجتماعيا لارضاء هذه الاحتياجات والمطالب ، وعندما يتم تحول الرؤساء يتحول معهم كل فرد آخر •

وسبب هذا •• وسبب الكثير من الأمثلة الأخرى لعمليات تغيير الميول والاتجاهات أن اتجاهات الشخص ليست دائما شيئا مغلقا في داخله ، ولا هي كذلك بسجايا وصفات من بناء شخصيته ، بل أنهما الأداء المظهرى لدوره داخل جماعة معينة او سلسلة من الجماعات •

ولما كانت احدى وظائف العقل هي أن يمكن التركيب العضوى من أن يتكيف مع بيئة متغيرة فاننا لسنا في حاجة لأن نفهم ان الناس الطبيعيين الأكثر استقرارا ليسوا هم فقط الأكثر قابلية لاستيعاب الاتجاهات السارية في الوسط الاجتماعي الذى يعيشون فيه ، بل انهم كذلك اكثر قابلية لأن يهجروا هذه الميول والاتجاهات الى غيرها اذا ما تغير الوسط الاجتماعي الذى يحيط بهم •

* * *

لقد سبق أن شرحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب العوامل الرئيسية التى تؤثر على سلوك الانسان ، وذكرنا ان هناك كثيرا من العوامل الخارجية

والداخلية التى تلعب دورا أساسيا فى تشكيل الانسان وتفكيره • وقد يكون من المناسب هنا أن نشير الى بعض العوامل الخارجية التى كان لها أثرا كبيرا على فكر الانسان •

لقد كانت الأحوال الاقتصادية فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر هى التى اجتذبت انتباه داروين الى فكرة « أن البقاء للأصلح » فى المجال البيولوجى ، كما أن الأحوال الاجتماعية فى هذا العصر الذى نعيش فيه قد جعلتنا ندرك أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية فى « صب قالب » الانسان •

لقد جعلت الثورة الصناعية الفلاسفة وعلماء علم النفس يفكرون فى الانسان على أنه الى حد بعيد « تكوين مصنوع من قبل » يخرج جاهزا من « الرحم » ، وانهم بذلك قد قللوا من الاهمية التى للطبيعة الاجتماعية ، ونظر هؤلاء العلماء الى « الرجل » على أنه جزيرة بيولوجية ، فكانت فكرة « أن الانسان صنع نفسه » أسطورة تتوافق مع ذلك العصر •

وكانت هذه أسطورة كاذبة زائفة ذلك لأن كثيرا من الناس فضلا عن الطبيعة التى يرثها كل منهم فان هناك كثيرا من العوامل التى تعتبر مسئولة عن بناء شخصياتهم •

* * *

وقد يبدو لنا الآن أن نتساءل : الى أى مدى يمكننا أن نحافظ على شخصيتنا متماسكة بالرغم من أى مؤثرات تفرض على عقولنا ، وتحت ظروف قاسية مثل التى شرحت فى فصول هذا الكتاب ؟

لقد أوضحت تجربة التوعية والتثقيف السياسى فى كوريا أنه ما دامت معنويات الجماعة قوية متماسكة ؛ فان كل صور الضغط ليست بذات أثر على اعضائها • ولهذا كان احد الجهود الرئيسية التى قام بها الصينيون هو تفتيت هـذا التماسك الجمـاعى باثارة المشـكلات داخل الجمـاعات ، وتحريض أحد الأفراد ضد الآخر ، وبذلك تنقسم الجماعة الى شـيع •

ان معنويات الجماعة نوع من الدرع الواقى يحمى الفرد ضد الضـغوط الخارجية بما فى هذا ضغوط كل وسائل الاعلام الجماهيرية •

وبالطبع يتوافر لكل شخص نوع من المعنويات الشخصية حتى ولو كان يعيش فى نطاق ذاتيته وحدها ، وهو يستمد هـذا من حسـه القوى بذاتيته الشخصية ، وبالاتصالات البيئية التى تحفظ له هذه الذاتية ، بل توجدها الى حد بعيـد ، ولهذا فان الغرض الأول لتكنيك اى عملية لغسيل المخ هو ازالة كلا الحسـين بوسـائل مختلفة مثـل : العـزل الاجتمـاعى ، او التعـذيب ، والاذلال ، وغيرها على نحو ما سبق شرحه •

وحتى مع هذا فان الشخص العادى الطبيعى ولو تغير نتيجة لمـا تعرض له من تجربة فانه لا يلبث ان يعـود الى تفكيره الأصـلى ثانية عندما يعـاد الى جماعته الاولى التى كان فيها من قبل •

والشىء البارز فى غسيل المخ السـياسى هو عدم التـاثير الايديولوجى النسبى عندما يترك الشخص الجو الذى حدث فيه هذا التثقيف •

ولا تختلف الصـــورة بالنسبة للمتحولين الى أى عقيدة سياسية ، او الى اى مذهب دينى ؛ ذلك لأنه ما لم يتطابق المعتقد أو المذهب مع الاتجـاهات الشخصية الأخرى السـائدة ، فان المعتقـد لا يلبث ان يغفل ويضيع تأثيره فور الانقطـاع عن الاتصـــال بالمبشر ، أو الداعيـة الى العقيـدة أو المـذهب الجـــديد •

* * *

وقد يـكون من الطريف فى هـذا المجـال آن ندرس الوسـائل التى اســتخدمها جون ويزل ليمســك فى قبضته أولئك الذين هداهم الى عقيدته التى يبشر بهـا ، ذلك لأن هـذه الوســائل ولو أنهـا تستهدف غاية اخرى مختلفة الا انهـا تشبه بدرجة تثـير الدهشـة الوسـائل التى تستخدم اليوم فى عملية غسيل المخ •

لقد كانت اجتماعات طائفة ويزلى تحتاج الى اهتمـــام خاص ، فبعـد آن حول دين عدد كبـير من أهـالى انجلتـرا باســـتعمال وسـيلة اثارة الخوف والألوان المختلفـة من التبشير ، قوى مكاســبه بوسـائل للمتابعة على جانب رفيع من الـكفاية والتى اســتعملت بأسرع ما يمكن بعـد التحـول الدينى المفاجىء أو بعـد ان يحـدث التطهير ، ولقـد قسم ويزلى الذين تحـولوا الى جمـاعات لا يزيد عدد الواحدة منها على اثنى عشر شخصـا ، وكانوا يجتمعون اسبوعيا تحت رئاسـة رئيس معين ، فكانوا يناقشون حينئـذ المشكلات التى تتصل فى طبيعتها اتصالا وثيقا بتحولهم الدينى ، وبطريقة حياتهم المستقبلة وبشكل سرى متفق عليه •

وكان المطلوب أصلا من رئيس الجماعة زيارة جميع الأعضاء المنتمين الى جماعته مرة واحدة على الأقل فى الأسبوع بقصد جمع اشتراكات اسبوعية عادية ، وهذه الوسيلة من وسائل دخول منازلهم سرعان ما جعلته يقرر ما اذا كان التحول الدينى صادقا أم لا ، وقد اختبر بعد ذلك نتائجه فى الاجتماعات الاسبوعية التى كان يعقدها لطائفته فيطرد الأعضاء الذين يثبت عدم توبتهم توبة صادقة مخلصة ، أو الذين يسيرون فى حياتهم على نهج جديد من الطائفة ، وكذلك كان يطردهم من مجتمع أصحاب الطريقة بصفة عامة ، ومن العسير أن نقلل من شأن هذه الاجتماعات الطائفية فى حماية فلسفة أنصار الطريقة فى أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولقد أراد ويزلى أن يتخلص من كل شخص يشك فى وجهات نظره الخاصة فيما يتعلق بالطريق الصحيح نحو الخلاص •

وفى سنة ١٧٦٣ م كتب بالمثل هافر فورد ويست يقول :

« كنت أكثر اقتناعا من اى وقت مضى بان الوعظ الدينى على نهج الرسل بدون لم شمل هؤلاء الذين استيقظوا ، وان تدريبهم على السير فى سبيل الله ما هو الا تنشئة لأطفال من أجل السفاح أو الشيطان » •

وكانت الجماعة تجتمع مرة كل سنة ، وكان يتوقع من الاعضاء فى هذه الجماعات أن يتحدثوا عن تجاربهم ، وما مر بهم فى حياتهم حتى الاعتراف بأخص الأشياء الشخصية •

ومن الواضح أن الاعتراف يوجد تأثيرا ملزما رابطا بين أى جماعة من الناس لأن كلا منهم يشعر بانه مرتبط بالآخر ليس فقط نتيجة لتجربة

« المشاركة » بل أيضا نتيجة أن كلا منهم يحس شيئا نحو زميله تبعا لما سمعه من اعترافه عن شئونه الخاصة .

وفى نهاية كل ثلاثة شهور يتلقى كل عضو بطاقة عضويته ، وقد توضح فيها أن يحضر الصلوات الشهرية . وكان ويزلى يتشدد في ضرورة حضور هذه الصلوات المقدسة بانتظام ، وكانت قوائم أسماء الذين يحضرون كل صلاة تحفظ بعناية ، ولا يعتبر عضوا فى الجماعة من لا يرد اسمه أو اسمها باستمرار فى هذه القوائم ، وكان التغيب لثلاث مرات أو أربع كافيا لاعتبار الفرد غير صالح للعضوية .

وقد وجه أكبر الاهتمام الى « ضم » الشبان والأطفال فى سن مبكرة ، ولما كان ويزلى متأثرا الى حد بعيد بمشروعات روبرت رايكس Robert Raikes الخاصة بمدارس الأحد فانه رأى من الناحية العملية ان يكون فى كل كنيسة مدرسة الأحد الخاصة بها ، كما أنه أحيا فكرة « أعياد الحب Love Feasts » التى عرفتها الكنيسة القديمة والتى كانت عبارة عن اجتماعات لأتباع الكنيسة حيث يقصون فيها على بعضهم بعضا تجاربهم فى الحياة ، ويعمقون بها من شعور الاخوة بين أفراد المجتمع ، وكان من المتوقع ان يزور رئيس كل جماعة التى تتكون من اثنى عشر عضوا أعضاء جماعته مرة كل أسبوع لا ليجمع منهم اشتراكاتهم فى الجماعة ، وانما ليتحقق ما اذا كان تحولهم الى العقيدة مخلصا أم لا ، وكان أولئك الذين لا يتحقق من أن توبتهم مخلصة يستبعدون فورا من الجماعة ومن مجتمع الكنيسة كله ، وقد كتب ويزلى عن هذا :

« لقد جمعت معا كل رؤساء الجماعات وابديت لهم رغبتي ان يقوم كل منهم بالتحقق من سلوك أولئك الذين نراهم اسبوعيا ، وقد فعلوا هذا ، وبذلك امكن الكشف عن أفراد لا يسيرون فى الحياة على الطريق السوى ، وقد امكن فصل بعضهم واستبعادهم ، وقد راى البعض هذا الابعاد شيئا خطيرا ، وخافوا مغبته ، وعادوا الى الله مؤمنين ، وقد تم اجراء هذا فى لندن بمجرد أن كان مستطاعا وفى أماكن اخرى غيرها ، وقد امكن الكشف عن الشريرين وابعدوا ، وهم لو تخلصوا من خطاياهم فاننا نستقبلهم بسرور ولكن اذا استمروا فى غيهم وأصروا على خطاياهم فانهم قد عرفوا بصراحة أنهم لم يعودوا منا ، أما الباقون فقد أسفوا لهم وقاموا بالصلاة من اجلهم ، ولكنهم مع هذا ابتهجوا وهللوا لأن الفضيحة قد استبعدت عن مجتمعنا » .

* * *

ويلاحظ سارجنت فى ضوء نظرته الى الأمر من وجهة نظر بافلوف عن « السلوكية » ــ الوسائل المختلفة اللازمة لتحويل الأشخاص ذوى الطوابع المزاجية المختلفة ــ فمثلا يبدو انه يسهل التأثير فى الأفراد الانبساطيين العاديين Extraverts ، ويمكن جعلهم يحتفظون بطوابع جديدة بوساطة وسائل اثارة غير معينة بالذات ، حيث تؤدى هذه الى احداث انفعالات عاطفية قوية مستمرة او متكررة .

أما الشخص الانطوائى النزعة Entrovert فانه يكون اكثر مقاومة لمثل وسائل الاقتراب هذه ، وبذلك يكون من الضرورى لتغيير سلوكه استخدام وسيلة الانهاك البدنى مع ضغط متكرر فى فترة المتابعة ويصحب ذلك تفسير دقيق للعقيدة .

وتبعا لما وجده ليفتون Lifton (١) ـ وهذا أمر اساسى لتفهم عملية غسيل المخ ـ فان الشخص الذى يغسل مخه يبقى الى حـد بعيد هو نفس الشـخص الذى كانه من قبل ، صحيح انه فى فترة غسيل المخ تكون فى رأسـه مجموعة جديدة من المعتقدات ، ولكنها سرعان ما تنبـذ وتطرد اذا لم تكن تتمشى مع طبيعته السابقة ، أو اذا توقفت الضغوط المستمرة عليه ، ومن ثم يعـود الى طابعه الأصلى بالملاءمة والتوافق مع أى بيئة يواجهها •

والنقطة الهـامة ذات المغزى هنا أنه لا التثقيف السياسى ولا غسـيل المخ قد أوضح أى نتائج دائمة ، اللهم الا فى تلك الحالات التى كان من المتوقع أن تتقبل المعتقدات التى تتواجد او تتولد حتى لو انها قدمت لهم تحت ظروف عادية •

وكمـا سبق ان اوضحنـا فقد تعاون بعض الافراد تحت تأثير التثقيف السياسى لعدة اسباب مثل : متابعة سـير الحيـاة فى يسر ودون مشـكلات ، أو بسبب الخوف ، أو بسبب الشراهة والجشع ، ولكنهم لم يتعاونوا لأسـباب أيديولوجية الا فى اقل القليل من الحالات ، ولم تكن حصيلة النتائج للبرنامج الصينى الشامل فى التحليل الختامى اكثر تأثيرا مما يمكن أن يكون لاجتماع سياسى مثير •

صحيح لقد استطاع الصينيون أن يحصلوا فى بعض الحالات على تعـاون بعض الأسرى ، ولكنهم فى الواقع لم يصلوا الا الى عدد قليـل من المتحولين الأصـــليين •

---

(١) Dr. Robert Lifton, Thought Reform and Psychology of Totalism, A Psychiatric Study of Brainwashing in China, W. W. Norton and Coy., Inc., New York, 1963.

والواقع ان لغسيل المخ نفعه فى ابتزاز او فى اصطناع الأدلة والبينات لاستغلالها فى المحاكمات الزائفة ، ولكن من المشكوك فيه ما اذا كان غسيل المخ ـ كتكنيك ـ يمكن أن يعتبر فى هذا المجال وسـيلة مرضية بدرجة أكبر من اى وسيلة اخرى مثـل التعذيب البدنى الذى اسـتخدمته محاكم التفتيش ، او الذى استعمله الفرنسيون فى الجزائر ٠

ولكن كل هذا لا نفع له لانتـاج متحولين يستمرون فى تحولهم بصـورة دائمـة ٠

* * *

وقـد يكون من الضرورى هنـا ان نفصـح عن تفـاصيل اكثر فكرتين لالدس هكسلى :

الأولى :

انه لو أن مجموعة من أبرز علمـاء الفلسـفة قد تعرضـوا لنغمـات مستمرة رتيبـة كدقات الطبـول الأفريقيـة ، أو كالغناء الهندى المنتظم الايقـاع ـ فانهم ولا شـك سينتهى بهم الأمر الى أن يشـتركوا فى التصفيـق والصياح كمـا يفعل المتوحشون ٠

والأخـيرة :

ان وسـائل جديدة لاثارة الجمـاهير كان النـاس يحلمون بها فى الماضى قد اخترعت وأعدت للاستخدام ٠

* * *

كانت فكرة هكسلى الاولى معنية بالتاثيرات التى للنغمة الرتيبة على العقل البشرى ، وقد قال سارجنت عن هذا :

« يجب أن يكون معروفا على نطاق واسع أن التسجيل الكهربى للعقل البشرى يوضح أنه شديد الحساسية بخاصة الى النغمات التوقيعية الموزونة عن طريق القرع ، وعن طريق الاضواء اللامعة بين كثير من الاشياء الاخرى المؤثرة فيها ، وهذه النغمات والاضواء يمكن أن توجد حالات توتر انفجارية كافية بدرجة احداث نوبات تشنجية Convulsions Fits فى الاشخاص السابق تهيئتهم لذلك ، كما أن بعض الاشخاص يمكن حثهم على الرقص على هذه النغمات الرتيبة حتى يصلوا الى درجة الانهيار ، وفضلا عن هذا فانه من الاسهل ارباك تنظيم الوظيفة العادية للمخ عن طريق مهاجمته فى وقت واحد بعدة أنغام قوية تطلق على سرعات موسيقية مختلفة ، ويؤدى هذا الى توقف وقائى للمخ » •

ولقد استعملت المجتمعات البدائية الاجتماعات الطائفية المنتظمة حيث يتسنى اثارة الانفعالات بواسطة الرقص ودقات الدفوف ، وذلك للمساعدة فى الاحتفاظ بالمعتقدات الدينية ، ولتثبيت الميول الدينية التى سبق غرسها ، ومن الممكن أن تستمر الاستثارة حتى يحل التعب والاعياء ، وهنا يصبح الرئيس أو الزعيم اكثر قدرة على غرس المعتقدات أو تقويتها فى أثناء وجود حالة مصطنعة من حالات زيادة القابلية للايحاء ، ومن المحتمل أن يكون زنوج غرب افريقية قد نقلوا معهم مثل هذه الاساليب الى أمريكا ، فقد لاحظ سارجنت سنة ١٩٤٧ م أثناء الصلوات العديدة التى كانت تقام فى امسيات أيام الآحاد فى كنيسة صغيرة من كنائس الزنوج بمدينة ورهام بولاية كارولينا الشمالية أن الجمع كان يلقى التشجيع

للقيـام برقصـــات منفردة على تصفيق الايدى ، أو على دقات الرق المرتفعـة المتوافقة النغم ، وكان الرقص متبـاين الصور عنيفا ، وقد تصيب الجمع حالة من حـالات الغيبوبة ، ومع ذلك يسـتمرون فى الرقص ويكررون باســتمرار قول « الله خـير » أو « الشـكر لله على كل شيء فعـله من أجلنـا » ، وبعـد أن يطلقوا كل ما كانت تعج به صـدورهم من انفعـالات ويعتريهم الاعيـاء من جراء ســاعات طويلة من الرقص والاستسـلام لله وعرفان جميـله الذى يقوى بالايحـاء ، يعـود الزنوج ثانيـة وهم فى حالة انشراح ليعيشـوا لفترة اسـبوع آخر فى بيـوتهم المكتظة وهم منبـوذون متجـاهلون من المجتمع الابيض ٠

على أن القـدر المطلوب من التثبيت لغرس الآنمـاط الجـديدة فى التفكير والسلوك لابد أن يعتمد على النوع المعين من أنواع الجهـاز العصبى العـالى ، وكذلك على الأساليب المستعملة ٠

ولم تصبح الوســائل المختلفـة المطلوبة لتحـويل الاشــخاص ذوى الانماط المزاجية المختلفة موضـوعا للبحث المسـتفيض ، ولكن من الجـائز أن تبرز بعض الحقــائق المعينـــة ، فمثـــلا يبـدو من السـهل السـيطرة على الشـخص الانبسـاطى وكسـبه والاحتفاظ برسـوخ انماطه الجديدة بوسـائل الاســتثارة البدائيـة غير المحــددة على شرط أن يتمخض عن اثارة انفعــالية قوية مسـتمرة متكررة ، اما الشـخص الانطوائى فقـد يكون قليل الاسـتجابة لمثل هذه الوسـيلة ، وحينئذ تظهر الحاجـة الى اسـتعمال الارهاق البـدنى والضغط الفردى المتنـاهى فى الشـدة لتغيير سلوكه ، وفى اثنـاء فترة المتابعة لابد من التثبيت المتـكرر والشرح الدقيق ، على أن المصــابين بلوثة عقلية الذين تعلموا بصفـة عامة القليل من تدريبـاتهم الاولى البيئيـة ، والـذين

تبين موجات عقولهم الكهربية عدم نضوج ملحوظ بالنسبة لاعمارهم ، كان من العسير جدا تكييفهم كما سبق شرح ذلك ٠

وقد يكون من المناسب هنا أن نشير الى أن الناس حينما يتأثرون بدرجة عميقة بدقات الطبول والنغم لا يحدث ذلك نتيجة التأثير الآلى فحسب ، بل بسبب أنهم فى جانب من داخلية أنفسهم يعتقدون بالمذهب أو العقيدة التى تكون دقات الطبول والغناء الوحشى الرتيب دليلا عليها ورمزا لها ، ثم لانهم يسمحون لانفسهم بأن يتحولوا ، أو أن يندمجوا ، فى حالة الخبل والمس ، وهذا بلا شك هو غرضهم من حضور مثل هذه الاجتماعات ٠

* * *

والآن يجب أن نتحول الى الرأى الثانى لهكسلى والذى يشير الى وسائل الاعلام الجماهيرية ٠ لقد كان هتلر الذى يقال عنه : انه كان اعظم طغوائى فى العصر الحديث يسيطر سيطرة كاملة على كل وسائل الاعلام وكان بالاضافة الى هذا يواجه ملايين الناس الذين كانوا يقفون على حافة الثورة ، واستطاع هتلر أن يحول الميزان لصالح الفاشية لا الشيوعية ، ويرجع هذا بدرجة كبيرة الى أنه قد قدم للناس كل ما كانوا يريدونه ٠

والواقع أن هتلر لم يكن له من تأثير فيما عدا ما كان له على الالمان السابق اعدادهم وتهيئتهم ، وكذا الاقليات الالمانية فى البلاد الاخرى ٠

* * *

وحينمـا ينتقـد الغرب حالة الهسـتيريا الجماعية فى المانيـا الهتلرية ، فانهم يتناسـون تاريخهم القديم ، ذلك لانه لا يوجد فى القرون الاخيرة ما يمكن حتى أن يصـل الى مرتبـة تقرب من مظاهر الهسـتيريا الجماعية التى وضحت فى العصـور الوسطى من هستيريا الصليبيين واطفالهم الى هوس الراقصين الذين يجلدون أنفسـهم بالسـياط ، ودون اسـتخدام : الراديو ، والموسـيقى العازفة ، وأجهزة الارسـال ، ومكبرات الصـوت ـ استطاع بطرس المتعبد Peter The Hermit بتجواله على ظهر بغله متـدثرا فى قميص من الصـوف الخشن ـ ان يثير موجـة من الهستيريا اكتسحت أغلب أرض أوروبا ، ثم أثار بمعاونة البابا « أربان » الثانى حربا ضد غير المؤمنين ٠

وكان الناس يتقاطرون زرافات ووحدانا لسماع وعظه فى كل مكان حل فيـه ٠

ولقد كتب تشارلس ميلز مؤرخ الصليبيين :

« ولقد اعترف بان دعوة السماء أكثر الزاما من اى مطالبة للانسـان ، وأعلن : القتلة ، والزناة ، واللصـوص ، والقرصـان اعتزامهم ان ينفضـوا أيديهم من آثامهم ، وأن يغسـلوا ذنوبهم فى دماء غير المؤمنين ، وهكـذا تجمع الملايين من القديسـين ، والمخطئين المسـلحين وأعـدوا أنفسـهم ليخوضـوا معركة الرب » ٠

ولقد قام الحجاج بأعمـال السلب والنهب على نطـاق واسـع فى تقـدمهم على طول حوض الدانوب عبر أرض المجر ، ثم فى طريقهم الى سـاحل البحر عند القسطنطينية ٠ وخلفوا وراءهم فى كل مكان مروا به آثار : السلب ، والنهب ، والاختطاف ، والاغتصـاب ٠

ويقـال أن البـابا قد قال لهـم : « اذبحـوا الجميـع وسـيعرف الرب مسئوليته ... » .

وعندما استمر بطرس فى مسيرته الكبرى تبعه أربعون ألفا من : الرجال ، والنسـاء ، والأطفـال ، ومع أنه قيـل : ان هؤلاء جيش الفـلاحين الا أنه لم يكن هناك جيشا بمعنى الكلمـة .

ولقـد ركب فى الحشـد عدد قليـل من الأشراف بخدمهم وسـار بعض النـاس المسلحين على أقدامهم ، وجلست بعض النسـاء من طرقات باريس على عربات نقل العفش ، وتجمهر حـول هؤلاء أناس معدمون ضائعون ، وفى خضم هـذه الحشـود كان يسـير : رهبان مزيفون ، ومنشدو الترانيم والتشنجات ، والنشالون .

وانتشرت الشائعات الكثيرة عن رؤية علامات غريبة تثـير الذهول ، فقد رؤيت نجـوم تسـقط مشـتعلة من السـماء المظلمة ، ولمع سـيف مضىء فى السـماء يشـير الى المدينـة المقدسـة ، وانتشرت الأنباء عن سـقوط جحافل الجـراد على كروم الأتراك الـكفرة ، وفى « مالفيـل(١) » ذبح سـبعمائة من المجرمين ، أو اخذوا أسرى .

لقد أطلق الصليبيون لأنفسهم كل نوع من أنواع : الفسق ، والخلاعة ، والخشـونة ، والفظـاعة ولم تنجح من هـذا المرافق العـامة ، ولا الممتلكات الخـاصة ، ولم يكن حيـاء العذراء وقاية لصاحبته ، ولم تكن الفضـيلة مانعا وحصنـا ، وتعهـدوا بأن يفعلوا مثـل هذا للأتراك .

---

(١) Malleville من المدن القديمة فى حوض الدانوب .

ولقـد بدأت دعوة الأطفـال الصليبيين سـنة ١٢١٢ م بوسـاطة صبي فرنسي يعمل فى رعى الأغنام اسمه ايتين رأى فى نومه حلما بأن المسيح ـ عليه السلام ـ قد عينه سفيرا له للاعداد للحجيج الى الارض المقدسة حتى يستعيد القبر المقدس من غير المؤمنين ، وقد انضم اليه أثنـاء سيره عبر فرنسـا آلاف الصبيان والفتيات البعض يحملون أسـلحة ، والبعض يحملون الصلبـان ، وبانتشار هذا الجنون فى البلاد لم يستطع الآباء أن يسيطروا على أطفالهم الذين كانوا يتابعون الصراخ حتى يسمح لهم بالمسير أو يهربون ليلا متدثرين بالظلام على الطريق الى مرسـيليا حيث ظنوا أن البحر سوف يفسح لهم طريقـا بأمر ايتين ، ولكن لم يحدث هـذا ٠

فقـد ركبـوا سـبع سفن غرقت منهـا اثنتـان بكل ما كان عليهـا من الصبيـان والفتيـات ، على حين سـارت السـفن الخمس الأخرى بمـا عليهـا من الصبيـان والفتيات وقد بيع الجميع فى أسواق الرقيق ٠٠

وقد حدثت دعوة أخرى للصبيـان الصليبيين فى أيرفورت Erfurt (١) سـنة ١٢٣٧ م ، وحدثت آخر دعوة لهؤلاء الصبيان فى فرنسا سنة ١٤٥٨ م بعد قرابة قرنين ونصف القرن من الدعوة الأولى ٠

وبالطبع يمكن أن يناقش الأمر على أسـاس أن كل الحروب صور من الهستيريا الجمـاهيرية ولكن هـذا يكون حديثا تصوريا مجازيا ذلك لأن الحرب تكون قليلة الأثر والنتـائج ما لم تنفـذ تبعا لتخطيط طويل دقيـق ، وحتى تطرفات هتلر كانت تتم تبعـا لتخطيط دقيـق معنى به ٠

* * *

---

(١) مدينة المانية فى اقليم ساكسونيا ٠

ولـكن الحـالات التى كنـا نناقشهـا كانت كلهـا فى الواقع الوانا من هسـتيريا الغوغاء الدهمـاء ومع هـذا فلهـا قاعدتهـا الاقتصـادية والسياسية ذلك لأنه من الواضح أن الحمـلات الصـليبية كانت فى ذلك الوقت البعيـد مرحلة من مراحل الاتسـاع والامتداد السـياسى والاقتصـادى لغرب أوروبا ، وكانت الفصل الخاص بالعصر الوسـيط فى تاريخ الامبريالية •

والواقع اننا اذا نظرنا : الى التاريخ القديم ، أو الى التـاريخ الحديث ـ لوجدنا أثرا هنا وهناك للدعاية يدل على وجودها وعلى فعاليتهـا ، فقـد كان قيصر روما يستعمل التنبؤات الفلكية ليحـدد بهـا أعمـاله ، وينشر ذلك على النـاس جميعا ، ومثله فعل هتلر اذ كان يسـتغل التنبؤات الفلكيـة ليقنع البريطانيين بحتمية انتصـاره عليهم ، كمـا أن ذكر اعـلان الاسـتقلال بعـد الحرب الامريكية الأهلية للأضرار التى ألمت بالشـعب دليـل على أن للـدعاية هدفهـا الذى تسعى من أجله •

ولكن : الزمن ، وتقـدم العـلوم واسهـامه فى التطور الكبير لوسـائل الاعلام ، وتغير الفلسـفات ، وتغير النظريات الاقتصـادية ـ قد أدت الى وجود تغير فى الدعاية أيضـا •

وزادت أهميتهـا عندما أصبحت الحرب شـاملة ولما كانت القوات المحاربة تسعى لاضعاف الروح المعنوية للـعدو للتأثير على مقاومته فى الصراع القـائم ، فان الدعاية تسعى الى تحطيم هـذه الروح المعنوية واضعافها ، كمـا تهـدف الى تقـوية الروح المعنوية لدى جيش بلادها ، ولدى المدنيين من أبنـاء شعبهـا حتى تكون سـندا كبيرا للاستمرار فى الحرب حتى النصر •

وكما قلنا فقد أدى تقدم العلوم ، وتقدم الوسائل الفنية الى اظهار الحاجة الملحة للدعاية ، والى التنوير بفائدة الدعاية وفعاليتها ، كما ادى تقدم العلوم أيضا الى خلق سبل جديدة وأفاق حديثة استطاعت الدعاية عن طريقها أن تحقق الكثير • ولما كانت الدعاية تتفاعل مع فلسفة اجتماعبة وسياسية تضمن للانسان العادى كيانه المستقل ، فقد نتج عنها تركيز على التعليم بحيث وضع هذا التعليم رجل الشارع فى متناول رجل الدعاية وبحيث تصل رسالته اليه سواء كانت رسالة : شفوية ، أو مطبوعة ، أو أليكترونية •

وأكثر من ذلك ، فقد ادى تقدم العلوم الى تكاثر وسائل الدعاية وتطورها ، فوجود دعاية ناجحة احتاج الى وجود دعاية مضادة ناجحة أيضا ، وادى هذا التسابق ، وهذا التنافس الى وجود المزيد من الوسائل ، وادخال التحسينات والتعديلات على الوسائل المعروفة •

ومن هنا يمكن القول : ان الدعاية وجدت قديما وحديثا ولكنها اليوم اكثر وضوحا وأهمية مما كانت عليه في الماضى ، فقد اتسعت الجماهير وازداد تعقد الحياة ، وتشابك مظاهرها ، وتعددت كذلك أساليب تشكيل الرأى العام وتعديله وتغيير اتجاهاته ، وقد اصبح للدعاية من الاهمية ما جعل علماء الاجتماع يدرسون اثرها على المجتمعات •

* * *

وقد يبدو لنا أن نتساءل ؟

هل هناك علم أو فن يمكن ان نسميه علم الدعاية أو فنها ؟ ان هناك قوائم لا حصر لها لمبادىء الدعاية وتعميمات حولها • وقد قدم هذه المبادىء وتلك

التعميمات عدد من : الزعماء والمفكرين السياسيين والعسكريين ، وعدد من رجال الأعمال ، وأساتذة الجامعات ، وخبراء الاعلان ، وعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، وكل شخص حاول جهده لجذب أذهان الناس وتوجيه سلوكهم ٠

وتوجد صعوبات جمة في طريقة تنمية الأسس الهامة لاستراتيجية الدعاية وتكتيكاتها ٠ ان رجال الدعاية أناس يعملون دائما فى عجلة لاقناع الناس بما يريدون أن يقنعوهم به ، ويهتم هؤلاء الناس بما يريدون ، ولكنهم لا يهتمون بفهم مبادىء هذا الاقناع وطرقه ٠

كمـا أن الذين يعبرون عن استعدادهم لاستنباط المبـادىء من المواقف المختلفة هم أناس عمليـون لا يهتمـون بالبحث والتدقيـق بقدر ما يهتمـون بالعمليات نفسها ٠

وتجد في نفس الوقت أن هؤلاء لا يهتمون بجمع المعلومات التى تساعدهم على الخروج من المواقف المختلفة بمبادىء سليمة يمكن الاعتماد عليها ، وتكون نتيجة ذلك آن الاشخاص الذين يهتمون بالتحليل والبحث يجمعون معلوماتهم ممن يقومون بأعمال الدعاية الذين يعملون بالخبرة والمران لا بالبحث ، وتكون النتيجة أن المعلومات التى يحصل عليها الباحثون معلومات واردة من أشخاص لم يبنـوا هذه المعلومات على بحث وتدقيق ، وبهـذا تكون المعلومات غير مبنيـة على أساس علمى ٠

* * *

والى جانب ذلك فان عمليـة تحليـل الدعاية لم تصبح مهنـة يعـترف بها الناس ولها ميدان خاص بها ٠ ان لدى بعض الهيئـات وسـائل للدعاية

او الحرب النفسية ، ولكن محلل الدعاية يحاول التخصص فى ميدان واحد قد يتصل : بالصحافة مثلا ، او الاحصائيات ، او الاذاعة ، الخ ... وتكون نتيجة ذلك ان يكتسب المحلل نظرة واهتمامات محـددة ذات نوع معين . ولعل من الصعوبات الـكبرى التى تعترض اقامة الدعاية على اسس علمية وجعلهـا من العلوم المستقلة هى صعوبة الحصول على بيانات ومعلومات ، وكذا تعقـد هذه المعلومات ان وجـدت ، وصعوبة القياس واجراء التجارب ، والحيرة التى يقـع فيها الباحث عندما يحـاول تقييم كفاية الوسائل الفنية للدعاية ، وكذلك : نقص الألفاظ الفنية المتفق عليها فى هذا الميـدان ، ونقص المسـتويات التى يمكن أن يقاس بهـا فعالية الدعاية ، وكذلك نجـد أن المحلل نفسـه هو من ضمن الصعوبات الهـامة ، فهـو فى حـد ذاته نتاج دعاية معينـة ، وهو فى تحليله يكون واقعا بالضرورة تحت تأثير ضغوط اجتماعية وغير اجتماعيـة .

هذه العقبات تقف فى طريق تنمية تحليل الدعاية وجعلها من العـلوم المستقلة بذاتها ، وهى بالتالى عقبات تقف فى طريق نمو العلوم الاجتماعية .

* * *

ان النقطة الأولى فى استراتيجية الدعاية هى الاعتقاد بأن الدعاية اللفظية ما هى الا واحدة من مجموعة من الوسـائل التى تستخدم للوصول الى هـدف معين ، وان الوســائل يجب ربطهـا بغيرها من الوسـائل المستعملة فى هـذا الميـــدان .

ومن الواضـح أن استراتيجيـــة الدعاية تتـــداخل تداخـلا كاملا فى الاستراتيجية الـكبرى التى تسـتخدم للوصـول الى غرض أو لتحقيق هـدف معـين . ولـكن كيف يمكننا أن نضـع هـذه الاستراتيجية . ما الأمور التى يجب أن تحتوى عليهـا ؟ هذه أسئلة يجب أن يجيب عليهـا واضعوا السياسـة قبل البدء فى وضع استراتيجية الدعاية .

وترتبط الاستراتيجية فى الدعاية بجميع الاعتبارات التكتيكية .
ويفرق هانز سباير Hans Speier بين الدعاية الاستراتيجية والتكتيكية فيقول : « ان الدعاية التكتيكية توجه أولا ضد جنود العدو وبقصد تاييد العمليات العسكرية فى ميدان القتال . أما الدعاية الاستراتيجية فهى توجه أولا ضد المدنيين من الأعداء ، وكذلك الى جنود الأعداء الذين يوجدون خلف الجبهة » .

ويقول لينبارجر Paul Linebarger : « أن التفرقة التى يفرق فيها بين هذين النوعين من الدعاية مبنى على أساس الناس الذين توجه اليهم الدعاية وكذا على الزمن والغرض » ، ويعود فيقول : « أن الدعاية الاستراتيجية توجه ضد قوات العدو وشعب العدو ، وكذلك ضد المناطق التى يحتلها العدو ، وتكون هذه الدعاية جزءا لا يتجزأ من التخطيط للاستراتيجية الكبرى الذى يهدف الى تحقيق اهداف مخططة لفترة معينة ، أما الدعاية التكتيكية فهى توجه ضد مجموعة معينة ، وتعد هذه الدعاية وتنفذ لتاييد العمليات الحربية المحلية » .

ونشير هنا الى التفرقة التى كتبها كارل فون كلوزفيتز Karl Von Clausewitz بين : التكتيك ، والاستراتيجية وهى التفرقة الكلاسيكية حيث قال : « ان التكتيكات هى عملية تنظيم عملية عسكرية واحدة معينة والقيام بها . أما الاستراتيجية فهى مجموع هذه العمليات العسكرية الفردية وضم بعضها الى البعض للوصول الى غرض معين من أغراض الحرب .

* * *

ولنعد الآن الى عملية التكيف والتحول لنوضح عدة نقاط هامة ·
وأهم هذه النقاط ضرورة الحاجة الى تنويع أساليب التكيف ووسائله طبقا للانماط المزاجية المختلفة ، والتى يمكن ملاحظتها بشكل واضح من دراسة اثر احكام السجون على الأنماط المزاجية المختلفة ، ففى اغلب حالات الأشخاص العاديين القابلين للايحاء او الذين يتقبلون الايحاء بقدر معقول ، نجد أن التهديد بالسجن بما ينطوى عليه من زجر اجتماعى يعتبر رادعا كافيا ضد الجريمة ، وأن تجربة واحدة من تجارب السجن سوف تنهى فى الحال حياة الاجرام بالنسبة لثلاثة ارباع المجرمين الذين لم يرتدعوا بهذا الشكل ، ولكن هناك مشكلة عويصة لهؤلاء المتخلفين عقليا الذين لا يمكن تغيير انماط نشاطهم العقلى الشاذ بواسطة السجن مهما كانت عنيفة أو قاسية ·

ومن الواضح جدا ان الحاجة ملحة لبحث أكثر استفاضة للكثير من هذه الأمور · لقد شاهدنا نوع الاساليب المثيرة التى استخدمت فى كل من المجتمعات البدائية والمجتمعات الراقية لزيادة القابلية الجماعية للايحاء ، وبذلك يحتفظ بنمط مشترك من العقيدة ، وأكثر من ذلك لكى يبشر بعض الافراد بمعتقدات جديدة تماما ، كما شاهدنا كذلك أن الأفراد يتعاونون فى ردود فعلهم تجاه هذه الأساليب ، وانه اذا كانت هناك رغبة فى تعريضهم لعملية تحول شاملة دينيا او سياسيا ، ثم تثبيت المعتقدات الجديدة ، فان هذا الأسلوب يتطلب تعديلا فى حالات كثيرة ·

ولذا فان الابحاث المستمرة الخاصة باساليب الاستثارة الجماعية مطلوبة لمعرفة الى أى مدى نجد لدى بعض الافراد مناعة ضدها ، ومن الواضح أنه كثيرا ما يحدث ان يظهر كثيرون وقد تاثروا ، ولكنهم يتبعون طريقة السلوك التى تسلكها الغالبية من باب المجاراة لا بسبب الاقتناع ، ونحن

فى حاجة الى أن نعرف أكثر مما نعرف عن ردود الفعل المختلفة تجاه أساليب التبشير التى تستعمل مع أشخاص مسجونين سجنا انفراديا ، أو موضوعين فى طوائف منتخبة بقصد اعادة توجيههم وتصبح المشكلة الفسيولوجية أكثر تعقيدا بسبب ادراك أن الأنواع المزاجية فى كل من الانسان والحيوان نادرا ما تكون واحدة تماما .

* * *

لقد وجد بافلوف أن الكثير من كلابه كانت عبارة عن خليط من الأمزجة الأربعة الأساسية ، ويبدو أن نفس الشىء صحيح فى مملكة الانسان . وفى الثقافات البدائية ، حيث الحياة المتواضعة وعملية التكيف عنيفة ، فان الناس من المحتمل أن يقننوا مزاجيا بطريقة أسهل من تقنينهم فى المجتمعات المتحضرة ، وعلى ذلك يمكن تنظيمهم باساليب اقل تنوعا ، وكلما ارتفعت الحضارة زاد كما يبدو عدد الاشخاص : العاديين القلقين ، والهستيريين ، والمرضى بانفصام الشخصية ، والمكتئبين بشكل يساعد المجتمع على تحملهم ، ويبدو أن الواجب يقتضى استعمال وسائل أكثر من العلاجات المتباينة للجماعات والأفراد لشفاء عدد أكبر من الأمزجة المختلفة للشخصيات ، ولكن لم يتوفر حتى الآن معلومات معينة عن هذه النقطة ، وقد يكون من الصحيح كما يقول الدس هكسلى : « ان كل ما يمكننا فى الوقت الحاضر أن نتنبأ به ونحن مطمئنون ـ هو أنه اذا تعرضنا لفترة طويلة كافية لدقات الطبول والأناشيد ، فان كل فيلسوف من فلاسفتنا سوف ينتهى الى الصياح والعواء مع المتوحشين ، ولكننا نعرف كذلك أن هناك فلاسفة من السهل تحويلهم الى أنماط سلوكية متغيرة ومعتقدات جديدة بوسائل : الصلوات المنفردة ، والصيام ، أو حتى باستعمال العقاقير مثل المسكالين .

ومع ذلك فقد وجد بافلوف أنه عندما يصاب الجهاز العصبى العالى فى الحيوانات بتوترات يكون احتمالهـا فوق طاقتهـا بتطبيق ألوان مختلفـة من الضغوط تفوق تحمل المخ فانه يحـدث نوع من التوقف الشامل فى النهـاية فى جميع الأنماط المزاجية ، وقد يحدث هذا فى الأنواع الأقوى فقط بعد فترة طويلة الاضطراب ، بينـما قد يحـدث بشـكل أسرع فى الانواع الضعيفـة المكبوتة ، وعلى ذلك يبدو أن هناك مسالك مشتركة نهائية لابد من أن تسـير فيها كل الأنواع من الحيوانات على الرغم من استجابتها المزاجية الأولى للتوترات المفروضة والتى تختلف اختلافا بينا ، ومن المحتمل أن يحدث نفس الشيء فى الكائنات البشرية ، واذا حدث فقد يسـاعد ذلك على تفسـير السبب فى أن الطبول المثيرة ، والرقص ، والحركات البدنية المستمرة تستعمل كثـيرا فى مثل هذا العـدد من الطوائف الدينية البدائيـة ، والجهود والاضطرابات التى تجعـل الرقص يسـتمر ويزيد لسـاعات متعـددة يجب أن تكون منهكـة ، وغالبا ما يخضع للرقص أقوى الأمزجة وأقساها عنادا .

* * *

واظهرت الحرب الحديثة كذلك أن تجربة الحرب العقلية بكل ما فيها من : جلبـة ، واستثارة ، وخوف ، ونقص فى الوزن ، وعدم النوم ـ تنتهى بالانهيار فى جميع الأنماط المزاجية . وعلى الرغم من أن صـورة الانهيـار « العصبى » المبكر قد تختلف ، فان الظاهرة النهائية لتوقف المـخ من جراء الاعيـاء من الحرب التى جاء لهـا وصف جيد بقلم سوانك والكثيرين غيره تستمر فى حالة أغلب الانماط الاخرى من النـاس ، وعلى ذلك اذا فهمنـا القواعد الفسيولوجية الناجحة مرة واحدة فانه يصبح من الممكن أن نصل الى نفس الانسان ، ونحوله ونحافظ على اعتقاده الجديد بمجموعة من التوترات المتباينة المفروضة ، التى

تنتهى بتغيير وظيفة المخ بطريقة واحدة ، ومع ذلك فانه يمكن لبعض الأفراد أن يظهروا عنادا غير متوقع ازاء أساليب صحيحة جدا : ففي كارولينا الشمالية حضر رجل بدين صلوات الاحياء الديني ، وتضمنت الصلوات رقصا وانشادا واستثارة جماعية تحدث تفريغا انفعاليا كل يوم أحد ولمدة تسع سنوات ، على أمل كسب تجربة التحول الديني المفاجيء ، وكذلك الخلاص الذى كسبه زملاؤه بنفس الأساليب فعلا ، وحتى تلك اللحظة لم يكن قد نال الخلاص على الرغم من كل جهوده ، ولكنه لم يفقد الأمل ، ومن المحتمل أنه كان من ذوى الأمزجة المكبوتة مثلما وجد بافلوف أن من الممكن اثارتها في الحيوانات فقط عندما أضاف الاعياء الفسيولوجي أو لجأ الى فرض توترات أخرى .

* * *

ويمكننا أن نتساءل الآن : الى اى مدى يمكن أن نحافظ على تماسك عقلنا ؟ وهل هناك من سبيل لمنع التحولات السياسية والدينية أو غسيل المخ ؟ .

لقد أكدت التجارب صعوبة احداث الانهيار العصبى فى الحيوان الذى لا يتعاون مع من يجرى عليه التجربة ، وذلك بمقارنتها بالسهولة التى يتم بها الانهيار العصبى فى أولئك الذين يحاولون تقبل تنفيذ المهام التى توكل اليهم ، فعندما يرفض كلب يعتاد أن يوجه أى انتباه للأضواء المبهرة وعلامات التغذية الاخرى التي يقصد بها تكييفه فان مخه يبقى بعيدا عن التأثر ، وعلى ذلك درج بافلوف على احضار كلابه الى المعمل وهى فى حالة جوع على أمل أن يركز انتباهها على علامات يمكن أن يليها تقديم الطعام ، والكائنات البشرية مثل الكلاب تستطيع ألا تنهار عصبيا اذا رفضت ببساطة مواجهة مشكلة او مهمة تعرض عليها ، فكل من يرفض التعاون مع اى وسيلة من

وسائل التحول الدينى او غسيل المخ نجده بدلا من الانتباه الى المحقق او الواعظ يحاول ان يركز ذهنه على مشكلة أخرى مختلفة تماما ، ومن ثم يثبت أطول من الجميع ٠

لقد قيد الكولونيل ر٠ هـ٠ ستيفنس R. H. Stevens الذى اوقعه الجستابو فى كمين سنة ١٩٤٠ م بينما كان يؤدى واجباته فى هولندا ، بالسلاسل الى جانب حائط الزنزانة فى سجنه الالمانى مثل الكلب لمدة سنتين كاملتين فى محاولة لتحطيم روحه المعنوية ، ولقد وجد من المفيد له ان يركز ذاكرته على مهمة اعادة بناء منزل طفولته حجرة حجرة بأدق التفاصيل كالوحدات الزخرفية على الستائر وزركشة المدفأة والكتب التى سيضيفها فى المكتبة ، وقد ساعده السير على هذا النهج ليس فقط على الثبات طوال مدته التى كان مقيدا فيها بالاغلال الى جوار الحائط فى سجن انفرادى ، ولكن كذلك على الثبات ثلاث سنوات اخرى فى معسكرات الاعتقال ٠

ولقد قال طبيب شرعى مرموق فى حديث غير رسمى عن ملاحظته فى عمله أثناء السنوات العشرين الأخيرة « لو أن المتهمين عندما يستجوبهم رجال الشرطة لا يجيبون الا على الأسئلة التى تقدم اليهم مكتوبة وعن طريق دفاعهم ، ولا يجيبون على أى شىء آخر وهو أمر لا يتعدى حقهم الشرعى ، فانه لن تكون هناك أية اتهامات من جانب رجال الشرطة سوى القليل » وقد عرف المحامون لفترة طويلة كيف أن الصعوبة تكون اعظم بكثير فى ادانة اى انسان لا يمكن اقناعه بالكلام ، ومع ذلك فان عددا كبيرا بل اكبر مما ينبغى ومن الذين يلتزمون بالقانون حتى عندما يكونون مذنبين يقومون بسهولة بتوقيع أكثر الاعترافات ضررا لهم وبمحض اختيارهم بسبب وجود لهفة مبدئية على التعاون مع رجل الشرطة ٠

وتعتبر درجة التعـاون أو التجـارب الفسيولوجى التى يمكن أن تتم بين محقق « البوليس » والمواطن الذى يجرى اســتجوابه ، أو بين الواعــظ الدينى ومن يعظهم ، والمتحدث السياسي ومستمعيه ـ حيوية بالنسبة للمشكلة ، وكل من يمكن اثارة الغضب أو الخوف منــه بواسطة رجل السياســة ، أو الواعظ ، أو رجل الشرطة ينقاد بسهولة أكثر الى تقبل النمط المطلوب من التعـاون حتى ولو كان من شان هذا أن يخـالف حكمه فى الظروف العادية ، والعقبات التى يستطيع الساعون الى الانصار السياسيين او الدينيين التغلب عليها هى عـدم المبالاة او التسلية المستمرة وعـدم المبالاة من جانب الانســان ازاء الجهود التى تبذل : لجعله ينهار ، أو كسبه الى جانبهم ، أو اغرائه بالجدل ٠

ويصف سارجنت ذلك بقوله :

« فى مصارعة الثيران توجه الجهود الأولية للمصارع ومساعديه على اثارة الثورة واغضابه واشـاعة الياس فيه لـكى يتسنى انهـاك قواه ، وبذلك يمكن جعلــه أكثر استجابة وقابلية للايحاء ، ثم يقوم مصــارع الثيران باجبــار الثور على عمــل ما هو مطلوب منــه فى المرحلة الاخـيرة وهو متــابعة حركات قطعــة النسيج الحمراء بطاعة تقرب من الغيبوبة ، والثور الجيــد الذى يحظى بتصفيق المتفرجين ، ثم يجرى ميتــا فى نهـاية الحلقــة هو الثور الذى يتعـاون ، وذلك بثورته وزيادة هجـومه الى أقصى حد ممــكن عنــدما يغريه بالنطــح فيطعن بالحراب فى عضــلات الكتف والغمزات الشائكة ، ويبقى دائما فى حركة دائبــة حتى يصــاب بالاعيــاء الانفعالى والبدنى ، ولا يوجه مصارع الثيران اليه ضربة اخيرة الا بعد أن يعجز نهائيا عن رفع رأسه ، فيوجه اليه ضربته بحربة من حرابه بين كتفيه المسترخيين ٠

« اما الثور السيىء ما لم تكن لديه عاهة فسيولوجية مثل العمى النصفى تمنعه من متابعة حركات الحربة او قطعة النسيج الحمراء فانه يرفض أن يستثار ، وعلى ذلك ينجح فى تفادى كل من الاعياء والقابلية للايحاء ، وطبقا لذلك ينبع خوف المصارع من الثور الذى لا يمكن اشاعة الخوف فيه بالوسائل التقليدية ، ويصبح عليه ان يستمر فى التفكير فى نفسه بسبب عجزه عن التنبؤ بردود فعله وعندما يقتل فى النهاية ـ وغالبا ما يحدث ذلك فانه يكون قد ارسل بمصارعه : اما الى المستشفى واما الى القبر ، واما أخرج بالامر من الحلقة بواسطة رئيس الحكام •

والثور الجيد فى الواقع هو الثور الذى يعتبر نفسه : محصنا ضد المحن التى تواجهه ، وممتلئا بالثقة فى شجاعته ، والغضب السريع فى مواجهة الاشياء التى يكرهها ، وقوته البدنية الهائلة ، وقدرته على الحرب حتى النهاية » •

* * *

ويجب على الانسان الا يسير فى هذا التشبيه الى ابعد مما يجب ، ولكنه قد يفيد هذا المثل فى تأكيد الحقيقة وهى أن بعض الناس يتحولون ضد ارادتهم لأنهم يصرون على فعل ما يعتبرونه الشىء الصحيح •

وسوف يكون من الواضح أن ضحايا غسيل المخ ، أو الاعتراف الزائف يجب أن يبذلوا قصارى جهدهم كلما أمكن فى عدم نقصان أوزانهم بسبب الهموم أو القلق ، او ان يسببوا لأنفسهم تعبا لا ضرورة له ، ويجب أن يتعلموا ان يختطفوا النوم كلما لاحت لهم الفرصة ، والاشخاص من أصحاب الامزجة

المتزنة والقوياء البنيــة الذين يتمتعون باتزان عقلي كامل ، كذلك آراء راســخة سعيدة في الحيــاة من المحتمــل أن يثبتوا مدة أطول من أولئك الذين يتمتعون بالقليل ، أو بلا شيء من ذلك .

ومن الخرافات ان الوعي الذهني بما يدور حول الانســان يمكن دائما أن يمنع الشخص من أن يكون ضــحية للتبشير ، فبمجرد أن يصــاب بالاعيــاء ، وتزداد قابليتــه للايحــاء ، او يدخــل المخ في مرحــلة التنــاقض أو التنــاقض الشديد ، فان البصيرة بل حتى معرفة ما يجوز او يحتمــل حدوثه لا يســاعد كثيرا في الوقــاية من الانهيــار ، وبعــد ذلك ســوف يوجــد لنفســه مبررات المعتقدات التي زرعت حديثــا في ذهنه ، ويدلي لاصدقائه بتفســيرات وشروح مختلفة ولو انها سخيفة للاسباب التي دفعتــه لتغيير وجهــات نظره فجــاة ، والمصابون بكآبة عقلية أو نفسية يدركون جيــدا في فترات الصفاء أنه بمجرد أن يشن هجوم جديد فانهم ســوف يفقــدون كل قــدرة على النظر بامعــان الى سخافة افكارهم المثيرة للكآبة .

وعلى المســجونين الســياسيين ان يدركوا بنفس القدر أنه بعــد احــداث شلل في وظائف المخ ، فان حكمهم العــادي المألوف ســوف يصــاب بالفساد كما انه بمجرد أن يشعروا بأنهم أصبحوا قابلين للايحاء ، عليهم ان يبــذلوا كل جهــد ممكن للتهرب من أي مؤثر اضــافي جــديد ، وفوق كل شيء عليهــم ان يتــذكروا أن الغضب يمــكن أن يــكون وســيــلة قوية لزيادة القــابلية للايحاء كالخوف والاحساس بالذنب .

* * *

واخيرا نود أن نؤكد أن الهدف الاساسى من هذا الكتاب ليس نقـد أى نظام اخلاقى أو سياسى ، فهدفه هو أن يبين كيف أن المعتقدات سـواء آكانت خيرا أم شرا ، حقيقية أم مفترضة فانه يمكن بذرها فى العقل الانسانى ، كمـا أنه من الممكن تحويل الناس الى اعتناق معتقدات تسيطر عليهم وتتنافى تمـاما مع ما كانوا يعتنقونه فيما مضى ولو الى حين ٠

أهم المراجع الأجنبية

1 - A. Kostler, Arrow in The Blue. Hamish Hamilton, London, 1952

2 - Allport G. W., Personality and Social Encounter, Beacon Press, Boston, 1964.

3 - Allport G. W. The nature of Prejudice, Doubleday and Coy; inc., New York, 1958.

4 - Argyle, M., The Scientific Study of Social Behaviour, London, 1957.

5 - B. G. Sundkler, Bantu Prophets in Africa, Lutterworth Press, London. 1948.

6 - Bronislaw Malionoviski, A Scientific Theory of Culture, New York, 1961.

7 - Brow J. A. C., Techniques of Persuation, From Propaganda to Brain Washing, Penguin Book, Cox and Wpman. Ltd, London, 1965.

8 - C. D. Lee, The Instrumental Detection of Deception. The Lie Test, Edited By V. A. Leonard Charles C. Thomas, Springfield, Illinois, 1953.

9 - Caplin M., Recent Advances in The Study of Psychoneuroses, J. and A. Churchill, London, 1931.

10 - Edward Hunter, Brain Washing Straus and Cudahy, New York, 1956.

11 - E. Jones, Sigmund Freud: Life and Work, 2 Vols, Hogarth Press, London, 1955.

12 - Eysenck, H. J., Dimensions of Personality, London 1947.

13 - Eysenck H. J. The Structure of Human Personality, London Methuen and Co. Ltd, 1953.

14 - Eysenck, H. J. Sense and Nonsense in Psychology, Richard Clay and Coy. Ltd, Bungay, Suffolk, 1958.

15 - Frazer, J. G., The Golden Bough, A Study in Magic and Religion, Macmillan, London, 1950.

16 - Freud S. Civilization and its Discontents, New York, Cape and Smith, 1930.

17 - James William, The Varieties of Religious Experiments, Fontana

18 - Joseph Jastrow, Freud, His Dream and Sex Thories, Cardinal Edition, U. S. A., 1954.

19 - Jung, Psychological Types, London, 1924.

20 - H. A. Palmer, Abreactive Techniques Ether., J. Roy Army Med. Corps, LXXIV, 1946.

21 - Henry Lichten Berger, The Third Reich, Book V, New York, 1937.

22 - Hermanin Rauschning, The Voice of Destruction, New York, 1940

23 - Hoberts S. The House That Hitler Built, New York, 1938.

24 - Huxley Aldous, The Devils of Loudun, Chatto and Windus.

25 - Inbau, F. E. and Reid J. E., Lie Detection, and Criminal Interrogation, Third Edition, Baltimore, 1953.

26 - Lee, A. M, and N. D. Humphrey, Race Riot, Dryden Press, New York, 1943.

27 - Lifton R. J.,: Thought Reform and the Psychology of Totalism, A Study of Brain Washing in China, W. W. Norton and Coy. Inc. New York, 1963.

28 - Linebarger, Paul M. A., Psychological Warfare 2nd, ed, Combat Forces Press, Washington, D. C. 1954.

29 - Lord Altrincham and I. Gilmour, The Case of Timothy Evans, Special Spectator Publication. 1956.

30 - Louba H., The Psychology of Mysticism, Kegan. Paul.

31 - Margery Perham, The Colonial Reckoning, Alfred A. Knopf, New York 1961.

32 - McDougall, W., An Outline of Abnormal Psychology, Methuen, London, 1926.

33 - M. Eddowes, The Man on Your Conscience, Cassell, London, 1955.

34 - Meerloo J. A. M., Pavlovian Strategy as a Weapon of Menticicde, Am. J. Psychiat, 1954.

35 - Miller, E., The Neuroses in War, Macmillan London, 1940.

36 - Paniel P. Mannixin Collaboration With Malcoln Cowley, Black Cargoes, The Viking Press, 1962.

37 - Pavlov, I. P., Conditioned Reflexes, Oxford, 1927.

38 - Pavlov, I. P., Lectures on Conditioned Reflexes, The Higher Nervous Activity (Behaviour) of animals Vol. 1, Translated by Horsley Gantt, Lewrence and Wishart London, 1928.

39 - Pavlov, I. P. Lectures on conditioned Reflexes, Vol 12, conditioned reflexes and Psychiatry. (Eng. trans.) London 1941.

40 - Rabindrananth. Tagore, Nationalism, The Macmillan Coy, New York, 1917.

41 - Rattenbury, J. E. The Conversion of Wesley, Epworth Press, London 1938.

42 - Rupert Emerson, Colonialism Yesterday and Today, New Nations in a Divided World, Kurt Lond (Ed.), Frederick A., Praeger, New York, 1963.

43 - R. R. Grinker and J. P. Spiegel, War Neuroses in North Africa, The Tunisian Campaign, (January May, 1943) Jr. Foundation, New York, 1943.

44 - Shorvons, H. J., Abreaction, Proc. Roy. Soc. Med., XLVI, 1953

45 - Thomas Patric Melady, The Revolution of Color, Hawthorn Books, Inc. Publishers, New York, 1966.

46 - Thouless, R. H., «General and Social Psychology» 4th ed University Tutorial Press Ltd, Clifton House, Euston Rd, London, N. W. I, 1963.

47 - Thouless, Robert H., The Psychology of Religion, Cambridge University Press.

48 - Young K, Social Psychology, F. S. Crofts and Company, New York, 1936.

49 - W. Brown, Psychological Methods of Healing, an Introduction to Psychotherapy, University of London Press, 1938.

50 - Weitzenhofer, A. M. Hypnotism, An Objective Study in Suggestibility, New York, John Wiley and Sons Inc., 1953.

51 - William Sargant, Battle for The Mind, Richard Clay and Company Ltd., 1963.

52 - Encyclopaadia Britannica, 1961.

فهرست

الفصل الثالث : تجارب على سلوك الانسان والحيوان ٤١

الباب الثانى

الوســائل والأساليب

١١٦-٦١

الفصل الأول : أســاليب الانقــلابات الدينيــة والتحولات المذهبية ٦٣

الباب الثالث

بين العلاج النفسي وطب الأمراض العقلية

١١٧—١٧٠

الباب الرابع

وسائل الاستجواب

١٧١—٢٢٠

الباب الخامس

الصراع الأيديولوجى

الباب السادس

أسطورة العنصر

٣٢٣–٣٤٦

الباب السابع

السحر وسطوته على العقل

٣٨٤-٣٤٧

الفصل الأول : السحر وسطوته على العقل ٣٤٩

الباب الثامن

ألوان زائفة من المعتقدات

٣٨٥–٤٢٢

نتـــائج ختـــامية

تم بحمد الله




mohamed khatab


الثمن ٨٠ قرشاً